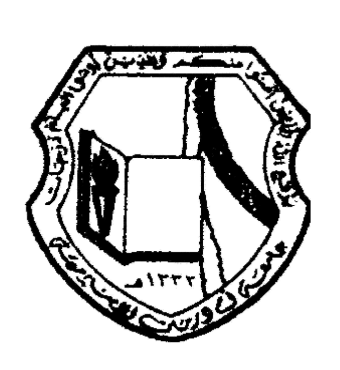


جمهورية السودان

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعـة أم درمان الإسلاميّة

كّلية الدّراسات العليا

كلية الآداب

قسم التاريخ والحضارة الإسلامية

دور التجارة في إثراء الحركة الاقتصادية في العصر العباسي الثاني المقومات والاسهامات

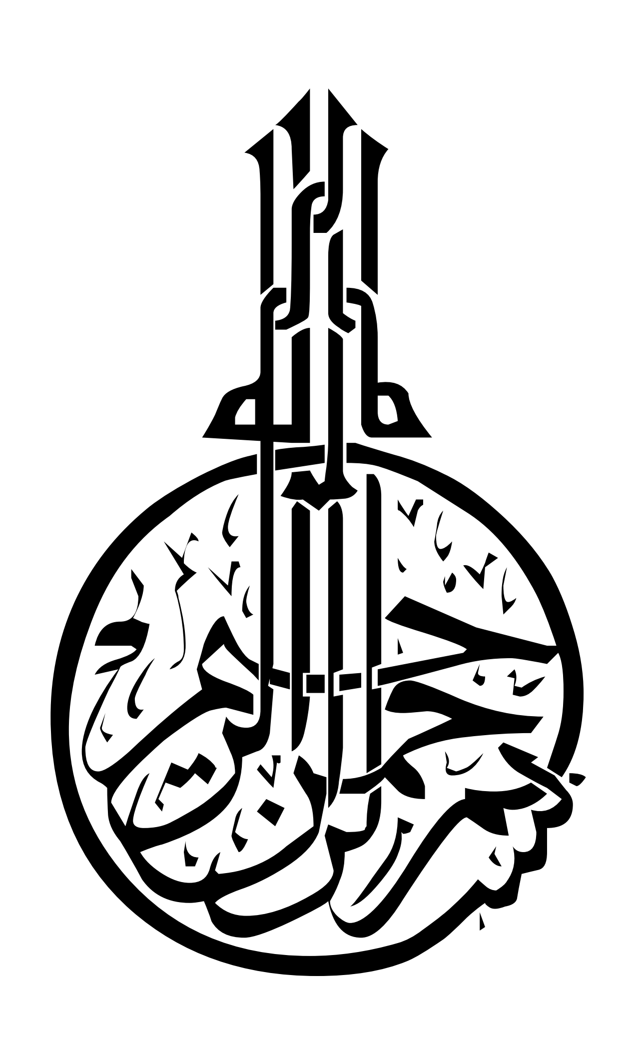
(٢٣٢-٦٥٦هـ/ ٨٤٧- ١٢٥٨م)

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه

إعداد الطالبة : صفاء حسن أحمد عوض الله .

إشراف البروفيسور : عبدالباقي محمد أحمد كبير

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م


بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾

سورة الجمعة ، الآية (١١)

فهرس الموضوعات

مستخلص باللغة العربية

نشطت تجارة الدولة العباسية في عصرها الثاني بصورة لم يسبق لها مثيل في أي وقت آخر وأخذت سفن المسلمين تجتاز حدود البلاد الإسلامية إلى الممالك الأجنبية يطلبون ما فيها من عروض التجارة فجابوا أقطار الأرض شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً مستخدمين في ذلك طرقاً برية وبحرية متعددة مما مكّن الدولة العباسية أن تحتل مركزاً متميزاً في تاريخ التجارة العالمية في تلك الفترة.

كان من شأن التوسع التجاري أن يؤدي بدوره إلى قيام علاقات تجارية واسعة بين الدولة العباسية والعالم الخارجي متمثلاً ذلك في علاقاتها مع جزيرة العرب وشرق وغرب أفريقيا وأوربا وحتى الشرق الأقصى . كما كان من شأنه أيضاً أن يؤدي إلى قيام مراكز تجارية وموانئ هامة –على سواحل البحار التي سيطر عليها المسلمون سيطرة تامة – وقد نشطت تلك الموانئ في مجال التبادل التجاري ونقل السلع بدرجة كبيرة على الرغم من أن أهميتها كانت تتأرجح تبعاً للأحداث السياسية في الدولة الإسلامية.

إن رواج التجارة العالمية في تلك الفترة وتحكم الدولة العباسية في تلك التجارة أدى إلى تدفق السلع الآتية من البلدان – القاصية والدانية – على أسواق المدن الداخلية التي انتظمت جميع أقاليم الدولة العباسية ، وهذا بدوره كان له انعكاس واضح على ظهور أساليب جديدة وعملية في مسألة التعامل المالي والتجاري في تلك الأسواق.

أسفر الازدهار التجاري في الدولة العباسية عن نتائج وآثار هامة للمجتمع في عدة جوانب ففي الجانب الديني أسهمت التجارة بنصيب وافر في نشر الإسلام في مناطق عديدة من العالم وتبع ذلك نشر اللغة العربية التي أصبحت لغة العبادة والتجارة كما شمل التغيير الجوانب الاجتماعية من حيث التغيرات التي طرأت على عادات الناس – لاسيما الخلفاء والوزراء والأمراء والأغنياء – في بناء دورهم العظيمة وأثاثاتهم الضخمة ومآكلهم المتنوعة وملابسهم الأنيقة ، كما مهدت التجارة السُبل أمام الرحالين والجغرافيين الذين أثروا المعرفة بفروعها المختلفة ، كما تأثر الجانب الثقافي في الدولة العباسية لاختلاف صور الحياة بسبب التطور المادي في ذلك العصر.

كل ذلك تناولته الدراسة في مقدمة وأربعة فصول وخاتمة ونتائج وتوصيات.

Abstract

The study examines the active trade in Abbasside state in its second epoch. Muslim ships traveled to other countries looking for trade in different parts of the world, they used land and sea routes that were available at that time.

The expansion of trade led to establishment of bilateral relations between the Abbasside state and the other parts of the world represented in creating relationship with Arab Peninsula, East, west, of Africa and Europe and for East. Thus led to the foundation of important trade centers. There were active commercial relationship and commodities transport. Despite its importance, they were affected with the state political actions.

The development of trade in terms of international trade and the control of Abbasside state on it led to the flow of commodities from distant countries to internal town markets in all regions of the state. Thus, had impact on the appearance of new practical methods concerning transactions in those markets.

The flourishment of trade in Abbasside state resulted in the appearance of significant social impact. In religious aspect, trade contributed greatly in the diffusion of Islam and Arabic language in different parts of the world. Their were comprehensive social aspects concerning peoples' habits particularly, caliphate, ministers, princes and the rich who established there grand furniture houses and. Moreover, they had various food stuff as well as neat clothing. Trade paved the way before travelers and specialist in geography who enriched various aspects of knowledge the material aspect had influenced an the cultural perspectives in Abbasside state. The study composed of on introduction, four chapters, conclusion, result and recommendations .

مقدمة

الحمد لله الذي خلق فقدر وصور فأتقن صنع البرية بلا مشير يناصره ودبرها بلا معين يعاضده أتقنها أيّ إتقان وأحكمها بلا أعوان أوتد الأرض بالراسيات لئلا تميد وأحاطها بالبحر كيلا يغلب ماؤها ويزيد وبث فيها عباده لينظر كيف يعلمون فمنهم من آمن واهتدى ومنهم من كفر وتولى، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

شهد القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) تطوراً عظيماً في التجارة العالمية بين شرقي وغربي الدولة العباسية في عصرها الثاني نشاطاً لم تبلغه من قبل ويتبين مما كتبه الرحالون والجغرافيون المعاصرون لتلك الفترة أن سفن المسلمين كانت تجوب البحار كلها وكانت قوافلهم لا تفتأ تخترق الطرق البرية المعروفة فاحتلت دار الإسلام المكان الأول في هذا الميدان.

ورغبة منا في توضيح ذلك النشاط التجاري ومقوماته وإسهاماته جاء البحث بعنوان "دور التجارة في إثراء الحركة الاقتصادية في العصر العباسي الثاني (٢٣٢-٦٥٦هـ/٨٤٧-١٢٥٨م) المقومات والإسهامات" نأمل أن يستفيد منه كل طالب علم وباحث في هذا المجال .

دواعي اختيار الموضوع :

يرجع السبب في اختيار ذلك الموضوع إلى الدولة العباسية والتي كانت من أعظم الدول التي حكمت العالم الإسلامي وأخطرها فهي دولة كثرت فضائلها في جميع مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية فأصبحت جديرة بالاهتمام.

كما يعود السبب في ذلك الاختيار إلى العصر الذي تناولته الدراسة وهو العصر العباسي الثاني ، إن من يعرف تاريخ الدولة العباسية في العصر العباسي الثاني أو يطلع على جزئية التمهيد من هذا البحث يخطر بباله سؤال هام وهو كيف استطاعت الدولة العباسية أن تحتل المركز الأول في التجارة الدولية في ذلك العصر في ظل الفتن والاضطرابات التي كانت طابع العصر؟.

فضلاً عن أن كثيراً من الكتاب القدامى والمحدثين الذين كتبوا عن الدولة العباسية في تلك الفترة ظهرت كتاباتهم بصورة واضحة في الجانب السياسي فكانت كتابات الطبري وابن الأثير سرداً للحوادث التاريخية السياسية حسب تاريخها وكذلك المحدثين أمثال محمد الخضري بك وعبدالمنعم ماجد وحسن إبراهيم حسن كانت في ذلك الجانب السياسي فأهملوا بذلك الجانب الاقتصادي الثر لهذه الدولة. وإدراكاً منا لهذا الفراغ في الدراسة الاقتصادية في الدولة العباسية على العموم والعصر العباسي الثاني على الخصوص وقع الاختيار على هذا الموضوع .

أهمية البحث :

تبرز أهمية الموضع في أنه تطرق إلى جانب تفتقر إليه مكتبة الدراسات التاريخية وهو الجانب الاقتصادي الذي أغفله الكثير من المؤرخين .

كما أن للدراسة أهمية في بيان الدور الذي قامت به التجارة في نشر الإسلام في بقاع عديدة من العالم ويتمثل ذلك بصورة واضحة وملموسة في شرق إفريقيا وغربها وفي مناطق جنوب شرقي آسيا وفي مناطق تركستان الصينية.

فضلاً عن بيان الدور الذي قامت به في تغيير ملامح الحياة الاجتماعية في العصر العباسي وما كان لها من أثر في تمهيد الطريق أمام الرحالة والجغرافيين وانعكس ذلك بصورة واضحة في كتاباتهم التي أثرت المعرفة بفروعها المختلفة .

نطاق البحث :

يتناول هذا البحث فترة زمنية مقدارها أربعة قرون وربع قرن من الزمان من سنة (٢٣٢هـ- ٦٥٦هـ) وحتى (٨٤٦- ١٢٥٨م) .

أما النطاق المكاني فإنه يشمل الدولة الإسلامية التي أقامها العباسيون بالعراق وامتدت لتشمل ما جاورها من أقاليم المشرق والشام وكذلك مصر والمغرب والأندلس.

صعوبات البحث :

تواجه الدراسات التاريخية عامة صعوبات ومن ذلك اختلاف الكتاب في نقل بعض الروايات مما يؤدي إلى صعوبة تمحيصها وتحقيقها ومما جعل الباحث في جهد جهيد بغية الوصول إلى أكثر الروايات صحة ودقة ، اعتماداً على الثقات من الكتاب.

إن مصادر هذا البحث رغم كثرتها إلا أن الباحثة واجهتها ندرة في المعلومات عن مراكز تجارية نحسبها مهمة مثل جدة وأنطاكية وطرابلس وبرقة وعمان وغيرها. وقد حاولت الباحثة بذل أقصى جهد لإدراج هذه المدن في قائمة المراكز والموانى التجارية.

الدراسات السابقة :

وضح لنا من خلال هذه الدراسة أنه لا يوجد مصدر أفرد الحديث عن التجارة في العصر العباسي الثاني، وإنما كان تطرقهم لما يخص التجارة يأتي في جملة موضوعات أخرى ، وكذلك الحال بالنسبة للمراجع فقد ورد الكلام عن التجارة فيها ضمن دراسات اقتصادية لهذه الفترة كالذي كتبه عبدالعزيز الدوري في كتابه (تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري) والذي كتبه حسن إبراهيم حسن في كتابه (تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي) وكذلك ما كتبه حمدان عبدالحميد الكبيسي في كتابه (أسواق بغداد حتى بداية العصر البويهي).

تقويم المصادر :

اعتمد البحث بدرجة كبيرة على كتابات الجغرافيين والرّحالة لاسيما التجار منهم ونحمد الله على أن أخبار هؤلاء وصلت إلينا مدونة تدويناً صحيحاً صادقاً دقيقاً .

كان من أهم هذه المصادر كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) للمقدسي المعروف بالبشاري ت (٣٨٧هـ- ٩٩٧م) أحد الذين تعاطوا التجارة وهيأت لهم المعرفة فجاء كتابه مفيداً لهذا الغرض ذكر فيه أقاليم الدولة الإسلامية وما فيها من المفاوز والبحار والبحيرات والأنهار ووصف أمصار المملكة المشهورة والطرق المسلوكة وقد أولى عناية كبيرة فيه للنواحي التجارية فكتب عن تجارات كل إقليم والمكاييل والأوزان والنقود وما إلى ذلك .

وهنـاك كتـاب (صـورة الأرض) لأبـي القاسـم محمـد بـن علـي بـن حوقـل ت(٣٦٧هـ - ٩٧٨م) الـذي رحـل كثيراً فـي الـبلاد بقصد الكسب عن طريـق التجارة فكان كتابه جامعاً للأقاليم والبلدان والجبايات والخراج والمسافات بين البلدان ويظهر في الكتاب اهتمام واضح بالنواحي الاقتصادية.

ومن كتب الرحلات الهامة (رحلة ابن جبير) للرحالة أبوالحسن محمد بن أحمد بن جبير (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م) ورحلته كتاب نفيس دّون فيه صاحبه كل ما مر به من مدن وكل ما شاهده من عجائب البلدان وصفاتها في شكل مذكرات يومية بأسلوب واضح بليغ .

أما كتاب (تحفة الأنظار في غرائب الأمصار) لشيخ الرحالين ابن بطوطة وهو أبوعبدالله محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) فهو كتاب ذو قيمة خاصة باعتبار أن رحلته كانت بعد هجوم التتر على بغداد وأمدنا فيها بوصف دقيق للمدن التي شاهدها وما حوته تلك المدن من أسواق ومدارس وحمامات وعمران. كما وصف لنا المراكز التجارية العظيمة في شرق أفريقيا وغربها ووصف حال المسلمين في دول الشرق الأقصى .

كان للموسوعات الأدبية والتاريخية حيز في هذا البحث متمثلة في كتاب (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) للقلقشندي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) كتب فيه مؤلفه عن الممالك الإسلامية وما اشتملت عليه من الفضائل والمحاسن والخواص وما بها من الآثار القديمة وعن جبالها وزروعها ومواشيها ووحوشها وطيورها فهو كتاب عظيم الفائدة.

وحيث أن سياسة الدولة لا تنفصل عن حضارتها فقد كان للمصادر التي تعرضت للتاريخ السياسي وحوادثه، نصيب في هذه الدراسة ومنها كتاب (الكامل في التاريخ) لمؤلفه أبي الحسن علي بن أبي عبدالكريم المعروف بابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) وهو كتاب قيم جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما بدأه منذ أول الزمان إلى آخر سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م فيه سرد للحوادث والأخبار حسب تواريخها.

وكذلك كتاب (تاريخ الأمم والملوك) لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٢٢٤هـ/ ٨٣١م) الذي يعتبر أوفى عمل تاريخي في مصنفات العرب، رتب فيه التاريخ الإسلامي على الحوادث من عام الهجرة حتى سنة ثلاثمائة واثنتين من الهجرة ومصادره في ذلك من كل ما سبقه من المواد التي عرفها العرب من قبله وأخذ من كل متخصص فنه .

منهج البحث :

اتبعت الباحثة المنهج الوصفي التاريخي وهو منهج نراه مناسباً لمثل هذا النوع من الدراسة ، وذلك بعد تنظيم المادة العلمية وترتيبها معتمدة فيها على المصادر الأصلية ما أمكن ذلك .

خطة البحث :

تتكون خطة البحث من مقدمة عامة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة. وضحت الباحثة في المقدمة دواعي اختيار الموضوع وأهميته وحددت نطاق البحث الزماني والمكاني. وبعد ذلك وضحت الصعوبات التي واجهت البحث وانتقلت إلى توضيح الدراسات السابقة ثم أعطت تقويماً لأهم المصادر ثم منهج البحث وخطته وكان ختام المقدمة الشكر والتقدير .

أما التمهيد فبعنوان "لمحة تاريخية عن الدولة العباسية" مشتملاً على تاريخ الدولة العباسية في عصريها الأول والثاني مع إلقاء الضوء على النشاط التجاري.

وبعد ذلك انتقلت الباحثة إلى فصول البحث فكان الفصل الأول بعنوان : "الطرق والعلاقات التجارية" وقد جاء الفصل محتوياً على مبحثين ، المبحث الأول بعنوان "طرق التجارة الخارجية" ورد الحديث فيه عن الطرق البرية والطرق البحرية والمبحث الثاني بعنوان : "العلاقات التجارية بين الدولة العباسية والعالم الخارجي" وكان محوره التجارة مع جزيرة العرب والتجارة مع شرق وغرب أفريقيا والتجارة مع أوربا ثم التجارة مع الشرق الأقصى.

أما الفصل الثاني فقد جاء بعنوان : "المراكز والموانئ والمكوس التجارية" محتوياً على ثلاثة مباحث: المبحث الأول : بعنوان : "المراكز التجارية" وهي بغداد والبصرة والفسطاط ودمشق وأنطاكية والقيروان والمبحث الثاني بعنوان : "الموانئ

التجارية" أولاً : موانئ التجارة على البحر الأحمر وهي أيلة والقلزم وعيذاب وجدة وعدن وثانياً موانئ التجارة الخارجية على البحر الأبيض المتوسط وهي الإسكندرية والفرما والمهدية وطرابلس وبرقة وثالثاً موانئ التجارة الخارجية على الخليج العربي وهي الأبلة وسيراف وعمان والمبحث الرابع بعنوان : "المكوس التجارية"

والفصل الثالث عنوانه : "الأسواق ومعاملاتها المالية والتجارية" مشتملاً على مبحثين الأول بعنوان : "أهم أسواق المدن والسلع الواردة إليها والصادرة منها" جاء الكلام فيه عن أسواق العراق وسلعها الواردة والصادرة وأسواق مصر وسلعها الواردة والصادرة وأسواق الشام وسلعها الواردة والصادرة وأسواق المغرب وسلعها الواردة والصادرة وأسواق الأندلس وسلعها الواردة والصادرة أما المبحث الثاني فهو "المعاملات المالية والتجارية" فقد ورد الحديث فيه عن النقد والصك والسفتجة والموازين والمكاييل والرقابة على الأسواق .

والفصل الرابع عنوانه : "أثر التجارة في الجوانب الحضارية للمجتمع" اشتمل على أربعة مباحث المبحث الأول بعنوان : "أثر التجارة في نشر الإسلام" والمبحث الثاني هو " أثر التجارة في الجانب الاجتماعي" والثالث تحت عنوان : "أثر التجارة في أدب الرحلة والجغرافية" أولاً : أدب الرحلة وثانياً الجغرافية ، وأخيراً المبحث الرابع وعنوانه : "أثر التجارة في الجانب الثقافي" .

شكر وتقدير :

الشكر بعد الله تعالى أتقدم به للأستاذ الدكتور عبدالباقي محمد أحمد كبير الذي تكرم بالإشراف على هذا البحث ، وقد أفادني كثيراً من علمه الغزير وكان لرحابة صدره وطول باله وجميل استقباله أثر كبير في إنجاز هذا العمل فله مني كل التقدير.

وأتقدم بشكري لعميد كلية الآداب الأستاذ الدكتور عبدالقادر عثمان الذي خفف عني عبء النصاب التدريسي رغبة في زيادة التأهيل العلمي بالقسم.

والشكر كله للزملاء بقسم التاريخ والحضارة وعلى رأسهم الدكتور السر سيدأحمد العراقي والأستاذ الدكتور عمر حاج الزاكي ، والأستاذ الدكتور محمد علي الطيب والأستاذ الدكتور عبدالفتاح كباشي وجميع الزملاء والزميلات بالقسم.

ولا يفوتني أن أتقدم بشكري لجامعتنا العملاقة جامعة أم درمان الإسلامية التي هيأت لنا أسباب البحث متمثلاً في إدارتها ومكتبتها.

وأخيراً أخص بالشكر كل من له يد في إنجاز هذا العمل ونسأل الله أن يجعله في ميزان حسناتهم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تمهـــيد

لمحة تاريخية عن الدولة العباسية

انتصر البيت العباسي على البيت الأموي وقضى على خلافته ليحل محله في منصب الخلافة وأصبحت الخلافة العباسية هي الخلافة الشرعية للمسلمين واعتبرت من كبريات الدول ووصفت بأنها "دولة كثيرة المحاسن جمة المكارم أسواق العلم فيها قائمة وبضائع الآداب فيها نافقة وشعائر الدين فيها معظمة والخيرات فيها دارة والدنيا عامرة والحرمات مرعية والثغور محصنة".[١]

لم تكن معركة الزاب* ١٣٢هـ-٧٥٠م التي انتصر فيها العباسيون على الأمويين وقضوا على دولتهم إحدى المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي وحسب ولكنها كانت ذات نتائج حاسمة بالنسبة للنظام الدولي المعروف يومئذ فالدولة الأموية استطاعت أن تجعل من الدولة الإسلامية أحد الأقطاب الهامة المتحكم في مقدرات النظام الدولي المعروف وقتئذ فكانت سياسة العالم الإسلامي تصنع بحق في مركز الخلافة الإسلامية. [٢]

لذلك يعتبر انتقال السلطة في الدولة الإسلامية من الأمويين إلى العباسيين نقطة تحول رئيسية في تاريخ النظام الدولي لأنه لم يكن مجرد انتقال للسلطة من بيت إلى بيت ملكي آخر على غرار انتقال السلطة من البيت السفياني إلى البيت المرواني أيام الدولة الأموية ، ولكنه كان بمثابة تحول جذري في إستراتيجية التعامل الخارجي للدولة الإسلامية لما يترتب على ذلك من تغيرات حاسمة في شكل

---

(١) ابن طباطبا: (محمد بن على المعروف بابن الطقطقا) الفخري في الآداب السلطانية، دار صادر بيروت، ١٣٨٦هـ،ص ١٤٩.

* كانت معركة الزاب من المعارك الحاسمة التقي فيها جيش العباسيين بقيادة عبدالله بن على بمروان بن محمد آخر خليفة أموي وهزم فيها مروان بسبب الخلل والفساد في جيشه وقد حدث رجل من أهل خراسان عن هذه المعركة قائلاً: لقينا مروان على نهر الزاب فحمل علينا أهل الشام كأنهم جبال حديد فجثونا وأشرعنا الرماح فمالوا عنا كأنهم سحابة ومنحنا الله أكتفاهم وانقطع الجسر مما يليهم حين عبروا (الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، ١٩٦٧م، (ص ٤٣٥).

(٢) علا عبدالعزيز أبوزيد، الدولة العباسية من التخلي عن سياسات الفتح إلى السقوط ١٣٢-٦٥٦هـ، ٧٥٠-١٢٥٨م، ص ٧.

العلاقات الدولية فسيطرة العباسيين على مقدرات الدولة الإسلامية كان مقدمة لتغير شامل وجذري. (١)

حكمت هذه الدولة زهاء خمسمائة أربعة وعشرين سنة من سنة (١٣٢-٦٥٦هـ) (٧٥٠-١٢٥٨م) وهي السنة التي حكم أبوالعباس السفاح*. ومكثت الدولة مائة سنة لخلفائها الكلمة العليا والسيادة التامة على جميع العالم الإسلامي ما عدا (بلاد الأندلس)** يقولون فيسمع لهم ويأمرون فيأتمر الناس ولا يقدر أحد على مخالفتهم والوقوف في وجه جنودهم إلا منافسيهم في القرب من رسول اللهﷺ وهم بنو عمهم من آل أبي طالب وبعض الخوارج*** الذين كانت تخبو نارهم وتلمع ثم تجئ القوة العباسية الهائلة على ذلك بسرعة. (٢)

---

(١) علا عبدالعزيز أبوزيد ، المرجع السابق، ص ٧.

* السفاح: وهو عبدالله بن محمد بن على بن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب بويع في سنة اثنتين وثلاثين ومائة للهجرة. وعندما بويع ركب إلى المسجد الجامع فخطب على المنبر قائماً وكانت بنو أمية تخطب قعوداً واستمرت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر ومات بالأنبار (المسعودي، على بن الحسن: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٣، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٦٤م، ص ٢٦٦).

** قامت في الأندلس الدولة الأموية التي أسسها الأمير الأموي الهارب من مذابح العباسيين عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان سنة ١٣٨هـ ٧٥٦م أي بعد ست سنوات فقط من قيام الدولة العباسية وقد كانت هذه الدولة شوكة في جنب هذه الدولة أقلقت منام خلفائها تفكيراً في كيفية التصدي لها والقضاء عليها وقد كان قيامها بمثابة انفصال العالم الإسلامي إلى دولة شرقية وغربية (علاء عبدالعزيز أبوزيد، المرجع السابق،ص ٥١).

*** الخوارج: عرفوا بهذا الاسم لخروجهم على نظام الخلافة القائم الذي نص على أن تكون الخلافة في قريش وحدها كانت فتن هؤلاء الخوارج تهدد الخلافة العباسية كما كانوا من قبل شوكة في جنب الخلافة الأموية ومع أن هؤلاء كانوا في زمن الأمويين عشرين فرقة فإنه لم يبق منهم في وقت العباسيين غير فرقتين فقط هما الأباضية والصفرية وهما أقل مغالاة من فرق الخوارج المتطرفة الأخرى مما كتب لهما البقاء إلى وقتنا الحاضر (عبدالمنعم ماجد، العصر العباسي الأول التاريخ السياسي، مكتبة الانجلو، القاهرة، ١٩٧٣م، ص ١٢٨).

(٢) الشيخ محمد الخضري بك، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية الدولة العباسية، اعتني به درويش جويري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٠م، ص ٤٠٦.

كان العداء مستحكماً في ذلك العصر بين بني أمية وبني هاشم فقد مثل العباسيون بموتى الأمويين ولعنوا بعض خلفائهم على المنابر بل أنهم قتلوا الأحياء واستصفوا أموالهم وأثاروا كراهة العرب فلا عجب أن انصرف العرب عن العباسيين ودب في نفوسهم دبيب الكراهية لهم وللفرس الذين اعتمد عليهم العباسيون فقامت الفتن والثورات في البلاد ومن أعظم تلك الثورات محمد (النفس الزكية)*. [١]

أظهر العباسيون في هذا العصر ميلاً إلى الفرس الذين ساعدوهم على تأسيس دولتهم وقاموا معهم ضد أعدائهم الأمويين وهذا الميل للفرس والذي يقابله كره للأمويين يظهر واضحاً في خطبهم ومن ذلك ما قاله المنصور في خطبته لأهل خراسان: "يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا خيراً منا...". [٢]

وعلى الرغم مما أظهره العباسيون من ميل للفرس إلا أن الفرس عملوا على التخلص من العباسيين وتحويل الخلافة إلى العلويين. فقد شايع الفرس العلويين لاعتقادهم أنهم وحدهم يملكون حق حمل التاج لكونهم وارثي آل ساسان من جهة أمهم (شهربانوه) ابنة يزدجر الثالث ولكن خلفاء بني عباس وإن كانوا قد اعترفوا بمساعدة الفرس لهم في تأسيس دولتهم لم ينسوا عربيتهم وحبهم للملك فلم يسمحوا لمواليهم وأنصارهم أن يزاحموهم في سلطانهم أو يعملوا على تحويل الأمر إلى أعدائهم العلويين وأخذوا في التنكيل بوزرائهم الذين مالوا إليهم. [٣]

---

* النفس الزكية: محمد بن عبدالله بن الحسن بن على بن أبي طالب عليهم السلام وهو من سادات بني هاشم فضلاً وشرفاً وديناً وعلماً وكان ابتداء أمره أنه قد شيع بين الناس أنه المهدي الذي بُشر به وسانده أبوه في ذلك فبايعه أشراف بني هاشم وأظهر هذا في المدينة فتبعه أعيان المدينة وغلب عليها وعزل أميرها من قبل المنصور واستولى عليها وعندما علم المنصور بذلك ندب إليه ابن أخيه عيسى بن موسى في عسكر كثيف وانتصر عليه وحمل رأسه إلى المنصور سنة خمس وأربعين ومائة (ابن طباطبا، المصدر السابق، ص ١٤٥).

(١) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج ٢، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، ١٩٦٤م،ص ٨٨.

(٢) المسعودي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣١١.

(٣) حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج ٢،ص ١٦٤.

فقد نكل السفاح بأبي سلمة الخلال* لما علم ما قام به من محاولة تحويل الخلافة إلى العلويين ولمح لأبي مسلم بقتله ففعل[1] كذلك فعل المهدي بيعقوب بن داؤد حينما علم أنه يميل إلى إسحق بن الفضل أحد طلاب الخلافة وقد كاتبه يعقوب وأصبحوا في مرحلة الثورة في يوم واحد على ميعاد فيأخذوا الدنيا لإسحق[2] كما أن شهرة نكبة البرامكة على يد هارون الرشيد قد طبقت الآفاق وكذلك نكبة المأمون للفضل بن سهل الذي حسن للمأمون مبايعة على بن موسى من بعده وخلع لباس السواد ولبس الخضرة في خراسان وعندما عارض الناس ذلك وثارت الفتنة ببغداد وخُلع المأمون كتم الفضل بن سهل ذلك عن المأمون وعندما علم المأمون بذلك قتله. [3]

هكذا كانت سيطرة خلفاء العصر العباسي الأول على أمور الدولة سيطرة تامة فاعتبر عصرهم العصر الذهبي في تاريخ الخلافة العباسية .

انعكس الاستقرار السياسي في العصر العباسي الأول على الجوانب الاقتصادية في الدولة خاصة التجارة التي عنى بها خلفاء ذلك العصر عناية تامة بتسهيل سبلها فحفروا الآبار وأقاموا المحطات في طرق القوافل وأنشأوا المنائر في الثغور وبنوا الأساطيل لحماية السواحل من إغارات لصوص البحار وكان لذلك أثر بعيد في نشاط التجارة الداخلية والخارجية، وأصبحت قوافل المسلمين تجوب البلاد وسفنهم تمخر عباب البحر كما شجع خلفاء العصر العباسي الأول تشجيعاً غير

---

* أبوسلمة الخلال: أول وزير وزر لأول خليفة عباسي واسمه حفص بن سليمان مولى لبني الحارث بن كعب وهو من مياسير أهل الكوفة صهر لبكير بن ماهان كاتب إبراهيم الإمام وكان سمحاً كريماً كثير البذل فصيحاً عالماً بالأخبار والأشعار والسير والجدل (أبن طباطبا، المصدر السابق، ص ١٥٥).

(١) المصدر نفسه ص ١٥٥.

(٢) ابن الأثير: (عزالدين أبوالحسن على بن محمد الجذري) الكامل في التاريخ، ج ٦، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٦٥م، ص ٧٠.

(٣) ابن طباطبا: المصدر السابق، ص ٢١٨.

مباشر بما أدخلوه من مظاهر الترف إلى بلاطهم، وتأسيس مدينة بغداد التي ساعد موقعها على أن تصبح سوقاً تجارياً من الطراز الأول[١] .

ولعل ما يؤكد اهتمام الخلفاء ما ذكره هارون الرشيد لأحد مشاوريه قائلاً له: "يكفي التجار ما أمنا لهم من السبل في غير الديار وما احتفرنا لركبهم من الآبار وأوجدنا لهم من المناهل في البلدان العامرة التي نحب أن تكون سوق التجارة فيها دائرة"[٢] .

بذلك استطاع العرب منذ أواخر القرن الثاني للهجرة أن يستقروا في موانئ الصين العظام وكان لهم – بسبب تساهل إمبراطور هذه البلاد وكرمه – قاض يحكم بينهم وفق أحكام الشريعة ويحصلون على جوازات تسمح لهم بالتنقل في تلك البلاد البعيدة ابتغاء التجارة مع أهلها[٣] .

كما أن تأمين السبل – زيادة على توافر الأموال – جعلهم يطلبون حاجات الترف من جميع البلدان فحُملت الآنية من الهند والحديد من خراسان والرصاص من كرمان والعود والقرفة من الصين والعطر وأنواع الطيب من اليمن والياقوت والماس من سرنديب والجلود والرقيق من بلاد الروم والفاكهة والسلاح من بلاد الشام وغيرها من أنواع التجارات الواردة على الدولة في تلك الفترة[٤] .

هكذا حُظيت التجارة في ذلك العصر بعناية كبيرة فتدفقت السلع بأنواعها على أسواق الدولة .

وحتى بلاد الأندلس البعيدة عن حاضرة الخلافة لما أتيح لها الاستقلال في بدء العصر العباسي – منعتها قوتها وبُعدها من أن يخضعها العباسيون لحكمهم– أزهرت وتمدنت وساهمت في بناء المدنية والعلم والحضارة[٥] .

---

(١) حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ٣١١.

(٢) المدور : (جميل نخلة) حضارة الإسلام في دار الإسلام ، دار العالم العربي ، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ١٠٤.

(٣) حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق، ج ٢ ص ٣١٥.

(٤) المدور : المصدر السابق : ص ١١٥– ١١٦.

(٥) أحمد أمين : ظهر الإسلام ، ج ١، مكتبة النهضة ، ١٩٦٩م القاهرة، ص ٩٣.

أما العصر العباسي الثاني فقد تميز بتعدد العناصر الممسكة بأيدي الخلافة من قادة الترك الأمراء ثم ملوك الأسرة البويهية الفارسية ثم من سلاطين الأسرة السلجوقية التركية مما كان له أثر واضح في تلاشى نفوذ الخلفاء حتى أصبحوا لعبة بأيدي المستبدين من هؤلاء[١].

فالفترة من (٢٣٢-٣٣٤هـ)(٨٤٧-٩٤٨م) أُعتبرت عصر نفوذ الأتراك الذين بدأ استخدامهم في عهد المأمون في حرسه الخاص وفي عهد المعتصم أسندت إليهم مناصب الدولة وأقطعوهم الولايات الإسلامية فاستحكم نفوذهم. وقد كان في حياة هذا العنصر الجديد ضعف العنصر العربي ضعفاً عظيماً فتفرقوا بقبائلهم وعصائبهم وعاد الكثير منهم إلى موطنهم في القفر والصحراء والذين بالمدن لم تبق لهم عصبية يستندون في حياتهم إليها وكذلك ضعف الموالي الخراسانيون لضعف ثقة الخلفاء فيهم فاختل التوازن بين عناصر الدولة ووجد غلمان الأتراك أنفسهم منفردين بالملك مستأثرين به وليس أمام الخلفاء إلا هم فصاروا هم الآمرون حتى امتدت أيديهم إلى حياة الخلفاء وإلى أموالهم وإلى كل شيء عندهم وخضع الخلفاء لهذه القوة التي لم يجدوا أمامهم ما يردها في العرب.[٢]

كان من نتيجة استئثار الجند بأمور الحكم من دون الخلفاء أن ساءت الأحوال كلها خاصة الأحوال الاقتصادية وذلك لانصرافهم إلى استنزاف موارد الدولة للحصول على أرزاقهم دون الاعتناء بضرورة تعويض هذه الموارد فأهملت الزراعة والري والسدود مما أدى إلى انفجار الثورات ذات الطابع الاقتصادي والاجتماعي مثل ثورة الزنج* وهي ثورة عمال الأرض الزراعية في العراق وكذلك حركة القرامطة** التي

---

(١) الشيخ محمد الخضري، المرجع السابق، ص ٤١٣.

(٢) المرجه نفسه ، ص ٤١٣ .

* الزنج: قام بها على بن محمد بن عبدالرحيم ظهر في البصرة وزعم أنه على بن محمد بن أحمد بن على بن عيسى بن زيد بن على بن الحسن بن على بن أبي طالب وجمع إليه الزنج بالبصرة فاجتمع إليه خلق كثير وعظم شأنه فعاث في البلاد العراقية والبحرين وهجر ودامت حروبه مع الدولة سنين إلى أن تغلب عليه الجيش العباسي وحمل رأسه إلى بغداد (ابن طباطبا، المصدر السابق، ص ٢٥٠).

** كان ابتداء أمر القرامطة سنة ست وثمانين ومائتين للهجرة بالبحرين حيث ظهر رجل من القرامطة يعرف بأبي سعيد الجنابي واجتمع إليه جماعة من الأعراب والقرامطة وقوى أمرهم وأظهر أنه يريد البصرة فعلم

روعت الكثير من سواد العراق إلى الشام إلى البحرين إلى مكة وأدت إلى تفشى السرقة وقطع الطرق وانعكس ذلك على عدم استقرار الحالة الأمنية وأثر بالتالي على تدفق التجارة وارتفاع الأسعار. [١]

وكان من الطبيعي في ظل هذه الأوضاع المضطربة أن تظهر النزعات الاستقلالية ليس فقط في الأقطار النائية بل في الأقطار القريبة من مركز الخلافة فبعد أن شهد العصر العباسي الأول خروج المغرب الإسلامي من الدولة العباسية فإن العصر العباسي الثاني شهد تفكك المشرق ذاته منذ منتصف القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) فظهر الصفاريون بعد الطاهريين في خراسان وظهر السامانيون في بخارى قبلهم وظهر الطولونيون في مصر ثم بعدهم الاخشديون وظهر الزيديون في اليمن والحمدانيون في الموصل وحلب ووصل الأمر في الربع قرن التالي لمقتل المتوكل إلى تقلص نفوذ العباسيين واقتصاره على العراق والجزيرة. [٢]

كما أن الفترة التي استولى فيها البويهيون*** على مقاليد الحكم من سنة (٣٣٤-٤٤٧هـ) (٩٤٨ – ١٠٥٥م) شهدت قيام الدولة الفاطمية في مصر والشام التي لعبت دوراً مهماً وخطيراً في هذه الفترة .

كان لقيام هذه الدول أثر كبير في تقدم الحضارة الإسلامية وذلك أنه بعد أن كانت بغداد مركز هذه الحضارات ظهرت مراكز أخرى تنافس حاضرة العباسيين في الحضارة والعلوم مثل قرطبة والقاهرة وبخارى وأصبح كل منها قبلة للعلماء والشعراء والكتاب الذين تنقلوا بين هذه الحواضر طلباً للرزق أو ابتغاء الكسب[٣].

أمرهم وأصبحوا مشكلة كبيرة هددت الدولة الإسلامية وأرقتها طويلاً (ابن الأثير، المصدر السابق، مج ٧،ص ٤٩٣).

(١) علا عبدالعزيز أبوزيد: المرجع السابق،ص ٦٢.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٦٥.

*** من أسرة فارسية أسسها أبوشجاع بويه ويقول البعض أنه من سلالة الملك الساماني بهرام ور ومؤسس هذه الأسرة التي سرعان ما عظم شأنها هم أبناء شجاع الثلاثة على وحسن وأحمد. تمكن هؤلاء الإخوة بعد سلسلة من الهجرات والانتصارات من دخول بغداد فجعله المستكفي أميراً للأمراء ولقبه بلقب معز الدولة ولقب على عماد الدولة وحسن ركن الدولة ، دائرة المعارف الإسلامية ، مج ٤، ص ٣٥٤.

(٣) حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٧١.

يتضح من ذلك إن قيام هذه الدول لم يؤثر في حضارة الدولة الإسلامية والتي – تعتبر التجارة واحدة من مظاهرها – بل على العكس فقد عادت عليها بفوائد كثيرة وهذا ما يؤكده صاحب كتاب ظهر الإسلام قائلاً : "ففي رأيي أن كثيراً من الأقطار الإسلامية كانت بعد استقلالها عن الخلافة في بغداد خيراً منها قبله فيظهر لي أن مصر تحت حكم الطولونيين والأخشيديين والفاطميين كانت حالتها أسعد منها أيام ولاة بغداد قبل الطولونيين وكذلك حكم السامانيين* لفارس وما وراء النهر كان خيراً من حكم من سبقهم من ولاة العباسيين وربما ان شر أيام بغداد هو هذه الأيام التي كانت تخضع فيها للخلفاء وما حولها مستقل عنها"(١).

وواقع الحال في تلك الفترة يؤكد ذلك الرأي الذي ذكره أحمد أمين ففي عهد الدولة الطولنية نجد أن النواحي الاقتصادية كانت موضع عناية الطولونيين الذين عملوا على أن يضمنوا للبلاد الرخاء والاستقراء فشجعوا الزراعة وقللوا الضرائب مما أدى إلى تنشيطها كما اهتموا بالصناعات كصناعة الأسلحة والنسيج وورق البردي والصابون وفي مجال التجارة ظلت مصر وسوريا تزاولان نشاطهما التجاري مستغلتان موقعهما في ذلك الشأن فأصبحت حلقة اتصال بين تجارة الشرق والغرب وكانتا تتاقضيان ضرائب جمركية على البضائع التي تمر بهما وكانت ضرائب هذه البضائع تصل أحياناً إلى مبالغ كبيرة(٢).

كما كان لمصر شأن عظيم في التجارة في العصر الأخشيدي فقد كانت سفنهم تجوب البحار والبلاد في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ولعل أكبر دليل على ما بلغته التجارة في العصر الأخشيدي أن ثروة بعض التجار في مصر في

---

* السامانيون: أسرة فارسية انحدرت من رجل يدعى ساما تخدا الذي كان أمير قرية سامان من أعمال بلخ واضطر إلى الفرار من بلخ والتجأ إلى أسد بن عبدالله القسري والى خراسان وأعانه على أعدائه فدخل الإسلام وسمى ابنه أسد وأعقب أربعة أبناء كان لهم شأن في تاريخ الخلافة الشرقية (دائرة المعارف الإسلامية، مج ١١،ص ٧٦).

(١) أحمد أمين : المرجع السابق، ج ١، ص ٩٣.

(٢) أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي ، ج٥ ، مكتبة النهضة، مصر ١٩٧٩م، ص ٩٢.

ذلك العصر بلغت درجة عظيمة حتى أن أحدهم حين توفي استطاع الأخشيد أن يأخذ من ماله نحو مائة ألف دينار [١].

أما الدولة الفاطمية التي ظهرت في مصر في منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) فقد كان مجهودها في هذا المجال كبيراً مما يدل على فهم واسع لمسائل الاقتصاد في عصرها .

فنجد خلفاء الفاطميين في سبيل نقل التجارة بين الشرق والغرب فتحوا القنال بين النيل والبحر الأحمر الذي يوجد منذ عهد الفراعنة وأعيد حفره عدة مرات آخرها في عهد الفاطميين ، كما أنهم أعادوا حفر خليج الإسكندرية وانشأوا أساطيل تجارية بقصد التجارة العالمية [٢].

أما الدولة السامانية – التي استشهد بها أيضاً كنموذج لإيجابيات الانفصال عن الخلافة في بغداد – فقد تمتعت بثراء طائل في ظل جهود حكامها الذين عملوا على إقرار الأمن في خراسان وبلاد ما وراء النهر حتى أن قوافل التجار كانت تسير في أمن وراجت تجارة هؤلاء السامنيين حتى وصل نفوذهم لبلاد الروس[٣]، وقد اغتنى آل سامان من هذه التجارة فبنى أحد أمرائها وهو الأمير السعيد نصر بن أحمد بن إسماعيل الساماني قصراً غاية في الجمال وأنفق عليه مالاً كثيراً وأمر بأن يُبنى على باب قصره داراً للعمال ، كما بنى أهل بخارى دوراً منسقة مشيدة بالأحجار بها مضايف مزدانة بالصور وحدائق كبيرة غناء وأحواض نزهة وجميلة وبالحدائق كثير من ألوان الفاكهة[٤].

كما راجت التجارة في عصر السلاجقة (٤٤٧– ٥٩٠هـ) (١٠٥٥– ١٧٩٨) مع الصين وكان من أهم طرق التجارة في تلك الفترة طريق الحرير العظيم الذي كان

---

(١) سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الأخشيديين ،دار النهضة ، القاهرة، ١٩٧٠م ، ص ٢٩٣.

(٢)عبدالمنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر ، دار المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٦٨م، ص ٣٠٠.

(٣)حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق، ج ٤ ، ص ٣٨٤.

(٤) النرشخي (أبوبكر محمد بن جعفر) تاريخ حجارى ، دار المعارف، القاهرة،(بدون تاريخ)، ص ٤٤–٤٥.

يمر بسمرقند وتركستان الصينية وكانت لديهم قوافل لنقل البضائع المختلفة وقد أدى رواج التجارة في عصرهم إلى الترف الذي عاشه سلاطين السلاجقة وكبار رجال دولتهم فاتسمت معيشتهم بالأبهة ووضحت فيها مظاهر البذخ في قصورهم وفي اتخاذهم الخدم وحرصهم على إقامة مجالس الطرب والشراب[١].

وقد كان سلاطين السلاجقة يقلدون الخلفاء العباسيين في ألوان الحياة الاجتماعية المختلفة ، حيث حرص الخلفاء العباسيون في ذلك العصر – رغم ضعفهم – على أن يعيشوا عيشة راقية قوامها القصور الجميلة المفروشة بالفرش الباهظة والأطعمة الأنيقة واتخاذ الجواري والخدم[٢].

وحتى الدويلات المستقلة التي قامت في فترة حكم السلاجقة كدولة المرابطين (٤٤٨ – ٥٤٠هـ) (١٠٥٦ – ١١٤٦م) ودولة الموحدين (٥٤٠ – ٦٦٨هـ) (١١٤– ١٢٦٩م) شهدت ازدهاراً في النشاط التجاري حيث حرص أمراء المرابطين ومن بعدهم الموحدين على نشر الأمن والنهوض بالمنطقة في شتى المجالات فعم الرخاء وارتفع الدخل المالي للبلاد فالأمن والاستقرار الذي عاشته البلاد في ظل دولة المرابطين أسهم في تنشيط الاقتصاد بدرجة لم يسبق لها مثيل وقد شاع عنهم إزالة المكوس وإسقاط المغارم المحدثة[٣].

ولعل أسواق مدينة فاس في تلك الفترة شاهدة على ذلك بما فيها من حركة تجارية واسعة وبما فيها من المنشآت التجارية من فنادق وقيساريات وحمامات ، وبما لها من علاقات تجارية واسعة بمناطق السوس الأقصى والمشرق حتى الهند وغيرها فقد أصبحت المدينة مقصداً للقوافل والتجار من مختلف الأقطار[٤].

ولعل هذه اللمحة التمهيدية التاريخية تلقي ضوء على النشاط التجاري الذي ظل مستمراً طوال العصر العباسي الثاني ، ورغم الانقسامات السياسية بين هذه الدول إلا

---

(١) عبدالمنعم محمد حسنين، دولة السلاجقة ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، (بدون تاريخ) ص ١٦٦.

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٦٧.

(٣) جمال أحمد طه: مدينة فأس في عصري المرابطين والموحدين، دراسة سياسية حضارية، دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠٠٢م، ص١٩٨.

(٤) جمال أحمد طه ، المرجع السابق، ص٢٢٥.

أن مصالحها الاقتصادية ظلت قوية وكانت التجارة هي العامل القوي الرابط بينها ، ولهذا نشط التجار والرحالة العرب الذين أثروا هذا الميدان بأوصافهم الدقيقية للشعوب والدول والتجارة وأنواعها مما يجعل هذا الموضوع ذا أهمية قصوى وجديراً بالدراسة والتمحيص.

الفصل الأول

الطرق والعلاقات التجارية

المبحث الأول

طرق التجارة الخارجية

- الطرق البرية
- الطرق البحرية

المبحث الثاني

العلاقات التجارية بين الدولة العباسية والعالم الخارجي

١- التجارة مع جزيرة العرب

٢- التجارة مع شرق وغرب أفريقيا

أ - التجارة مع شرق افريقيا

ب - التجارة مع غرب افريقيا

٣- التجارة مع أوروبا

أ - التجارة مع شرق أوروبا

ب - التجارة مع المدن الإيطالية

ج - التجارة مع الدولة البيزنطية

٤- التجارة مع الشرق الأقصى

المبحث الأول

طرق التجارة الخارجية

أولاً: الطرق البرية:

الطريق الأول: أقدم وأهم الطرق التجارية التي تربط بين الشرق والغرب هو الطريق البري من أواسط آسيا ومن الهند عبر جبالها وممراتها إلى نهر الأثيل ويتقابل مع القوافل الوافدة من الصين ثم يسيران معاً حتى بخاري حيث يتفرع إلى فرعين الأول إلى بحر قزوين فنهر الفلجا وبلاد البلغار. والثاني يتجه إلى البحر الأسود وموانيه ثم القسطنطينية وأوربا وتخرج منه فروع جانبية إلى بلاد الشام وساحل البحر المتوسط وآخر إلى بغداد وديار بكر وثالث غير مطروق إلى أرمينيا وأسيا الصغرى براً إلى القسطنطينية.(١)

هذا هو خط السير الأساسي لذلك الطريق الذي عُرف لاحقاً بطريق الحرير ولكن هذا لا يمنع أن ينحرف عن هذا المسار ويعود إلى الطريق الأساسي مرة أخرى وذلك لجلب الحرير وقد تنوعت السلع التي نقلت عبر هذا الطريق فصدرت أوربا المنتجات الصوفية والصبغات وزيت الزيتون وبعض المواد الكيماوية وكذلك صدرت من آسيا التوابل والحرير والبورسلين والزمرد والياقوت وغيرها.(٢)

ويُفهم من هذه السلع التي تعبر ذلك الطريق أنه كان بداية الاتصال التجاري بين الصين والهند ومختلف البلدان الآسيوية والأوربية.

وقد ازدهرت التجارة بين الشرق والغرب منذ العصور القديمة وتعددت السلع التي كانت تنقل من أسواق الصين والهند وبلاد العرب والحبشة وأفريقيا الشرقية إلى

---

(١) جلال الحفناوي، طريق الحرير الجديد، مركز الدراسات الآسيوية، جامعة القاهرة، ٢٠٠١، ص ١٠. نعيم زكي فهمي، طرق التجارة العالمية ومحطاتها بين الشرق والغرب، الهيئة العامة للكتاب، مصر، ١٩٧٣م، ص ١٥٤، محمد جمال الدين سرور، تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق منذ عهد نفوذ الاتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري، القاهرة، ١٩٦٥م، ص ١٤٩.

(٢) نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٢م، ص ٢٢٠.

بلاد الشام ومصر وبيزنطة وروما كما اتسعت التجارة بين الصين والهند وبين موانئ البحر المتوسط في القرن السادس الميلادي بطريق (سرى لانكا) وزاد اتساعها في القرن السابع الميلادي وأصبح ثغر سيراف على الخليج العربي مركزاً لتوزيع البضائع الصينية في إيران وبلاد العرب.(١)

وكان أقدم اتصال سياسي بين الصين والشرق الإسلامي عن طريق الحرير حيث فر يزدجر كسرى فارس إلى الصين بعد انتصار العرب عليه في معركة نهاوند بعد ذلك ازدهرت التجارة بين الفرس والصين ويرجع الفضل إلى تجار الفرس في فتح طريق الحرير عبر تركستان واحتكار التجارة في هذا الصنف وقد كان هؤلاء التجار قديرين ودقيقين ومنظمين وقد بنوا طرقاً مكنتهم من نقل متاجرهم في مركبات بدلاً من نقلها على ظهر الدواب وكان الحد الفاصل في هذا الطريق الطويل إلى المكان الذي يلتقي فيه التاجر الصيني والفارسي دون أن يحاول أحدهما اجتيازه إلى بلاد الآخر مكان يسمى "برج الحجر" وهو طاشكرغان بين كاشغر وسمرقند وهناك كان التجار الصينيون ينتظرون الفرس فيضعون ما معهم من الحرير وغيره على ضفة النهر ويأتي الآخرون يحملون التجارة من الحجارة الكريمة والكهرمان والمرجان ولا يتبادل التجار كلمة واحدة ولكن يختار كل واحد ما يريد ويضع مقابله قيمته ثم ينسحب حاملاً بضاعته الجديدة.(٢)

وبالرغم من سيطرة القوات العثمانية على هذا الطريق قبل سقوط القسطنطينية فإن التجارة لم تتوقف فيه بل وصلت قوافل الصين والهند حاملة معها التوابل والأنسجة والأحجار الكريمة من الهند والصين كما وصلت عليه الأنسجة المطرزة والسجاد من فارس وشيراز وأصفهان وكردستان وما بين النهرين والجلود والحنطة وسمك الكافيار والرقيق من بلاد البلغار عن طريق الفولجا لتتقابل مع السلع الواردة

---

(١) جلال الحفناوى: المرجع السابق، ص ١١.

(٢) نقولا زيادة، المرجع السابق،ص ٢٢٠-٢٢١.

من الشرق الأقصى وتوجد طريقها إلى آسيا الصغرى ثم البحر المتوسط أو القسطنطينية وأوربا.[1]

لقد انتعش هذا الطريق عبر القارة الآسيوية في فترات متباينة في التاريخ دون أن يحدث تنافس مباشر بينه وبين الطرق البحرية إلا في الحالات التي تأثرت فيها القارة الآسيوية بتطورات سياسية هددت الطريق البري وأخلت بأمنه ومن هذه التطورات انقسام الصين تحت حكم أسرة "سونج" في القرن السادس الهجري – الثاني عشر الميلادي وظهور خطر التتار تحت زعامة جنكيز خان في مستهل القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي. كما أن تسرب إنتاج الحرير إلى الغرب وانتعاش صناعته بعد ذلك وبخاصة في الدولة البيزنطية كل ذلك كان من العوامل التي أسهمت في اضمحلال الطريق البري في مرحلة محدودة في فجر تاريخ العصور الوسطى. كما أن تدفق الحرير عبر هذا الطريق على تبريز* واصطخر** وغيرهما من المحطات التجارية جعل تجار العرب يتجهون مباشرة إلى هذه المحطات للحصول على حاجتهم من إنتاج الصين والهند وفارس.[2]

وفي النصف الثاني من القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) تعددت مرات إغلاق الطريق ووقفت حركة التجارة في مدنه وموانيه بسبب اشتداد الصراع بين العثمانيين والتركمان والجيوب الرومانية على البحر الأسود ثم الصفويين والمماليك كما تأثرت فروعه بهذه العمليات الحربية التي اشتدت بعد سقوط القسطنطينية.[3]

---

(١) نعيم زكي فهمي: المرجع السابق،ص ١٥٥، نقولا زيادة،ا لمرجع السابق،ص ٢١٩.

* تبريز: من أشهر مدن اذربيجان وهي مدينة عامرة وجميلة بها أسوار محكمة من الجص والآجر كما اشتهرت بكثرة الفواكه ورخصها (ياقوت، المصدر السابق، ج ٢،ص ١٢).

** أصطخر: كورة من أعظم كور فارس وأما مدينة اصطخر فهي مدينة متوسطة تعتبر من أقدم مدن فارس وأشهرها (الأصطخري، إبراهيم بن محمد الفارسي، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبدالعال محمد شفيق، دار العلم، الجمهورية المتحدة، ١٩٦١،، ص ٦٨).

(٢) جلال الحفناوي: المرجع السابق،ص ١٣-١٤.

(٣) نعيم زكي فهمي: المرجع السابق،ص ١٥٤.

الطريق الثاني:

يبدأ هذا الطريق البرى من الأندلس أو من فرنجة فيعبر السوس الأقصى إلى طنجة ثم إلى أفريقيا ثم إلى مصر ثم إلى الرملة وإلى دمشق ثم إلى الكوفة ثم إلى بغداد ثم إلى البصرة ثم إلى الأهواز ثم إلى فارس وإلى كرمان ثم إلى السند ثم الهند وإلى الصين.(١)

وهذا الطريق هو مسلك تجار الروس في البر وهم جنس من الصقالبة يحملون معهم جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف وربما أخذوا في طريقهم هذا خلف رومية وبلاد الصقالية ثم إلى خليج مدينة الخزر ثم إلى ما وراء النهر ثم إلى التغزغز* ثم إلى الصين(٢).

أما مسلك تجار المسلمين العراقيين على وجه الخصوص إلى بلاد الأندلس فإنه يبدأ من بغداد إل عكبرا** ومنها إلى سامراء ومنها إلى الموصل وإلى نصيبين وإلى الرقة وإلى منيع وإلى حلب ومنها إلى قنسرين ثم صوران وإلى حماة وإلى حمص ثم إلى بعلبك وإلى دمشق ومنها إلى طبرية وإلى الرملة آخر عمل فلسطين ثم إلى الفرما وإلى الفسطاط ثم إلى الإسكندرية وإلى ذات الحمام ثم برقة ثم إلى أجدابية وإلى سرت وإلى وادي الرمل وإلى طرابلس ثم إلى فاس وإلى القيروان(٣).

---

(١) ابن خرداذبة: (عبيد الله بن عبدالله) المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد، ١٨٩١م ، ص ١٥٤.

* التغزغز: صنف من الأتراك يلبسون القطن واللبود وليس لهم بيت عبادة (ياقوت، المصدر السابق، ج ٣،ص ٤٤٢).

(٢) ابن خرداذبة: المصدر السابق،ص ١٥٤.

** عكبرا: مدينة على شاطئ نهر دجلة وهي مشتبكة العمارة (ابن حوقل أبو القاسم النصيبي، صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت بدون تاريخ، ص ٢١٩).

(٣)قدامة بن جعفر: نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، مكتبة المثني بغداد، ١٨٩١م، ص ٢٢٧-٢٢٩.

ولهذا الطريق أهمية كبرى بالنسبة للأندلس حيث انتشرت مراكز متعددة على طول الطريق من ساحل أفريقيا وإلى الأندلس مثل تنس وتاهرت* وغيرها. كما أنه نال عناية الحكام حيث أقيم في الطريق ما بين نفزاوة** وقسطليلة*** خشب يهتدي المسافرون بها وفي ذلك يقول صاحب المغرب: "حيث يوجد بينهما أرض سواخة لا يهتدي للطريق بينهما إلا بخشب منصوبة- وأدلاء تلك الطريق هم بنو موليت وهناط ظواعينهم فأن ضل أحد يميناً أو شمالاً غرق في أرض (ريماس) تُشبه في الرطوبة بالصابون وقد هلكت فيها العساكر والجماعات ممن دخلها ولم يدر أمرها".(١)

وكذلك الحال بالنسبة لأهل العراق فقد اهتموا بذلك الطريق الغربي – الذي ربط العراق وسوريا ومصر ومن ثم المغرب والأندلس- بصيانته وحمايته ولم يطالبوا التجار بدفع المكوس داخل المملكة في كثير من الفترات(٢) كما عنى الفاطميون بهذا الطريق الذي تسلكه القوافل التي تسير بالتجارة من بلد إلى آخر ويربط مصر ببلاد المغرب غرباً ومصر ببلاد الشام والعراق شرقاً.و من مظاهر عنايتهم بهذا الطريق

---

* تنس، تاهرت : تنس من أكبر المدن التي يصل إليها الأندلسيون بمراكبهم ويقصدونها بمتاجرهم ويسافرون منها إلى ما سواها من المدن ولسلطانها أموال كثيرة وبها مراصد على المتاجر الداخلة والخارجة (ابن حوقل، المصدر السابق،ص ٧٨) وهي مشهورة بالقمح الذي يحمل في المراكب إلى سواحل الأندلس (ابن سعيد، أبوالحسن علي بن موسى الجغرافية، تحقيق محمد إسماعيل العربي، الجزائر، ١٩٧٠م، ص ٤٢)، تاهرت: هي قصبة وتسمى بلخ المغرب حيث يوجد بها الأشجار والبساتين (المقدسي: شمس الدين أبوعبدالله، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٠٦م، ص ٢٢٨).

** نفزاة: بينها وبين القيروان ستة أيام وبها سور صخر وستة أبواب عامرة بالحمامات والأسواق الحافلة كثيرة النخل والثمار وبينها وبين قابس ثلاثة مراحل ومنها تسير إلى قسطليلة (الحميري محمد بن عبدالمنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، بيروت ١٩٦٤م ،ص ٥٧٨).

*** قسطليلة اسم لعلم من أعمال بلاد الجريد وهي بلاد واسعة ومدن عديدة بها النخل والزيتون (المقدسي، المصدر السابق،ص ٣٠، الحميري، المصدر السابق،ص٤٨٠).

(١) البكري: أبوعبيد عبدالله الأندلسي، المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، مكتبة المثنى، بغداد، ١٨٥٧م، ص ٤٨.

(٢) عبدالعزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، ١٩٩٩م ، ص ١٦٧.

عنايتهم بالبريد وليس من شك في أن البريد كان يسلك نفس الطرق البرية التي تسلكها التجارة.(١)

كما أهتم بهذا الطريق أهل الشام حيث يمر الطريق بعديد من المدن الداخلية وكان من نتاج هذه العناية أن "خمس مدن داخلية، الرملة ودمشق وحماة وأنطاكية وحلب استفادت من التجارة مع اللاتين ولا سيما البيزيين والجنويين والطسقانيين والبنادقة وكلهم إيطاليون وهذه الجمهوريات الأربع بيزة وحبوة وطسقانة والبندقية التي كانت تقسم إيطاليا هي أول من أتجر مع الشام من أمم الغرب وجاراهم بعض تجار من أهل بلجيكا وإنجلترا ثم عدلوا لبعد ديارهم".(٢)

وبالرغم من ذلك فلم يكن الطريق البري الذي يربط الأندلس بالمشرق يخلو من متاعب تواجه السالكين عليه إذ كان لتقلبات السياسة في شمالي أفريقيا تأثيراً سلبياً على التجارة وذلك يؤدى في الغالب إلى اضطرابات أمنية تحد من النشاط التجاري ومن بين المتاعب التي تواجه التجار لدى عبورهم هذا الطريق المتعدد الكيانات السياسية إجبارهم على دفع ضرائب زائدة لكل دولة يمرون بها زيادة على عمليات السرقة التي يتعرض لها هؤلاء التجار.(٣)

ثانياً: **الطرق البحرية**:

الطريق الأول:

طريق الصين- الهند- الخليج العربي وهو طريق بحري حتى رأس الخليج العربي وبوصول المتاجر إلى رأس بحر فارس مروراً بموانئ هامة مثل الأبلة وسيراف* ثم تبدأ فروعه النهرية والبرية من البصرة إلى بغداد حيث يتفرع إلى فرعين يتجه الأول شمالاً إلى ديار بكر ويتجه الثاني إلى دمشق ومنها تخرج فروع إلى

---

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، مكتبة النهضة، القاهرة ١٩٦٤، ص ٥٦٩.

(٢) محمد كرد على: خطط الشام، ج ٤، مكتبة النوري، دمشق، ١٩٨٥م، ص ٢٤٢.

(٣) خالد بن عبدالكريم بن محمود البكر: النشاط الاقتصادي في الأندلس، ١،مكتبة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤١٤هـ، ص ٢٩٦.

* لمعرفة تفاصيل هذه المدن أنظر الفصل الخاص بالمراكز التجارية.

موانئ ساحل البحر المتوسط ثم جنوباً إلى مصر بحذاء الساحل إلى غزة بالطرق القادمة من وسط آسيا براً ويتحد معها إلى القسطنطينية ثم أوربا.(١)

ويرجع تاريخ انتعاش التجارة عبر هذا الطريق إلى القرن الخامس الميلادي حيث حدثت تطورات في الشرق الأقصى وذلك أن الصين انقسمت سياسياً إلى دولتين احداهما قامت في شمال البلاد والأخرى قامت في جنوبها وكان حرص حكام الجزء الجنوبي على تشجيع التجارة والترحيب بالتجار قد دفع كثيراً من التجار الأجانب إلى التردد على موانئ جنوب الصين كما أن بسط حكام جنوب الصين نفوذهم على البلاد الواقعة في بحر الصين قد قوى الروابط التجارية بين جنوب الصين من جهة وحكام جاوة والملايو وسومطرة وغيرها من بلاد جنوب شرق آسيا من جهة أخرى.(٢)

وإذا تتبعنا مسلك التجار المسلمين في هذا الطريق إلى الصين فإن الرحلة تبدأ من بغداد إلى البصرة ومن البصرة إلى عمان على الساحل في مدخل بحر العرب إلى مسقط ومنها إلى كولوملي بينها وبين مسقط مسيرة شهر ومنها إلى بحر الهركند ثم إلى بحر كله بار في مملكة الزابج ومنها إلى بتومة بعد عشرة أيام ثم إلى كردنج بعد مسيرة عشرة أيام ثم إلى بحر الصنف في موضع يقال له صندرفولان وبعد مسيرة عشرة أيام إلى موضع يقال له بحر الصنج ومنه إلى أبواب الصين بعد مسيرة شهر من صندرفولان*. (٣)

وقدم لنا صاحب "مروج الذهب" وصفاً لهذه البحار التي تمر بها سفن المسلمين في طريقها إلى الصين فيقول: عن بحر كله بار أنه قليل الماء وإذا قل ماء البحر كانت آفاته كثيرة وأشد خبثاً وبه أنواعاً من الجزائر وأما بحر كردنج فإنه كثير الجبال

---

(١) نعيم زكي فهمي: المرجع السابق،ص ١١٨.

(٢) جلال الحفناوي: المرجع السابق، ص١٥.

* صندرفولان: هي أول جزائر الصين من جهة ساحلها إلى الجهة الشمالية بينها وبين الساحل مسافة صغيرة وطولها نحو مائتي ميل (ابن سعيد المصدر السابق،ص ١٠٩).

(٣)ابن الفقيه: أبوبكر أحمد بن محمد، مختصر كتاب البلدان، ليدن ١٣٠٢هـ، ص ١٢-١٣، المسعودي، المصدر السابق، ج ١،ص ١٤٩، ابن خرداذبة، المصدر السابق، ص ٥٩-٦٧.

والجزائر وقليل الماء وكثير المطر وبحر صنف فيه مملكة المهراج ملك الجزائر الذي لا يستطيع أحد من الناس أن يمر في جزائره في سنين عديدة وأما بحر صنجي فهو بحر خبيث وكثير الموج وفيه جبال كثيرة لابد للمراكب من النفوذ بينها.(١)

إن هذا الطريق التجاري البحري الرئيسي المؤدى إلى شرق أفريقيا غرباً وإلى الهند والصين شرقاً أدى إلى قيام مراكز تجارية هامة في الدولة الإسلامية مثل الأبلة التي هي ميناء البصرة ومثل سيراف. كما ساعد أهل عمان على التطلع إلى البحر واصطناع سياسة بحرية وذلك لأن الطريق البري بينها وبين المناطق المجاورة لها كالبحرين وحضرموت كان شاقاً "ويصعب سلوكه لتمانع العرب وتنازعهم فيما بينهم". (٢)

ولهذا السبب كان من الطبيعي أن يتطلع العمانيون منذ عصور قديمة إلى البحر المحيط فخاضوا مياهه وتمرسوا في الملاحة فيه وتؤكد النقوش السومرية والأكدية التي ترجع إلى الألف الثالث قبل الميلاد قيام صلات بحرية بين العراق وبلاد "ماجن" وهو الاسم القديم لعمان.(٣)

ورغم الدور الكبير الذي لعبه ذلك الطريق إلا أنه فقد اتصاله بالطرق القادمة من وسط آسيا خلال غزوات المغول في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ثم عاود الاتصال بعد ذلك عندما سيطر العثمانيون على آسيا الصغرى وأمنوا الطرق المارة به حتى أصبح يمثل الطريق الاحتياطي للتجارة الشرقية كلما تعطلت الطرق الأخرى أو أصابتها كوارث القرصنة.(٤)

ومنذ أواخر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) وأوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) بدأ هذا الطريق يفقد أهميته في خدمة التجارة وبخاصة فروعه من الخليج العربي عبر العراق إلى ديار بكر فقد أغلقته

---

(١) المسعودي: المصدر السابق، ج ١،ص ١٥٣-١٥٤.

(٢) ابن حوقل: المصدر السابق،ص ٤٧.

(٣) جلال الحفناوي: المرجع السابق، ص ١٥.

(٤) نعيم زكي فهمي: المرجع السابق،ص ١١٨.

الحروب التي نشبت بين الصفويين والعثمانيين في العراق العربي وآسيا الصغرى. وبعد أن استولى الشاة إسماعيل الصفوي على عراق منذ بداية القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) منع تجار الشام من الوصول إلى بغداد والبصرة لحمل المتاجر الشرقية فامتنعت السفن الشرقية الواردة من الصين والهند من دخول الخليج العربي والبصرة.(١)

الطريق الثاني:

وهو الطريق البحري من الشرق الأقصى إلى البحر الأحمر ويمتد هذا الطريق من الصين والهند إلى مسقط وموانئ عمان الواقعة على سواحلها الجنوبية ثم تسير السفن بحذاء شاطئ الجزيرة العربية فيما يعرف باسم بحر العرب حيث تتوقف في عدة محطات حتى تصل عدن ثم تنقل البضائع براً عبر الصحراء الشرقية إلى نهر النيل لتحمل فيه إلى الإسكندرية ودمياط وقد تتجه السفن في البحر الأحمر إلى ميناء إيلة ومنه تنقل براً إلى الفرما ثم دمشق وموانئ الشام.(٢)

هذا الطريق تعترضه صعوبات عديدة منها المساحة البحرية الواسعة من الصين إلى الهند إلى البحر الأحمر وما فيها من تيارات بحرية وهوائية متعارضة معظم السنة كما أن كثرة الشعاب المرجانية في البحر الأحمر تعترض الملاحة فيه. (٣)

بالإضافة إلى تلك العوامل الطبيعية نجد الضغوط التي يتعرض لها التجار في ثغر عدن واحدة من صعوبات ذلك الطريق وتتمثل في نظام التفتيش الذي يكون سارياً على البضائع التي تحملها السفن القادمة إلى الميناء ويكون ذلك التفتيش بصورة دقيقة وصارمة لتقدير نسبة الضرائب على تلك السلع إما وفقاً لكميتها أو وفقاً لنوعيتها وتصحبه معاناة كبيرة للتجار.(٤)

---

(١)نعيم زكي فهمي: المرجع السابق ،ص ١٢٤.

(٢) جلال الحفناوي: المرجع السابق،ص ١٦.

(٣) نعيم زكي فهمي: المرجع السابق، ص ١٢٤.

(٤) محمد كريم الشمري: زهور السوسن في تاريخ عدن اليمن، إصدارات جامعة عدن، ٢٠٠٤م،ص ١٣٧.

كما كان التفتيش سارياً على التجار أنفسهم فبعد تسجيل محتويات السفينة يصعد إليها نائب السلطان يرافقه المفتش الذي يسمى (الكشاف) يفتش الرجال واحداً واحداً وبدقة متناهية يصل إلى العمامة والشعر والكمين وغيرها وكذلك يتم تفتيش النساء بالطريقة نفسها من قبل عجوز مخصصة لهذا الغرض.(١)

زيادة على ذلك فقد كان هذا الطريق التجاري معرضاً باستمرار لهجوم القراصنة الهنود الذين اتخذوا من جزيرة سقطرة* مخبأً لهم وعرضوا طريق التجارة للأخطار المستمرة.(٢)

ورغم هذه الصعوبات إلا أنه قام بدور كبير في النشاط التجاري بين الشرق والغرب بخاصة في الفترة التي شهدت اشتداد هجمة المغول على الشرق الأوسط في القرن الثالث عشر مما تسبب في قطع الطريق البري عبر قارة آسيا من ناحية والطريق البحري عبر فارس والعراق من ناحية أخرى وعندما أدرك المماليك الذين أقاموا دولتهم في مصر والشام في أواسط القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي أنهم يتحكمون في طريق التجارة الدولية الوحيد الذي ظل بعيداً عن نفوذ المغول وسيطرتهم احتكروا تجارة الشرق وبالغوا في أثمانها. وقد دأبت البابوية في ذلك العصر- عصر الحروب الصليبية- على إصدار المراسيم لمنع تجار الغرب المسيحي من الإتجار مع المسلمين وبخاصة دولة سلاطين المماليك ومع ذلك استمر هؤلاء التجار في التردد على الإسكندرية ودمياط وغيرها.(٣)

الطريق الثالث:

الطريق الذي يبدأ من الغرب إلى الشرق عن طريق مصر ويقوم به تجار اليهود ويبدأون رحلاتهم التجارية فيه من بروفانس التي يسميها العرب"فرنجة" في

---

(١)محمد كريم الشمري: المرجع السابق ،ص ١٤٢-١٤٣.

*سقطرة: جزيرة فيها مدن وقرى عديدة وهي إلى بر العرب أقرب منها إلى بر الهند وكان أكثر أهلها نصارى عرب يجلب منها الصبر السقطري (ياقوت، المصدر السابق، ج ٣،ص ٢٧٧).

(٢) محمد كريم الشمري: المرجع السابق، ص ٢١.

(٣) جلال الحفناوي: المرجع السابق، ص ١٦-١٧.

البحر الغربي وترسو سفنهم إما عند الفرما أو الإسكندرية التي كانت ملتقي التجارة العالمية ومنها تنقل إلى الفسطاط أو القاهرة عن طريق النيل وتُنقل السلع من الفسطاط إلى القلزم ومنها إلى البحر الأحمر عبر موانئه الهامة مثل جدة حتى تصل السفن إلى الهند والصين(١).

وهذا الطريق أطلق عليه صاحب المسالك والممالك مسلك تجار اليهود الرازانية* الذين كانوا يتكلمون العربية والفارسية والرومية والصقلبية ويجلبون من الغرب الجواري والغلمان وجلود الخز** والفراء والسمور والسيوف. وعند عودتهم من المشرق يحملون معهم سلع المشرق كالمسك والكافور والعود والقرفة فإذا وصلوا القلزم اتجهوا إلى الفرما، ثم يركبون البحر الغربي فربما عدلوا بتجارتهم إلى القسطنطينية فباعوها إلى الروم وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة فيبيعونها هناك وإن شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل إلى الجابية ثم يركبون في الفرات إلى بغداد ثم في دجلة إلى الأبلة إلى عمان والسند والهند والصين وكل ذلك يكون متصلاً بعضه ببعض(٢).

هذا المسلك الدائري لتجار اليهود والمتصل بعضه ببعض يدل على أنهم لعبوا دوراً كبيراً في التجارة بين الشرق والغرب بل يُقال أنهم كانوا أكبر المنافسين لتجار المسلمين من فارس والعراق وكان لهم بمدينة أصفهان*** حي يُسمى "اليهودية" كما

---

(١)ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص ١٥٤.

* اليهود الرازانية: نسبة إلى نهر الرون(حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج ٣، ص ٣٣٤).

** الخز: الذكر من الأرنب والخز نوع من الثياب مشتق منه (ابن منظور: أبوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، مج ٥، دار صادر، بيروت، ص ٦٠).

(٢)ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص ١٥٤.

*** أصفهان: اسم للإقليم وكانت مدينته أولاً جبا ثم صارت اليهودية ويقال من كثرة اليهود في هذه المدينة لو بُحث من نسب أجل من بها من التجار فلابد أن يكون أصله يهودياً (ياقوت، المصدر السابق، ج ١،ص ٢٠٩).

كان معظم تجار مدينة تستر بخوزستان* من اليهود الذين كانوا يشرفون على تجارة اللؤلؤ من خليج فارس(١).

وكذلك حالهم بالمغرب الإسلامي فقد قاموا بدور كبير في التجارة بين الشرق والغرب خاصة وأن العلاقات الاجتماعية ربطت بين تجار اليهود المشارقة والمغاربة منهم فبرعوا في التجارة وكثر ثراؤهم وهذا ما يؤكده صاحب الاستبصار في حديثه عن مدينة فاس ويقول فيهم أنهم تجار هذه البلاد- فارس- وأغنى الناس فيها وقد "عاينت منهم من يقال إن عنده من المال الممدود رجالاً كثيرين"(٢).

الطريق الرابع:

من بلاد الروس الشمالية عن طريق بحر قزوين إلى مرو حاضرة خراسان ومنها إلى بلخ** وبخاري وسمرقند وبلاد ما وراء النهر ومنها إلى الصين وهذا الطريق وصفه صاحب المسالك والممالك بأنه مسلك تجار الروس في البحر الذين يحملون معهم نفس السلع التي يحملونها في البر من جلود الخز والثعالب والسيوف والشمع والعسل وكان المسلمون يأخذون من هؤلاء التجار الجزية باعتبارهم مسيحيين(٣).

ومما جعل لهذا الطريق أهمية اعتناق أهل الفلجا الإسلام في أوائل القرن الرابع الهجري(العاشر الميلادي) وجهود السامانيين الذين عملوا على إقرار الأمن في خراسان وبلاد ما وراء النهر حتى أن قوافل التجار كانت تسير في أمن. كما أن

---

* تستر: من أعظم مدن خوزستان محنطة على شكل فرس وبها أكبر أنهار خوزستان اشتهرت بالثياب التسترية المصنوعة من الديباج (الاصطخري، المصدر السابق، ص ٦٤).

(١)حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ...، ج ٣،ص ٣٣٣.

(٢)مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، تعليق سعد زغلول، الإسكندرية، ١٩٥٨م، ص ٢٠٢.

** بلخ: من أقدم مدن آسيا في شمال افغانستان على بعد عشرة فراسخ جنوب نهر جيحون عرفت عند اليونان باختر ولقبت في الإسلام بأم البلاد ومدينة إبراهيم النرشخي، (أبوبكر محمد بن جعفر المصدر السابق، ص ٨٦).

(٣)ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص ١٥٤.

لزواج ولد نصر بن أحمد الساماني* من ابنة ملك الصين أثر كبير في رواج التجارة بين الصين والدولة السامانية والدليل على رواج التجارة على يد السامانيين في تلك الفترة أن معظم النقود الإسلامية التي اكتشفت في شمالي أوربا في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كان أكثرها من نقود السامانيين.(١)

بالإضافة إلى هذه الطرق الرئيسية هناك طرق فرعية كثيرة أهمها:

أ- الطريق البحري بين موانئ شرق حوض البحر الأبيض المتوسط في مصر والشام والمدن التجارية الإيطالية وبخاصة الثلاثة الكبار البندقية وجنوة وبيزة وعندما أدرك التجار الإيطاليون أن مصالحهم تتطلب الوفاق مع القوى الإسلامية وبخاصة دولة سلاطين المماليك في مصر والشام حرصوا على حسن العلاقات معها وتم عقد اتفاقيات بين الطرفين.

ب- الطريق البحري من القسطنطينية وموانئ الدولة البيزنطية إلى شمال إيطاليا وحوض نهر (ألبو) والمدن اللمباردية وفي هذا الطريق كان التجار الإيطاليون يفضلون اتخاذ جزيرة كريت محطة لهم ومن سهول لمبارديا كان يحمل حاصلات الشرق عبر ممرات الألب إلى وسط أوربا.

ج- الطريق الذي يبدأ من إقليم بحر قزوين أو بحر الخزر والبحر الأسود متجهاً على امتداد نهر الفلجا إلى إقليم بحر البلطيق وشبه جزيرة إسكندناوه وقد قام بالنشاط التجاري في هذا الإقليم تجار من المسلمين وأتراك ويهود وصقالبة وروم وغير ذلك.(٢)

---

* لم نجد في كتاب النرشخي الخاص بتاريخ بخاري إشارة إلى زواج ولد نصر بن أحمد الساماني من ابنة ملك الصين وإنما ورد ذلك حكاية عن أبي دلف مسعر بن مهلهل الرحالة المعروف الذي خرج في رحلة إلى بلاد الصين ويقول عند وصوله خراسان: أبصرت ملكها والموسوم بأمارتها نصر بن أحمد الساماني عنده رسُل قالين بن الشخير ملك الصين راغبين في مصاهرته طامعين في مخالطته يخطبون إليه ابنته فأبي ذلك واستنكره لحظر الشريعة له فلما أبي ذلك راضوه على أن يزوج بعض ولده ابنة ملك الصين فأجاب إلى ذلك (ياقوت، المصدر السابق، ج ٣،ص ٤٤١).

(١) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، ج ٤،ص ٣٨٤.

(٢) جلال الحفناوي: المرجع السابق، ص ٢٢.

المبحث الثاني

١- التجارة مع جزيرة العرب:

لقد قامت سفن الجزيرة العربية منذ زمن بعيد تمخر عباب البحر بين موانئ بلاد العرب الشرقية والهند محملة ببضائع ومنتجات الهند وخاصة الطيب والبخور والحيوانات النادرة التي تنقل إلى ساحل عمان ومنذ القرن العاشر قبل الميلاد كانت لهم دراية بالخليج العربي حيث كانوا ييممون شطر مصر يبيعون بضائعهم لفراعنتها وكانت صعوبة الملاحة في البحر الأحمر سبباً في تفضيل الطريق البري للتجارة بين اليمن وسوريا. كما قام اليمنيون منذ القدم بنقل المتاجر بين بلاد العرب والبلاد المجاورة وظل ذلك على اختلاف دولهم في الأزمان التي تقدمت القرن السادس الميلادي فاستأثروا بتجارة الجزيرة العربية مع غيرها من الممالك يحملون التمر والزبيب والأدم والبخور والحجارة الكريمة والمنسوجات من مواطنها ثم يستبدلونها ببضائع أخرى مع ما يصنعون هم أنفسهم من الأطياب والعطور التي يتخذونها في بلادهم ويبيعونها في أسواق العالم القديم.(١)

كما أن اليمن فضلاً عن أنها مركزاً للاتجار في متاجر بلاد العرب والبلاد المجاورة كانت مركزاً للتجارة الهندية مع البحر الأبيض المتوسط وقد تقلبت هذه العلاقات التجارية تبعاً للدول التي كان من واجبها أن تشرف على البحر الأحمر حيث تنقل هذه المنتجات إما بطريق البحر الأحمر أو بطريق الحجاز ومن ثم توزع في أقطار العالم القديم [مصر – العراق – سوريا – آسيا الصغرى – اليونان – إيطاليا]. (٢)

لهذا الدور التجاري القديم الذي لعبته بلاد العرب الجنوبية قامت بينها وبين مصر وبلاد الرافدين علاقات تجارية قوية منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد بل وأقدم من ذلك بكثير وبالنسبة لمصر فقد كانت تجارتها مع اليمن منذ عهد الفراعنة

---

(١) سعيد الأفغاني: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، (بدون د.) دمشق ، ١٩٦٠، ص ١٩-٢٠.

(٢) نقولا زيادة: المرجع السابق، ص ٢١٥.

حيث كان يجلب التجار المصريون البخور الذي يستعمل في كل هيكل ومعبد في العالم القديم فكان وجوده ضرورياً وحضرموت هي البلاد الوحيدة في العالم القديم التي كانت تنتجه وكان لزاماً على الناس أن يحصلوا عليه منها.[1]

ولما استقر البطالسة في مصر ونظموا شؤونها وأنشأوا لهم أسطولاً في البحر الأحمر نشطت التجارة كثيراً وامتدت المنشآت التجارية المصرية إلى الشاطئ الأفريقي الصومالي وإلى جزيرة سوقطري ومن هناك كان يحمل إلى مصر العاج والعبيد والصدف والفيلة ولمثل هذه المتاجر حفر البطالسة الترعة التي تصل النيل بالبحر الأحمر وأصلحوا الطريق بين "قفط" على النيل وميناء "برنيس" على البحر الأحمر لكن لما ضعف شأن البطالسة أفلتت تجارة البحر الأحمر من أيديهم واقتصر نقل المتاجر على طريق الحجاز البري إلى "بطر" ومنها إلى بقية الأسواق السورية وغيرها وعندما احتل الرومان مصر أدركوا قيمة البحر الأحمر في التجارة فأرسلوا حملة إلى بلاد العرب بقصد احتلال اليمن لكنها فشلت.[2]

وفي العصر الإسلامي زاد عدد السفن المتحركة من الموانئ المصرية على البحر الأحمر إلى بلاد اليمن فزاد الإقبال على منتجات الهند الواردة على موانئ اليمن بزيادة الترف في الدولة العباسية لا سيما في عصر الفاطميين فأصبحت السفن المصرية تأتي من هناك بمتطلبات العصر الراقي والمترف مثل الوشي والعنبر والعقيق الذي كان أجوده البقراني والمرواني والفارسي"[3] كما أن لليمن أشياء قد ملأت الدنيا يقال أنه لا تكون إلا بها وهي الورس والكندر والحلل اليمانية والثياب السعيدية والعدنية والشب اليماني.[4]

وقد ارتبطت مصر بطريقين تجاريين مع بلاد اليمن طريق في البر من مصر إلى مكة ومن مكة إلى عدن نحو شهر وهو طريقان أحدهما على الساحل الشرقي

---

(١) نقولا زيادة: المرجع السابق، ص٢١٥.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢١٨.

(٣) ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص ٧١.

(٤) ابن الفقيه: المصدر السابق، ص ٣٦.

للبحر الأحمر وهو الأبعد والثاني على نجران وجرش وصنعاء وصعدة وهو الأقرب أما طريق البحر فيبدأ من مصر إلى السويس ثلاثة أيام ثم يركب إلى البحر إلى زبيد وعدن وربما عدل المسافرون عن السويس إلى الطور فيطول الطريق في البر ويقصر في البحر وربما وقع السفر إلى قوص في النيل أو في البر ومنها إلى عيذاب أو إلى القصير فيركب في البحر إلى زبيد أو عدن.(١)

ولا شك أنه بفضل التجارة الواسعة في اليمن أن أصبح فيها مراكز تجارية عديدة مثل عدن* وزبيد التي كان يجتمع فيها التجار من أرض الحجاز والحبشة ومصر الصاعدون في مراكب جدة ويخرج منها ضروب الأفاوية الهندية والمتاع الصيني(٢) وقد صارت بفضل هذه التجارة أجمل بلاد اليمن بعد صنعاء وأهلها أغنى الناس لهم البساتين الكثيرة والعمارة والمياه الوفيرة ومع ذلك تميز أهلها بلطافة الشمائل وحسن الأخلاق(٣). ومن المراكز أيضاً مدينة صعدة التي كانت في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) مركزاً مهماً للتجارة تختص بإنتاج الجلود وتصدر منها إلى الخارج.(٤)

أما عن التجارة بين الشام واليمن فقد كان قديماً التدمريون ومن قبلهم الأنباط يعتنون غاية العناية بالتجارة مع جزيرة العرب وذلك لأن التجارة كانت مورد معاشهم فكانت أهم قوافلهم في البر تلك التي تذهب إلى أرض العرب جنوباً لتأتي منها بالذهب والعقيق اليماني والبخور والصبر والعطور العربية واللؤلؤ والأباريز بالإضافة

---

(١) القلقشندي: أبوالعباس أحمد بن على، صبح الأعشي في صناعة الإنشاء ج ٥، نسخة مصورة عن الأميرية القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ١٧.

* لمعرفة مركز عدن التجاري أنظر الفصل الخاص بمراكز التجارة الخارجية من هذا البحث.

(٢) الإدريسي: (أبوعبدالله محمد ابن عبدالله الحمودي) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٤م، ص ٥٣.

(٣) ابن بطوطة: (شمس الدين محمد عبدالله اللواتي الطنجي)، تحفة الأنظار في غرائب وعجائب الأسفار، مج٢، أكاديمية المغرب، ردمك، ١٩٧٢م، ص ١٠٥.

(٤) ابن سعيد: المصدر السابق، ص ٢٣٨.

إلى البضائع الآتية من الهند إلى اليمن مثل العاج والأبنوس والقرود الهندية[١] كما تاجر هؤلاء الأنباط ومن بعدهم أهل تدمر مع الحجاز وكانوا يحملون إلى الحجاز الزيت ودقيق الحواري ويأتون بأدم الحجاز وثيابهم وقد نشطت هذه التجارة بعد الإيلاف الذي أخذه هاشم بن عبد مناف جد الرسولﷺ[٢]. واستمرت تجارة الشام مع الحجاز واليمن في العصر الإسلامي الأول وبلغت أوج نشاطها في العصر العباسي لما حظيت به بلاد الشام من اهتمام في ظل هذه الدولة لما تتمتع به من موقع متميز ومنتجات كثيرة فخرجت القوافل التجارية من الشام إلى تلك المناطق محملة بالمنسوجات القطنية والحريرية بالإضافة إلى دهن البنفسج والكاغد وزيت الزيتون.[٣]

أما عن تجارة العراق مع الجزيرة العربية فقد كانت تجارة العراق في الدرجة الأولى مع منطقة الحجاز بحكم الموقع الجغرافي وبحكم الحج إذ كان حجاج بيت الله الحرام يجلبون كثيراً من السلع إلى العراق بعد عودتهم من الأراضي الحجازية. ونستطيع أن نستدل على قيمة السلع الواردة إلى العراق عن طريق الحجاج إذا ما علمنا أن القرامطة في سنة ٣١٢هـ- ٩٢٤م قد أخذوا جمال الحاج القادم من الحجاز وحصل لهم فيه من الأموال ألف ألف دينار ومن الأمتعة والطيب نحو ألف ألف وسبوا النساء والرجال والأطفال.[٤]

وقد كان الطريق من العراق يبدأ من الكوفة إلى المدينة عشرين مرحلة ومن المدينة إلى مكة عشر مراحل في طريق الجادة ومن الكوفة إلى مكة يوجد طريق أقصر من طريق المدينة بنحو ثلاث مراحل إذا انتهي إلى معدن النقرة عدل عن المدينة حتى يخرج على معدن بن سليم ثم إلى ذات عرق حتى ينتهي إلى مكة.

---

(١) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج ٤،ص ٢٣٤.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٣٩-٢٤٠.

(٣) المقدسي: المصدر السابق، ص ١٨١.

(٤) ابن الجوزي: (جمال الدين أبوالفرج عبدالرحمن)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م، ج ١٣، ص ٢٣٩.

وهناك طريق يبدأ من البصرة فإلى البصرة ثماني عشرة مرحلة ويلتقي مع طريق الكوفة بقرب معدن النقرة.(١)

كانت التجارة الآتية من الحجاز هي الخيل العراب والأدم ونجائب الإبل وأهم ما يلفت الانتباه إلى التجارة في تلك الفترة تجارة الذهب الذي كثر عليه الطلب في العراق فكان تجار الحجاز هم الذين يجلبون الذهب إلى العراق بكميات كبيرة مما أدى إلى انخفاض تدريجي في سعره كما أدى في الوقت نفسه إلى نشاط التجارة مع الهند التي كانت تستعمله كوسيلة للمبادلة التجارية.(٢)

٢- التجارة مع شرق وغرب أفريقيا:

أ- التجارة مع شرق أفريقيا:

إن معرفة العرب بسواحل أفريقيا الشرقية تعود إلى ما قبل التاريخ فتذكر المصادر أن الاتصال الحضاري كان قائماً بين بلاد الرافدين (العراق) وشرق أفريقيا منذ عهد سرجون الأكدي حيث عثر على نقوش سومرية في ساحل أفريقيا الشرقي تدل على وصول أهالي بلاد الرافدين إلى هذه المناطق ويؤكد ذلك وجود بعض العادات والتقاليد المتشابهة في كل من شرق أفريقيا وبلاد الرافدين مثل اتخاذ القرن رمز القوة والجبروت.(٣)

وهذه المعرفة التجارية القديمة يؤكدها صاحب "حضارة العرب" بقوله: إن التجار من العراق كانوا يذهبون إلى سواحل شرق العراق (٤)وقد كان أقصى ما تصل إليه مراكب المسلمين من أهل البصرة وعمان هو سفالة* يبحثون عن الذهب والرقيق. (٥)

---

(١) ابن حوقل: المصدر السابق،ص ٤٦.

(٢) حمدان عبدالمجيد الكبيسي: أسواق بغداد حتى بداية العصر البويهي، دار الحرية، بغداد، ١٩٧٩م، ص ١٨٦-١٨٧.

(٣) جعفر عباس حميدي: تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، دار الفكر، عمان، ٢٠٠٢م،ص ٢٣.

(٤)غوستاف لوبون: حضارة العرب نقله إلى العربية، عادل زعيتر، ط ٤، عيسى الحلبي، ١٩٦٤م،ص ٥٥٦.

* سفالة: آخر مدينة تعرف بأرض الزنج عند التجار قديماً وعرفت بذهبها السفالي (ياقوت، المصدر السابق، ج ٣،ص ٢٢٤).

(٥) عبدالعزيز الدوري: المرجع السابق، ص ١٧٣.

وقد كانت الرحلة من العراق إلى بحار الصين ثم إلى شرق أفريقيا تبدأ من الأبلة وتجتاز عبادان إلى سيراف والصين وقد كانت عمان أحد المراكز الرئيسية التي تمر بها التجارة بين شرق أفريقيا والصين والخليج إلى العراق وغيرها.(١)

ويعد هذا الطريق أهم طريق اتصال بين العرب والأفارقة خاصة عرب الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية وذلك لعاملين أساسيين هما:

أولاً: نشأة عرب اليمن البحرية فقد نشأوا في بيئة بحرية مثالية في جنوب شبه الجزيرة العربية فكانوا بحارة مهرة ركبوا البحار منذ أمد بعيد.

ثانياً: العامل الجغرافي الذي يتعلق بنظام هبوب الرياح على سواحل أفريقيا الشرقية ففي شهر ديسمبر تهب الرياح التجارية من الشمال الشرقي ويستمر هبوبها حتى نهاية فبراير ومن أبريل إلى سبتمبر ينعكس ذلك فتهب رياح شديدة من الجنوب الغربي ولما كان الساحل الشرقي لأفريقيا يتبع خطاً مستقيماً من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي من زنجبار إلى مدخل عدن ومن ثم إلى خليج عمان فقد أصبح التجار الذين يبدأون رحلتهم في سفنهم الشراعية من الشاطئ العربي في الشتاء يستعينون بقوة الرياح المؤاتية في سفرهم جنوباً صوب الساحل الأفريقي بينما في العودة لأوطانهم يجدون أيضاً الرياح مؤاتية للاتجاه صوب بلادهم وبمرور الزمن أصبح للتجار العرب خبرة تامة بمواقيت الرياح واتجاهاتها وأصبحت رحلاتهم من سواحل الخليج العربي إلى الساحل الأفريقي ومدة استقرارهم بهذا الساحل تنظم تنظيماً دقيقاً تبعاً لمواسم الرياح المنتظمة المعروفة لديهم.(٢)

ومع هذه العوامل الإيجابية فإن الطريق إلى شرق أفريقيا لا يخلو من أهوالٍ ومصاعب ومن تلك الصعاب التي تواجه التجار في بحر الزنج ما ذكره صاحب "مروج الذهب" حين قال:"وأرباب المواكب من العمانيين يقطعون هذا البحر إلى جزيرة قنبلوا من بحر الزنج وموجه عظيم كالجبال الشواهق وإنه موج أعمى يريدون بذلك أنه

---

(١) المسعودي: المصدر السابق، ج ١،ص ٢٣١-٢٣٢.

(٢) جعفر عباس حميدي: المرجع السابق، ص ٢٣.

يرتفع كارتفاع الجبال وينخفض كانخفاض ما يكون من الأودية لا ينكسر موجه ولا يظهر من ذلك ككسر أمواج سائر البحار ويزعمون أنه موج مجنون...".[١]

وأياً كانت الصعوبات فقد كانت السفن العربية تبحر من العراق حتى تصل شرق أفريقيا تحمل الخناجر والرماح والزجاج وتقلع من الساحل الشرقي تحمل العاج وجلود السلحفاة وجلود النمور الزنجية[٢] وكانت طريقة تعامل هؤلاء التجار مع زنوج شرق أفريقيا أن يأتي رؤساء الزنج وكبارهم ويرهنون أنفسهم حتى يستوثق منهم بالقيود ويدفع إلى قومهم ما أرادوا من الأمتعة ليحملوها إلى أرضهم ويقتسمونها فيما بينهم ثم يخرجون إلى الصحارى في طلب أثمانها ذهباً ويجيئون به إلى المراكب ويسلمونهم الذهب وبعد ذلك يرفعون عن رؤسائهم الوثاق.[٣]

لقد كانت لمصر أيضاً صلات تجارية بأصقاع أفريقيا الشرقية[٤] امتدت إلى الشاطئ الأفريقي الصومالي حيث ينقل من هناك إلى مصر العاج والعبيد والصدف وهذه الصلات ترجع إلى الهلينيين الذين كانوا ينقلون الفيلة التي ترد إلى شرق أفريقيا والتي كانت عِدة جيوشهم في حروبهم ولمثل هذه التجارة حفر البطالسة الترعة التي كانت تصل النيل بالبحر الأحمر وأصلحوا الطريق بين قفط على النيل وبين موانئ البحر الأحمر.[٥]

وكان لطريق البحر الأحمر دور كبير في هذه التجارة حيث كانت تصل مراكب الأحباش إلى عيذاب محملة بالبضائع من الحبشة وزنجبار حيث كانت تستورد مصر الرقيق من الحبشة وبلاد النوبة.[٦]

لقد عادت التجارة مع أقاليم الدولة العباسية على سكان الساحل الشرقي لأفريقيا بالخير الكثير فقد عاشوا عيشة بذخ وترف في مدن عظيمة الثراء ذات حضارة

---

(١) المسعودي: المصدر السابق، ج ١،ص ٢٣١-٢٣٢.

(٢) الإدريسي: المصدر السابق،ج ١، ص ٦١.

(٣) عبدالعزيز الدوري: المرجع السابق، ص ١٧٣.

(٤) غوستاف لوبون: المرجع السابق،ص ٥٥٦.

(٥) نقولا زيادة، المرجع السابق، ص ٢١٦.

(٦) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢١٦.

مزدهرة جعلت أحد البرتغاليين الذين زاروا المنطقة في بداية القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) يطلق عليها اسم "العربية السعيدة".

وقد دهش البرتغاليون عندما شاهدوا لأول مرة مدناً غنية جميلة تناثرت على طول ساحل أفريقيا الشرقي من سفالة جنوباً حتى مقديشو شمالاً تنتظم بيوتها الزخرفة في صفوف منسقة يعيش أهلها في رخاء ويلبسون الملابس النفيسة وتتحلي نساؤها بالحلي الذهبية الكثيرة وتتكدس في متاجرها أنواع كثيرة من سلع الشرق والغرب.(١)

ومن أهم مدنها التي قامت على الساحل الشرقي واشتهرت بتجارتها الكبيرة مدينة مقديشو على ساحل بحر الهند وهي في أول بلاد الزنج جنوب اليمن وهي مدينة متناهية الكبر وعاصمة تجارية كبرى وأهلها تجار أغنياء تتردد على مينائها سفن كثيرة واشتهرت بالزراعة خاصة زراعة الموز والمانجو والخضر والأرز الذي هو أساس التغذية عندهم وكان سكانها يصنعون الأقمشة التي تسمى ثياب (مقديشو) وهي أقمشة لا نظير لها تصدر إلى مصر وبلاد أخرى(٢) ومنها يجلب الصندل والأبنوس والعنبر والعاج وهي أكثر بضائعهم ولهم بضائع أخرى مجلوبة وقد تميز أهلها بروح الكرم والضيافة فإذا قصدهم التاجر لابد له من أن ينزل على واحد منهم ويستجير به. (٣)

وهناك مدينة كلوة التي توجد على مسيرة شهر ونصف من مدينة سُفالة وهي من أحسن المدن وأتقنها عمارة وبيوتها من الخشب وهي مركزٌ رئيسيٌ للتجارة التي أسهمت في ازدهارها الاقتصادي وتطورها العمراني. (٤)

ومن المدن أيضاً مدينة "ممباسا" التي ترسو بها أنواع كثيرة من السفن الصغيرة والكبيرة وهي كبقية مدن الساحل الشرقي في ذلك الوقت بديعة العمران ذات بيوت شامخة مبنية بالحجارة تنتظم في شوارع منسقة ويرتدي نساؤها الذهب والحرير

---

(١) جعفر عباس حميدي: المرجع السابق،ص ٣٠.

(٢) ابن بطوطة، المصدر السابق، مج ٢،ص ١٢٠.

(٣) ياقوت: المصدر السابق، ج ٥،ص ١٧٣.

(٤) ابن بطوطة: المصدر السابق، ج ١، ص ١٢١.

والملابس الجميلة[١] ومعظم أهل المدينة يقومون باستخراج الحديد من معدنه ويسكن فيها ملك الزنج وأجناده. [٢]

هكذا كانت تجارة المسلمين مع شرق أفريقيا مزدهرة مما أدى إلى استقرار جماعات كبيرة منهم خاصة– عرب جنوب شبه الجزيرة العربية– ورغم أن الذين استقروا في الساحل الشرقي لم يتوغلوا إلا قليلاً في دواخل القارة– نحو الوسط والجنوب– نتيجة لعوامل طبيعية تتعلق بتضاريس المنطقة المعقدة من جبال وأودية عميقة وظروف مناخية صعبة إلا أن العلاقات التجارية دفعت بعضهم إلى الاتصال بتلك المناطق. [٣]

ب– التجارة مع غرب أفريقا:

كان لعرب المغرب صلات تجارية بأقسام أفريقيا وعلى وجه الخصوص الجزء الغربي منها حيث كانت القوافل تتحرك من المغرب محملة بالبضائع المغربية والبضائع القادمة من أوربا ومن البلاد العربية الأخرى متجهة إلى السودان الغربي وكان المغاربة يقومون بدور الوسيط في تصدير البضائع الواردة من الخارج وعن طريق هذه الوساطة نفذت المحاصيل الأفريقية الرعوية أو الإستوائية إلى البحر الأبيض المتوسط ومنه كانت تحمل إلى أوربا كما كانت سلع البحر الأبيض المتوسط تحمل جنوباً إلى قلب الوطن الزنجي. [٤]

وقد ظلت الصحراء هي المنفذ الوحيد والأساسي لتجارة غرب أفريقيا وأصبحت الطرق التي تشق الصحراء محدودة ومعروفة وكانت هذه الطرق تصل بين نقطة وأخرى ومن كل طريق كانت تتفرع عدة مسالك ولا يمكن حصر هذه الطرق ولكن أهمها:

---

(١)ابن بطوطة: المصدر السابق، ج ١،ص ١٢٠.

(٢) الحميري،المصدر السابق، ص ٥٥٢.

(٣) جعفر عباس حميدي، المرجع السابق، ص ٣٧.

(٤) الشيخ الأمين عوض الله: العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين مالي وسنقني ، رسالة ماجستير منشورة ، دار المجمع العلمي، جدة، ١٩٧٩م، ص ١٦٤–١٦٥.

١- الطريق الغربي من سجلماسة كنقطة البداية لكل المدن المغربية والتونسية الساحلية مثل فاس ومراكش وتلمسان ويسير جنوباً حتى مدينة اودغست. [١]

٢- الطريق الذي يبدأ من غدامس كنقطة بداية لكل المدن الليبية الساحلية من بنغازي وطرابلس ويمر جنوباً عبر مرتفعات "غان" ثم إلى فزان ومنها إلى مرتفعات "أهير" في بلاد الهوسا.

٣- الطريق القادم من الواحات ويسير إلى فزان حيث يتصل به الطريق القادم من طرابلس ويسير عبر مرتفعات "بلما" ويصل إلى بلاد البرنو ووداي. [٢]

٤- الطريق الذي يبدأ من أغادير الواقعة على شاطئ الأطلس عند مصب نهر السوس ويسير جنوباً ويستمر في سيره حتى يصل إلى مصب نهر السنغال.[٣]

ويبدو من وصف الرحالة لهذه المدن التي كانت بمثابة محطات للتجارة أن السفر عبر هذه الطرق لم يكن شاقاً فمدينة سجلماسة التي كانت نقطة البداية لهذا الطريق وصُفت بأنها مدينة عامرة ومتحضرة ودورها جميلة وسكانها أثرياء بسبب تجارتهم مع بلاد السودان وبها مساجد جميلة ومدارس وذات سقايات عديدة يُجلب ماؤها من النهر[٤] وعن يسار فاس إلى سجلماسة إقليم "أغمات" وهو عظيم العمران فيه مدينة كثيرة الخير والتجارة ومنه إلى سجلماسة نحو ثماني مراحل وكذلك من سجلماسة إلى فاس ومن ورائها إلى ناحية البحر المحيط السوس الأقصى[٥] وكذلك الحال بالنسبة لمدينة اودغست التي ينتهي عندها الطريق الأول فقد كانت مدينة عامرة يسكنها أخلاط من البربر المسلمين تشتمل على عدد كبير من المساجد

---

(١) البكري: المسالك والممالك، حققه أدريان فان ليوفن، الدار العربية للكتاب، ١٩٩١م، ص ٨٥١.

(٢) فيصل محمد موسي: موجز تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، منشورات الجامعة المفتوحة، بنغازي، ١٩٩٧م،ص ٥١.

(٣) جعفر عباس حميدي: المرجع السابق، ص ٢٦.

(٤) الوزان: (الحسن بن محمد الفاسي، المعروف بليون الأفريقي)، وصف أفريقية، ج ٢، ترجمه محمد حجي محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣م، ص ١٢٧.

(٥) ابن حوقل: المصدر السابق،ص ٩١.

والمؤسسات والأسواق التي يتم فيها تبادل منتجات المغرب بالعبيد والذهب الذي كان يأتي إليها من الأطراف الجنوبية. [١]

وكذلك الطريق الثاني كانت محطاته مدن عامرة مثل غدامس التي كانت منطقة كبيرة يوجد بها القصور والقرى المأهولة على بعد ثلاثمائة ميل من البحر المتوسط وسكانها أغنياء لهم بساتين ونخل وأموال بسبب تجارتهم مع أهل السودان ونفس الوصف ينطبق تماماً على مدينة فزان. [٢]

والمكان الوحيد الذي يواجهون فيه شح الماء هو صحراء "سير" التي يقطعها المسافرون ما بين سجلماسة وغانا وهي طويلة وعريضة يكابدون فيها العطش ووهج الحر وربما هبت ريح جنوبية ونشفت الماء التي في القرب فيعيدون إليها المياه التي في بطون الإبل ويجعلون على أفواها الكمائم لئلا تأكل شيئاً فإذا نشف ماؤهم بالريح نحروا جملاً جملاً وشربوا ما في بطنها وأسرعوا السير حتى إذا وردوا مكاناً آخر للماء ملأوا منه أسقيتهم وساروا حتى يصلوا الموضع الذي فيه أصحاب التبر. [٣]

أما في غير هذا الموضع فالماء موجود في أماكن عديدة ويتزودون بالماء من يومين إلى أربعة إلى خمسة وستة أيام[٤]. وهذا ما يؤكده البكري[٥] بقوله: "إن الماء متوفر في الصحراء ويوجد على مسيرة يوم أو ثلاثة أيام.

والواقع أن هناك ثورة حقيقية حدثت في تجارة الصحراء وذلك باستعمال الجمل وهو حيوان آسيوي جاء لبلاد العرب ثم انتقل إلى مصر لأول مرة على يد الفرس في القرن الرابع قبل الميلاد حيث استولى يوليوس قيصر على ستة وأربعين جملاً من منطقة غربي "سيوه" وبعدها أكثر الرومان من استخدام الجمل ومنها انتقل إلى شمال أفريقيا وغربها[٦] ولا يوجد أي دليل على استخدام الجمل في شمالي أفريقيا قبل

---

(١) ابن سعيد: المصدر السابق، ص ٢٣٤.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج ٢،ص ١٤٦-١٤٧.

(٣) ياقوت: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٢، ابن سعيد، المصدر السابق، ص ١١٣.

(٤) الإدريسي: المصدرق السابق، ج ١،ص ١٩.

(٥) المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، المصدر السابق، ص ١٦٣-١٦٤.

(٦) إبراهيم على طرخان: دولة مالي الإسلامية،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٧٣م،ص ١٤٨.

العصر الروماني أما قبله بقليل فقد استخدمت في مصر الحمير للحمل وللركوب في الرحلات كما كانت الحمير معروفة في ليبيا في القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد. (١)

ونسبة للمؤهلات الطبيعية التي حباها الله عز وجل للجمل من أرجل طويلة ذات أخف مشقوقة تتحمل السير في الصحراء ومن مقدرة على تحمل العطش- فقد بدأ به عصر ازدهار التجارة وتطورها. (٢)

على هذه الطرق تحركت القوافل من المراكز التجارية في المغرب لتصل إلى المراكز الأخرى التجارية في السودان الغربي التي تقوم باستقبال هذه القوافل المنحدرة من الشمال عبر الواحات لتقدم لها الطعام والماء والمأوي وتقوم بتبادل سلعها مع السودان الغربي، وكانت أهم السلع التي يأخذونها من السودان الغربي هي:

١- الذهب: إن أول من أشار من المؤرخين إلى ذهب غرب أفريقيا هو هيرودوت حين أشار إلى تجارة القرطاجنيين الصامتة وظل ذهب غرب أفريقيا سراً دفيناً لفترة استمرت زهاء ألفي عام وقد بُذلت جهودٌ كثيفة للكشف عنه وأدى البحث عن مصدر الذهب إلى اصطدام السفن النصرانية بالجيوش الإسلامية وكلف الناس كثيراً وفقد الآلاف أرواحهم. (٣)

يوجد الذهب بكميات كبيرة في غرب أفريقيا لا سيما في غانا التي يقول عنها ابن حوقل: (٤) "وغانا أيسر من على وجه الأرض من ملوكها بما لديه من الأموال المدخرة من التبر المثار على قديم الأيام للمتقدمين من ملوكهم" "فالذهب ينبت في رمال هذه البلاد كما ينبت الجزر".(٥)

---

(١) محمد عبدالفتاح إبراهيم: أفريقيا من السنغال إلى نهر النيجر، الانجلو المصرية، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٧٢.

(٢) فيصل محمد موسي: المرجع السابق، ص ٥٠.

(٣) الشيخ الأمين عوض الله: المرجع السابق،ص ١٥٥.

(٤) صورة الأرض ، المصدر السابق، ص ٩٨.

(٥) ياقوت: المصدر السابق ، ج٢ ،ص ١٢.

ومن أهم مناطق تواجد الذهب بغانا أرض "ونقارة" التي كانت خفية على الناس غامضة وإن كنا نعرف الآن أنها بالقرب من منبع نهر السنغال بينها وبين غانة ثمانية أيام وهي موصوفة بكثرة الذهب وحسنه. وقد وصفها صاحب "نزهة المشتاق" بأنها جزيرة طولها مائة ميل وعرضها مائة وخمسون ميلاً والنيل يحيط بها من كل جانب في سائر السنة فإذا فاض النيل غطى هذه الجزيرة أو أكثرها وأقام عليها مدته وبعد أن يأخذ في الرجوع والجزر جاء كل من في بلاد السودان يبحثون طول أيام رجوع النيل عن الذهب وما يخيب منهم أحد ثم يبيعون ما حصلوا عليه من التبر لأهل المغرب الذين يخرجونه إلى دور السكة في بلادهم فيضربونه دنانير ويتصرفون بها في التجارة. (١)

ويقال أحسن الذهب في غانا ما وجد في منطقة "غيارو" التي تقع على مسيرة ثمانية عشر يوماً من غانا يسكنها الزنج في قرى متراصة في الإقليم كله وكل كتلة من الذهب يجدها المنقبون يبعثون بها تواً للملك يحرزها بنفسه أما التبر فيتركه لشعبه يتصرف فيه كيف يشاء. (٢)

ووجود الذهب بكميات كبيرة في منطقة غانا يؤكده لنا ما روى من قصص تفوق الخيال عن ملك غانا الذي يملك قطعة ثقيلة من الذهب وزنها ثلاثون رطلاً من ذهب تبرة واحدة خلقها الله عز وجل تامة من غير أن يُسبك في نار كان يربط عليها حصانه دون أن يخشى عليه أن يفلت(٣) كما أن أحد ملوك مالي وهو "كانكان موسى" صحب معه إلى مكة خمسمائة رقيق يحمل كل واحد منهم عصا من ذهب تزن ستة أرطال وتمضى الرواية وتحدثنا بأن جماله كانت تحمل مائة حمل من الذهب زنة كل منها ثلاثمائة رطلاً. (٤)

---

(١) الإدريسي: المصدر السابق، ج ١،ص ٢٤-٢٥.

(٢) إذل دافدسن: أفريقيا تحت أضواء جديدة، ترجمة جمال محمد أحمد، دار الثقافة للطباعة والنشر (بدون م) ، ١٩٦١م،ص ١٤٢.

(٣) الإدريسي: المصدر السابق، ج ١،ص ٢٣.

(٤) إذل دافدسن: المرجع السابق،ص ١٤٢.

والرحلة إلى بلاد الذهب يصفها صاحب "معجم البلدان" بقوله: "يسافر التجار من سجلماسة إلى غانا ويحملون منها الجمال الوافرة القوية ويحملون الماء من بلاد لمتونة – وهم قوم من بربر المغرب– في الأسقية والروايا ويرونها فاسدة مهلكة ليس لها من صفات الماء إلا السيولة وأول ما يشربونها تتغير أمزجتهم ويسقمون خاصة من لم يشربها قبل ذلك حتى يصلوا غانا بعد مشاق عظيمة فينزلون فيها ويستصحبون الأدلاء ويستكثرون من حمل المياه ويأخذون معهم جهابذة وسماسرة لعقد المعاملات بينهم وبين أرباب التبر..." [١].

يبدو أن حجم تجارة الذهب كان كبيراً واستمرت هذه التجارة لمدة قرون مما يؤكد الدور الهام الذي لعبه السودان الغربي والمغرب بالنسبة للعالم في حركة التمويل بهذه السلعة الهامة كما لعبت هذه التجارة دوراً كبيراً في نمو العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي لعدة قرون وساعدت على ازدياد اتصال شعوبها وانتشار الإسلام والحضارة في بلاد السودان الغربي غير أن الصراع على الذهب أدى إلى تحطيم مملكة صنغي* على أيدي السعديين واستيلائهم عليها أملاً في الحصول على الذهب في نهاية القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ومن المؤكد كذلك أن الذهب كان من أهم الإغراءات التي شجعت حركة الكشوف الجغرافية في غرب أفريقيا وإلى استعماره فيما بعد على أيدي الأوربيين[٢]

٢– الرقيق:

---

(١)ياقوت: المصدر السابق، ج ٢،ص ١٢.

* مملكة صنغي: تقع على الضفة اليسرى لنهر النيجر ويتألف الصنغي من عدة جماعات تزاول الزراعة والقنص وصيد السمك وكانت عاصمتهم الأولى كوكيا ثم أصبحت مدينة (جاو) منذ القرن الحادي عشر الميلادي (جعفر عباس حميدي، المرجع السابق، ص ٥٢) ازدهر ملكهم وأثروا عن طريق تبادل الحاجات بين الجنوب والشمال ولم يعرف تاريخهم بدقة إلا ابتداء من القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ودانت إمبراطوريتهم في مبدأ الأمر لمالي ثم تحررت من هذه التبعية فيما بعد (أحمد سويلم العمري، الأفريقيون والعرب، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٧م،ص ٢٨).

(٢) الشيخ الأمين عوض الله : المرجع السابق، ص ١٥٨.

مثل غيرها من الشعوب كانت أفريقيا مصدراً هاماً لتصدير الرقيق منذ أقدم العصور فحضارات قدماء المصريين واليونان وروما وقرطاجنة في شمال أفريقيا كلها كانت تستورد ضمن ما تستورد من منتجات أفريقيا الرقيق الأفريقي. كما كان الرقيق من أهم الصادرات إلى الهند والجزيرة العربية وإيران والعراق وقد كان من نتاج كثرة الزنج في البصرة أبان الدولة العباسية قيامهم بثورة عرفت بثورة الزنج لم تستطع أجهزة الدولة إخمادها إلا بعد فترة طويلة وأصبح لهم نفوذ كما كان من نتاج وصول أعداد كبيرة من الزنج أن كونوا سلالات في الهند وأصبح لهم نفوذ. (١)

كانت تجارة الرقيق تمثل إحدى السلع التجارية الهامة بين بلاد السودان والمغرب ومن الظواهر التي تدل دلالة واضحة على تزايد أعداد الرقيق بمدينة فأس في عهد المرابطين ثم الموحدين (٤٤٨-٦٦٨هـ) (١٠٥٦-١٢٦٩م) أن كانت لهم بمدينة فأس سوقاً في قصبة المرابطين يباع فيه الزنوج من الجنسين وكانت أسعار الرقيق في أسواق السودان زهيدة تمكن التجار من شراء الأعداد الكبيرة منهم وكانوا يستخدمون في التجارة والبعض الآخر منهم يستخدم في أعمال الحراسة والأعمال المنزلية فقد كان امتلاكهم يمثل مظهراً من مظاهر الثراء في ذلك الوقت. (٢)

وقد زاد الطلب في شمال أفريقيا على الرقيق الزنجي للتصدير إلى مصر وتركيا أولاً ثم للخدمة عندهم بنسبة أقل. وجرى تجار الرقيق على التأكد من أن رقيقهم بحالة صحية جيدة قبل عبور الصحراء وكان الذكور منهم يكبلون بالسلاسل ولم يكن يستطيع عبور الصحراء إلا الأقوياء وهؤلاء يصلون إلى فزان على شكل هياكل بشرية وهناك ينالون قسطاً من الراحة ثم يسمنون ليزيد الإقبال عليهم في أسواق طرابلس وبنغازي حيث يباعوا بأسعار مربحة قد تصل إلى ٥٠٠%.(٣)

ولم يقتصر استخدام الرقيق على المغرب وتركيا ومصر وأسبانيا وأوربا المسيحية فحسب بل استخدمه الناس في السودان الغربي، كذلك فقد كان يملك القادرون أعداداً ضخمة من العبيد ويستخدمونهم في أعمالهم الخاصة فضلاً عن

---

(١) فيصل محمد موسي: المرجع السابق، ص ٦٧-٦٨.

(٢) جمال أحمد طه: المرجع السابق،ص ٢٤٠.

(٣) الشيخ الأمين عوض الله: المرجع السابق، ص ١٦٠.

الطلب المتزايد للرقيق للتصدير إلى الشمال وإلى أوربا كانت هناك حاجة ملحة للرقيق ونتيجة لذلك أصبحت الغارات على القبائل الوثنية في التلال والغابات الشغل الشاغل للمسلمين في كل السودان الغربي. (١)

أخذت تجارة الرقيق في منتصف القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) طابعاً آخر على يد البرتغاليين فقد كانت من أهم الدوافع التي خرج لها البرتغاليون من بلادهم هي الوصول إلى الهند بشاطئ أفريقيا الغربي وذلك بغرض التجارة والحصول على البهارات والبخور والذهب الذي يتواجد في غرب أفريقيا عند غينيا وساحل الذهب وعندما اصطدموا بالأفريقين قبل منتصف القرن نفسه استولوا على رقيق منهم حملوه إلى لشبونه واكتشفوا أن هذه تجارة مربحة فربطوا بين رحلاتهم الاستكشافية والحصول على الرق حتى وصلوا إلى الهند وكانوا يسخرون هؤلاء الرقيق في دفع مراكبهم الشراعية الضخمة واستطاعوا أن يعودوا بأعداد كبيرة منهم إلى أوربا وقد أقاموا على طول الساحل الغربي قلاعاً ومراكز لتزويد السفن وأخذ الرقيق الذي يبيعه الأفريقيون لهم وهكذا كان البرتغاليون أول من أسهم في جلب الرقيق إلى أوربا وانتقل الأمر بعد ذلك إلى بقية الدول الأوربية الأخرى. (٢)

أدت تجارة الرقيق والإغارات لصيده إلى تدهور الإنتاج المحلي وقلة الأيدي العاملة وخلفت اغارات تجارة الرقيق وراءها قرى محترقة وقتلى تغطى جثثهم الأرض بينما يقتاد المغيرون قطيعاً من البشر يشمل الشباب والنساء والفتيان إلى مصير مجهول. (٣)

ومع أن المجتمعات تدمرت بسبب تجارة الرقيق إلا أن هذه التجارة أدخلت إلى القارة مصدرين أساسيين من ثروتها الحالية وهما زيت الأراشيد والكاكاو اللذان

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٦١.

(٢) فيصل محمد موسي: المرجع السابق، ص ٦٨-٦٩.

(٣) الشيخ الأمين عوض الله: المرجع السابق، ص ١٥٩.

يشكلان اليوم أكثر المنتوجات التي تصدرها أفريقيا الغربية وقد أدت زراعة هذين الصنفين إلى تغيير في نظام الملكية هناك. (١)

كان الذهب والرقيق أهم ما يحمل من بلاد السودان إلى المغرب ومع ذلك كانت هناك سلعاً كثيرة تصدر إلى هناك مثل العاج(٢) وريش النعام والجلود والدخن والفول السوداني والقطن الذي جُلبت بذرته من شمال أفريقيا. (٣)

أما السلع التي تأتي من المغرب إلى السودان الغربي فكثيرة جداً ومن أهمها:

١ - الملح:

يعتبر الملح من أهم السلع الذي شكل مع صادر الذهب عندهم العمود الفقري للعلاقات التجارية بين المغرب الأقصى والسودان الغربي حيث لم يمانع السودانيون منذ القدم من مبادلة الملح بنظيره الذهب، ويوجد الملح عندهم في "تغازة" وهي قرية بيوتها ومسجدها من الملح ولا يوجد بها شجر إنما هو رمل فيه معدن الملح يحفر عليه في الأرض. ولا يسكنها إلا عبيد "مسوفة" الذين يحفرون على الملح ويتعيشون بما يجلب إليهم من تمر درعة وسجلماسة ومن لحوم الجمال ويسيطر عليها البربر وفي بعض الأحيان يصل السودانيون إلى تغازة ليقوموا بحمل الملح بأنفسهم مقابل أجرة يعطيها لهم التجار المغاربة تعادل ثلاثة أرباع قيمة الملح المحمول. (٤)

وكانت طريقة تعدين المح في تغازة أن تحفر عليه الأرض كما تحفر عن سائر المعادن والجواهر ويوجد تحت قامتين أو دونهما من وجه الأرض ويقطع كما تقطع الحجارة ومنه يتجهز بالملح إلى سلجماسة وغانة وسائر السودان والعمل على التعدين متصل والتجار إليه متسايرون. (٥)

٢ - الودع:

---

(١) دنيس بولم: الحضارات الأفريقية، ترجمة على شاهين، مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ، ص ١٤٦.

(٢) المسعودي: المصدر السابق، ج ٢،ص ٧.

(٣) الشيخ الأمين عوض الله: المرجع السابق، ص ١٦١-١٦٣.

(٤) ابن بطوطة: المصدر السابق، مج ٤،ص ٢٤١.

(٥) البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب،ص ٢٧١.

والودع هو الأصداف الصغيرة وهو حيوان يلتقطونه من البحر ويضعونه في حفر هناك فيذهب لحمه ويبقي عظمه أبيض[1] ويعتبر سلعة تجارية هامة كان التجار المغاربة يجلبونه إلى السودان من الهند حيث يتوفر هناك بكميات كبيرة ويباع بحساب ألف ومائة وخمسين للدينار من الذهب ويتخذ الودع كحلى شائعة الاستعمال في السودان الغربي بجانب استعماله كعملة تداولية. [2]

٣- النحاس:

من السلع أيضاً النحاس الذي يوجد خارج مدينة تكدا يحفرون عليه الأرض فإذا سكبوه نحاساً أحمراً صنعوا منه قصباناً في طول شبر ونصف بعضها رقاق وبعضها غلاظ وتباع الغلاظ منها بحساب أربعمائة قضيب بمثقال ذهب وتباع الرقاق بحساب ستمائة بمثقال من الذهب. [3]

بالإضافة إلى هذه السلع كانت الأقمشة عموماً ترد إلى السودان الغربي من المغرب وكذلك عقد خشب الصنوبر وحرز الزجاج الأزرق وأسورة النحاس الأحمر وحلق وخواتيم النحاس. [4]

أما عن طريقة التعامل المالي والتجاري فقد تنوعت وسائل المعاملة مع هؤلاء الزنوج ومن أقدم وسائل ذلك ما يسمى بالتجارة الصامتة وذلك عندما يصل التجار من سجلماسة إلى موضع التبر ويخرجوا ما صحبهم من بضائع المغرب المذكورة سابقاً فيضع كل تاجر ما يخصه من ذلك كل صنف على جهة ويذهبون عن الموضع مرحلة فيأتي السودان ومعهم التبر فيضعون إلى جانب كل صنف منه مقداراً من التبر وينصرفون ثم يأتي التجار فيأخذ كل واحد ما وجد بجانب بضاعته من التبر ويتركون البضائع وينصرفون بعد أن يضربوا الطبول. [5]

---

(١) دنيس بولم: المرجع السابق، ص ١٤٤.

(٢) ابن بطوطة: المصدر السابق، مج ٤،ص ٦٠.

(٣) المصدر نفسه، والجزء، ص ٢٧٥.

(٤) ياقوت: المصدر السابق، ج ٢،ص ١٢.

(٥) المصدر نفسه ج ٢ ، ص ١٢.

وهناك وسيلة تعامل يرجع تاريخها إلى القرن الرابع الهجري(العاشر الميلادي) وهي الصكوك وقد أشار صاحب (صورة الأرض) إليها قائلاً: أنه رأى في أودغست صكاً باثنين وأربعين ألف ديناراً. [١]

ومن وسائلهم في المبايعة أيضاً الملح وفي ذلك يقول صاحب تحفة الأنظار: "وتبدو أهمية الملح القصوى عند السودانيين من اتخاذه عملة شرائية وبالملح يتصارف السودان كما يُتصارف بالذهب يقطعونه قطعاً قطعاً ثم يتبايعون به". [٢]

كما استعملوا الذهب الخالص بدلاً من العملة المسكوكة وذلك في مناطق الذهب مثل غانا ومع الذهب استعملوا قطع الحديد لشراء أشياء بسيطة كاللبن والخبز والعسل[٣] كما استعملوا لشراء الأشياء البسيطة الودع أيضاً وتساوى أربعمائة منه مثقالاً واحداً وتساوي الأوقية الرومانية من الذهب عندهم ستة مثاقيل وثلثي مثقال[٤]. كما كانوا يتبايعون بقضبان النحاس الرقاق وهي صرفهم يتعاملون بها في شراء اللحم والحطب أما الغلاظ فيتعاملون بها في شراء العبيد والخدم والذرة. [٥]

لقد لعب المغرب دوراً كبيراً في تاريخ التجارة مع السودان الغربي ويشهد لهم بذلك صاحب "حضارة العرب" قائلا: "لقد كانت قوافلهم تذهب من بلاد المغرب في الصحراء الكبرى غير خائفة من المغامرة في رمالها التي تمتد من ضفاف النيل إلى المحيط الأطلنطي والتي تبلغ مساحتها نحو مئاتين ألف فرسخ وغير خائفة من الانتشار في بلاد السودان والحق أن العربي خط طرقه بين سكان أفريقية بحروف لا تمحى والحق أن جميع السياح المعاصرين أجمعوا على الإشادة بما نجم عن هذا من الإصلاح في تكوين هؤلاء بدناً وخلقاً وعقلاً".[٦]

٣- التجارة مع أوربا:

---

(١) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٩٦.

(٢) ابن بطوطة: المصدر السابق، مج ٤،ص ٢٤١.

(٣) الوزان: المصدر السابق، ج ٢،ص ١٦٣.

(٤)الوزان: المصدر السابق، ج ٢،ص ١٦٧.

(٥) ابن بطوطة: المصدر السابق، مج ٤،ص ٢٧٥.

(٦) غوستاف: المرجع السابق، ص ٥٥٨.

التجارة مع شرقي أوربا:

لقد أثبتت الوثائق وجود صلات تجارية بين العرب وشمال وشرق أوربا وتتألف هذه الوثائق من نقود تركها العرب في الطرق التي يمرون منها فتكشف أعمال الحفر عنها في كل يوم. ومن هذه النقود عُلم أن نقطة البداية لتلك التجارة هي سواحل بحر قزوين حيث كان يجتمع تجار المراكز التجارية الكبرى كدمشق وبغداد وسمرقند وغيرها ويسيرون منها مع نهر الفولجا إلى مدينة بلغار الواقعة لدى قدماء البلغار في روسيا والتي كانت مستودعاً تجارياً بين آسيا وشمال أوربا.[١]

ويظهر أن العرب لم يجاوزوا بلغار وكان تجار أمم أخرى يأخذون السلع صاعدين مع نهر الفلجا غير تاركين له إلا لينزلوا إلى البحر البلطي ويصلوا إلى خليج فنلدة وكانت نوفغورود وتشلزويغ ولا سيما جزر البحر البلطي وغونلذ وبروفهولهم أهم مستودعات شمال أوربا وقد عدت النقود العربية التي وُجدت في هذه المستودعات بالمئات تدل تواريخ تلك التي وجدت في روسيا عند مصب نهر الفلجا إلى شواطئ البحر البلطي على أن بدء التجارة العربية كان في عهد الخلفاء الأولين وأن ختامها لم يجاوز أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وبذلك تكون قد دامت نحو أربعة قرون [٢].

كانت تجارة العراق مع شرق أوربا تسلك الطريق البري –بحكم الموقع الجغرافي– الذي يمر ببغداد إلى همدان والري ونيسابور ومرو وبخاري وسمرقند حتى يتشعب إلى فرعين يذهب الشمالي إلى خوارزم والشرقي إلى الصين وكانت خوارزم* محطة مهمة للتجار الذين يتاجرون مع الترك وأواسط آسيا وأوربا الشرقية فقد كان رقيق الصقالبة** والخزر والأتراك والأوبار والسمور وجلود الثعالب يحط وينزل

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٥٥٩.

(٢) غوستاف لوبون: المرجع السابق ، ص ٥٥٩-٥٦٠

* خوارزم: ناحية من نواحي ما وراء النهر يرتفع منها ثياب القطن والصوف وهم أهل يسار (ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٣٩٧).

** رقيق الصقالبة: كان الروس يغزون الصقالبة ويركبون السفن حتى يخرجوا إليهم ويسبونهم فيخرجونهم إلى الخزر والبلغار ويبيعونهم (ابن رسته، أحمد بن عمر، الأعلاق النفيسة، ليدن ١٨٩١م، مج ٧،ص ١٤٥).

بخوارزم فكان بذلك أهلها أصحاب يسار وأموال من متاجرة الأتراك والروس والبلغار. (١)

كما كان هناك الطريق البحري الذي يبدأ من شمال الروس إلى المشرق وهو الطريق الذي سلكه الروس بحراً. (٢)

كانت سفن المسلمين تصل إلى بلغار وليس هناك ما يدل على أن تجار الغرب كانوا يذهبون إلى ما هو أبعد من بلاد البلغار(٣) وكان البلغار إذا جاءتهم سفن المسلمين للتجارة أخذوا منهم العشر وأموالهم تسمى "الدلق" وهي دارهم ويتراوح الدلق الواحد ما بين درهمين أو درهمين ونصف ويحملون الدراهم البيض المدورة من نواحي البلاد الإسلامية يبتاعونهم منهم(٤) كما كانت معاملتهم مع روسيا تجرى السكة الفضية حتى بداية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وقد أدخلت في روسيا كميات كبيرة من السكة الفضية التي وردت إلى الممالك الإسلامية ثم تحول نظام السكة الفضية الذي بقي من عهد الدولة الساسانية إلى نظام السكة الذهبية. (٥)

إن أهم ما يرد إلى الشرق الإسلامي من بلاد البلغار والروس الفراء حيث كانت تجارته ذات شأن في بلغار وهذا هو السبب الذي اجتذب إليها الخزر والروس(٦) بالإضافة إلى الجلود المصنعة صناعة دقيقة والعسل وشمعه والأحذية البلغارية التي كانت ذات شهرة عالية بالإضافة إلى الكتان الروسي الذي بلغ أيضاً شهرة كبيرة ووصل الروس مع البلغار من أجل هذه التجارة جهات "خوالم" حتى بحيرة آرال ومنها إلى "اوركنج" عاصمة خوارزم. (٧)

---

(١) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٣٩٨.

(٢) ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص ١٥٤ لمعرفة تفاصيل هذا الطريق البحري أنظر المبحث الأول من هذا الفصل.

(٣) غوستاف: المرجع السابق، ص ٥٦١.

(٤) ابن رسته: المصدر السابق، مج ٧،ص ١٤٢-١٤٣.

(٥) بارتولود: تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، دار المعارف، مصر ١٩٦٦م،ص ١٣٢.

(٦) دائرة المعارف الإسلامية، مج ٤،ص ٢٩٤.

(٧) بارتولود: المرجع السابق،ص ١٢٢.

ومما زاد الصلات التجارية مع البلغار اتصالهم بمملكة السامانيين لأسباب جغرافية فهناك سكة فضية تحمل اسم الأمير البلغاري طالب بن أحمد ضربت في سنة ٣٣٨هـ ٩٤٩م وكان على السكة السامانية المعاصرة اسم الخليفة المستكفي كما وُجدت سكة للمأمون بن أحمد ويحتمل أن يكون أخا طالب وخلفه الذي حكم أيام الخليفة المطيع إلى عام ٣٦٣هـ- ٩٧٤م (١).

---

(١)دائرة المعارف الإسلامية ج٤، ص ٢٩٤.

ب- التجارة مع المدن الإيطالية:

إن العلاقات التجارية بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي في العصور الوسطي قبل بداية الحركة الصليبية كانت اتصالات محدودة وفي نطاق ضيق لكن بظهور الصليبية في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) توسعت الحركة التجارية حيث كانت الأسباب الاقتصادية التجارية من أعظم العوامل في الحروب الصليبية كما كان لها أكبر الأثر في تحريك القوة البحرية التجارية الإيطالية (جنوة وبيزا والبندقية) للإسهام في الحركة الصليبية وتقديم المساعدات للصليبين مقابل ما حصلت عليه تلك المدن التجارية من امتيازات واسعة في موانئ الشام ومدنه التي سقطت بأيدي الصليبيين ولم يلبث التجار الأوربيون أن أسسوا لأنفسهم مراكز ثابتة في عكا* وصور وصيدا واللاذقية وغيرها من الموانئ. (١)

وعلى الرغم مما دار بين المسلمين والصليبيين من عداء وصراع طويل أكثر من قرنين من الزمان (٤٩١-٦٩٢هـ) (١٠٩٦-١٢٩١م) فأن التجارة بين الجانبين ظلت قائمة وبخاصة حين يتوقف القتال وتعقد الهدن وليس أدل على ذلك مما ذكره صاحب "الرحلة" في رحلته حين زار بلاد الشام ورأي التبادل التجاري القائم بين المسلمين والصليبين فقال: ومن أعجب ما يحدث في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين(٢) كما أشار في موضع آخر إلى رحلته في الرجوع إلى الأندلس مع قافلة إلى "عكا" التي كانت ملتقى تجار المسلمين

---

* لقد بقيت عكا بخليجها الطبيعي الوحيد على طول الساحل مرسي السفن الأول في العصور الوسطي ولما كثر اعتماد سكان الشام في طعامهم على الأرز عظم شأن عكا لأنها كانت الميناء الوحيد لتوريده وكان الناس يقولون: إذا أراد باشا عكا تضرب المجاعة أطنابها في الشام ولذلك صار امتلاك عكا ضروباً لكل فاتح فحوصرت أكثر من سائر مدن الشام وكان اتصالها بأوربا أكثر من سواها (محمد كرد على، المرجع السابق، ج ٢،ص ٢٤٤).

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطي ج ٢ ط ٣ مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة، ١٩٧٦م،ص ١٢٠٠.

(٢) ابن جبير: المصدر السابق، ص ٢٧١.

والنصارى حيث نزلت تلك القافلة بأمان في مكان معد لنزول القوافل الإسلامية في ضيافة ناظر المسلمين المقدم من جهة الإفرنج. (١)

ومما يبرهن أيضاً على ما أصابته التجارة من حرية أن الصليبيين قدموا إلى دمشق سنة ٦٣٨هـ-١٢٤٠م لشراء السلاح من أسواقها لمحاربة المسلمين وذلك بعد تحالف الملك الصالح إسماعيل مع الصليبيين ضد أخيه نجم الدين صاحب مصر فأفتي شيخ الشافعية بعدم جواز بيع الأسلحة للصليبيين طالما أنها تستخدم لقتال المسلمين. (٢)

ولم تفقد بلاد الشام أهميتها التجارية إلا بعد غزو المغول للعراق وقفلهم طريق الخليج العربي الذي كان يربط بغداد ودمشق وموانئ الشام واتخذ المغول الطريق البري عبر إمبراطوريتهم حتى البحر الأسود ثم أوربا دون الحاجة للمرور ببلاد الشام. أما طريق مصر والبحر الأحمر فقد ظل بعيداً عن خطر المغول وتهديدهم فتركز فيه الجزء الأكبر من تجارة الشرق الأقصى وصارت الإسكندرية ودمياط مركزاً لنشاط تجاري كبير فقصدتها سفن البنادقة والبيازنة والجنوية فضلاً عن تجار مرسيليا وأسبانيا لإبتياع التوابل والبخور والحرير وغيرها من منتجات الشرق الأقصى. (٣)

مما سبق يتضح أن أكثر أمم أوربا انتفاعاً من الحروب الصليبية الإيطاليون من أهل جنوة وبيزا والبندقية وأمالفي وهؤلاء كانت قصورهم في الشام تدل على ذلك. كما أن سفن الطليان هي أهم الأساطيل التجارية في القرون الوسطي. (٤)

قامت علاقة تجارية واسعة بين هذه المدن الإيطالية الكبرى مثل أمالفي وبيزا وجنوة والبندقية من ناحية وبين الدولة الفاطمية في مصر والشام والأقطار الإسلامية

---

(١) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٧٥.

(٢) على محمد عودة الغامدى: بلاد الشام قبيل الغزو المغولي (٥٨٩-٦٥٧هـ) (١١٩٣-١٢٥٩م)، ط ١ مكتبة الطالب، مكة، ١٩٨٨م،ص ٤٥٩.

(٣) سعيد عاشور: المرجع السابق،ج ٢،ص ١٢٠٠-١٢٠١.

(٤) محمد كرد على: المرجع السابق، ج ٢،ص ٢٤٤.

الواقعة على الشاطئ الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط من ناحية أخرى. ولتوضيح هذه العلاقة تفصيلاً نبدأ بمدينة أمالفي.

كانت أمالفي في مقدمة المدن الإيطالية التي قامت بينها وبين مصر والشام علاقات تجارية وبلغ من نشاطها التجاري مع انطاكية أن أصبح لتجارها حي خاص بهذه المدينة كما كانوا يفدون إلى الإسكندرية لاستيراد المنسوجات وأعواد المسك والكافور والبخور وغير ذلك من لوازم الكنائس كانت هذه السلع تجد لها أسواقاً رائجة في روما كما أن تجار هذه المدينة حصلوا على كثير من التسهيلات التجارية من الحكومة الفاطمية. (١)

كما كان أهل أمالفي يذهبون إلى مصر لجلب مهرة الصناع لتزيين القصور بالفسيفساء فقد استعان أحد أثرياء مدينة جنوة بمهرة الصناع والفنانين من الإسكندرية ليزين له قصره ومما يذكر عنه أنه لما شرع في بناء دير ببيت المقدس اقتضت الضرورة إجراء محادثات مع الحكومة الفاطمية بمصر في عهد الخليفة الظاهر سنة ٤١١هـ- ١٠٢٠م على منحه قطعة من الأرض بالحي المسيحي بالمدينة يشيد عليه ديراً لإيواء الحجاج والتجار من أهل أمالفي. (٢)

لقد كانت أمالفي التي تقع في الساحل الغربي لإيطاليا منافساً لا يستهان به لمدينة البندقية في الإتجار مع كل من الدولتين الفاطمية والبيزنطية سواء بسواء كما كان لها مصالح تجارية كبيرة في شرق البحر الأبيض المتوسط منذ أمد طويل. (٣)

أفادت أمالفي من تجارتها وتعاملها مع الدولة الفاطمية إذ كان تجارها يأتون إليها بالسلع النادرة والغالية الثمن بخاصة المنسوجات الحريرية غير أن السياسة التي سار عليها حاكم أمالفي والتي تقضى بالحد من التعامل مع الفاطميين كان لها آثار

---

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، مرجع سابق، ص ٦١١.

(٢) محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر العربي، ١٩٦٧م، ص ٢٤٩.

(٣) صابر محمد: سياسة الدولة الإسلامية في حوض البحر المتوسط، ط ١، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٣م،ص ٢٣١.

سيئة على الحركة التجارية لأمالفي مع الدولة في شرق البحر الأبيض المتوسط منذ نهاية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي). (١)

كذلك حرصت مدينة بيزا على توثيق صلة المودة مع الخلفاء الفاطميين فأرسلت في منتصف القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) سفيراً إلى بلاط الخليفة الظافر* لتسوية بعض المشاكل الناجمة عن اعتداء بعض المسافرين من رعاياها في إحدى السفن على فريق من المصريين المسلمين بالقتل والسلب وكانت الحكومة الفاطمية قد ثأرت لرعاياها المصريين لمعاقبة التجار البيزيين المقيمين بمصر فلما وصل سفير الحكومة البيزية استطاع أن يتفق مع رجال الحكومة الفاطمية على تسوية هذا الحادث وتعهدت حكومة بيزا بالاقتصاص من المعتدين والامتناع عن تقديم أي مساعدة للصليبيين في الشام ولغيرهم من أعداء مصر. كما تعهدت الحكومة الفاطمية بإطلاق سراح رعايا مدينة بيزا الذين أودعوا السجن بسبب اعتدائهم على بعض المصريين وحماية الحجاج والتجار البيزيين الذين يسافرون في سفن غير حربية. (٢)

بلغ من اهتمام حكومة بيزا بتوطيد علاقاتها برجال الدولة الفاطمية أنه عندما أسندت الوزارة في مصر إلى "طلائع بن رزيك" سارعت إلى إرسال وفد لتقديم التهنئة إليه فرحب الوزير الفاطمي بقدوم هذا الوفد وأحسن استقباله كما وعد بالعمل على حماية رعايا مدينة بيزا في الدولة الفاطمية وذلك لأن الدولة الفاطمية كانت حريصة على ألا تخسر أسواق إيطاليا التي تروج فيها السلع المصرية. (٣)

---

(١) صابر محمد، المرجع السابق، ص٢٣١.

* الظافر: هو ابن الحافظ بن المستنصر بن الحاكم بن العزيز بالله بُويع له في سنة أربع وأربعين وخمسمائة هجرية وكانت أيامه مضطربة لحداثة سنه وإنشغاله باللهو (ابن تغردي بردي، جمال الدين يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٥، ط ١، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٢م،ص ٢٨٨.

(٢) صابر محمد: المرجع السابق، ص ٢٣٤، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص٦١٢، محمد جمال الدين سرور، تاريخ الحضارة في الشرق الإسلامي، المرجع السابق ، ص١٥٦.

(٣) حسن إبراهيم حسن: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٦١٢، صابر محمد: المرجع السابق،ص ٢٣٤، محمد جمال الدين سرور، المرجع السابق، ص ١٥٦.

وقد تبودلت الكثير من الرسائل بين حكام بيزا وأساقفتها من ناحية وبين الفاطميين من ناحية أخرى فيما بين سنتي (٥٤٤-٥٥١هـ) (١١٤٩-١١٥٦م) بشأن منح سفن وتجار بيزا التيسيرات التجارية والامتيازات الاقتصادية في موانئ وأسواق الدولة الفاطمية مما يدل على التطور الذي طرأ على العلاقات بين بيزا والدولة الفاطمية نتيجة لحرص بيزا على التمتع بتسهيلات تجارية في موانئ الدولة الفاطمية بمصر والشام ورغبة في زيادة نشاطها التجاري عبر البحر الأبيض المتوسط. [١]

واستمر منحهم الامتيازات في عهد صلاح الدين الذي عقد معاهدة مع جمهورية بيزا في صفر سنة ٥٦٩هـ-١١٧٢م منح بها البيزانيين عدة امتيازات خاصة. [٢]

غير أن حكومة بيزا لم تكن صادقة في تقربها للفاطميين بصفة خاصة فقد تجلى إيثارها لمصالحها الخاصة حين أخذ "أموري" ملك بيت المقدس يهدد الفاطميين في مصر فأظهرت استعدادها لمعاونته ووعدها أموري بمنحها بعض الامتيازات في البلاد المصرية ولما اتضح أن الفرنجة لن يتيسر لهم البقاء في مصر وأنهم في سبيل الاتفاق مع الحكومة الفاطمية للجلاء عن البلاد سارعت إلى الوساطة بينهم وأفادها ذلك العمل إذ منحها الخليفة العباسي العاضد(٥٥٥-٥٦٧هـ) (١١٦٠-١١٧١م) كثيراً من التسهيلات والامتيازات التجارية ولكن لم تلبث أن عادت إلى إيثار مصلحتها الخاصة واشتركت في الهجوم على ثغر دمياط.[٣]

وعن مدينة جنوة الإيطالية فقد كانت علاقاتها بالدولة الفاطمية عدائية منذ بداية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) حيث أعد عبيدالله المهدي حملة قامت بالإغارة على جنوة سنة ٣٢٢هـ-٩٣٤م وظل العداء قائماً بين مدينة جنوة والدولة الفاطمية حتى أيقنت حكومة مدينة جنوة صعوبة مواجهة الفاطميين في البحر المتوسط فعمدت إلى التودد إليهم خاصة بعد أن اتخذوا مصر مقراً لخلافتهم فنمت

---

(١) صابر محمد: المرجع السابق،ص ٢٣٥.

(٢) محمد كرد على: المرجع السابق، ج ٢،ص ٢٤٤.

(٣) صابر محمد: المرجع السابق، ص ٢٣٥، محمد جمال الدين سرور، تاريخ الحضارة في الشرق الإسلامي ، ص ١٥٧ وسياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٥٠.

العلاقات بينهما في النصف الأخير من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) فعقد مندوب عنها معاهدة تجارية مع الدولة الفاطمية كما وافق بعض الخلفاء في أواخر العصر الفاطمي على حماية رعايا جنوة أثناء إقامتهم في المدن أو الموانئ المصرية والشامية. [١]

وكان من نتيجة ذلك أن أقدم أهل جنوة على التعامل مع الدولة الفاطمية في كلٍ من مصر والشام وأخذت مراكب جنوة تشق طريقها إلى موانئ مصر والشام عبر أسطول جنوة التجاري والذي يتكون من سفن تتجه للشرق وأخرى للغرب. وتتجه سفن الشرق جنوباً بحذاء شاطئ شبه الجزيرة الإيطالية ماراً بنابلي ومضيق مسينا على جزيرة كريت ويتجه شمالاً عابراً مضيق البسفور والدردنيل إلى القسطنطينية ثم موانئ البحر الأسود أما فرعه الغربي فيمر بساحل فرنسا الجنوبي على البحر المتوسط عند مرسيليا ثم إلى برشلونة وغيرها من المدن الفرنسية. وتخرج سفن الغرب مباشرة إلى تونس وتسير على طول ساحل أفريقية شرقاً إلى الإسكندرية ومدن وموانئ الشام وغرباً عابراً مضيق جبل طارق إلى غرب أفريقية. [٢]

ومن أهم السلع التي يجلبها تجار جنوة من مصر هي بضائع الشرق الواردة من الهند مثل الفلفل وجوز الطيب والقرنفل،والمنسوجات المستوردة من تنيس والشب والنطرون وهي السلعة التي كان الفاطميون يحتكرون تجارتها[٣]. كما كانت جنوة تجلب من الشام المنسوجات الحريرية والكتان والخام والأنسجة الكتانية والسكر من صور وطرابلس والثمار والعقاقير والحشائش الطبية والأفاوية العطرية. [٤]

لقد قامت جنوة بدور كبير وبارز منذ أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) في التجارة مع بلدان الدولة الفاطمية ذلك أن الأسر الجنوية التجارية التي قدمت مساعدات للحركة الصليبية أصبحت في وضع طيب في جنوة وفي جميع

---

(١) محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ص ١٥٧.

(٢) نعيم زكي فهمي: المرجع السابق، ص ١٨٥.

(٣) ابن مماتي: (الأسعد الوزير الأيوبي) قوانين الدواوين، حققه عزيز سوريال، مطبعة مصر، ١٩٤٣م، ص٣٣٤، صابر محمد، المرجع السابق،ص ٢٣٨.

(٤) محمد كرد على: المرجع السابق، ج ٢،ص ٢٤٥، محمد على عودة الغامدي، المرجع السابق،ص ٤٥٨.

المناطق الخاضعة للنفوذ التجاري لهذه المدينة في شرق البحر المتوسط. فقامت هذه الأسواق التجارية في منتصف القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) باحتلال مكان الصدارة في تجارة جنوة عبر البحر المتوسط مع الشام ومصر وشمال أفريقيا فكثر ترددهم في السفن التجارية وزادت استثماراتهم في الدولة الفاطمية في نطاق تجارة جنوة في شرق البحر هذا فضلاً عن إتجارهم مع بلدان الحوضين الأوسط والغربي لهذا البر. (١)

كما كان يقوم بالتجارة مع الدولة الفاطمية بعض كبار التجار الذين ينتمون إلى خمس أسرات جنوية ويعد هؤلاء التجار بمثابة الوسطاء بين جنوة وهذه الدولة فاستغلوا ما منح لهم من تيسيرات اقتصادية وتجارية في العمل على زيادة حركة التجارة بين جنوة والدولة الفاطمية في مصر كما أن امتلاك هؤلاء للمراكب التجارية الكبيرة وما كانت تقدمه لهم حكوماتهم من معونة سهل لهم سبيل التبادل التجاري ودرّ عليهم أرباحاً طائلة. (٢)

أما عن البندقية فقد ابتلع أهلها تجارة الشرق مع الغرب منذ القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) فصارت جميع المنتجات التي يبادل بها في مختلف أجزاء العالم تمر من أيديهم. (٣)

وكان لموقع البندقية الجغرافي أثره البالغ في نشاطها التجاري وقيامها بدور الوسيط التجاري بين شعوب أوربا وبين أقطار الشرق الإسلامي بصفة عامة فكانت سفن البندقية التي تعرف باسم "مراكب المدة" تتجه كل واحدة منها إلى جهة معينة فهناك سفن المدة للقسطنطينية ومدة البحر الأسود ومدة الشام ومدة الإسكندرية ولدى عودة هذه السفن من الشرق ينتظرها الأهالي في الأسواق الكبرى التي تعقد وترحل سفن المدة إلى الشرق في أوقات وصول السلع إلى هذه البلاد وهي في الغالب أوقات الحج لتعود في الخريف قبل حلول فصل الشتاء ويصاحب سفن المدة

---

(١) صابر محمد: المرجع السابق،ص ٢٣٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٣٩.

(٣) غوستاف: المرجع السابق، ص ٥٦٢.

أسطول بحري لحمايتها من القراصنة المنتشرين على طول الطريق شرق وغرب البحر المتوسط. (١)

وكانت سفن البنادقة التي تصل إلى الإسكندرية تحمل إلى مصر الأخشاب والحديد والأنسجة حتى نهاية القرن الرابع الهجري(العاشر الميلادي) حيث أمر الإمبراطور البيزنطي بمنع البنادقة من أن يصدروا للمسلمين حاجاتهم من الخشب والحديد اللازم لبناء السفن وقد شمل هذا القرار الأخشاب الواردة من غابات "الماشيا" و"فريول" و"سنريا" ولكن حكومة البندقية وتجارها لم يذعنوا لقرار الحظر وهدد الإمبراطور البيزنطي البنادقة بأنه إذا لم تتوقف هذه المتاجر غير المشروعة مع مصر فسوف تتعرض سفن البنادقة للحرق والغرق والتدمير بحمولاتها. (٢)

وكان لهذا القرار أثر سيء في مصر وقد ترتب عليه أن ندر وجود خشب السفن في مصر حتى إنه لما أراد الوزير "عيسي بن نسطورس"* أن ينشئ أسطولاًً يقوم مقام الأسطول الذي كان معداً لوقف تقدم البيزنطيين بالشام واحترق أمرت الحكومة الفاطمية بقطع الأخشاب من مختلف جهات القطر على أن حكومة البندقية رأت ألا تضحى بمصالحها الخاصة في سبيل إرضاء أباطرة الدولة البيزنطية فأرسلت بعثات إلى مصر حصلت على امتيازات لسفنها كما أن تجارها عملوا على تنمية العلاقات التجارية مع المسلمين وصارت سفنهم تنقل من مصر منتجات آسيا إلى أسواق أوربا. وأجازت لتجارها أن ينقلوا إلى دور الصناعة المصرية خشب اللبخ والسنديان على ألا يجاوز طول اللوح الواحد خمسة أقدام كما أجازت لهم بيع الأدوات المصنوعة من الخشب. (٣)

---

(١) نعيم زكي فهمي: المرجع السابقً، ١٧٩.

(٢) محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص ٢٥١، صابر محمد، المرجع السابق، ص ٢٤٠-٢٤١.

* عيسي بن نسطورس: تولى وزارة العزيز بالله في سنة خمس وستين وثلاثمائة وهو من النصارى فكتبت إليه أمرأة تقول بالذي أعز النصارى بابن نسطوري وأذل المسلمين بك إلا نظرت في أمري فعزله (ابن تغري بردي، المصدر السابق ، ص ١١٦).

(٣) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٦١٢.

من ذلك يتضح أن الدولة الفاطمية في مصر والشام أفادت من تجارتها مع المدن الإيطالية برغم ما كان بينهما من توتر في العلاقات وعداء، كما أن المدن قامت بنشاط كبير في التجارة بفضل ما أتيح لها من فرص في موانئ مصر والشام.

وهذا النشاط التجاري الواسع مع المدن الإيطالية لم يتوقف بنهاية الدولة الفاطمية بل توسع في عصر سلاطين المماليك رحب المماليك بالتجار الأجانب نظراً لما تعود به تجارة الشرق من أرباح وافرة وعاش الأوربيون في الإسكندرية على هيئة جاليات وقد عاد ذلك النشاط التجاري على مصر والشام بالخير ومن يدرس الحياة الاجتماعية في مصر في القرنين السابع الهجري والتاسع الهجري (الثالث عشر الميلادي والخامس عشر الميلادي) يجد كل صورة من صور المجتمع تنطق بوفرة الثروة والبذخ المطلق في العمارة والتحف والأواني وليس أدل على مدى استفادة المماليك بمصر والشام من تجارة الشرق من عظم الخسارة التي لحقت بهم عند اكتشاف رأس الرجاء الصالح إلى الهند وقد أحس المماليك بأنهم أوشكوا أن يفقدوا موردهم الأساسي الذي هو مصدر قوتهم فثأروا وحاولوا ضرب البرتغاليين ضربة قاضية في جنوب البحر الأحمر ولكنهم لم يفلحوا وبضياع تجارة الشرق انحطت قوة المماليك انحطاطاً سريعاً وذبلت دولتهم حتى سقطت في أيدي العثمانيين في أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي). (١)

لم تقتصر العلاقات التجارية بين الدولة العباسية والمدن الإيطالية على مصر والشام بل لعب المغرب وشمال أفريقيا دوراً كبيراً في هذه العلاقات فقد ظل تجار المغرب وشمال أفريقية يقومون بدور الوسيط لتجارة الذهب مع أوربا وسعى التجار الأوربيون للتعامل مع تجار المغرب وشمال أفريقيا وعن طريق هؤلاء أخذت البضائع الأوربية ترد إلى بلاد السودان وتمكن تجار جنوة والبندقية من إقامة فنادق في السواحل المغربية وخاصة تونس التي كانت بمثابة مستودعات لبضائعهم يتردد عليها عدد كبير من تجارهم وقناصلهم. (٢)

---

(١) سعيد عاشور: المرجع السابق، ج ٢،ص ١٢٠٢.

(٢) الشيخ الأمين عوض الله: المرجع السابق،ص ١٥٨.

وفي خلال القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) كانت مراكب البندقية وأهل جنوة وبيزا ومرسيليا كثيرة التردد على الموانئ الإسلامية لطنجة وسبته ومليله ومراكش التي كان فيها حي لهم يسمى بالقيسرية وكان التعامل يجرى في الموانئ حيث أقيمت مكاتب الجمرك العربي وفنادق المسيحيين. (١)

كانت التجارة بين المغرب والمدن الإيطالية تسلك الطرق البحرية مع السواحل الأوربية كما كانت تسلك الطريق الذي يعبر البحر من أوربا إلى تونس ويتجه غرباً إلا أنه في النصف الثاني من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) كثر استعمال الطريق البري –رغم أنه كان محفوفاً بالمخاطر– الذي يمر بالمدن الإيطالية وصقليه ومنها يتفرع الطريق أما إلى الإسكندرية أو إلى عكا. وربما كان سبب ذلك أن تجار المدن الإيطالية دخلوا في التجارة المغربية بصورة واسعة أو أن المغاربة أصبحوا يفضلون طريق عكا على مصر التي يلقون فيها ضيقاً وعنتاً*. (٢)

وهذا الافتراض الثاني يؤكده صاحب الرحلة بقوله: ولهذا العنت فضل المغاربة من التجار والحجاج أن يكون طريقهم على الشام إلى العراق وأن يصل مع أمير الحاج البغدادي وأن لم يتمكن من ذلك من البداية يكون في رجعته بعد الحج حيث يتوجه إلى بغداد ومنها إلى عكا وإن أراد الإسكندرية دخلها وإن أراد صقليه أو سواها فعل. ويمكن أن يجد مركباً من الروم يقلع إلى سبته أو سواها من بلاد المسلمين فهو أهون مهما بعدت المسافة. (٣)

أياً كانت الطرق التي تبعتها التجارة في تلك الفترة فقد تبودلت السلع بينهما وكانت أهم سلع المغرب إلى أوربا التين واللوز والتمر والزيت الإشبيلي والزيت الصفاقصي والجلود مدبوغة وغير مدبوغة وتعتبر أكثر السلع تصديراً من البلاد الشرقية إلى جنوة وبقية المدن الأوربية بالإضافة إلى الصوف والسجاجيد والمرجان

---

(١) زاهر رياض: شمال أفريقيا في العصر الحديث، مكتبة الانجلو، القاهرة، ١٩٦٧م،ص ٣١.

* لمعرفة العنت الذي يلاقونه في هذا الطريق أنظر الفصل الخاص بالمراكز التجارية "عيذاب".

(٢) عزالدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، بيروت ١٩٨٣م، ص ٣١٦.

(٣) ابن جبير: المصدر السابق، ص ٤٨.

والسكر والنحاس والأواني الفخارية وفوق ذلك كله الرقيق وأما السلع التي تحمل من الدول الأوربية خاصة الإيطالية والفرنسية فهي طيور الصيد والمعادن والنسيج والبهارات والنبيذ والسيوف والقطن. (١)

كانت التجارة بين الدول الأوربية والمغرب العربي قائمة على العملة الذهبية وعندما يدخل التجار المغاربة إلى هذه الأقطار يحملون العملة المغربية إلى دور الضرب فيها ويسكونها لتعادل سكة البلد الذي يتاجرون فيه. كما كان تجار المدن الإيطالية يودعون أموالهم في ديوان المشرف ومنها يدفع المشرف للتجار المغاربة ولكن العلاقة بين التاجر الأجنبي والمغربي كانت تقوم على الثقة المتبادلة فلا تجد التاجر المغربي يتقيد بما يحتفظ التاجر الأجنبي من أموال في الديوان فيبيعه بالسلف وقد يتبع التاجر المغربي الطريقة ذاتها مع تاجر أجنبي حديث بضمانة آخر موثوق به. كما أن التاجر المغربي قد يشترى في جنوة ويدفع في أي مرسى آخر ترسو فيه السفن وفي حالة قيام الثقة أساساً للتعامل كثيراً ما نجد العلاقات الشخصية وتبادل الهدايا بين التجار مظهراً من مظاهرها. (٢)

من حجم التبادل الكبير بين المغرب والمدن الإيطالية تتضح سيطرة تلك المدن على تجارة المغرب الخارجية كما يبدو التعاون التجاري الواضح في معظم الفترات بينهما على الرغم من أن تلك الفترة كانت فترة صراع بين المسلمين والمسيحيين في البحر الأبيض المتوسط.

وإذا انتقلنا من المغرب إلى الأندلس لنتعرف على طبيعة العلاقة التجارية مع الدويلات النصرانية وبلاد الفرنجة عامة فإننا لا نجد علاقات تجارية واضحة ومتميزة بين الأندلس والدويلات النصرانية التي في شماله ومن ورائها بلاد الفرنجة إلا في

---

(١) البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، مصدر سابق، ص ٢٠، مجهول، المصدر السابق، ص ١١٦–١١٧، عزالدين أحمد موسي: المرجع السابق، ص ٣٢٧، زاهر رياض، المرجع السابق، ص ٣١.

(٢) عزالدين أحمد موسي: المرجع السابق، ص ٣٠٣–٣٠٥.

حدود ضيقة وربما يعود السبب في ذلك أن سنوات الصراع بين الجانبين كانت أطول من سنوات السلام مما كان له أثر سيء في العلاقات التجارية. (١)

ويشير البعض إلى توقف كل لون من ألوان التبادل التجاري عن طريق الموانئ البحرية بين الأندلس وبلاد الفرنجة وكان ذلك نتيجة لأعمال القراصنة المسلمين والنصارى على السواء في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط من منتصف القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) إلى منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). (٢)

كما أن من العوامل التي ساهمت في تدنى مستوى التبادل التجاري بين المسلمين والفرنجة هو أن الكنيسة كانت تنظر إلى التجارة على أنها عمل لا يليق بالمسيحي المخلص فكان التاجر متهماً في دينه. (٣)

ولكن ذلك لا يعنى انقطاع العلاقات التجارية تماماً فقد كان تجار الأندلس يذهبون إلى هناك بغزل الحرير والخز والزئبق واللادن والزعفران ويأتون من منطقة "مغانجة" في بلاد الفرنجة بالحبوب والكرم والفواكه وغيرها من المنتجات(٤) كما أن جميع الرقيق الصقاليه المنتشرين في العالم الإسلامي إنما هم من جلب الأندلس(٥) كما كان تجار الروس الذين كانت رحلاتهم في الطريق البري من الأندلس إلى فرنجة حتى يصل الصين(٦) لابد أنهم أسهموا بنصيب كبير في التجارة بينهما.

ج- التجارة مع الدولة البيزنطية:

---

(١) منى حسن محمود: المسلمون في الأندلس وعلاقتهم بالفرنجة (٩٢-٢٠٦هـ) (٧١٤-٨١٥م) دار الفكر العربي القاهرة، ١٩٨٦م،ص ٢٠٦.

(٢) حسين مونس: المسلمون في حوض البحر الأبيض إلى الحروب الصليبية ، المجلة التاريخية المصرية، العدد الأول، مج ٤، القاهرة، ١٩٥١م،ص ١٤١.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٥٠.

(٤) الحميري: المصدر السابق،ص ٥٥٦.

(٥) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ١٠٦.

(٦) ابن خراداذبة:ا لمصدر السابق، ص ١٥٤-١٥٥.

بما أن القسطنطينية تقع على الطرق التي تربط بين قارتي آسيا وأوربا وهو الطريق البري من أواسط آسيا وشرقها إلى القسطنطينية* فقد كانت هناك علاقات بينها وبين بلاد العراق رغم العوامل السياسية السيئة في معظم الأوقات وقد أدرك الإمبراطور البيزنطي منذ العصر العباسي الأول أهمية التبادل التجاري وضرورة استمراره لذا كتب إلى الخليفة المأمون يلتمس منه الصلح قائلاً له: "... وقد كتبت إليك داعياً إلى المسالمة راغباً في فضيلة المهادنة لنضع أوزار الحرب عنا ونكون لكل واحد ولياً وحزباً مع إيصال المرافق والفسح في المتاجر وفك المستأسر وأمن الطريق فإن أبيت فلا أدِب لك في الخمر ولا أزخرف لك في القول..." وردّ عليه المأمون بأنه قد بلغه كتابه الذي يحمل الشدّ واللين والاستعطاف على المتاجر والمرافق والأسرى وورد في كتابه ما يشير إلى أهمية المتاجرة بينهما".(1)

وعلى ذلك كانت ترد للعراق من هناك الديباج الرومي المشهور والثياب الكتانية والأرز والسبط والنباتات العطرية والطيب والصمغ(2) كما كان يأتي من تلك البلاد الخدم والجواري والديباج والجلود والفراء والسمور والسيوف مع تجار اليهود في طريق تجارتهم الدائرية والتي تصل الغرب بالشرق مارة بأسواق العراق وما جاورها. (3)

كان للدولة البيزنطية علاقات تجارية بمصر- رغم تأثر العلاقات السياسية بالحروب بينهما عدة مرات- فقد كانت الدولة البيزنطية من ناحية في حاجة إلى المنسوجات المصرية الممتازة لتزيين قصورهم. فقد كانت المنسوجات المصرية تنعم بسمعة حسنة في أسواق القسطنطينية لدرجة أنه سمع أن أحد الأباطرة عرض على الخليفة الفاطمي مائة مدينة مقابل استحواذه على تنيس وحدها. (4)

---

* يرى المقدسي أنه لابد أن يُوصف الطريق البري المؤدى إلى القسطنطينية لأن لهذه المدينة علاقات تجارية مع المسلمين كما يوجد بها عدد كبير من المسلمين في كل من التبت وأطرابزند فكانت أهم المحطات التي وصفها هي الموصل- نصيبين- الحسنية- آمد- باقمرا- جلاب- الرها- حران- الرقة- الرحبة- السكير- ملطين- فينساريه- اقنره- ملعب الملك- حرافه- القسطنطينية (المقدسي، المصدر السابق، ص ١٥٠).

(1) الطبري:المصدر السابق، ص ٦٢٩.

(2) عبدالعزيز الدوري: المرجع السابق،ص ١٦٤.

(3) ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص ١٥٣.

(4) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية في مصر، ص ٦١٣.

كما كانت مصر من ناحية أخرى تحتاج إلى الفراء المجلوب من بلاد الروس والغلال من القسطنطينية حيث أرسل الخليفة المستنصر الفاطمي إلى الإمبراطور البيزنطي يطلب منه المدد فأرسل إليه ٤٠٠,٠٠٠ أردب من القمح. [١]

ومما يؤكد وجود العلاقات بين مصر والدولة البيزنطية أن بالفسطاط حي يقيم فيه تجار الروم ويؤكد ذلك صاحب المواعظ والاعتبار بأن الروم اختطت حارتين الخارجية والجوانية والوراقون إلى القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) يكتبون حارة الروم السفلي وحارة الروم العليا وفي سنة تسع وتسعين وثلاثمائة من الهجرة أمر الحاكم بأمر الله بهدم حارة الروم فهدمت ونهبت[٢].

---

(١) المرجع نفسه ص ٦١٣.

(٢)المقريزي: (تقي الدين أحمد بن علي)، المواعظ والاعتبار، ج ٣، بيروت، ١٩٩٨م، ص ١٦.

٤- التجارة مع الشرق الأقصى:

نشطت الحركة التجارية في الدولة الإسلامية نشاطاً كبيراً فكانت سفن التجار المسلمين تجوب كثيراً من البلاد والبحار وقد قام العرب في هذا العصر برحلات برية وبحرية كثيرة ومنذ بداية العصر العباسي صارت تجارة سيلان* في أيديهم وبعد أن كان الصينيون يجوبون بكثرة سواحل الهند والخليج العربي أصبح من النادر وجودهم في هذا الخليج لأن العرب تمكنوا من الوصول إلى الهند الصينية والصين[١].

وأصبح العرب يقومون برحلات متواصلة إلى الصين كان من أقدمها رحلة التاجر سليمان المشهورة** في منتصف القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ومما يدل على تتابع الرحلات وكثرتها بين المسلمين والصين ما كان من تبادل الوفود بين الخلفاء وملوك الصين فضلاً عما هو مسطور في سجلات بيت مال الخلفاء من بيان للسلع الصينية[٢].

كان العرب يتصلون بالصين بطرق برية وطرق بحرية. وقد أدى قيام الدولة العباسية إلى تحويل طرق التجارة تدريجياً عن البحر الأحمر وصارت تسلك طريق الخليج العربي وكان هذا التغيير في صالح بغداد وتجارها الذين استطاعوا أن يوسعوا نشاطهم التجاري في مجالات كثيرة.

كانت السفن الصغيرة تبحر من البصرة إلى سيراف حيث تفرغ شحناتها في سفن أكبر يمكنها أن تتحمل مياه المحيط الهندي وتتجه إلى صحار*** ومنها إلى مسقط وما بين مسقط وسيراف مائتي فرسخ ثم تبحر إلى كولم ملي* وكانت المسافة

---

* سيلان: جزيرة عظيمة بها سرنديب بين الهند والصين بها عقاقير لا توجد بغيرها منها الدار صيني وزهرة البقم وفيها معادن الجوهر (ياقوت، المصدر السابق، ج ٣،ص ٢٩٨).

(١)محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ص ١٤٦.

** أنظر رحلة سليمان التاجر في الفصل الأخير من هذا البحث.

(٢)غوستاف: المرجع السابق،ص ٥٥٤.

*** صحار: قصبة عمان بها مرسى السفن من السند والهند والزنج وليس على بحر فارس مدينة أجل منها وهي بلدة كثيرة النخل والفواكه (القلقشندي، المصدر السابق، ج ٥، ص ٥٥).

* كولم ملي: ميناء في جنوب ملبار وتعرف اليوم باسم كويلون (جلال الحفناوي، المرجع السابق، ص ٣١).

بين مسقط وكولم ملي نحو شهر ومنها إلى سرنديب فتغادر بذلك بحر لاروي وتبدأ في الدخول في مياه بحر "هركندا" فإذا اجتازت السفن مياهه تصل إلى جزر لنجبالوس ثم تنطلق السفن بعد ذلك إلى كله** على الساحل الغربي لشبه جزيرة الملايو وتتزود السفن بالماء من الآبار العذبة ثم تواصل السفن إبحارها إلى موضع يقال له بتومة بعد مسيرة عشرة أيام من كلة ثم تعبر بعد ذلك مضيق شلاهط ومنها إلى بلاد الصنف حيث تكثر المياه العذبة والعود الصفني ثم تبحر السفينة منه إلى صندفولان وهي جزيرة بالبحر. وبالوصول إلى بحر الصين تقترب الرحلة التجارية إلى النهاية حيث ترسو في مدينة خانفو ومنها إلى الشيلا وتقضى المراكب هناك فترة الصيف في كانتون للتجارة وعندما تبدأ الرياح الموسمية الشرقية بين أكتوبر وديسمبر فإن السفن تعود من الشيبلا إلى خانفو وفي يناير تعبر خليج البنغال ثانية وتمضى مع الرياح الموسمية الشمالية الشرقية من كولم ملي في فبراير أو مارس إلى الخليج العربي. (١)

كما كان للعرب اتصالاً آخر بالصين والهند بحراً بشواطئ بلاد العرب وكانت السفن المصرية تترك الموانئ المصرية على البحر الأحمر في أول يوليو وتبحر جنوباً إلى خليج عدن لتحملها الرياح الموسمية الجنوبية الغربية في الوقت المناسب إلى شواطئ الهند في شهر سبتمبر ثم الصيف وفي أواخر نوفمبر وأوائل ديسمبر تهب رياح موسمية جنوبية شرقية فتعود بالمراكب العربية إلى موانئ الجنوب العربي ومنها تدخل البحر الأحمر مرة أخرى لترسو على شواطئه المصرية(٢).

واضح أن السفن العربية التي تسير في المحيط الهندي- سواء أن كان ذلك عن طريق بحر فارس أو البحر الأحمر- تتبع نظاماً يتلاءم وطبيعة الظروف الطبيعية من هبوب الرياح ونحوه.

** كله: فرضة الهند وهي منتصف الطريق بين عمان والصين (ياقوت، المصدر السابق، ج ٤،ص ٤٧٨).

(١) المسعودي: المصدر السابق،ج ١،ص ١٤٩، ابن الفقيه، المصدر السابق، ص ١٢-١٣، ابن خرداذبة، المصدر السابق، ص ٥٩-٦٧، جلال الحفناوي، المرجع السابق،ص ١٨-١٩.

(٢)محمد كريم الشمري: المرجع السابق، ص ١١-١٢.

أما الطريق البري من العراق إلى الصين فيبدأ من سمرقند إلى "سلي" عشرين يوماً ومن سلي إلى "ألمالق" عشرين يوماً ومن ألمالق إلى "قراخوجا" ومن قراخوجا إلى "قمجون" ومنها إلى "خان بالق" ومن خان بالق بعد مسيرة أربعين يوماً إلى "الخنساء"* ومن خان بالق إلى الخنساء طريقان طريق في البر وطريق في البحر وفي كل من الطريقين أربعون يوماً. (١)

تعتبر الرحلة البرية إلى الصين رحلة طويلة وشاقة وكثيراً ما أغلقت الحكومة الصينية الطرق البرية المؤدية إليها كوسيلة للتحفظ من التخلل الأجنبي فالطريق البحري كان أسهل بكثير لدرجة أن بعض التجار كانوا يأتون من سمرقند إلى البصرة ومن هناك يسلكون الطريق البحري إلى الصين. ولذلك لا توجد أية إشارة إلى وجود مراكز تجارية للمسلمين على الطريق البري إلى الصين ويرجح أن كل تجارة سلكت ذلك الطريق تحمل بواسطة الصغد في آسيا الوسطي وهؤلاء كانت مراكزهم ومستعمراتهم التجارية تمتد بين سمرقند والصين. (٢)

وقد أصبحت سمرقند بفضل هذاالطريق "عروس مدن آسيا الصغرى" فيها يلتقي الشرق الأقصى والغرب وقد بلغ عدد التراجمة في هذه المدينة في عهد من عهودها ثلاثمائة مترجم يمثلون عدداً هائلاً من اللغات واللهجات ويشهد بذلك ما سجله شخصان فرنسيان عقب عودتهما من سمرقند فهما يرويان أنهما شاهدا في سمرقند هنوداً وفرساً وأتراكاً وأجناساً أخرى من الناس لهم متاجر يتبادلون فيها العروض مع تجار الصين من أقمشة مزركشة بالذهب ومنسوجات حريرة وأخشاب وأوبار الجمال نظير الفضة واللؤلؤ والأحجار الكريمة والحرير والرواند وغيرها من النفائس. (٣)

---

* الخنساء: من أعظم فرض الصين إليها ينتهي تجار المسلمين طولها يوم كامل وعرضها نصف يوم وفي وسطها سوق ممتد من أولها إلى آخرها وأسواقها مبلطة وبناؤها خمس طبقات بعضها فوق بعض وبها منتزهات وبساتين والجبال عنها أكثر من مسافة يومين (أبوالفداء عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر تقويم البلدان دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠،ص ٣٦٥).

(١) القلقشندي: المرجع السابق، ج ٤،ص ٤٨٤.

(٢) عبدالعزيز الدوري: المرجع السابق ، ص ١٧٧.

(٣) سونيا. ي. هاو. في طلب التوابل، (بدون د) لندن ١٩٢٦، ص ٤٢.

ظلت التجارة مع الصين ناجحة ومتسعة والسفن تتجه شرقاً وغرباً وقد كانت سفن موانئ الخليج تصل إلى الصين والعكس ولكن اضطراب أمر الصين أوقف سيرها حيث اندلعت بالصين ثورة اجتماعية كبيرة في أواخر عهد أسرة "تانج" في سنة ٢٦٤هـ-٨٧٧م كانت بمثابة انتفاضة قام بها شخص من غير بيت الملك يقال له "باتشو" وكان شريراً يطلب الفتنة فاجتمع إليه نفر من الناس وقويت شوكته فسار من موضعه وشن الغارات على العمائر حتى نزل مدينة خانفو فحاصرها واقتحمها عنوة وقتل منها مائتي ألف شخصاً من المسلمين والنصارى والمجوس.[١]

ويوضح صاحب "مروج الذهب" التغيير الذي طرأ على التجارة في ذلك الوقت قائلاً: "بلاد كله وهي النصف من طريق الصين أو نحو ذلك وإليها تنتهي مراكب أهل الإسلام من السيرافيين والعمانيين في ذلك الوقت فيجتمعون مع من يرد من أرض الصين في مراكبهم وقد كان في بدء الزمان بخلاف ذلك أن مراكب الصين تأتي بلاد عمان وسيراف على ساحل فارس وساحل البحرين والأبلة والبصرة وكذلك كانت المراكب تختلف عن المواضع المذكورة إلى هناك فلما عدم العدل وفسدت النيات وكان من أمر الصين ما وصفنا التقي الفريقان جميعاً في هذا النصف ثم ركب هذا التاجر من مدينة كلة في مراكب الصينيين على مدينة خانفو".[٢]

ثم ما لبثت الأمور أن استقرت في عهد أسرة "انج" الصينية (٣٤٩-٦٧٨هـ) (٩٦٠-١٢٧٩م) واستؤنفت الصلات المباشرة مع خانفو فقد بذلت الحكومة الصينية جهودها لتنشيط التجارة الخارجية وأرسلت وفداً إلى الخارج ليقنع التجار الأجانب من الجنوب بالمجئ إلى الصين ومنحت التجار الأجانب امتيازات خاصة لاستيراد البضائع ثم اتخذت بعد ذلك التدابير لتنظيم التجارة الخارجية وفي سنة ٣٦٠هـ أعيد تنظيم دائرة الملاحة في خانفو "كانتون" ورجعت التجارة الخارجية بين سنتى (٣٦٥-٣٧٣هـ) (٩٧٦-٩٨٣م) قوية . وفي سنة ٣٨٩هـ-٩٩٩م أنشأت الحكومة دوائر

---

(١) المسعودي: المصدر السابق،ج ١،ص ١٣٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٠.

للتجارة البحرية في عدة مناطق بناء على طلب التجار الأجانب وتسهيلاً لمعاملاتهم. (١)

وعادت السفن الإسلامية إلى الإبحار في موانئ الصين للتجارة وقد استمرت هذه العلاقات التجارية المتبادلة حتى بعد التغيرات السياسية والاقتصادية التي أعقبت التغير في الخلافات في المشرق الإسلامي بل زادت الصلات التجارية في عهد أسرة "مينج" الصينية في سنة (٧٧٠-١٠٥٤هـ) (١٣٦٨-١٦٤٤م). (٢)

إن مما ساعد على زيادة وقوة النشاط التجاري بين الدولة الإسلامية بصفة عامة وحاضرة الخلافة العباسية من ناحية وبين الصين من ناحية أخرى معاملة ملوك الصين للمسلمين معاملة حسنة فقد عينت السلطات الصينية أحد المسلمين ليرعى شؤون مواطنيه في الصين فعند وصول التجار المسلمين إلى الصين كان التاجر منهم يُخير بين النزول عند تاجر من المسلمين المتوطنين أو في الفندق فإذا أحب النزول عند التاجر ضمنه التاجر المستوطن وإذا أحب النزول بالفندق سلم ماله لصاحب الفندق وضمنه وهو يشترى له ما أحب ويحاسبه. (٣)

وزيادة على ذلك كانت الصين آمن البلاد يمكن للإنسان أن يسافر فيها مسير تسعة أشهر وتكون معه الأموال الطائلة ولا يخاف عليها وذلك لأنه قد كانت لهم في كل منزل ببلادهم فندقاً عليه حاكم يسكن به في جماعة من الفرسان والرجال فإذا كان وقت المغرب أو العشاء جاء الحاكم ومعه كاتب يكتب أسماء جميع من يبيت به من المسلمين وختم عليها وأقفل باب الفندق عليهم فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه فدعا كل إنسان باسمه وبعث معهم من يوصلهم إلى المنزل الثاني ويأتيه ببراءة من حاكم الفندق الثاني أن الجميع وصلوا إليه. (٤)

---

(١) عبدالعزيز الدوري: المرجع السابق، ص ١٧٢.

(٢) جلال الحفناوي، المرجع السابق،ص ٢٠.

(٣) ابن بطوطة: المصدر السابق، مج ٤،ص ١١٣.

(٤)ابن بطوطة: المصدر السابق، مج ٤،ص ١٣٤.

ثم أن هناك عاملاً آخر يدفع المسلمين إلى جلب منتجات الصين وصنائعها وهو دقة صناعتهم وجمالها فهم "أحذق خلق الله كفاً بنقش وصنعة وكل عمل لا يتقدمهم فيه أحد من سائر الأمم والرجل منهم يصنع بيده ما يقدر أن غيره يعجز عنه فيقصد به باب الملك يلتمس الجزاء على لطيف ما ابتدع فيأمر الملك بنصبه على بابه من وقته ذلك إلى سنة فإن لم يخرج فيه عيباً أجاز صانعه وأدخله في جملة صناعه وإن أُخرج فيه عيباً طرحه ولم يجزه".[(١)]

ويؤكد دقة صناعتهم ما ذكره صاحب "تحفة الأنظار" قائلاً: " وهم أعظم الأمم إحكاماً للصناعات وأشدهم إتقاناً فيها وقد وصف الناس ذلك الإتقان في تصانيفهم وأطنبوا فيه..." ومن عجيب ما شاهده ابن بطوطة في الصين إنه ما دخل مدينة من مدنهم ثم عاد إليها إلا ورأي صورته وصور أصحابه منقوشة في الحيطان والكواغد وموضوعة في الأسواق. [(٢)]

لا شك أن هناك عوامل كثيرة أخرى شجعت المسلمين على الرحلة إلى الصين فتركزت مجموعات كبيرة منهم في المدن الصينية لا سيما المدن المهمة منها مثل مدينة "خانفو" وهي فرضة من فرض الصين المهمة وهي مدينة مشهورة على ألسنة التجار المسلمين المسافرين إلى تلك البلاد ولكثرة المسلمين بهذه المدينة نجد أن ملك الصين أقام فيها فقيهاً من المسلمين وكان هذا القاضي يدعو للخليفة العباسي في الصلاة وكانت أحكامه موضع احترام الجميع[(٣)] ومن المدن التي تواجد فيها المسلمون أيضاً مدينة "الزيتون" وهي أيضاً مرسى من مراسي الصين العظيمة به نحو مائة مركب وهي أيضاً مشهورة عند المسلمين المسافرين إلى هناك حيث يسكن المسلمون فيها بمدينة كاملة تسمى مدينة المسلمين. [(٤)]

---

(١) المسعودي: المصدر السابق، ج ١،ص ١٤٦.

(٢) ابن بطوطة: المصدر السابق، مج ٤،ص ١٣٢.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، مج ١٤،ص ٤٦٨.

(٤) أبوالفداء: المصدر السابق، ص ٣٦٥، القلقشندي، المصدر السابق، مج ٤،ص ٣٨٢.

إن قوة النشاط التجاري مع الصين أدي إلى كثرة السلع ومنتجات الصين في الدولة الإسلامية وخاصة أسواق العراق ولكنها كانت غالية الثمن ويرجع السبب في ذلك إلى طول المسافة وأخطار الطريق التي قد تؤدى إلى تحطيم السفن المحملة بالمواد التجارية وتعرضها لأعمال القرصنة في بعض الأحوال ومع ذلك فإن التجارة بين بلاد العرب والصين أصبحت منظمة ومزدهرة منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي). [١]

وكان من أهم السلع التي وردت من الصين هي السنبل والبسباسة* والعقاقير [٢] والمسك والسروج والدار صيني والخولجان ومن "الواق واق" يأتي الذهب والأبنوس[٣] والعود الهندي الذي يؤقدونه في بيوتهم وهو بقيمة الحطب عندهم أو أرخص ثمناً إذا ابتاعوه فيما بينهم وأما للتجار فيبيعون الحمل منه بثوب من ثياب القطن التي هي عندهم أغلى من ثياب الحرير. [٤]

أما عن وسائل المعاملة المالية في البيع والشراء "فأهل الصين لا يتبايعون بدرهم ولا دينار وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعاً وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد كل قطعة منها قدر الكف مطبوعة بطابع السلطان وتسمى الخمس والعشرون قطعة منها "بالشن" وهو يعنى الدينار وإذا تمزقت تلك الكواغد في يد إنسان حملها إلى دار كدار السكة فأخذ عوضها جُدداً ودفع تلك ولا يعطى على ذلك أجرة ولا سواها لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السلطان...

---

(١) حمدان عبدالمجيد الكبيسي، المرجع السابق،ص ٢٠٩.

* السنبل: نباتات عطرية أشهدها عند العطارين السنبل الهندي وسوقه رائجة، أما البسباسة فيه قشور جوز الطيب الذي يكون فوق القشرة الغليظة التي لا تصلح لشيء وإنما ثمره للطيب وأجودها الحمراء وأدناها السوداء (العمري: أحمد بن يحي بن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق محمد سالم بن شديد العوني، مطبعة المدني، ١٩٩٠م، ص ٩).

(٢) ياقوت: المصدر السابق، ج ٣،ص ٤٤٠.

(٣) ابن خرداذبة: المصدر السابق،ص ٧٠.

(٤) ابن بطوطة: المصدر السابق، مج ٤،ص ١١٩.

وإذا مضى الإنسان إلى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شيء لم يؤخذ منه ولا يلتفت إليه حتى يصرفه بالبالشن ويشترى ما يريد. (١)

وهذا الذي ذُكر في المعاملة يؤكده صاحب "الجغرافية" من أن أهل الصين يتعاملون "بسبائك الذهب والفضة الكبيرة"(٢) ومعنى ذلك أنهم لا يسكون من الذهب والفضة ديناراً ولا درهماً.

كما يؤكده صاحب "الإنشا" بقوله "فيها كباراً وصغاراً ومنها ما يقوم في المعاملة مقام الدرهم الواحد ومنها ما يقوم مقام درهمين ومنها ما يقوم مقام خمسة دراهم وأكثر إلى ثلاثين وأربعين وخمسين ومائة"(٣) وواضح من عبارة "يقوم مقام الدرهم" أنها ليست دراهم بالمعنى المعروف للدرهم وهي البالشن الذي ذكره ابن بطوطة.

نستنتج من ذلك أن لهذه البلاد عملتها الخاصة لذلك فقد كان من الطرق المتبعة في التعامل مع تجار المسلمين هي طريقة التعامل المزدوج. وهي أن يأخذ التجار العملة المحلية لقاء بضائعهم ثم يشترون بهذه النقود بضائع من تلك البلاد. كما كانوا يتعاملون بطريقة المقايضة فقد كانت أكثر أعمال التجار المسلمين في الصين تتم عن طريق الوسطاء الذين يخرجون إليهم ويطالعون البضائع والأمتعة ويحملونها إلى صاحب الصين ويأتون بالعوض إذا تقرر الشراء. (٤)

وكانت لأهل الصين طريقة قاسية في التفتيش عما في المراكب من بضائع فكان إذا جاءت المركب صعد إليها صاحب البحر ومعه الكتاب وطلب من صاحب المركب أن يخبرهم بجميع ما في المركب من بضائع قليلها وكثيرها ثم ينزل من في المركب ويصعد حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم فإذا عثروا على سلعة قد كتمت عنهم عاد المركب بجميع ما فيه للدولة ويعقب ابن بطوطة(٥) على ذلك قائلاً: "وذلك

(١) ابن بطوطة: المصدر السابق، مج ٤، ص ١٢٩.

(٢) ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٢٢.

(٣) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٤،ص ٤٨٤.

(٤) عبدالعزيز الدوري: المرجع السابق، ص ١٧٩.

(٥) تحفة الأنظار : المصدر السابق، مج ٤،ص ١٣٣.

نوع من الظلم ما رأيته ببلاد الكفار ولا المسلمين إلا بالصين إلا ما كان بالهند ما يقرب منه وهو أن من عثر على سلعة له غاب على مغرمها أغرم أحد عشر مغرماً".

من كل ذلك يتضح أن التجارة مع الصين كانت قوية ونشطة مع الدولة العباسية منذ بدايتها وهذه التجارة تعتمد بالدرجة الأولى على المواد الكمالية والباهظة الثمن.

أما عن تجارة الهند مع الدولة العباسية فقد كانت نشطة مع العراق لقربها نسبياً من العراق وذلك بطريق الخليج العربي الذي ذكر. ومع مصر بطريق البحر الأحمر وكانت السلع المجلوبة بهذين الطريقين إلى كل من مصر التي لعبت دور الوسيط في هذه التجارة بنقلها إلى أوربا بطريق البحر الأبيض المتوسط- والعراق متنوعة منها البهارات والمسك والعود الهندي والكافور والجوز والقرنفل والكبابة والنارجيل والثياب المتخذة من القطن والمخمل والفيلة بالإضافة إلى الياقوت والماس والدر والبلور والتي تأتي إلى الهند من سرنديب. (١)

وصف لنا صاحب المسالك طريق السند الهند تفصيلياً في كل من البر والبحر فقال: "من البصرة إلى عبادان اثنا عشر فرسخاً ثم إلى الخشبات* فرسخان ومنها يركب في بحر فارس فمن أراد البر إلى السند والهند جاز بحر فارس إلى هرمز مدينة كرمان ومنها يتوصل إلى السند والهند ومن أراد الطريق في البحر من أبلة البصرة في نهر الأبلة إلى جزيرة خارك سبعين فرسخاً ومنها إلى جزيرة لابن ثمانين فرسخاً ثم إلى جزيرة أبرون سبعة فراسخ ثم إلى جزيرة خين سبعة فراسخ ثم إلى جزيرة كيش سبعة فراسخ ثم إلى جزيرة أبروكان ثمانية عشر فرسخاً ثم إلى جزيرة أرموز سبعة فراسخ ثم إلى بار سبعة أيام وهي الحد بين فارس والسند ثم إلى الديبل ثمانية أيام ثم إلى مصب نهر مهران في البحر فرسخان ثم إلى كول فرسخان ثم إلى سندان ثمانية عشر فرسخاً ثم إلى ملي خمسة أيام ثم إلى بلين يومان ثم يفترق الطريق في

---

(١) ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص ٧٠.

* الخشبات: علامات في البحر تنتهي إليها المراكب ولا تتجاوزها خوفاً من الجرارة (المسعودي، المصدر السابق، ص ١٠٦).

البحر: فمن أخذ على الساحل فمن بلني إلى باس يومان ثم إلى السنجلي وكبكشان يومان ثم إلى كواد مصب نهر فريد ثلاثة فراسخ ثم كيلكان يومان ثم منها إلى سمندر وإلى أورسيد اثنا عشر فرسخاً ثم إلى أبينه أربعة أيام ثم إلى سرنديب يومان ومن أراد الصين عدل عن بلين وجعل سرنديب عن يساره". (١)

لأهل الهند عد ة وسائل في المعاملات المالية فقد كان من صرفهم عند بعض أهل الجزائر "الودع" ويسمون المائة منه "سياه" ويسمون السبعمائة منه "الفال" والاثني عشر ألفاً "الكُتي" والمائة ألف منه "بُستوا" ويباع بقيمة أربعة بساتي بدينار من الذهب وربما رخص حتى يُباع عشر بساتي منه بدينار(٢) كما تعامل ملك جزائر يقال لها الجُزر مع المسلمين بالذهب والدراهم التي يُقال لها "الطاطري" عليها تمثال صورة الملك وزنها مثقال. (٣)

أما عامة أهل الهند فقد تعاملوا بالدراهم ولهم أربعة دراهم يتعاملون بها أحدهما يسمى "الهشتاكني" و"الدرهم السلطاني" وهو ربع درهم من الدراهم المصرية والدرهم "الششتكاني" وهو نصف وربع درهم هشتكاني ويكون تقديره بالدراهم السلطانية ثلاثة دراهم والدرهم "الدرازهكاني" وجوازه بنصف وربع درهم هشتكاني أما الذهب عندهم فبالمثقال وكل ثلاثة مثاقيل تسمى "تنكة" ويعبر عن تنكة الذهب بالحمراء وعن تنكة الفضة البيضاء وكل مائة ألف تنكة من الفضة أو الذهب "لُكا". (٤)

كان من نتاج التجارة مع الهند أن أنشأ المسلمون مراكز عربية وإسلامية تجارية في كثير من مدن الهند والسند أهمها الديبل التي كان العرب يتبادلون فيها التجارة مع التجار الهنود الذين يجلبون بضائعهم من داخل الهند أو من المدن المجاورة وهي

---

(١) ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص ٧٠ وما بعدها.

(٢) ابن بطوطة: المصدر السابق، مح ٤،ص ٦٠.

(٣) ابن رستة: المصدر السابق، ص ١٣٥.

(٤) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٥،ص ٨٤-٨٥.

على شط ماء السند على ساحل البحر قريبة من السند في دخلة من البر في خليج السند يجلب منها المتاع الديبلي وهي أكبر فرض السند وأشهرها. (١)

ومن مراكز العرب هناك الملتان في ولاية من إقليم السند وملتان اتخذت قصبة لتلك الولاية فتحت في أول الإسلام على يد محمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف الثقفي وكان المسلمون في ضيق وقحط فوجدوا فيها ذهباً كثيراً فاتسعوا به. (٢)

وهناك مدينة المنصورة التي كان أهلها مسلمون وملكها من قريش وتجارها مياسير وبها أموال وماشية وزرع وحدائق وأسواق كثيرة. (٣)

(١) الإدريسي: المصدر السابق، ج ١،ص ١٦٩، أبوالفداء، المصدر السابق، ص ٨٤٩.

(٢) العمري: المصدر السابق، ص ١٢٠، ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٢٧٨.

(٣) الإدريسي: المصدر السابق، ج ١،ص ١٦٩.

الفصل الثاني

المراكز والموانئ والمكوس التجارية

المبحث الأول: المراكز التجارية

١ – بغداد

٢ – البصرة

٣ – الفسطاط

٤ – دمشق

٥ – أنطاكية

٦ – القيروان

المبحث الثاني: الموانئ التجارية

أولا : موانئ التجارة على البحر الأحمر

١ – أيلة

٢ – القلزم

٣ – عيذاب

٤ – جدة

٥ – عدن

ثانيا : موانئ التجارة على البحر الأبيض المتوسط :

١ – الإسكندرية

٢ – الفرما

٣ – المهدية

٤ – طرابلس

٥ – برقة

ثالثاً : موانئ التجارة على الخليج العربي :

١ – الأُبلة

٢ – سيراف

٣ – عمان

المبحث الثالث

المكوس التجارية

المبحث الأول

المراكز التجارية

١ - بغداد

بغداد هي المركز التجاري العظيم للدولة العباسية[١]. ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها سعة وكبراً وعمراناً ولا تشابهها مدينة في الأرض في صحة هوائها. سكنها أصناف من الناس وانتقل إليها الناس من جميع البلدان القاصية والدانية وفضلها الناس على أوطانهم[٢] فهي حاضرة العالم الإسلامي في العصر العباسي وحاضرة إقليم العراق الذي قيل في فضله أنه "إقليم الظرفاء ومنبع العلماء لطيف الماء عجيب الهواء ومختار الخلفاء"[٣] وهو "وسط الدنيا ومسرة الأرض".[٤]

لعل أهمية هذه المدينة في تاريخ الدولة العباسية بشكل عام وفي النشاط التجاري بوجه خاص تستدعي الوقوف على إنشائها واختيارها لتكون حاضرة للدولة خاصة إذا كان موقعها الذي وقع عليه الاختيار سبباً إلى ما وصلت إليه من نشاط تجاري عظيم.

بني هذه المدينة أبوجعفر المنصور * وقد أورد المؤرخون في إنشاء مدينة بغداد واختيار موقعها روايات عديدة ومن ذلك ما أورده الطبري[٥] بأن المنصور خرج بنفسه يرتاد موضعاً يتخذه مسكناً لنفسه وجنده ويبتني به مدينة ولما جاء إلى بغداد

---

(١) عبدالعزيز الدوري: المرجع السابق، ص ١٥٥.

(٢) اليعقوبي: المصدر السابق، ص ٢٣٤.

(٣) المقدسي: المصدر السابق، ص ١١٣.

(٤) اليعقوبي: المصدر السابق، ص ٢٣٣.

* بُويع للمنصور في سنة مائة وست وثلاثين وهو الذي ضبط المملكة ورتب القواعد كان حازماً يعطى في موضع العطاء ويمنع في موضع المنع. من أهم الأحداث في عهده خروج النفس الذكية وخروج إبراهيم بن عبدالله إلى البصرة ودعوته إلى نفسه فبعث له المنصور عيسى بن موسى في خمسة عشر ألف مقاتل وهزم في سنة خمس وأربعين ومائة. كما خرج عمه عبدالله بن على فاستقدمه المنصور إليه وحبسه كما قتل أبومسلم الخراساني في سنة سبع وثلاثين ومائة مات المنصور محرماً بمكة سنة ثمان وخمسين ومائة، (ابن طباطبا ، المصدر السابق ، ص٥٦).

(٥) الأمم والملوك، مصدر سابق، مج٧ ،ص ٦١٤.

قال: هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء يأتينا فيها كل ما في البحر وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينيا وما حول ذلك وهذا الفرات يجئ فيه كل شيء من الشام والرقة وما حول ذلك فنزل وضرب عسكره على الصراة وخط المدينة.

وذكر بعضهم أن المنصور لما أراد بناء مدينته استشار أهل الرأي من أهلها فقالوا له: نرى أن تنزل أربعة طساسيج* في الجانب الشرقي "بوق وكلواذى" وفي الغربي "قطربل" "وبادرويا"** فتكون بين نخل وقرب ماء فإن أجدب أو تأخرت عمارته كان في الآخر فرج وأنت على الصراة تجيئك الميرة في السفن الفراتية من المغرب والقوافل من مصر والشام في البادية وتجيئك الآت من الصين في البحر والهند والبصرة وواسط في دجلة ومن أرمينية وما اتصل بها حتى الزاب وتجيئك الميرة من الروم وآمد والجزيرة والموصل في دجلة. (١)

ورواية أخرى تقول أن المنصور بعد عودته من غزو الصقالبة في سنة أربعين ومائة سار إلى بغداد ووقف بها وقال: ما اسم هذا الموضع فقيل له: بغداد قال: إنها المدينة التي أعلمني بها أبي أني أبنيها وأنزلها وينزلها ولدي بعدي فهي جزيرة بن دجلة والفرات دجلة شرقيها والفرات غربيها مشرعة للدنيا كل ما يأتي في دجلة من واسط والبصرة والأبلة والأهواز وفارس وعمان واليمامة والبحرين وما يتصل بذلك فإليها ترقي وبها ترسى وكذلك ما يأتي من الموصل وديار ربيعة وأذربيجان... (٢)

كل هذه الروايات تفيد أن المدينة الجديدة رُوعي في اختيارها الموقع الإستراتيجي المتوسط في إقليم العراق الذي اعتبر وسط الدنيا بحيث يسهل من هذا

---

* طسوج: بوزن سُبوح وقدوس وهو أخص من الكورة وأقل منهاوكأنه جزء من أجزائها كما أن الطسوج جزء من أربعة وعشرين جزءاً من الدينار لأن الكورة قد تشتمل على عدة طساسيج وهي لفظة فارسية، ياقوت: المصدر السابق، مج ١،ص ٣٧.

** بادرويا: طسوج من كور الجانب الغربي من بغداد وهي كل ما كان من شرقي الصراة (المصدر نفسه والجزء،ص ٣١٧) وبوق هي نهر بغداد أو كورة نفسها (المصدر نفسه والجزء، ص ٥١٠) أما قطر بل فهي اسم قرية بين بغداد وعكبرا وهي متنزه وخانة للخمارين وقيل هي اسم لطسوج من طساسيج بغداد غرب نهر الصراة، (المصدر نفسه، ج ٤،ص ٣٧١) .

(١) الطبري: المصدر السابق، ج ٧، ص ٦١٧، ابن طباطبا: المصدر السابق، ص ١٦٢، المقدسي، المصدر السابق، ص ١٢٠، ياقوت، المصدر السابق، ج ١،ص ٤٥٨.

(٢) اليعقوبي: المصدر السابق، ص ٢٣٨.

الموقع المتميز الحصول على التجارات من كافة الاتجاهات والدليل على ذلك أن المنصور عندما بعث رواداً يرتادون له موضعاً لبناء المدينة الجديدة* اختاروا له موقعاً فيه غذاء طيب وعندما رآه المنصور ذكر لهم أنه موضع صالح وطيب لكنه لا يحمل الجند والناس والجماعات "إنما أريد موضعاً يرتفق الناس به ويوافقهم ولا تغلو عليهم فيه الأسعار ولا تشتد فيه المؤونة فإني إن أقمت في موضع لا يجلب إليه من البر والبحر شيء غلت الأشعار وقلت المادة واشتدت المؤونة وشق ذلك على الناس". (١)

كما أن موقع المدينة يدل على أنهم راعوا فيها التحصين والأمان ويتضح ذلك عندما وضحوا له بأن في هذا الموقع يكون الخليفة في مكان لا يصل إليه العدو إلا في سفينة أو على قنطرة على دجلة والفرات فإذا قُطعت القنطرة وخُربت القناطر فالخليفة ومدينته في أمان من دجلة والفرات لا يجيئه أحد من المشرق أو المغرب إلا أحتاج إلى العبور فدجلة والفرات خنادق لأمير المؤمنين. (٢)

لما اختير الموقع أحضر المنصور كل من عُرف من أهل الفقه والعدالة والأمانة والمعرفة بالهندسة وكان من بينهم الإمام أبوحنيفة النعمان** والحجاج بن أرطأة وحشد الصناع والفعلة من الموصل والجبل وأمر بخطها وحضر الأساسات

---

* دافع المنصور إلى بناء مدينة جديدة غير مدينة الهاشمية أنه كره الإقامة بالهاشمية بعد ثورة الراوندية فجد في التفتيش عن بقعة يتخذها عاصمة للدولة. وهناك من يقول أن المنصور ما بني المدينة المدورة إلا لأنه لم يأمن أهل الكوفة على نفسه ولخوفه من أن يفسدوا عليه جنده ويحملوهم على مناصرة العلويين، (الطبري، المصدر السابق، مج ٧،ص ٦١٦).

(١) المصدر نفسه مج ٧ ، ص ٦١٦.

(٢) ابن الجوزي: (جمال الدين أبوالفرج عبدالرحمن) مناقب بغداد، تقديم وتحقيق محمد زينهم محمد عزب ، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٧م،ص ١٦، المقدسي، المصدر السابق، ص ١٢٠.

** أبوحنيفة النعمان هو النعمان بن ثابت بن زوطي بن ماه الفقيه الكوفي ولد سنة ثمانين سنة، توفى سن خمسين ومائة وكان ذلك في وقت شيوع الاعتزال أدرك أربعة من الصحابة رضوان الله عليهم وهم أنس بن مالك وعبدالله بن أبي سهل بن سعد الساعدي بالمدينة وأبوالطفيل عامر بن واثلة بمكة كان عالماً عاملاً كثير الخشوع دائم التضرع إلى الله تعالى نقله المنصور من الكوفة إلى بغداد وولاه القضاء في الرصافة (طاش كبرى زاده، أحمد بن مصطفى، مفتاح السعادة ومصباح السيادة، تحقيق كامل بكري، عبدالوهاب أبوالنور، دار الكتب الحديثة، بدون م، ت ، ص ١٥١، ابن خلكان ، أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر) وفيات الأعيان وأنباء الزمان ج ٥ حققه يوسف على طويل ، مريم قاسم طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م ، ج ٤، ص ٥٧٧-٥٧٨).

سنة مائة وأربعين ومائة هجرية وجعل عرض السور من أسفل خمسين ذراعاً وجعل لها ثمانية أبواب أربعة داخلة صغار وأربعة خارجة كبار. [١]

باب خراسان شُرع على دجلة وباباً سماه باب البصرة شُرع على الصراة التي تأخذ من الفرات وتصل دجلة وباباً سماه باب الكوفة وباب الشام وعلى كل باب من هذه الأبواب مجالس وقباب مذهبة يصعد إليها على الخيل وضرب على سائر المدينة سوراً عظيماً. [٢]

وما يؤكد تميز هذا الموقع الذي بني فيه المنصور المدينة إنه كان عامراً منذ القدم فابن رسته[٣] يذكر أن هذه المنطقة كانت مأهولة بالسكان منذ عهد البابليين كانت في أيام الأكاسرة قرية من قرى طسوج بادوريا ومدينة الأكاسرة إذ ذاك "المدائن" من مدن العراق ولم تكن بغداد ذلك الوقت إلا ديراً على مصب الصراة ولم يكن بها أثر لملك قديماً أو حديثاً وقيل أنها كانت مركزاً وملتقي تجار في العصر الساساني[٤] كما يُذكر أنه كان في موضع المدينة المدورة في أواخر الحكم الساساني قرية تقوم بها للفرس كل سنة سوق عظيمة يجتمع بها في ذلك الموسم التجار للبيع والشراء وفي سنة ١٣هـ-٦٣٤م أرسل قائد الجيش العربي خالد بن الوليد عدداً من جنوده إلى سوق بغداد بقيادة المثني بن حارثة الشيباني فباغت المهاجمون القرية وغاروا على سوقها وهرب الناس وتركوا أمتعتهم وأموالهم وملأ المسلمون أيديهم من الصفراء والبيضاء وما خف حمله من المتاع.[٥]

وكل هذه المراحل التي عمر بها الموقع تدل على أنه لم يتعمر بمدينة عامرة كالتي بناها المنصور وإنما كانت قرى وأسواق تجمع الناس في أوقات معينة وهذا ما

---

(١) الأعلاق النفيسة ، المصدر السابق ، مج ٧، ص١٠٨.

(٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مج ٢، دار صادر، بيروت ١٩٦٠م، ص ٣٧٣-٣٧٤.

(٣) الأعلاق النفيسة، المصدر السابق، مج ٧،ص ١٠٨.

(٤) ابن الجوزي: المصدر السابق، ص ٨.

(٥) البلاذري: (أحمد بن يحي بن جابر) فتوح البلدان، حققه عبدالله أنيس عمر أنيس، دار النشر بيروت، ١٩٥٧م، ص ٣٤٤.

يؤكده اليعقوبي[(١)] بأن بغداد لم تكن مدينة في أيام الأكاسرة والأعاجم وإنما كانت قرية من قرى طسوج بادوريا.

اتخذت هذه المدينة الجديدة مسميات عديدة أشهرها "بغداد" وهي لفظة أعجمية الأصل لذلك وردت بأشكال مختلفة فقيل "بغداد ، بغذاذ، بغداذ....". [(٢)]

وقد اتفقت الروايات في أن اسم بغداد فارسي غير أنها تختلف في اشتقاقها ومن ذلك أنها مشتق من "بغ"و معناها صنم و"داد" ومعناها بالفارسية عطية فيكون معناها بذلك "عطية الصنم"[(٣)] وسماها المنصور مدينة السلام لأن دجلة يقال لها وادي السلام[(٤)] وقد تحاشي المسلمون كلمة بغداد. وكما قال الأصمعي*: لا يقال بغداد بل مدينة السلام فإن في الحديث بأن بغداد معناها عطية الصنم. [(٥)]

لا شك أن هذا التميز في الموقع هو عاملاً أساسياً في جعل بغداد المركز التجاري العظيم في الدولة العباسية. حيث أدى إلى نشاط تجاري ليس له نظير في مدن الدولة الأخرى وواضح من النصوص السابقة أن الموقع الإستراتيجي لبغداد جاء من ناحيتين الأولى التوسط في إقليم العراق الذي هو وسط الأقاليم ومن الأنهار العظمي التي تصل إلى بغداد والتي شكلت ممرات مهمة تصل إلى عاصمة الخلافة.

تؤكد الدراسات التي تناولت تاريخ بغداد أن النشاط التجاري في بغداد يعود إلى الطريق الموصلة إليها خاصة الممرات المائية المتمثلة في نهري دجلة والفرات ومن

---

(١) البلدان ، المصدر السابق، ص ٢٣٥.

(٢) ياقوت، المصدر السابق، ج ١،ص ٤٥٨.

(٣) البلاذري: المصدر السابق، ص ٣٤١، ابن رسته، المصدر السابق، مج ٧، ص ١٠٨.

(٤) ابن رسته: المصدر السابق، مج ٧، ص ١٠٨.

* الأصمعي: هو عبدالله بن قريب بن أصمع الباهلي أبوسعيد الأصمعي راوية العرب وأحد الأئمة في العلم باللغة والشعر والبلدان ولد سنة ١٢٢هـ- ٧٤٠م، ومات سنة ٢١٦هـ- ٨٣١م بالبصرة كان كثير الطواف في البوادي يقتبس علومها ويتلقي أخبارها ويتحف بها الخلفاء فيكأفأ عليها بالعطايا الوافرة. وكان الرشيد يسميه شيطان الشعر قال: أبوالطيب اللغوي : كان أتقن القوم للغة وأعلمهم بالشعر من تصانيفه (الإبل)، (الأضداد)، (النخل والكرم)، (الإنسان)، (المترادف)، (الفرق)، (الخيل)، (ابن الجوزي، المصدر السابق، ص ١٢).

(٥) المصدر نفسه والصفحة.

ذلك ما يؤكده المقدسي[١] بقوله: "أعلم أن العراق ليس بلد رخاء ولكن جلّ وعَمُرَ بهذين النهرين وما يُحمل فيهما...".

كانت أكثر السلع التي تصل إلى بغداد بالطرق المائية حيث كان كلاً من دجلة والفرات يربطان الأقسام العليا من العراق بالخليج العربي عبر بغداد وبذلك أخذت السفن التجارية تسير في الرافدين. وكانت الملاحة في هذين النهرين ملائمة على نحو لا نظير له وخاصة نهر الفرات وذلك لأن مستوى نهر الفرات أعلى قليلاً من مستوى نهر دجلة وهذا يجعل السفن التي تسير في الأنهار المتفرعة إلى الشرق سهلاً ولا يصعب عليها أن تعود إلى الغرب وبهذه السهولة في الملاحة كان يجرى على أنهار العراق كثير من أصناف القوارب الشديدة الاختلاف. [٢]

فإذا أخذنا نهر دجلة* لنوضح مدى كبر حجم نشاطه فنجد أنه كان أكثر استعمالاً من الفرات وذلك لأنه كان صالحاً للملاحة حتى أقسامه العليا وكان السير فيه من بغداد إلى الخليج أسهل من بقية أجزائه لأن النهر يتسع في هذا الجزء وتقل فيه الموانع وتقل سرعة تياره. وكان عن طريقه يأتي إلى بغداد كل ما هو آتٍ من البصرة. وقد وصف ابن رسته[٣] الطريق بين بغداد والبصرة وهو طريق نهري حيث تنشر السفن أشرعتها في بغداد وتسير بمحاذاة الضفة الشرقية لنهر دجلة فتمر بالمدائن ودير العاقول وجرجرايا وجَبّل وفم الصلح إلى واسط وهناك يتشعب النهر إلى ثلاث شعب ولذلك تنقل البضائع من السفن إلى قوارب صغيرة ثم تدخل هذه القوارب في البطيحة وتسير في ممرات ضيقة بين القصب حتى تصل إلى فسحة من الماء الصافي الخالي من القصب تسمى الهول ثم تسير إلى باذورد ثم نهر أبي الأسد حتى تصل نهر معقل ثم تتبع مجراه حتى تصل البصرة.

---

(١) أحسن التقاسيم ، المصدر السابق، ص ١١٧.

(٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، نقله إلى العربية محمد عبدالوهاب أبوريدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٥٧م ج ٢، ص ٢٨٨.

* يظهر نهر دجلة من إقليم الجزيرة ويلقاه عدد من الأنهار في هذا الإقليم وينحدر عليه من الفرات بكورة بغداد أربعة أنهار الصراة ونهر عيسى ونهر صرصر ونهر الملك ويلقاه من الشرق مياه النهروانات تحت بغداد فإذا جاوز واسط تبطح وصعب سلوكه إلى تخوم البصرة (المقدسي، المصدر السابق، ص ١٢٤).

(٣) الأعلاق النفيسة، المصدر السابق، مج ٧،ص ١٢٢-١٢٣.

كما كان عن طريق دجلة تنحدر بضائع أرمينيا إلى بغداد بالموصل التي كانت كثيرة الثمار والبقول ومنها تمتار بغداد وقد كان الناس يذهبون ويجيئون ويعبرون في السفن في حركة وضوضاء وثلث طيب بغداد في شط هذا النهر. (١)

كما كان نهر دجلة ممراً للسفن الآتية من واسط والأبلة والأهواز وفارس وعمان واليمامة والبحرين وما يتصل بذلك وبه يرسى ما جاء في ديار ربيعة وأذربيجان وأرمينيا. (٢)

أما نهر الفرات* والذي كان صالحاً للنقل في معظم أجزائه فقد كانت تنقل عليه التجارة بين الشام وبغداد ومن البضائع التي تنقل بكميات كبيرة على هذا النهر خشب البناء من جبال أرمينيه وزيت الزيتون من الشام وكان الزيت والخشب ينحدران في النهر على أخشاب تحملها وكان الرمان كذلك يحمل على مراكب كبيرة تسمى "القراقير"**(٣). ويأتي على هذا ما يُحمل من مصر والرقة والشام والثغور والمغرب وما يُحمل كذلك من الجبل وأصفهان وكور خراسان. (٤)

كانت السفن التي تحمل البضائع كثيرة جداً وقد أُحصى في أوائل القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي عدد السفن التي تنقل الناس والتجارة في بغداد فكانت ثلاثين ألفاً وقدر كسب ملاحيها في كل يوم بتسعين ألف درهم ولم تكن هذه السفن

---

(١) المقدسي: المصدر السابق، ص ١٢٤.

(٢) اليعقوبي: البلدان ، المصدر السابق، ص ٢٣٨.

* يأتي نهر الفرات من بلاد الروم (تريا حالياً) ويتقوس على طائفة من إقليم العراق ثم يصل إلى الكوفة بعدها يتشعب ثم ينحدر إلى غربي واسط فيتبطح في بحيرة عظيمة يحيط بها قرى عامرة وتجرى فيه السفن من الرقة (المقدسي، المصدر السابق، ص ١٢٤).

** القراقير: جمع قرقور وقرقورة وهي ضرب من السفن أعجمي تتفاوت من حيث الحجم والضخامة يسمى صاحبها بلغة الافرنج الكبطان وكاتبها يسمى شكربان وتاجرها يسمى البندون ومن القراقير نوع ذو ثلاث طبقات وثلاثة ظهور توسق بالبضائع وليس لهذا النوع من السفن سفر إلا بالقلوع الممتلئة بالريح العاصف يجريها لثقل حملها وكبر حجمها (درويش النخيلي، السفن الإسلامية على حروف المعجم، ط ٢، دار المعارف، مصر، ١٩٧٩م، ص ١٢١-١٢٢).

(٣) آدم متز: المرجع السابق، ج ٢،ص ٣٨٩.

(٤) اليعقوبي: المصدر السابق، ص ٢٣٨.

المكشوفة لا من حيث اسمها ولا من حيث صورتها تشبه قوارب اليوم بل كانت من تلك السفن تسمى بالسميريات*. [١]

ومن أنهار بغداد نهر واسع وبه مياه غزيرة يمكن للسفن التجارية أن تسير فيه وهو نهر عيسى بن على الهاشمي الذي يتفرع من الجانب الأيسر لنهر الفرات وعند فوهته قنطرة تسمى قنطرة "دمما" فيقطع أرض الجزيرة الواقعة بين الفرات ودجلة ويسقى هو وفروعه المزارع والبساتين الواقعة على جانبيه حتى إذا انتهى إلى المحول تفرعت منه الأنهار التي كانت تخترق مدينة السلام حتى يصب في نهر دجلة أسفل قصر عيسى بن على[٢]. وتكمن أهمية هذا النهر في أن السفن القادمة في الفرات تسير فيه حتى المحول** حيث تنقل أحمالها إلى قوارب صغيرة لتتمكن من السير في فروع هذا النهر إلى بغداد[٣]. كما كانت تسير في هذا النهر السفن العظام التي تأتي من الرقة يحمل فيها الدقيق والتجارات من الشام ومصر وتصير إلى فرضة عليها الأسواق وحوانيت التجار ولا تنقطع صيفاً ولا شتاءً. [٤] وكانت سعة هذه السفن تتراوح ما بين ستة عشر ذراعاً إلى عشرين ذراعاً وأن عرض الباب الكبير من أبواب قنطرة "دمما" اثنان وعشرون ذراعاً. [٥]

---

* السميريات: مفرد سميرة وهي ضرب من السفن عرف أيام العباسيين وقد استخدم هذا النوع من السفن في أغراض شتى فقد استخدم في القرنين الثالث والرابع الهجريين التاسع والعاشر الميلاديين كنوع من سفن القتال النهري في العراق فكانت تحمل آلات الحرب والسلاح والمقاتلة والرماة والملاحين ومع ذلك الاستعمال استعملت في نقل البضائع والمتاجر من مكان إلى آخر في العراق كما استعملت كوسيلة من وسائل الانتقال إلى حيث مجالس اللهو والغناء والمنادمة وقد كان بعض وجوه القوم يمتلكون هذه السميريارت(درويش النخيلي، المرجع السابق، ص ٦٧-٦٩).

(١) ابن الجوزي: المصدر السابق، ص ٢٤، آدم متز، المرجع السابق، ج ٢،ص ٣٩١.

(٢) ابن الجوزي: المصدر السابق، ص ٣٠-٣١.

** المحول: اشتقاقه من حولت الشيء إذا نقلته وهي بليدة كثيرة الفواكه والأسواق بينها وبين بغداد فرسخ وباب محول محلة كبيرة منفردة بجنب الكرخ كانت أولاً متصلة به (ياقوت، المصدر السابق، ج ٥،ص ٦٦).

(٣) اليعقوبي: البلدان ، المصدر السابق، ص ٢٥٠.

(٤) الحميري: المصدر السابق، ص ١١.

(٥) آدم متز: المرجع السابق، ج ٢،ص ٣٨٩.

ويتفرع من نهر عيسى نهر الصراة عند المحول ويمر بقنطرة العباس وقنطرة رحى البطريق والقنطرة الجديدة والعتيقة ويصب في نهر دجلة. ويتفرع من هذا النهر نهر يُقال له خندق طاهر ونهر آخر يقال له كرخايا أوله في المحول. أما الأنهار التي كانت تخترق المحال كثيرة منها نهر البزازين ونهر طابق ونهر الدجاج ونهر القلائيين ونهر موسى الذي ينقسم بدوره إلى ثلاثة أنهار داخل بغداد. (١)

وتوجد على هذه الأنهار المتعددة وطرقها الهامة محطات يحرسها حراس وتُجبي فيها الضرائب. كما توجد في المحلات الموجودة بين الممرات المائية في البطيحة بيوت من القصب فيها حراس لضمان سلامة النقل. (٢)

ومما زاد هذه المدينة حيوية ونشاطاً تجارياً القنوات التي حفرت من هذه الأنهار فهناك القناة التي تأخذ من نهر الفرات في عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالصاروج والآجر من أعلاها. فتدخل المدينة وتنفذ في أكثر شوارعها وشوارع الأرباض صيفاً وشتاءً وقناة أخرى سماها المنصور "دُجيلا" لأنها من نهر دجلة وجرّ لأهل الكرخ نهراً سماه نهر الدجاج. (٣)

وأقيمت الجسور بين هذه الأنهار وكان هناك جسران بين دور الرعية ودور الخلافة منصوبان على دجلة شرقاً على سفن وزوارق أُوقفت في الماء ومُرت بينهما السلاسل الحديدية المكعبة بالمكعبات الثقال وفوقها الخشب. وعليها التراب يمر عليها أهل كل جانب إلى الآخر بالحُمر والجمال والخيول (٤)

كل ما ذكر يؤكد أن للطرق المائية دوراً عظيماً في النشاط التجاري ولكن ليس معنى ذلك أنه لم تكن للطرق البرية دور في ذلك النشاط فقد كانت المواصلات البرية سهلة نظراً لاستواء سطح البلاد وكانت بغداد تلتقي فيها عدة طرق رئيسية تؤدى إلى مختلف أنحاء البلاد من أهم هذه الطرق:

---

(١) ابن الجوزي: المصدر السابق، ص ٣١.

(٢) ابن رسته: المصدر السابق، ص ١٨٤-١٨٥.

(٣) الحميري: المصدر السابق، ص ١١١-١١٢.

(٤) القلقشندي: المصدر السابق،ص ٣٣١.

١- الطريق الذي يبدأ من مدينة السلام إلى أقصى خراسان حيث يبدأ الطريق من بغداد إلى الري ومن الري إلى نيسابور ومن نيسابور إلى طوس ومن طوس إلى هراة ومن هراة إلى كرمان أومن هراة إلى سجستان وبعدها إلى خراسان[١] وهذا الطريق جعلها مركزاً لتجارة إيران وأواسط أسيا. [٢]

٢- الطريق من بغداد إلى مكة وهذا الطريق يبلغ طوله ٦٦٠ ميلاً عن طريق المدينة وعلى طريق الحجاز ٨٤٨ ميلاً. [٣]

٣- الطريق الجنوبي من بغداد إلى واسط والبصرة. [٤]

٤- الطريق الغربي إلى الرقة وسوريا وفي هذا الطريق تشحن التجارات المختلفة الآتية من بلدان الشرق الأقصى حيث تحمل البضائع على ظهور الدواب وينقلونها إلى سوريا ومنها إلى موانئ شرقي البحر المتوسط حيث تصدر إلى الدولة الرومانية أو إلى مدن جنوب أوربا. [٥]

لا شك أن الموقع الجغرافي لمدينة بغداد وسهولة الملاحة بالأنهار الموصلة إليها ووجود عدة جسور عبر نهر دجلة جعلها مركزاً مهماً للتجارة الدولية التي بلغت أوجها في ذلك العصر. وثمة عوامل أخرى أدت إلى ذلك النشاط فقد كان لعناية الخلفاء العباسيين بالتجارة وحرصهم على تبادلها وتسيير طرقها البرية والبحرية أثر كبير في ترقي ذلك النشاط في بغداد.

ويبدو الاهتمام بالتجارة واضحاً في اهتمامهم بالأسواق التي كان لإزدهارها دور كبير في مركزها التجاري العالمي فقد أبدي المنصور منذ إنشاء المدينة اهتماماً واضحاً بالأسواق حيث "وقع إلى أصحاب كل ربع ما يصير لكل رجل من الذرُع

---

(١) ابن رسته: المصدر السابق، مج ٧، ص ١٦٣-١٧٣.

(٢) اليعقوبي: المصدر السابق،ص ٢٣٧-٢٣٨.

(٣) ابن رسته: المصدر السابق، مج ٧، ص ١٨٠.

(٤) المصدر نفسه مج ٧ ،ص ١٨٤-١٨٥.

(٥) أحمد عبدالحميد الشامي: العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى، مطابع رمسيس، الإسكندرية، بدون تاريخ، ص٢٣.

ولمن معه من أصحابه وما قدره للحوانيت والأسواق في كل ريف وأمرهم أن يوسعوا في الحوانيت وفي كل ربض سوق جامعة تجمع التجارات".(١)

كما شجع الخلفاء التجارة بصورة غير مباشرة فالخليفة وكبار موظفيه زادوا الطلب على البضائع الأجنبية مما دعا ابن خلدون(٢) أن يسمى الدولة "السوق الأعظم للتجارة" فالترف الذي ساد الحياة في الدولة العباسية لا سيما في قصور الخلفاء ودور الأغنياء جعل هذه القصور في حاجة ماسة إلى أدواته من فرش وحرير وديباج وأطعمة وزينة وأواني فاخرة فكان ذلك محركاً لهذا النشاط. (٣)

وعمل الخلفاء أيضاً على تسهيلها فالخليفة المنصور عندما أنشأ الأسواق لم يضع على الأسواق غلة وظلت أسواق بغداد معفاة من هذه الضريبة أكثر من عشر سنوات وبذلك استطاعت خلال هذه الفترة أن تنتعش وتنشط قبل أن تثقل بهذه الضريبة المحدثة التي وضعها ابنه المهدي على الأسواق سنة ١٦٧-٧٨٣م.(٤)

وقام الخليفة الواثق* بتفريق المال على قوم من التجار عندما كثر الحريق ببغداد وأسقط ما كان يؤخذ من العشر من التجارة الواردة في بحر الصين. (٥)

وفي خلافة المعتضد (٢٧٩-٢٨٩هـ) (٨٩٢-٩٠١م) تمت الهيمنة على الأمور فأخمدت الثورات وحركات التمرد وأطفأت نار الفتن والاضطرابات وأقصى عن بغداد جميع القتلة واللصوص الذين كانوا متى ما أرخي الليل سدوله سطوا على الدور والحوانيت. فلا عجب أن نعمت التجارة في عهده بالطمأنينة والأمن وارتفعت

---

(١) اليعقوبي: البلدان، المصدر السابق ، ص ٢٤٢.

(٢) (عبدالرحمن بن محمد) ، المقدمة ، مكتبة سوسة ، تونس (بدون ت) ، ص ٢٣٩.

(٣) أنظر الفصل الأخير من هذا البحث الجزء الخاص بأثر التجارة في الحياة الاجتماعية.

(٤) البغدادي: (الحافظ بن بكر الخطيب) تاريخ بغداد، ج١ ، تحقيق مصطفي عبدالقادر، بيروت ١٩٩٧،،ص١٠٨.

* الواثق: تولى الواثق الخلافة سنة سبع وعشرين ومائتين وكان من أفاضل خلفاء بني العباس شاعراً وفصيحاً ومتشبهاً بالمأمون وفي خلافته أحسن إلى بني عمه الطالبيين ولم يقع في عهده القصير حوادث مشهورة مات سنة ثلاث وثلاثين ومائتين(ابن طباطبا، المصدر السابق، ص ٢٣٦).

(٥) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ، المصدر السابق، مج ٢،ص ٤٨٣.

الحروب ورخصت الأسعار وخلف في بيوت الأموال تسعة آلاف ألف دينار ومن الورق أربعين ألف ألف درهم ومن الدواب والبغال والحمير اثني عشر رأس. (١)

وفي عهد المطيع** لم تطالب الدولة التجار بدفع المكوس داخل المملكة وهذا ما جاء في عهدٍ من الخليفة المطيع إلى أحد عماله بتاريخ ٣٦٦هـ-٩٧٦م. جاء فيه "بأن يؤكل بالطرقات من الخيل والرجال من يتقاصاها ليلاً ونهاراً ويستقربها سهلاً وجبالاً ويسير في برها وبحرها... ويقلد عليهم أهل النجدة والبسالة وذوي الشدة والجزالة ويوعز إلى من يوليه بأن يتبعوا مظان أهل الريب فيشردوهم عنها ومكامن أهل العبث فيبعدوهم منها... وأن يسيروا مع السابلة ويصحبوا من يسلك الطرق من المارة ويحملوا النفوس والأموال ويحوطوا الزراري والتجارات ويقفوا على من تخلف ويسيروا بمسير من ضعف حتى لا يلحق أحداً من السالكين... ولا يلزموا أحداً من المجتازين مؤونة ولا يحملوه ثقلاً ولا كلفة لتؤمن السبل وتحمى المسالك وتدر للرعية المتاجر وتستقيم لها أسباب العيش وتكون الطرق مضبوطة والآمال محوطة".(٢)

يمكننا إدراك حجم النشاط التجاري الذي وصلت إليه بغداد بأمرين:

أولاً: الأموال التي يمتلكها التجار في مدينة بغداد وثانياً: العمارة التي وصلت إليها بغداد في هذه الفترة.

فبالنسبة للأمر الأول فقد ظهر في ذلك الجو التجاري أفراد وبيوتات تجارية جمعت الأموال حتى تجاوزت ثروتها الملايين من الدنانير وفيهم من خدمهم حظهم حتى ارتقوا إلى طبقة الخاصة وجمعوا الأموال الطائلة كآل الجصاص تجار الجواهر وأول من أثرى منهم الحسن بن عبدالله المعروف بابن الجصاص وشهرة هذا التاجر تستدعى الوقوف عنده قليلاً.

---

(١) المسعودي: المصدر السابق، ج ٤،ص ٢٣٢.

** المطيع: بويع المطيع سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة في أيامه رد الحجر الأسود إلى مكانه وكان القرامطة قد أخذوه من قبل لما اشتد عليه المرض دعاه سبكتين حاجب معز الدولة على خلع نفسه ومبايعة ولده الطالع ففعل ذلك ومات سنة أربع وستين وثلاثمائة (ابن طباطبا، المصدر السابق، ص ٢٨٩).

(٢) الصابي: رسائل الصابي، ص ٣٤ عن عبدالعزيز الدروي، المرجع السابق، ص ١٦٧.

كان ابن الجصاص تاجراً عراقياً يتاجر بالجواهر في بغداد ثم رحل إلى الفسطاط في زمن الأمير خمارويه وكانت بداية علمه أنه وكيلاً لخمارويه في ابتياع الجواهر في دهليز لخمارويه وتوسع حاله وفي سنة ٢٨٢هـ-٨٩٥م تزوج الخليفة المعتضد العباسي ابنة خمارويه الذي استدعى ابن الجصاص وأجرى أمر الجهاز على يده وكان ذلك الجهاز سبب غناه واستقلاله فقد قيل أنه اقتطع بعض الجهاز وأعلم قطر الندي* بنت خمارويه بأن ما أخذه مُودع لها عنده إلى وقت حاجتها إليه فماتت والجواهر عنده. (١)

ثم نقل ابن الجصاص مركزه إلى بغداد وهنا زادت ثروته واتسع نفوذه وقد قال بعضهم: دخلت يوماً على ابن الجصاص وبين يديه سفط مبطن بالحرير فيه جوهر قد نظم منه سبح فرأيت منه شيئاً حسناً ووقع في نفسي أن عددها يجاوز العشرين فقلت له: جعلني الله فداك كم عدد ما في كل سبحة فقال لي: مائة حبة وزن كل حبة كوزن صاحبتها لا تزيد ولا تنقص. وقد عدلت كل سبحة وزن صاحبتها وإذا بيديه سبائط ذهب توزن بقبان كما يوزن الحطب. (٢)

كان لابن الجصاص بيت كبير في بغداد لبيع المجوهرات فلما كانت النكبات والمصادرات في أوائل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كان ابن الجصاص من جملة الذين صُودروا على ٦٠٠٠,٠٠٠ دينار وبقي له بعد مصادرته شيء كثير من الأموال والضياع والدور والقماش. (٣)

---

* قطر الندي بنت خمارويه هي إحدى ربات الحسن والرأي والعقل خطبها المعتضد بالله لما اصطلح مع خمارويه صاحب مصر وتزوجها على مهر بلغ ألف ألف دينار وجهزها أبوها بجهاز عظيم كان فيه عشرون جنيه ذهب في عشرة منها قطعة صندل وزنها أربعة وثمانون رطلاً وخمس خلع قيمتها خمسة آلاف دينار وفيها ألف هاون ذهب ودكة عليها قبة من ذهب مشبك في كل عين من التشبيك قرط معلق في حبة من جوهر لا يعرف قيمته ولما فرغ خمارويه من الجهاز أمر فبني لها على رأس كل منزلة تنزل بها قصراً ما بين مصر وبغداد (عمر رضا كحالة، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، ج ٤، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩١م،ص ٢١٢-٢١٤).

(١) المسعودي: المصدر السابق، ج ٤،ص ٢٣٤.

(٢) المسعودي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٣٤.

(٣) المصدر نفسه ج٤ ، ص ٢٣٤.

وهناك نماذج كثيرة لتجار أغنياء في بغداد فقد كان عند أحد الباعة في الجانب الغربي من بغداد من البضائع في حانوته ما يبلغ ثمنه ٢٠٠,٠٠٠ دينار ولدى آخر من التجار ألف ينار مدفونة في بئر. (١)

بلغ الحد من غنى التجار في بغداد أن الدولة كانت تقترض من التجار في أوقات الأزمات وعند تأخر جباية الضرائب. وقد نصح وزير المعتضد نائبه أن يقترض من التجار عند الضرورة وقد شكا الخليفة الراضي حين حصلت له أزمة مالية سنة ٣٢٢هـ-٩٣٣م بأنه لا يجد في عصره تجاراً أغنياء مثل ابن الجصاص "يجمل بمثلهم الملك ويلجأ إليهم".(٢)

أما بالنسبة لعمارة بغداد فقد كثرت عمارتها وامتلأت المدينة بالمساجد والمدارس والبيمارستانات والصدقات الجارية ووجوه المعونة. (٣)

وإذا تركنا القصور * وأخذنا جانب الدور فقد كانت لهم فيها الصنائع العجيبة في التزويق(٤) فهي مبنية على هندسة الفرس وعلى غرار ما بنت الروم في الشام مرفوعة في طبقتين وكانت دور أهل اليسار ثلاثة أقسام وفي ساحاتها جنات مفروشة بالفاكهة والرياض والحقول وعلى جدرانها وسقوفها نقوش في رسم ملون أو فسيفساء مذهبة وعلى دائر الأبواب والقمريات كتابة يتخذونها من الزجاج الملون ويحوطونها بخشبٍ أسود من الأبنوس وغيره ثم يعلقون عليها رسوماً من النحاس تمثل بواسق الأشجار ومحاسن الأزهار على أشكال فيها إبداع. وكانوا يتأنقون في زينة الدور من الخارج كالقباب التي يرفعونها من فوق الأسطح على عمد دُقت كأمثال الرماح حتى يخيل للرائي أنها لا تستند على شيء وكأنما هي معلقة في الهواء. (٥)

---

(١) عبدالعزيز الدوري: المرجع السابق، ص ١٤١.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٥٣.

(٣) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٤،ص ٣٣٢.

* أنظر القصور الفصل الأخير من هذا البحث.

(٤) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٤،ص ٣٣٣.

(٥) عبدالسلام رستم: أبوجعفر المنصور الخليفة العباسي، دار المعارف، مصر ١٩٦٥م، ص ٧٥.

وتظهر عمارة المدينة بصورة واضحة في كثرة حماماتها التي أعجب بها ابن بطوطة ووصفها وصفاً دقيقاً فيقول(١): "الحمامات أكثرها مطلية بالقار مسطحة به فيخيل لرائيه أنه رخام أسود وهذا القار يجلب من الكوفة والبصرة تتبع أبداً به ويصير في جوانبها كالصلصال فيجره منها ويجلب إلى بغداد... وفي كل حمام منها خلوات كثيرة وكل خلوة مفروشة بالقار مطلي نصف حائطها مما يلي الأرض به والنصف الآخر مطلي بالجبص الأبيض الناصع فالضدان مجتمعان وفي داخل كل خلوة حوض من الرخام فيه أنبوبان أحدهما يجرى بالماء الحار والآخر بالماء البارد فيدخل الإنسان الخلوة منها مفرداً لا يشاركه أحد إلا أن أراد ذلك. وفي زاوية كل خلوة حوض آخر للاغتسال فيه أنبوبان يجريان بالحار والبارد وكل داخل يُعطى ثلاثاً من الفوط أحدهما يتزر بها عند دخوله والأخرى يتزر بها عند خروجه والأخرى ينشف بها الماء عن جسده ولم أر هذا الإتقان كله في مدينة سوى بغداد".

وعلى الرغم من أن رحلة ابن بطوطة كانت في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) أي بعد سقوط بغداد في أيدي المغول إلا أن ما وصفه الرحالة الكبير يبين ما كانت عليه المدينة من العظمة.

لا شك أن بغداد بهذه الروعة والفخامة لم يكن لها شبيه في بلدان العالم "فلا عجب أن عُمل فيها ما يُعمل في كل بلد من البلدان لأن حذاق أهل الصناعات قد انتقلوا إليها فكان الجانب الغربي من بغداد في كل طرف منه مقبرة وقرى متصلة وعمارات مادة"(٢) "فليس من أهل بلد إلا ولهم فيها متجر ومتصرف فاجتمع لها ما ليس في مدينة في الدنيا".(٣)

ورغم أنه لا توجد إحصائيات دقيقة لسكان بغداد في تلك الفترة إلا أنه من الممكن أن نلتمس كثرة سكانها من رواية تقليدية لإحصاء السكان وردت في مناقب بغداد تقول: أن عدد حمامات بغداد في أوج ازدهارها كان ستين ألف حمام وأقل ما

---

(١) تحفة الأنظار، المصدر السابق، ج ٢،ص ٦١.

(٢) الحميري: المصدر السابق، ص ١١٢.

(٣) اليعقوبي: البلدان، مصدر سابق، ص ٢٣٤.

يكون في كل حمام خمسة تفر، حامي وقيم وزبال ووقاد وسقاء ويكون ذلك ثلاثمائة ألف رجل وذكر أنه يكون بإزاء كل حمام خمسة مساجد فتكون ثلاثمائة ألف إنسان وأقل ما يكون في كل مسجد خمسة نفر يكون ذلك ألف ألف وخمسمائة ألف إنسان. (١)

ولا شك أن كل هؤلاء كانوا ينعمون بالعيش في تلك المدينة العامرة وليس أدل على ذلك من قول أحدهم. وقد حُمل من مصر أسيراً إلى بغداد: مر بي رجل متزر بمنديل مصري معتم بمنديل دبيقى بيده كيزان خزف رقاق وزجاج مخروط فسألت عنه فقيل لي: هذا ساقي العامة فقلت له أسقني فتقدم وسقاني فشممت من الكوز رائحة المسك. (٢)

إن كل من يرى مدينة بغداد يبالغ في مدحها ومن ذلك ما قاله أحد الثقات: "رأيت المدن العظام بالشام والروم وغيرها فلم أر مدينة قط أرفع سمكاً ولا أجود استدارة ولا أوسع أبواباً ولا أجود فصلاً من مدينة أبي جعفر فكأنما صبت في قالب وكأنما أفرغت إفراغاً".(٣)

وقيل في مدحها إن من لم ير بغداد فكأنه لم ير الدنيا والذي رأى بغداد كأنه رأى الأرض كلها:و كان بعض الناس إذا ذكرت بغداد يقول: قال تعالى:﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾(٤). (٥)

أما أهل بغداد فقد مُدحوا بأنهم "فضلوا الناس في العلم والفهم والأدب والنظر والتميز والتجارات والصناعات والمكاسب والحذق في كل مناظرة وإحكام كل مهنة وإتقان كل صناعة فليس عالم أعلم من عالمهم ولا أروى من روايتهم ولا أجدل من

---

(١) ابن الجوزي: المصدر السابق، ص ٣٩.

(٢) البغدادي: المصدر السابق، ج ١،ص ٧٣.

(٣) ابن الجوزي: المصدر السابق، ص ٣٩.

(٤) سورة سبأ: الآية ١٥.

(٥) البغدادي: المصدر السابق، ج ١،ص ٧٣.

متكلمهم ولا أعرب من نحويهم ولا أصح من قارئهم ولا أحذق من مغنيهم ولا ألطف من صانعهم ولا أكتب من كاتبهم ولا أبين من منطقهم".[١]

(١) ابن الجوزي: المصدر السابق، ص ٧٣.

٢ -البصرة

البصرة قصبة سرية أحدثها المسلمون أيام الخليفة عمر بن الخطابﷺ حين كتب إلى صاحبه بأن يبني للمسلمين مدينة بين فارس وديار العرب وحدّ العراق على بحر الصين فاتفقوا على موضع البصرة ونزلها العرب[١]. وتمَّ تمصيرها سنة ستة عشر هجرية وكان واليها الأول هو عقبة بن غزوان وكان قاضي يقضى بين المسلمين ثم ولي عليها الخليفة أباموسى الأشعري ثم عُين عقبة مرة أخرى. [٢]

إن أهم ما يميز البصرة هو موقعها عند التقاء دجلة بالخليج العربي على رأسه. فهي شبه طيلسان قد شق إليها من دجلة نهران هما، نهر الأبلة ونهر معقل فإذا اجتمعا مرا عليها. وتتشعب إليها أنهار إلى نواحي عديدة وهي ممتدة على طول النهر ودورها في البر إلى البادية. وهي من النهر إلى باب المدينة نحو ثلاثة أميال. [٣]

وقد كان لموقع البصرة على رأس الخليج العربي أهمية كبيرة في التجارة حيث كانت مقصد الطرق التجارية البحرية التي تمر بالخليج العربي. وكانت السفن التي تسير في الخليج تنقل السلع ما بين العراق ملوخا وماجان* الواقعتين جنوب سواحله منذ العصور القديمة وظلت هذه التجارة نشطة لفائض المنتوجات في الأقطار الواقعة على المحيط الهندي كالمنتوجات الزراعية والأخشاب والتوابل والأحجار الكريمة. [٤]

فهي مخرج تجارة العراق وقد ورد في كتاب الجاحظ** الخاص بالتجارة أن البصرة "باب بغداد الكبير ومدخل دجلتها المتدفق بضروب المتاع وأنواع السلع المجلوبة من أطراف الدنيا ومحط رجال الشرق والغرب في مجاهل الصين إلى مفاوز

---

(١) اليعقوبي: البلدان، ص ٣٢٣، المقدسي، المصدر السابق، ص ١١٧.

(٢) ابن العراق: (لقمان بن محمد) معدن الجواهر بتاريخ البصرة والجزائر، تحقيق محمد حميد الله، معهد البحوث، إسلام أباد، ١٩٧٣م، ص ٩٦، الاصطخري، المصدر السابق ،ص ٥٦.

(٣) المقدسي: المصدر السابق، ص ١١٧.

* ماجان نهر كان يشق مدينة مرو (ياقوت، المصدر السابق، مج ٥،ص ٣٢).

(٤) موسوعة البصرة الحضارية، أصدرتها جامعة البصرة المركز الثقافي، ١٩٨٩م،ص ٥٢.

** الجاحظ: اسمه عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي المعروف بالجاحظ البصري صاحب تصانيف في كل فن له مقالة في أصول الدين وإليه تنسب الفرقة المعروفة بالجاحظية من المعتزلة من أحسن تصانيفه وأمتعها "الحيوان" و "البيان والتبيين" وقيل له الجاحظ لأن عينيه كانتا جاحظتين والجحوظ هو النتؤ زاد عمره على تسعين سنة (ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٣،ص ٤١٢).

الصحراء الكبرى إذ كانت مقصد القوافل الواردة من كل حدب وصوب ولذلك استفحل بها العمران وكثرت فيها المصانع والصنائع وصارت واسطة العرب والعجم حقّ لها أن تتلقب بقبة السلام".[1]

كما كانت البصرة مرفأ الصين والهند حيث تتصل بهما براً وبحراً لذلك كانوا يسمونها في ذلك الوقت "أرض الهند"[2] كما كانت تتصل بالشام وآسيا الصغرى. [3]

تميزت البصرة بكثرة الأنهار حيث نشط خلفاء العصر العباسي الأول في حفرها وحفر القنوات وإقامة الجسور والقناطر وإصلاح الأراضي ومن جملة الأنهار التي شُقت في البصرة في عهد أبوجعفر المنصور نهر الأمير الذي أمر بحفره وسمى باسمه. ثم نهر الخصيب المنسوب إلى الخصيب مرزوق حاجب الخليفة أبوجعفر المنصور. وهو نهر كبير متفرع من شط العرب في الجهة الجنوبية من البصرة وأنشأ على جانبيه الحدائق والبساتين وفي عهد الخليفة المهدي حُفر نهر الصلة[4] كما حفر الخليفة هارون الرشيد بعد حفره نهر القاطول نهراً يسمى "أبا الحيل" وأنفق على حفر الأنهار عشرين مليون من الدراهم. [5]

والواقع أن الأنهار في البصرة كانت أكثر من أن تعد أو تحصى وقد سمع ابن حوقل أن بالبصرة أكثر من مائة وعشرين ألف نهر تجرى فيها الزوارق فأنكر ذلك العدد حتى رأى تلك البلاد بنفسه في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) فشاهد في مقدار سهم عدة من الأنهار صغاراً تجرى في جميعها السميريات فجوز أن يكون ذلك العدد الكبير موجوداً حقيقة في طول تلك البلاد وعرضها. [6]

---

(١) التبصر بالتجارة، ص ٣ عن حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، ج ٣،ص ٣٣٧.

(٢) ابن العراق: المصدر السابق، ص ١.

(٣) نعيم زكي فهمي: المرجع السابق، ص ١٢٢.

(٤) موسوعة البصرة الحضارية، المرجع السابق، ص ٦٤.

(٥) الجهشياري:(محمد بن عبدوس)، الوزراء والكتاب، حققه مصطفى السقا وآخرون، مطبعة البابي، القاهرة، ١٩٣٨م، ص ١٧٧.

(٦) آدم متز: المرجع السابق، ج ٢،ص ٣٩٠.

ويـذكر الـرازي[1] والـذي عـاش فـي القـرن الخـامس الهجـري (الحـادي عشـر الميلادي) أن أنهـار البصـرة التـي عليهـا النخـل والقرى والمسـاجد والمشـاريع ثلاثمائـة ألف نـهر من نـهر المرآة إلى عبادان.

ويعنى ذلك أن حفر الأنهار في تزايد حيث تضاعف عددها ما بين القرن الرابع الهجري(العاشر الميلادي) والقرن الخامس الهجري(الحادي عشر الميلادي).

وأهم هـذه الأنهـار نـهر الأبلـة ونـهر معقل وقـد حفرهمـا زيـاد بـن أميـة عامـل الأمويين من قبل معاوية بن أبـي سفيان[2] ومـن أنهارها المشـهورة نـهر شيرين ونـهر الرس ونـهر ابن عمر[3] وهناك نـهر والس ونـهر شيطان وعدى ونـهر بلبل ومرُه. [4]

ويبدو أن شق الأنهار* والقنوات في البصـرة من قبل الخلفاء العباسيين الأوائل لـه علاقـة بسياسـتهم الزراعيـة الراميـة إلـى استصـلاح الأراضـي ووفـرة المحصـولات الزراعية. ومن أجل إنجاح هذه السياسة عملوا على تخفيف عبء الضرائب والأعباء المالية على الفلاحين. وأتت سياستهم ثمارها في وفرة المحاصيل من حنطة وشعير وأرز وتمر وسمسم وقطن فضـلاً عن الخضـروات والفواكـه وشتى أنـواع الزهور وقد أسـهم هذا الإنتاج بدوره في رواج البصـرة في زمن العباسيين فأصبحت مركزاً مهماً لتجارة المواد الغذائية في الخليج العربي وحملت السفن من البصـرة حاصـلات العراق عامـة والبصـرة خاصـة إلـى شـواطئ شـبه الجزيـرة العربيـة لافتقارهـا إلـى المنتجـات الزراعية. [5]

---

(١) (أحمد بن عبدالله بن محمد): تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق حسين عبدالله العمري، ط ٣، دار الفكر بيروت، دار الفكر دمشق، ١٩٨٩م، ص ١٦٥.

(٢) ابن الفقيه: المصدر السابق، ص ١٩٠.

(٣) المسعودي: المصدر السابق، ج ١،ص ١٠٦.

(٤) ابن الفقيه: المصدر السابق، ص ١٩١.

* واضح في هذه الكثرة أنه يُقصد بها الجداول .

(٥) موسوعة البصرة الحضارية، المرجع السابق، ص ٦٥.

إذن فموقع البصرة الممتاز وتوفر الأنهار جعلا منها مركزاً تجارياً في العراق وبخاصة التجارة الشرقية فكانت البضائع ترد إليها من كافة أنحاء بلاد المشرق[١] كما أن الجزيرة العربية اتخذت منها سوقاً لبيع بضائعها الزائدة عن حاجتها ولشراء ما تحتاجه من السلع كما كانوا يجلبون السلع الكمالية والمنسوجات من ميسان والأهواز وفارس وهذه الأقاليم تتبع في إدارتها للبصرة فكان لابد من مرور هذه السلع عبر البصرة. [٢]

أن ما نجده من أسواق في مدينة البصرة لخير دليل على نشاطها التجاري* ثم أن ما أشتهر به أهلها من حب للتجارة والسفر لدليلاً آخر على ذلك. فقد ذكر أنه ليس في الأرض بلدة ولا بادية ولا طرف من أطراف الدنيا إلا وبها بصري. وقد كانت لهم أسواق في معظم أنحاء الدولة ومن أشهر هذه الأسواق سوق بمدينة الفسطاط يسمى "سوق العراقيين" نسبت هذه السوق إلى جماعة من الأزد خرجوا على زياد بن أمية بالبصرة فعاقبهم معاوية بن أبي سفيان بتغريبهم عن أوطانهم فسيرهم إلى مصر في سنة ٥٣هـ-٦٧٢م وكان أميرها في ذلك الوقت مسلمة بن مخلد (٤٧-٦٢هـ)(٦٦٧-٦٨١م) وكان عددهم حوالي ٢٣٠ فانزلوا مكان يعرف بالطاهر وهو أحد خطط مصر فبنوا لهم مسجداً واتخذوا لهم سوقاً فسمى السوق بهذا الاسم. [٣]

كما كان لهم سوقاً كبيراً في صنعاء يسمى (سوق العراقيين) أيضاً حوي ذلك السوق دُوراً كثيرة. كما كان به خان ينزله التجار المسافرون من أهل البصرة والعراق في صنعاء نزله تاجر يُدعى "الغطريف بن عطاء" وهو أول عراقي بصري يصل صنعاء وكان من كبار التجار وأهل اليسار فأعجب الغطريف بهذه الدار فلم يلبث

---

(١) محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ص ١٤٢.

(٢) موسوعة البصرة الحضارية، مرجع سابق، ص ٥٠.

* أنظر الجزء الخاص بأسواق البصرة الفصل الثالث المبحث الأول .

(٣) هويدا عبدالعظيم: المجتمع في مصر الإسلامية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ،١٩٩٤م،ص ٩٨.

يسيراً حتى اشتراها حيث زايد في ثمنها ونافس فيها جميع من زايد في ثمنها حتى اشتراها بمال كثير وصارت ملكه. (١)

بفضل التطور الاقتصادي الذي شهدته البصرة في العصر العباسي لا سيما الأول منه بلغت درجة عالية من الرقي والتقدم وامتدت امتداداً واسعاً لتشمل السواحل الشمالية للخليج العربي نفسه وعُدت الأبلة وعبادان أشبه بضواحي للبصرة ووضح ذلك "صاحب التقاسيم" بقوله "أما البصرة فمن مدنها الأبلة وعبادان"*.(٢)

كما شيدت بها المساجد فقد قال القاضي يحي بن أكثم**: أنه عد مساجد البصرة فإذا فيها مئة ألف مسجد وتسعة آلاف مسجد ستة عشر ألف منها مغلقة كما ذكر أنه يوجد بها مئة ألف طراز للحاكة ومساكن أهلها عددهم ألف ألف وسبع مئة ألف وبها ستين ألف كر تمر غير القطن والسمسم واللوبيا. (٣)

وعندما زارها المقدسي في القرن الرابع الهجري(العاشر الميلادي) نال إعجابه ثلاثة من مساجدها أحدهما في الأسواق وصفه بأنه بهي وجليل وعامر بالناس ولا يوجد جامع مثله بالعراق على أساطين مبيضة والجامع الآخر على باب البادية وهو الجامع القديم. والثالث على طرف البلد وهي جوامع غاية في الجمال.(٤)

---

(١) الرازي: المصدر السابق، ص ١٦٥.

* تقوم عبادان على جزيرة صغيرة بينها وبين البصرة اثنا عشر فرسخاً وهي ذات حصن صغير عامر على شط البحر وإليه يصل جميع مياه دجلة وهي في الضفة الغربية من ذلك النهر (الحميري، المصدر السابق، ص ٤٠٧) كانت عبادان في وقت من الأوقات مقراً للقرصان ومتلصصة البحر كما سماهم العرب القدامى ثم أصبحت مقراً لحامية تدفع أذاهم عن المسافرين (ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٤٥).

(٢) المقدسي: المصدر السابق، ص ١١٧.

** تولى يحيى بن أكثم القضاء في خلافة المأمون وهو ابن سبع عشر سنة وهو صاحب الأجوبة المسكتة والعلوم البديعة ذو براعة وفصاحة ومن أجوبته المسكتة ما وقع ذات يوم في مجلس أمير المؤمنين المأمون حيث سأله أحد الحاضرين قائلاً له: كم سن مولانا القاضي؟ فقال له: سن عتاب بن أسيد حين ولاه رسول الله ﷺ مكة عام الفتح فأسكته من حينه (ابن العراق، المصدر السابق، ص ٤١).

(٣) الرازي: المصدر السابق، ص ١٦٥.

(٤) المقدسي: المصدر السابق،ص ١١٧.

ومن مساجدها العظيمة ذلك المسجد الذي بناه زياد بن أبيه عامل معاوية بن أبي سفيان فقد بناه بالآجر والجص وبني منارته بالحجارة وهو أول من بني المقصورة ونقل دار الإمارة إلى قبلة المسجد وقالوا في مدحه:

بنـــي زيـــاد لـــذكر الله مصـــنعة * مـن الحجـارة لـم تُعمـل مـن الطـين

لـولا تعـاون أيـدي الأنـس ترفعـه * لقلنـا إذاً مـن أعمـال الشـياطين(١)

كما شيدت بالبصرة القصور والمباني الفخمة والحمامات مثل حمام سياه وحمام فيل وغيرها من الحمامات التي كانت أكثر من أن تعد(٢) ومن القصور الجميلة في البصرة والتي ورد ذكرها قصر الوالي محمد بن سليمان العباسي الذي يقع على شاطئ أحد الأنهار مع حديقة جمع فيها الغزلان والحُمر الوحشية والنعام وجميع أنواع الحيوانات الوحشية والطيور المغردة وللشعراء والمؤرخين أقوال في وصف ذلك القصر وحديقته ومن قول أحد الشعراء:

زر وادي القصر نعم القصر والوادي * فـي منـزل حاضـر إن شـئت أوبـادي

تـر بـه السـفن والغلمـان حاضـرة * والضـب والنـون والمـلاح والهـادي(٣)

حُكي أن رجلاً من الدهاقين- ملاك الأرض- دخل البصرة فوجدها مجتمعة العمارة من مساجد رحبة وأنهار عديدة وقصور فخمة وحمامات وأبواب وسكك ودروب ومحال فقال: قاتلك الله فوالله ما صرت هكذا حتى أخربت بلاداً وبلاداً. (٤)

وقيل في فضلها أن الرجل من أهل البصرة يقول لصاحبه إذا بالغ في الدعاء عليه: غضب الله عليك كما غضب على المغيرة وعزله عن البصرة وولاه الكوفة.(٥)

ازدهرت الحياة العقلية في البصرة إلى جانب تقدمها الاقتصادي فكانت المكتبات العامة والمساجد أسمى ما يتوق إليه الأهالي في حياتهم وظهر النحو

---

(١) البلاذري: المصدر السابق، ص ٤٨٥، ياقوت: المصدر السابق، ج ١،ص ٤٣٧.

(٢) ابن الفقيه: المصدر السابق، ص ١٩١ لمعرفة المزيد من حمامات البصرة أنظر البلاذري: المصدر السابق، ص ٤٨٠، وما بعده وابن الفقيه، المصدر السابق ص ١٩١.

(٣) موسوعة البصرة الحضارية، المرجع السابق، ص ٦٧.

(٤) ابن الفقيه: المصدر السابق، ص ١٩١.

(٥) ياقوت: المصدر السابق، ج ١،ص ٤٣٧.

العربي في كل من البصرة والكوفة وكان أحرار الفكر يعقدون اجتماعاتهم في تلك المدينة وعاش فيها أخوان الصفا* في القرن الرابع الهجري(العاشر الميلادي) وظهر في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) أحد أئمة الأدب العربي وهو الحريري. [١]

تعرضت المدينة إلى أضرار بليغة في سنة ٢٥٧هـ-٨٧١م فعندما دخل قائد الزنج البصرة أقبل يقتل الناس ويحرق المنازل والأسواق بالنار[٢] كما بدأت المدينة تتأخر منذ أواخر العصور الوسطي حتى أصبحت ميناء مساعداً لسيراف[٣] وهذا التأخر يبدو واضحاً من وصف ابن بطوطة[٤] يقول: أنها من أمهات العراق الشهيرة فسيحة الأرجاء عامرة بالبساتين والفواكه الكثيرة" وقد وجدها على ثلاث محلات وهي "هذيل وكبيرها الشيخ الفاضل علاء الدين بن الأثير وهو من الكرماء والمحلة الثانية هي بني مرام وكبيرها السيد الشريف مجد الدين موسى والمحلة الثالثة هي محلة العجم كبيرها جمال الدين اللوكي".

فابن بطوطة صاحب الوصف الدقيق لم يصف أي نوع من العمارة فيها بل غاية ما وصفه هو الزروع والنخيل وقوله أنها على ثلاث محلات فهذا دليل على صغرها وعدم اتصال عمارتها فهي كانت في فترة ازدهارها أعظم من أن توصف بهذه البساطة.

---

* أخوان الصفا: حوالي منتصف القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي ظهرت في البصرة مدرسة فكرية قامت على أساس اختيار شيء من الفلسفة الرائجة آنذاك مع الميل إلى النظريات الفيثاغورثية وعرف أصحابها أخوان الصفا ولم تقم دعوتهم على الفلسفة فحسب بل تعدتها إلى ميدان الدين والسياسة وقد ظهر فيهم ميول شيعية متطرفة إسماعيلية ووسائلهم تظهر مدى الكفاءة والغني للغة العربية في ذلك العصر وقد تأثر الغزالي بما كتبوه وكان أبوحيان التوحيدي تلميذاً لهم (حسنى أحمد السعيد حماد، الحضارة الإسلامية نشأتها تطورها وآثارها، مؤسسة التأليف والنشر، مصر، ١٩٦٧م،ص ٦٦-٦٧).

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مج ٣،ص ٦٧.

(٢) الطبري: المصدر السابق، ج ٩،ص ٤٨١.

(٣) نعيم زكي فهمي: المرجع السابق، ص ١٢٢.

(٤) تحفة الأنظار، مصدر سابق، ج ٢،ص ١٢.

وانهارت البصرة بعد وصول البرتغاليين إلى الهند ودخولهم الخليج العربي ولم تعد أكثر من قرية جرداء وفي فترة احتلال البرتغاليين لهرمز * لفتت أنظارهم أهمية البصرة كمركز ومدخل لتجارة الخليج العربي إلى العراق والشام بالنسبة للعرب فعملوا على تحويل التجارة عنها حتى لا يلجأ العرب إلى إحيائها مرة أخرى وسدوا المواصلات البحرية إليها. [١]

---

* هرمز مدينة على بحر فارس فرضة كرمان إليها ترفأ المراكب ومنها تنقل أمتعة الهند إلى كرمان وخراسان وسجستان (ياقوت المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٠٢)، وهذه المدينة كثيرة المياه والأسواق والداخل والخارج منها كثير (الحميري، المصدر السابق، ص ٥٩٥).

(١) نعيم زكي فهمي: المرجع السابق،ص ١٢٢.

٣ -الفسطاط

يقول المقدسي[١]: "الفسطاط هو مصر في كل قول لأنه قد جمع الدواوين وحوي أمير المؤمنين وفصل بين المغرب وديار العرب اتسع بقعتة وكثر ناسه وتنضر إقليمه واشتهر اسمه وجل قدره فهو مصر مصر وناسخ بغداد ومفخر الإسلام ومتجر الآنام وأجل من مدينة الإسلام خزانة المغرب ومطرح المشرق وعامر الموسم ليس في الأمصار آهل منه...".

كانت الفسطاط تُعرف ببابليون وهو الموضع المعروف بالقصر فلما افتتح عمرو بن العاص بابليون في خلافة عمر بن الخطاب سنة عشرين هجرية اختطت قبائل العرب حول الفسطاط الذي نصبه عمرو بن العاص فسُميت الفسطاط لأنهم قالوا: هذا فسطاط القوم ومجمعهم ثم اتسعوا في البلد فاختطوا على النيل واختطت قبائل العرب في المواضع المنسوبة إلى كل قبيلة وبنى عمرو بن العاص مسجد جامعها ودار أمارتها وأسواقها. [٢]

تظهر أهمية الفسطاط في أنها أحد مدن مصر والتي تعتبر فرضة* الدنيا يُحمل خبراتها إلى غيرها فساحلها على البحر الأحمر يحمل منه إلى الحرمين واليمن والهند والصين وعمان والسد وساحلها من جهة تنس ودمياط والفرما فرضة لبلاد الروم والإفرنج وسواحل الشام إلى حدود العراق. وثغر الإسكندرية فرضة بلاد المغرب وصقلية وكريت ومن جهة الصعيد يحمل إلى بلاد الغرب والنوبة والبجة والحبشة والحجاز واليمن. [٣]

تعتبر الفسطاط أهم مراكز مصر التجارية فهي مستودعاً للتجارة الداخلية ومركزاً رئيسياً للتجارة البحرية الخارجية وذلك لموقعها على النيل في شرقية شمالي النيل حيث يجرى النيل مُؤرباً بين المشرق والجنوب. [٤]

---

(١) أحسن التقاسيم، المصدر السابق، ص ١٩٧.

(٢) اليعقوبي: البلدان ، المصدر السابق، ص ٣٣١،البلاذري، المصدر السابق، ص ٢٩٨،الحميري، المصدر السابق، ص٤٤١.

* الفرضة: هي محط السفن(المقريزي، المصدر السابق، ج ١،ص ٣٢).

(٣) المصدر نفسه والجزء، ص ٥٢-٥٣.

(٤) الاصطخري: المصدر السابق، ص ٣٩.

ويعتبر النيل الشريان الحيوي للتجارة الداخلية والخارجية يربط بين مختلف مدن مصر وقراها ففيه تسير المراكب الصغيرة والكبيرة حاملة المنتجات الزراعية من أقصى الصعيد إلى أسفل الأرض مارة بالفسطاط التي ينتهي إليها النيل منحدراً من الصعيد ثم يتفرع من شماليها ليتصل بشرق الدلتا وغربها ثم ينتهي إلى البحر الأبيض المتوسط. (١)

وعلى ذلك كانت كل كورة من كور مصر وكل مدينة من مدنها تأتي في ماء النيل بسفنها العظام تحمل المتاع إلى الفسطاط حيث تحمل السفينة الواحدة ما يحمله خمسمائة بعير. (٢)

وقد كان يرد إلى الفسطاط من تلك المدن نوع من الأديم الجيد. ويرد من الصعيد الأرز والصوف ومن الفرما السمك ودهن الفجل ومن تنيس الثياب الملونة ومن دمياط القصب ومن الفيوم الأرز والكتان. (٣)

كما كان خليج أمير المؤمنين* يصل بين الفسطاط والبحر الأحمر(٤) وفضلاً على ذلك فقد كان يخرج منها طرقاً برية تسير فيها القوافل متجهة نحو الحجاز والشام والمغرب(٥). وقد ساعدها ذلك الموقع على أن ترد إليها جميع أصناف التجارة من الجنوب والشمال والشرق والغرب. فقد كانت تنتهي إلى الفسطاط التجارة الواردة

---

(١) جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، دار المعارف، مصر، ١٩٦٧م، ص ١٠١.

(٢) المرجع نفسه،ص ١٠٢.

(٣) المقدسي: المصدر السابق، ص ٢٠٣.

* أصاب الناس بالمدينة جهد شديد في خلافة عمر بن الخطاب عام الرمادة فكتب إلى عمرو بن العاص وهو بمصر قائلاً: من عبدالله أمير المؤمنين إلى العاص بن العاص سلام. أما بعد فلعمري يا عمرو ما تبالي إذا شبعت أنت ومن معك أن أُهلك أنا ومن معي فياغوثاه ثم يا غوثاه فكتب إليه عمرو بن العاص: لعبدالله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص أما بعد فيا لبيك ثم يا لبيك قد بعثت إليك بعيراً أولها عندك وآخرها عندي والسلام. وعندما قدمت تلك البعير وهب لأهل كل بيت بالمدينة بعيراً بما عليه من طعام. فكتب إليه عمر مرة ثانية يطلب منه أن يحفر خليجاً من نيلها حتى يسيل من البحر فهو أسهل لحمل الطعام إلى المدينة ومكة لأن حمله على الظهر يبعد المسافة فجمع عمرو الفعلة واحتفر الخليج وساقه من النيل إلى البحر الأحمر ولم يأتي الحول حتى جرت فيه السفن وحمل فيه الطعام إلى مكة والمدينة (السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ط ١ دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٧م،ص ١٥٦).

(٤) جمال الدين الشيال: المرجع السابق، ص ١٠١.

(٥) محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص ١٤٤.

من بلاد الشرق من بلاد العرب والهند والصين وتلتقي مع التجارة الوافدة من جنوب أفريقيا وأواسطها وتصلان إلى مصر عن طريق القلزم وخليج أمير المؤمنين أو عن طريق عيذاب- قوص- قفط- قنا ثم تحملها الدواب أو السفن حتى تصل الفسطاط وكذلك كانت التجارة الوافدة من ممالك أوربا ومن آسيا الصغرى والشام وجزر البحر الأبيض المتوسط كانت تصل إلى موانئ مصر الشمالية ثم تنقل بواسطة القوافل أو السفن إلى الفسطاط. (١)

ولهذه الطرق المائية والبرية المتعددة برزت الفسطاط باعتبارها ثغراً تجارياً عظيم الأهمية فازدحمت بها السفن التجارية الآتية من جميع أرجاء البلاد وقد تعجب المقدسي(٢) من كثرة المراسي حيث يقول: "كنت يوماً أمشى على الساحل وأتعجب من كثرة المراكب الراسية والسائرة فقال لي رجل منهم: من أين أنت قلت: من بيت المقدس قال: بلد كبير أعلمك يا سيدي أعزك الله إن على هذا الساحل وما قد أقلع منه إلى البلدان والقرى من المراكب ما لو ذهبت إلى بلدك لحملت أهلها وآلاتها وحجارتها وخشبها حتى يقال كأن هنا مدينة".

كما قال ابن سعيد عن الفسطاط أنه كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التي تصل إليه من جميع أقطار الأرض والنيل ويؤكد أنه لو قال أنه لم يبصر على نهر ما أبصره على ذلك الساحل فإنه يقول حقاً. وإن ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر لا يوصف. وبها مجمع ذلك لا بالقاهرة ومنها تجهز إلى القاهرة وسائر البلاد زيادة على أنه يوجد بها مطابخ السكر والصابون. (٣)

ولم يؤثر إنشاء مدينة القاهرة على مركز الفسطاط التجاري لأن المدينة الجديدة ظلت أشبه بمعسكر يقيم فيه الجنود والموظفون وهؤلاء جميعاً كانوا يعتمدون على أسواق الفسطاط للحصول على المواد الغذائية والمصنوعات والسلع الواردة من

---

(١) جمال الدين الشبال: المرجع السابق، ص ١٠٢-١٠٣.

(٢) أحسن التقاسيم، مصدر سابق، ص ١٩٨.

(٣) المقريزي: المصدر السابق، ج ٢،ص ١٦٩-١٧٠.

الخارج كما أن موقع القاهرة بالنسبة للنيل كان دون موقع الفسطاط مما جعل الأسعار في الفسطاط أقل منها في القاهرة حاضرة الفاطميين. (١)

ولا شيء أدل على مركز الفسطاط التجاري من كثرة أسواقها التي وصفها الرحالة في ذلك العصر*، ومن كثرة السكان بهذه المدينة فقد رحل الناس إليها من سائر الأقطار وقصدوها من جميع الجهات حتى ضاق البلد بالسكان وضاق فيه الفضاء الرحيب وذُكر عن بعض سكان الفسطاط أنه دخل حماماً من بناء الروم في الربع الأول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) فلم يجد فيها صانعاً يخدمه وكان فيها سبعون صانعاً قل منهم من معه ثلاثة نفر وإنه دخل بعدها حماماً ثم حماماً فلم يجد من يخدمه إلا في الحمام الرابعة(٢). كما نقل عن أحد الثقات أنه عدّ الأسطال النحاسية لاستقاء الماء في الطاقات المطلة على النيل فكانت ستة عشر ألف سطل. (٣)

ومن كثرة السكان بالفسطاط ربما سكن في الدار المائتان من الناس وبها دار تعرف بدار عبدالعزيز بن مروان كان يُصب لمن فيها في كل يوم أربع مائة راوية ماء وبها خمسة مساجد وحمامان. (٤)

والمقدسي يقول(٥): سمعتهم يذكرون أنه يصلى قدام الإمام يوم الجمعة نحو عشرون ألف رجل ولم أصدق حتى خرجت من المتسرعة إلى سوق الطير فرأيت الأمر قريباً مما قالوا وأبطيت يوماً عن السعي إلى الجمعة فألفيت الصفوف في الأسواق على أكثر من ألف ذراع من الجامع ورأيت القياسر والمساجد والدكاكين حوله مملوءة من كل جانب من المصلين.

---

(١) محمد جمال سرور: المرجع السابق،ص ١٤٥.

* لمعرفة أسواق الفسطاط ووصف الرحالة أنظر الفصل الخاص بالأسواق.

(٢) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٣،ص ٣٣٣.

(٣) المصدر نفسه ج٣، ص ٣٣٣.

(٤) الحميري: المصدر السابق، ص ٤٤٢، ابن حوقل، المصدر السابق، ص ١٣٧، المقريزي، المصدر السابق، ج ٢،ص ١٥٠.

(٥) أحسن التقاسيم، المصدر السابق، ص ١٩٨.

ومما لا شك أن ازدهار النشاط التجاري في الفسطاط أدى إلى توفر السلع في الأسواق فقد طُلب لقطر الندي بنت خمارويه بن أحمد بن طولون ألف تكة بعشرة آلاف من أثمان كل تكة بعشرة دنانير فوجدت في السوق في أيسر وقت وبأهون سعي[١]. كما كان لهذا النشاط أثره الواضح في تكوين طبقة من التجار كونت ثروات طائلة من عملها بالتجارة انعكست على نفوذها السياسي ومثال لهؤلاء يعقوب بن كلس*. الذي وجُد له من المماليك أربعة آلاف غلام ووجد له جوهر بأربعمائة ألف دينار وبز بخمسمائة ألف دينار وكان عليه للتجار ستة عشر ألف دينار فقضاها عنه العزيز من بيت المال وفرقت على قبره ويُقال أنه كُفن في خمسين ثوباً وكان ثمن كفنه وحنطه بما مبلغه عشرة آلاف دينار. [٢]

ويبدو أثر الازدهار الاقتصادي واضحاً في عمارة الفسطاط التي بلغت غاية في الجمال ونهاية الحسن[٣] بها الدور الأنيقة التي تتألف من عدة طبقات كالمنايرٌ يدخلها الضوء من الوسط[٤] ويذكر ناصر خسرو[٥] الذي أقام بالفسطاط في (٤٣٩-٤٤٥هـ) (١٠٤٧-١٠٥٠م) أن بها بيوتاً مكونة من أربعة عشر طبقة وسمع من ثقات أن شخصاً غرس حديقة على سطح بيت من سبعة أدوار وحمل إليها عجلاً رباه فيها حتى كبر ونصب فيها ساقية وكان هذا الثور يديرها ويرفع الماء إلى الحديقة من البئر وزرع على هذا السطح شجر النارنج والموز وقد أثمرت الحديقة

---

(١) ابن دقماق: (إبراهيم بن أيدمر العلائي) الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج ١، منشورات المكتبة التجارية، بيروت، ١٣١٠هـ-١٨٩م،ص ٦٧.

* يعقوب بن كلس: وزير العزيز بن المعز العبيدي كان يهودياً يزعم أنه من ولد هارون بن عمران عليه السلام ولد ببغداد ونشأ بها وتعلم الكتابة والحساب وسافر من بغداد إلى الشام مع أبيه وأنفده إلى مصر سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة وجعله كافور على عمارة داره وبعدها جعله في ديوانه الخاص ولما توفى كافور خرج إلى بلاد المغرب ورجع إلى مصر ولي وزارة العزيز بن نزار وتوفى سنة ثمانين وثلاثمائة (ابن خلكان، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٩٣-٣٩٤).

(٢) المصدر نفسه والجزء، ص ٣٩٨-٣٩٩.

(٣) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٣٣، الحميري، المصدر السابق، ص ٤٤٢.

(٤) المقدسي: المصدر السابق،ص ١٩٨.

(٥) سفرنامة عن عبدالرحمن زكي، الفسطاط، الدار المصرية، القاهرة، ١٩٦٦م، ص١٩.

كلها زرع فيها الورد والريحان وأنواع الزهور الأخرى. وسمع من تاجر ثقة أن بمصر دوراً كثيرة فيها حجرات للإيجار ومساحتها ثلاثون ذراعاً في ثلاثين ذراعاً وتسع حوالي ثلاثمائة وخمسين شخصاً كما كان من عمارة الفسطاط المساجد القائمة والحمامات الباهية والقياسر والزاهية. (١)

وقد أُحصيت عمارة الفسطاط في منتصف القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) فكانت المساجد ألف مسجد وبها ثمانية آلاف شارع مسلوك وألف ومائة وسبعون حماماً. كان هناك حمام يسمى حمام "جنادة" لا يمكن التوصل إليه إلا بعد عناء لشدة ازدحام الناس عليه. (٢)

كما ذكر أنه من الخطط المشهورة في الفسطاط اثنتين وخمسين خطة ومن الحارات اثنتي عشرة حارة ومن الأزقة المشهورة ستة وثمانين زقاقاً ومن الدروب المشهورة ثلاثة وخمسين درباً ومن الأسواق المشهورة تسعة عشر سوقاً ومن الرحاب خمس عشرة رحبة ومن الأقباء عشرة أقباءاً ومن البرك خمسة ومن مطابخ السكر العامرة ستة وستين مطبخاً ومن الجوامع التي تقام فيها الجمعة أربعة عشر جامعاً. (٣)

وبما أن المدينة كانت في قمة ازدهارها الاقتصادي فقد كثرت بها القيساريات وكان من أشهرها قيسارية المحلي التي تشتمل على ستة أبواب منها ثلاثة في قبليها وباب في شرقيها وباب في غربيها وباب في بحريها وهي مسكونة جميعها وليس بها حانوتاً خالياً ويباع بها سائر أنواع الصوف والخيش والشعر وقد كان ينزلها تجار القاهرة للبيع والشراء.

وهناك قيسارية ابن ميسر الكبرى وهذه توجد بسوق وردان مرسومة لبيع الخام البلدي والمجلوبة ولها خمسة أبواب اثنان في شرقيها واثنان في بحريها والخامس في غربيها وكلها عامرة بالناس. (٤)

---

(١) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٣،ص ٣٣٣.

(٢) المقريزي: المصدر السابق، ج ٢،ص ١٤٩.

(٣) المصدر نفسه وج٢ ،ص ١٧٠.

(٤) ابن دقماق: المصدر السابق، ج ١،ص ٣٧-٤٠.

كما تعددت فنادقها وأشهرها الفندق الذي ينزله الشاميون وهو فندق عمارة منسوب إلى عمارة بن الأجدع بالقرب من مسجد "زمام" وهناك فندق الأحمر حيث يباع به الخصر الرفيعة المجلوبة من الفيوم. وفندق القصب الذي يباع به قصب السكر بالقرب من دار الرمان وفندق دار التفاح وفندق دار الخضر وفندق البلاط وغيرها كثير. (١)

وعمارة الفسطاط تتزايد في كل يوم فابن حوقل(٢) والذي كانت رحلته في بداية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) يصف عمارتها بالحسن والطيب واتساعها إلى أن بلغت ثلث مساحة بغداد أي نحو فرسخ. وانعكست أحوال البلد على أهلها ففي "أهلها رفاهية وظرف شامل وحلاوة" (٣)كما أنه "ليس في الإسلام.... أحسن تجملاً من أهلها".(٤)

لم يزل الفسطاط زاهياً في بنيانه جميلاً بسكانه إلى أن جاءت الدولة الفاطمية إلى مصر وعمرت القاهرة فتقهقر حال الفسطاط وأخذ الناس في الانتقال عنها إلى القاهرة وتتابع الخراب بعد أن غلب الفرنج على أطراف الديار المصرية في عهد الخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين ووزيره يومئذ شاور * والذي خاف على الفسطاط بأن يمتلكها الفرنج فاضرم في مساكنها النار فتزايد فيها الخراب. (٥)

---

(١)ابن دقماق: المصدر السابق، ج ١ص ٤٠.

(٢) صورة الأرض ، المصدر السابق، ص ١٣٧.

(٣) الحميري: المصدر السابق، ٤٤٢.

(٤) المقدسي: المصدر السابق،ص ١٩٧.

* تولى شاور الوزارة سنة ست وخمسين وخمسمائة وعامل العاضد معاملة قبيحة وأساء السيرة في الرعية وأخذ أمر مصر في فترة وزارته يتراجع ولما كثر ظلمه خرج عليه ضرغام من الصعيد وهزمه واستنجد شاور بنورالدين الذي سانده وأجلسه على كرسي الوزارة وظل بالقاهرة يظلم ويقتل الناس ثم تنكر بعد ذلك لنورالدين زنكي واستعان عليه بالفرنج فكانت نهايته على يد أسد الدين قائد نورالدين زنكي في سنة ست وخمسين وخمسمائة (ابن تغرى بردي، المصدر السابق، ج ٥،ص ٣٥).

(٥) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٣،ص ٣٣٤.

٤ -دمشق

دمشق* هي مصر الشام ودار الملك أيام بني أمية[١] افتتحت في خلافة عمر ابن الخطاب سنة أربع عشر هجرية افتتحها أبوعبيدة عامر بن الجراح من باب يقال له الجابية صلحاً بعد حصار ودخل خالد بن الوليد من باب يقال له "باب الشرقي" بغير صلح فأجاز أبوعبيدة الصلح في جميعها وكتبوا إلى عمر بن الخطاب فأجاز ما عمل به أبوعبيدة. [٢]

ترجع أهمية دمشق كمركز من المراكز التجارية لوقوعها على طريق القوافل الآتية من آسيا الصغرى أو من أقاليم الفرات إلى بلاد العرب وكان كثير من الحجاج يجتمعون في هذه المدينة ثم يسيرون في جماعات كبيرة إلى مكة وفيها يتفرقون بعد أداء فريضة الحج. [٣]

كان طريق القوافل الكبرى التي يجتازها الحجاج السوريون يبعد عن البحر بعض الشيء لأنه كان يمر شرقي نهر الأردن خارج فلسطين ولكن زيارة المسجد الأقصى وبيت المقدس وقبر إبراهيم الخليل عليه السلام كانت من الأمور المقدسة عند المسلمين وكان كثير من الحجاج يحجون بيت المقدس بعد أداء فريضة الحج في مكة فيتقابلون مع حجاج الغرب المسيحيين وبذلك اتيحت للتجار الفرصة لتبادل السلع في الخامس عشر من سبتمبر من كل عام يُقام في بيت المقدس سوق كبيرة يفد إليها تجار الأمم المختلفة. [٤]

وحيث أن التجار يتفرقون بعد فريضة الحج فإنهم يأتون بالبضائع إلى دمشق وقد أدت هذه الحركة المستمرة إلى انتشار السلع في أسواق دمشق. كما كانت المدن

---

* اختلف في بناء هذه المدينة فبعضهم يقول بناها نوح عليه السلام وقيل بناها جيرون بن سعد بن لقمان بن عاد وقيل الذي بناها ذو القرنين عند فراغه من السد ووكل بعمارتها غلاماً اسمه دمشقش فسكنها دمشقش ومات فيها فسميت به وهي عظيمة البناء ذات سور شاهق (القلقشندي، المصدر السابق، ج ٤،ص ٩٢).

(١) المقدسي:المصدر السابق، ص ١٥٦-١٥٧.

(٢) اليعقوبي: البلدان، المصدر السابق ، ص ٣٢٥-٣٢٦.

(٣) محمد جمال الدين سرور،ص ١٤٤.

(٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي،مرجع سابق، ج ٢،ص ٣١٣.

الكبيرة مثل طرابلس وصور وعكا لا تبعد عن سوق دمشق الكبيرة إلا بضعة أيام فلا يبعد أنها كانت تحصل على ما تحتاج إليه من السلع التي كانوا يبتاعونها في سوق دمشق الكبير. (١)

لا شك أن طريق الحج جعل من هذه المدينة مركزاً تجارياً وسوقاً نافقة للتجارة بين الشرق والغرب تميزت أسواقها بجمعها صنوف المحاسن وضروب الصناعات وأنواع الثياب والحرير كالخز والديباج النفيس الذي اشتهرت به دمشق ودهن البنفسج والكاغد والقطين(٢). وقد توافرت فيها الخيرات حتى نجد ياقوت يقول(٣): "أنه من المحال أن يطلب شيء من جليل أعراض الدنيا ودقيقها إلا وهو فيها أوجد من جميع البلاد" وبها من الحلاوات ما لا يوجد بغيرها في أي مدينة أخرى. (٤)

ومن خصائص هذه المدينة كثرة الأنهار التي كانت سبباً في تواجد البساتين والفواكه بها بكثرة ويؤكد ذلك قول المقدسي(٥): "هو بلد قد خرقته الأنهار وأحدقت به الأشجار وكثرت به الثمار مع رخص الأسعار" وكذلك اليعقوبي(٦) يقول: "ليس لها نظير في جميع أجناد الشام في كثرة أنهارها وعمارتها ونهرها الأعظم يُقال له بردى"* أما ياقوت(٧) فنجده يتعجب من كثرة أنهارها التي لم ير مثلها في أي بلد آخر ومن جريان الماء في قنواتها فقل أن يمر بحائط إلا والماء يخرج معه في أنبوب إلى حوض يشرب منه. ويذكر فاكهتها الجيدة والتي تحمل إلى جميع ما حولها من البلاد ومن مصر إلى حران.

---

(١) محمد جمال الدين سرور، تاريخ الحضارة في الشرق، ص ١٤٤.

(٢) الحميري: المصدر السابق، ص ٢٤٠، المقدسي، المصدر السابق ، ص ١٨١.

(٣) معجم البلدان، مصدر سابق، ج ٢، ص ٦٤٥.

(٤) الحميري: المصدر السابق، ص ٢٤٠.

(٥) أحسن التقاسيم، مصدر سابق، ص ١٥٦.

(٦) البلدان، مصدر سابق، ص ٣٢٥.

* يخرج نهر بردي من عينين البعيدة منهما دون قرية تسمى الزيداني والأخرى تسمى الفيجة يخرج الماء منها في مجرى النهر ثم يقسمه على سبعة أنهر أربعة غربية وهي نهر داربا والمرة والقنوان وباناس والشرقية هما نهري يزيد وثورا (القلقشندي، المصدر السابق، ج ٤، ص ٩٥).

(٧) معجم البلدان، مصدر سابق، ج ٢، ص ٤٦٥.

لهذا الرخاء بمدينة دمشق قيل في قول الله عز وجل: ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾[١] هي دمشق ذات قرار وذات رخاء من العيش والسعة ومعين من كثرة المياه والأنهار[٢]وبلغ من كثرة المياه بها أنه ربما يجرى الماء في الدار الواحدة في عدة أماكن منها ويكون محكماً عليها من جميع نواحيها بإتقان. [٣]

تميزت المدينة بكمال عمارتها والتي كان من أهمها وأقدمها جامع بني أمية الذي بناه الوليد بن عبدالملك بن مروان في نهاية القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) وانفق فيه أموالاً جمة بلغت أربعمائة صندوق في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار وطوله من المشرق إلى المغرب مائتا خطوة وهي ثلاثمائة ذراع وعرضه من القبلة إلى الشمال مائة خطوة وخمس وثلاثون خطوة وهي مائتا ذراع. وقد زخرف بأنواع الزخرفة من الفصوص المذهبة والمرمر المصقول وتحت منبرة عمودان مجزعان بالحُمرة لم ير مثليهما يقال أن الوليد اشتراها بألف وخمسمائة دينار وفي المحراب عمودان صغيران يقال أنهما كانا في عرش بلقيس وعند منارته الشرقية حجر يقال أنه قطعة من الحجر الذي ضربه موسى عليه السلام فانفجرت منه اثنتا عشر عيناً. [٤]

وفي غربي دمشق لأقل من ميل يوجد "قصر الأمارة" وهو مدينة مسورة لها بابان كبيران يسمى أحدهما باب "الربوة" والثاني باب "حولان" وبينهما أبواب كثيرة تسمى "الخوخات" وفيها مسجد جامع متقن وفيها أسواق كثيرة وبين قصر الأمارة والمدينة بساتين وأنهار جارية وعلى القصر قبة حمراء مشرفة ويحيط بقصر الأمارة نهر من جميع جوانبه. [٥]

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٥٠.

(٢) الاصطخري: المصدر السابق، ص ٤٥.

(٣) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٩٣.

(٤) ابن بطوطة: المصدر السابق، ج ١،ص ٣٠٦.

(٥) الحميري: المصدر السابق، ص ٢٤١.

ومن جميل عمارة هذه المدينة "القلعة" وهي قلعة جميلة مرجلة على الأرض تحيط بها أسوار عالية يحيط بها خندق يطوف الماء منه بالقلعة وإذا دعت الحاجة إليه أطلق على جميع الخندق بالمدينة ويعمها وتحت القلعة ساحة فسيحة بها سوق الخيل على جانب وادٍ ينتهي فيه مما يلي القلعة إلى شرفتين به في جهتي القبلة والشمال في ذيل كل منهما ميدان أخضر. (١)

نالت دمشق إعجاب كل من رآها من الرحالة ومدحوها ومن أجل ما مدحت به دمشق أنها "جنة المشرق ومطلع نورها المشرق وخاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها وعروس المدن التي اجتليناها قد تحلت بأزاهير الرياحين وتجلت في حلل سندسية من البساتين وحلت موضع الحسن بالمكان المكين وتزينت في منتصفها أجمل تزيين وشرفت بأن أوي المسيح وأمه منها إلى ربوة ذات قرار مكين..." (٢) ومدحها رحالة آخر بقوله: "تفضل جميع البلاد حسناً وتتقدمها جمالاً وكل وصف وإن طال فهو قاصر عن محاسنها".(٣)

---

(١) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٩٣.

(٢) ابن جبير: المصدر السابق ، ص ٢٦٢.

(٣) ابن بطوطة: المصدر السابق، ج ١،ص ٢٩٧.

٥ - أنطاكية

تعتبر أنطاكية من المدن القديمة افتتحها أبوعبيدة بن الجراح ولكن أهلها نقضوا العهد فوجه إليهم أبوعبيدة من فتحها مرة ثانية وولاها بعد فتحها حبيب بن مسلمة الفهري. (١)

وهي أكبر مركز للتجارة بين الشرق والغرب لوقوعها في "وادي نهر العاص الذي يبلغ عرضه في هذا المكان على ساحل البحر(٢) عند ملتقي الطرق الموصلة بين الفرات وبين البحر بالطرق التي تؤدى إلى الشام وهي عاصمة إقليم العواصم أي الحدود الحربية التي أقيمت ضد بيزنطة على حدود الشام وآسيا الصغرى. (٣)

كانت أنطاكية واحدة من محطات طريق تجار اليهود الرازانية فإنهم بعد ركوبهم في البحر الغربي ربما عدلوا بتجارتهم إلى القسطنطينية فباعوها للروم وربما ساروا بها إلى مملكة فرنجة فيبيعونها هناك وإن شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل إلى الجابية ثم يركبون الفرات إلى بغداد ثم دجلة ثم الأبلة إلى عمان والسند والهند والصين. (٤)

ومدينة أنطاكية تميزت بأنها محصنة بالقلاع الكبيرة التي تشبه محيطاً واسع المدى والأسوار الهائلة الممتدة فوق الجبال والقلاع الكبيرة ويزيد طول الأسوار على الستة عشر ميلاً وتعلوها أبراج عالية للدفاع يبعد الواحد منها عن الآخر سبعين أو ثمانين خطوة. (٥)

ولكونها مركزاً تجارياً هاماً ومحطة من محطات التجار كثرت بها الأسواق التي كانت عامرة بالبضائع الآتية من الغرب والشرق وبمنتجاتها المحلية مثل الثياب

---

(١) البلاذري: المصدر السابق،ص ٢١٧.

(٢) ابن بطوطة: المصدر السابق، ج ١،ص ٢٨٤، الحميري: المصدر السابق، ص ٣٨.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، ج ٣،ص ٦٦.

(٤) ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص ١٥٤.

(٥) ابن بطوطة: المصدر السابق، ج ١،ص ٢٨٤، دائرة المعارف الإسلامية، ج ٣،ص ٦٦.

المصمتة والعتابي والتستري[١] والحنطة والشعير والزيتون وغيرها من المنتجات الزراعية الوافرة. [٢]

وصُفت المدينة بالعظمة وقالوا: كل شيء عند العرب من قبل الشام فهو أنطاكية ويقال ليس في أرض الإسلام ولا الروم مثلها[٣] كما وصفت بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الخير وغزارة الأمطار ووفرة الفواكه.[٤]

والذي نلاحظه أن كتب المؤرخين والرحالة منهم على وجه الخصوص لا تعطينا تفاصيل عن نشاطها التجاري وأسواقها وسكانها وعمرانها. فاقتصرت معلوماتهم على ذكر طبيعتها وتحصينها وربما يعود ذلك إلى أن المدينة كانت في تلك الفترة لا سيما المتأخرة منها العاصمة القديمة للمسيحية في الشرق.

---

(١) الحميري: المصدر السابق، ص ٣٨.

(٢) ياقوت: المصدر السابق، ج ١،ص ٢٦٦-٢٦٧.

(٣) الحميري: المصدر السابق، ص ٣٨.

(٤) ابن بطوطة، المصدر السابق، ج ١،ص ٢٨٤.

٦ -القيروان

القيروان مدينة عظيمة بافريقية وليس بالغرب مدينة أجل منها[(١)] اختط هذه المدينة عقبة بن نافع الفهري* في خلافة معاوية بن أبي سفيان. على أن أول من دخل أرض أفريقية وافتتحها هو عبدالله بن سعد بن أبي السرح في خلافة عثمان ابن عفان. [(٢)]

تعتبر القيروان أكبر المراكز التجارية في غرب البحر الأبيض المتوسط[(٣)] "وهي فرضة المغربين ومتجر البحرين"[(٤)]. ساعدها على ذلك الموقع الجغرافي المتوسط ثم كثرة مراسيها وموانيها المنتشرة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط مثل ميناء سوسة وبجاية** وغيرها.

وبالنسبة لميناء سوسة فهو على ساحل البحر بينه وبين القيروان مرحلة[(٥)] وبه أسوار حصينة وأسواق حسنة وغلات واسعة[(٦)] مخصوصة بكثرة الأمتعة وجودة الثياب الرقاق وجميع أشغال الثياب الرفيعة من طرزها وغيرها. والثياب السوسية لا نظير لها ولها بياض رائق كما يوجد بها عمائم المعمور تساوي العمامة ١٠٠ دينار وأزيد. [(٧)]

---

(١) ياقوت: المصدر السابق، ج ٤،ص ٤٢٠.

* لما نزل عقبة موضع القيروان كان وادياً كثير الأشجار تأوي إليه الوحوش والسباع نادي بأعلى صوته يا أهل الوادي ارتحلوا رحمكم الله فإنا نازلون فلم يبق من السباع شيء ولا الوحوش ثم أمر الناس بالتنقية والخطط فسكنه الناس (ابن عبدالحكم: أبوالقاسم عبدالرحمن بن عبدالله، فتوح مصر وأخبارها، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٢٠م، ص ١٩٦).

(٢) اليعقوبي: المصدر السابق، ص ٣٤٧،الحميري، المصدر السابق، ص ٤٦٨.

(٣) محمد زينهم محمد عزب: تاريخ أفريقية والمغرب للرقيق القيرواني، دار الفرجاني للنشر، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٣٨.

(٤) المقدسي: المصدر السابق، ص ٢٢٥.

** بجاية: على ضفة البحر الأبيض وتعرف بقلعة حماد (مجهول، المصدر السابق، ص ١٢٨).

(٥) اليعقوبي: المصدر السابق، ص ٣٤٨.

(٦) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٧٤.

(٧) مجهول: المصدر السابق، ص ١١٩.

لا شك أن ازدهار ميناء سوسة ونشاطه التجاري يؤثر كثيراً على نشاط القيروان التي لا تبعد عنه غير مرحلة واحدة وعن طريقه تخرج تجارة البحر إلى مصر وصقلية والأندلس والمغرب. (١)

كما كان لطرقها البرية المتعددة أثر واضح في مركزها التجاري فقد كانت البضائع تخرج بالقوافل سالكة عدة طرق أهمها:

الطريق من القيروان إلى قلعة أبي طويل وهذا الطريق يبدأ من سفاقس ثم إلى "طربي" وهو بلد معمور ومنه إلى "نصر رباح" ثم إلى القيروان وبعدها قلعة أبي طويل. وهي قلعة كبيرة مُصرت بعد القيروان وانتقل إليها أكثر أهل أفريقية وصارت في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) مقصد التجار وبها تحل التجارة من العراق ومصر والشام وسائر بلاد المغرب. (٢)

وهناك الطريق من القيروان إلى مدينة بونا. ومن القيروان إلى طبرقة(٣) والطريق من القيروان إلى مرسى الزيتونة ومن القيروان إلى تنس. (٤)

استفاد أهل القيروان من وضع البلاد الجغرافي وتمكن أمراء البلاد من أن يحتكرا الوساطة التجارية بالنسبة للتجارة العالمية بين الشرق والغرب وجنوا من وراء ذلك أطيب الثمار كما أقاموا علاقات تجارية ببلاد السودان الغربي مثل مالي وما يجاورها من تلك البلاد الواقعة حول بحيرة تشاد مما ساعد على وجود الذهب المجلوب من تلك الأصقاع إلى القيروان واستطاع تجارها أن يتنقلوا في ديار الملثمين وبلاد السودان حيث كانت القوافل تجلب الذهب والعبيد من الجنوب. (٥)

ومما ساعد على التقدم الاقتصادي في القيروان النهضة الزراعية والصناعية التي كانت في المنطقة فقد كانت المنتجات الزراعية والصناعية في سائر الإقليم

---

(١) محمد محمد على زيتون: القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، دار المنار، القاهرة، ١٩٨٨م، ص١٦٤.

(٢) البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، ص ٤٩.

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٤.

(٤) المصدر نفسه،ص ٦٣،ص ٦٦.

(٥) محمد زينهم محمد عزب: المرجع السابق، ص ٣٨، محمد محمد زيتون، المرجع السابق،ص ١٦٣.

تحمل إلى القيروان فكانت بذلك سوقاً كبيراً للمنتجات الزراعية والصناعية ومقراً للتجارة الداخلية والخارجية ويقصدها التجار من داخل الإقليم ومن خارجه. [١]

لذلك كله لا نستغرب إذا علمنا أن ما يصل إلى القيروان من المنتجات كل يوم من ضاحية واحدة ما لا يحصى من أحمال الفواكه والبقول[٢] وكذلك إذا علمنا أنه يدخل باب واحد من أبواب المدينة الخمسة في كل يوم ٢٦ ألف درهم. [٣]

انعكس الازدهار التجاري بالمدينة على وفرة الأموال فيها فقد جمع أهلها وخاصة الأمراء أموالاً طائلة والدليل على ذلك الأموال الضخمة التي أنفقها المعز لدين الله الفاطمي حين عزم على ختان أبنائه فأمر بالكتب إلى العمال من برقة إلى سجلماسة وحدودها وما بين ذلك وما حوته وإلى صقلية بأن يتقدموا في ختان أبنائه في فترة شهر كامل وأمر أن يحمل إلى كل بلد من هذه البلدان أموال وخلع فكان من حمل صقلية وحده خمسين حملاً من المال سوى الخلع. [٤]

وليس أدل على وفرة الأموال من تلك التي حملها جوهر إلى مصر فكانت النفوذ وحدها أربعة وعشرين مليوناً من الدنانير. وعندما عزم المعز على الرحيل إلى مصر حمل معه أموالاً كثيرة على ألف بعير وسبك الدنانير على شكل الطواحين جعل على كل حمل قطعتين فاستعظم ذلك الجند والرعية وصاروا يقفون في الطريق لرؤية بيت المال المحمول. [٥]

إن ما جناه أهل القيروان من ثروات طائلة أنعكس بصورة واضحة فيما أقاموه من منشآت تجارية ودينية وغيرها.

ومن أهم المنشآت التجارية الأسواق وأكبرها السوق الكبير الذي كان سماطه متصلاً من القبلة إلى الجوف وطوله من باب أبي الربيع إلى الجامع ميلان غير

---

(١) محمد محمد زيتون، المرجع السابق، ص ١٦٢.

(٢) البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، المصدر السابق ، ص ٣٢، محمد محمد زيتون: المرجع السابق،ص ١٦٧.

(٣) البكري: المسالك والممالك، المصدر السابق ، ص ٦٧٧.

(٤) محمد محمد زيتون: المرجع السابق،ص ١٦٦.

(٥) ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق محمد شمام، تونس، ١٩٦٧م، ص٦٤) .

ثلث ومن الجامع إلى باب تونس ثلثا ميل وكان سطحاً متصلاً فيه جميع المتاجر والصناعات(١) وكان بالمدينة إلى جانب هذا السوق الكبير الذي احتوى على جميع أنواع المتاجر والصناعات أسواق أخرى متخصصة كسوق الصيارفة وسوق الجوهريين وسوق البركة الذي يعرض فيه الرقيق والجواري وسوق الأحد للمنسوجات الصوفية وسوق الكتانين وسوق الغزل والسراجين والبزازين(٢) وسوق الخمسين وسوق الرماحين. (٣)

كما كان بالقيروان فنادق للتجار وبهذه الفنادق سقيفة بها شهود عدول لتحرير عقود البيع والإيجار وعامة الإحالات والإشهاد على المتعاقدين وهناك سمسار ليكون واسطة بين البائع والمشترى ومنادي لينادى على البضائع بالمزاد العلني وأمين لتسعير البضائع والتوثيق من سلامتها من الغش ومترجم يتولى الترجمة بين الأطراف وداخل السقيفة سراج لإصلاح أدوات الدواب وفي الدور الأول غرف يستأجرها المسافرون للميناء. (٤)

وفي مجال العمارة الدينية نجدهم قد أنشأوا المساجد الكثيرة وأعظم ما قاموا به في هذا المجال تجديد مسجد القيروان الذي أسسه عقبة بن نافع فقد أدخل عليه زيادة الله بن إبراهيم* تجديدات حاسمة بلغت ستة وثمانين ألف دينار وكان يفتخر بهذا العمل ويقول: "ما أبالي ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صحيفتي أربع حسنات

---

(١) البكري: المسالك والممالك، مصدر سابق، ص ٦٧٧.

(٢) محمد محمد زيتون: المرجع السابق، ص ٩٤.

(٣) المقدسي: المصدر السابق، ص ٢٢٥.

(٤) محمد محمد زيتون، المرجع السابق، ص ١٦٤.

* استقل زيادة الله بالأمر في سنة إحدى ومائتين هجرية وأقام في الولاية إلى سنة ثلاثة وعشرين ومائتين قام عليه في فترة ولايته منصور الطنيذي وحاصره وملك القيروان وأفريقية وفي آخر الأمر انهزم منصور وفتح الله على زيادة الله فعاد إليه مُلك أفريقيا وهو الذي سور مدينة القيروان وبني سور سوسة (ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص٤٩).

بنياني المسجد الجامع بالقيروان وبنياني قنطرة أم الربيع وبنياني حصن مدينة سوسة وتوليتي أحمد بن أبي محرز قضاء أفريقية". (١)

وفي مجال العمارة الاجتماعية والمدنية نجد أن المدينة حظيت بعدد كبير من الحمامات والمنتزهات فقد كان بها ثمانية وأربعين حماماً كما وُجد بها قصور الأمراء والأثرياء. (٢)

أقام أمراء القيروان المواجل وهي عبارة عن أحواض ماء واسعة وعميقة تشبه الفسقيات يتجمع فيها ماء المطر وهي دائماً مكشوفة. وقد وجدت بالقيروان خمسة عشر ماجلاً للماء وأعظم هذه المواجل وأفخمها الماجل الذي بناه أحمد بن الأغلب بباب تونس من القيروان وهو مستدير ومتناهي الكبر وفي وسطه صومعة مثمنة وفي أعلاه قبة بها أربعة أبواب وكان على ذلك الماجل العظيم قصر فيه من البناء العجيب والغرف المشرفة شيء عجيب. وفي جوف هذا الماجل ماجل آخر متصل به يقع فيه ماء الوادي إذا جرى فتتكسر فيه حدة جريانه ثم يدخل الماء الماجل الكبير. (٣)

إن من أعظم العمارة التي قامت فيها هي تأسيس المدن حول القيروان والتي ازدهرت ازدهاراً عظيماً لدرجة أن بعضها نقل إليه أسواق القيروان وبعضها كان يجلب منه الماء عند نفاده من القيروان وأهم هذه المدن:

أ- مدينة العباسية أو القصر القديم وهي على بعد ثلاثة أميال جنوب القيروان أسسها إبراهيم بن الأغلب وصارت دار أمراء بني الأغلب وقد عمرت هذه المدينة وكثرت فيها الحمامات والفنادق والأسواق والمواجل وبني فيه مسجد له صومعة مستديرة مبنية بالآجر والعمد وكان في داخل المدينة رحبة واسعة تعرف بالميدان

---

(١)محمد محمد زيتون، المرجع السابق.

(٢) البكري: المغرب، مصدر سابق، ص ٢٦.

(٣) الحميري: المصدر السابق، ص ٤٨٧ ،مجهول، المصدر السابق، ص ١١٥.

وأحيطت العباسية بسور من خمسة أبواب باب الرحمة وباب غليون وباب الريح وباب السعادة. (١)

ب- مدينة رقادة وهي على بعد أربعة أميال من القيروان كانت أكثر بلاد أفريقية بساتين وفواكه وليس بافريقية هواء أعدل من رقادة ولا أرق نسيماً ولا أطيب تربة منها. ويُقال أن أحد ملوك بني الأغلب أصابه أرق شديد وشرد النوم عنه أياماً فنصحه الطبيب بالخروج والتنزه والمشي فلما وصل رقادة نام فسميت رقادة واتخذت موضع فرجه ومتنزهاً للملوك ويقال أن الذي بناها هو إبراهيم بن أحمد بن الأغلب. (٢)

ج- صبرة أو المنصورية: تبعد من القيروان نصف ميل أسسها إسماعيل بن القائم بن عبيدالله المهدي* ونقلت إليها الأسواق من القيروان فنشطت فيها التجارة وكان يدخل واحد من أبوابها كل يوم ستة وعشرون ألف درهم وكان لها خمسة أبواب القبلي والباب الشرقي وباب زويلة وباب كتامة وباب الفتوح الذي كان يخرج منه الجيوش. (٣)

---

(١) ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص٢٨.

(٢) مجهول: المصدر السابق، ص ١١٦.

* إسماعيل بن القائم: هو المنصور بالله بن القائم بأمر الله بويع في سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة كان شجاعاً قوياً فصيحاً بني مدينة المنصورية تفاؤلاً بانتصاره على أبي يزيد ومن أهم أعماله أنه بعث في سنة أربعين أسطولاً عظيماً إلى صقلية لأنه سمع بملك الروم عازماً على الحركة إليه سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة (ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص ٦٢).

(٣) مجهول: المصدر السابق، ص ١١٥، البكري، المصدر السابق، ص ٢٥، ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص ٦٢.

المبحث الثاني

الموانئ التجارية

أولاً: موانئ التجارة على البحر الأحمر:

البحر الأحمر * من أعظم البحار وهو شعبة من بحر الهند أوله من بلاد البربر والسودان ثم يمتد مغرباً وفي أقصاه مدينة القلزم ويُسمى في كل موضع يمر به باسم ذلك الموضع فعلى ساحله الجنوبي بلاد البربر وعلى ساحله الشرقي بلاد العرب فالداخل إليه يكون على يساره أواخر بلاد البربر ثم الزيلع ثم الحبشة ومنتهاه من هذه الجهات بلاد البجة وعلى يمينه عدن ثم المندب. (١)

ويعتبر أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب في ذلك العصر فقد كان يقلل إلى حد ما من المصاعب والنفقات التي يسببها النقل البري. فإذا استثنينا الشريط البري الضيق بين البحر الأحمر والنيل كانت البضائع التي ترسل من الهند والصين تسلك دائماً طريق البحر وتتبع الطريق المباشر إلى أقصر الطرق للوصول إلى موانئ إيطاليا وفرنسا وأسبانيا. (٢)

وقد كانت التجارة مزدهرة من عصر قديم في البحر الأحمر وفي بداية العصر الإسلامي كانت هناك قناة تربط النيل بالقلزم وكانت السفن المحملة بالغلال تجرى ما بين الفسطاط والجار ** وكانت السفن التي تنقل التجارة بين أوربا والهند والتي كانت في أيدي اليهود تقطع برزخ السويس ثم تتابع السير في البحر الأحمر دون أن تقف بالسواحل المصرية حتى تصل الحجاز وجدة ومن هناك تتابع السير إلى الهند والصين. (٣)

---

* يسمى البحر الأحمر بالقلزم، والقلزمة إبلاع الشيء وسمى كذلك لالتهامه من ركبة(ياقوت، المصدر السابق، ج ٢،ص ٣٨٧).

(١) المصدر نفسه، ج ١،ص ٣٤٤.

(٢) هويدا عبدالعظيم رمضان: المرجع السابق، ص ٢١٤.

** الجار: ثغر المدينة المنورة(ياقوت، المصدر السابق، ج ٤،ص ٣٨٧).

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، ج ٣،ص ٣٨٥.

وفي النصف الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) أي بعد غزو المغول لغرب آسيا وتعطل الطريق التجاري البري من وسط آسيا. وطريق البحر الأحمر من أكثر الطرق التجارية أهمية في التجارة بين الشرق والغرب لأنه بعيد عن ميادين الحرب بين المغول والمماليك وفيما بعد بين العثمانيين والأوربيين. [١]

تعترض الملاحة في هذا البحر صعوبتان أولهما: كثرة الشعاب المرجانية ونتج من ذلك أن الملاحة كانت تتطلب نوعاً خاصاً من السفن حيث لا تستطيع سفن المحيط الهندي سلوكه فصنعت له سفن خاصة تعرف بالجلاب* كما نتج عن ذلك أن الملاحة فيه بالنهار فقط فإذا جن الليل أُرست السفن في مواضع معروفة.

والصعوبة الثانية هي الرياح المعاكسة وقد لاءم البحارة أوقاتهم في مواعيد هبوب الرياح الموسمية. وكان نظام هبوب الرياح يجعل الملاحة من الشمال إلى الجنوب فقط في فصل الصيف ومن الجنوب إلى الشمال في فصل الشتاء فالرياح التي تهب عليه هي رياح موسمية دائماً تكون شمالية شرقية في فصل الصيف وتتجه إلى الجنوب الغربي وفي فصل الشتاء تهب من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي وقد علم البحارة والتجار والمسافرون من البحر المتوسط إلى الشرق عبر البحر الأحمر أن أحسن شهور السنة للإبحار فيه هما شهرا أبريل ويونيو وأحسن وقت للعودة منه هو شهر يناير وفبراير. [٢]

وهناك صعوبة أخرى كان أصحاب السفن والتجار يخشونها عند الطرق الجنوبي لشبه جزيرة سيناء بسبب اصطفاق الرياح التي تهب من ناحية شعبتيه

---

(١) نعيم زكي فهمي، المرجع السابق،ص ١٢٥.

* الجلاب: جمع جلبة وهي من المراكب التي تسير في المحيط الهندي والبحر الأحمر استعملها أهل مصر والحجاز واليمن في نقل الحجاج والأزواد (درويش النخيلي، المرجع السابق،ص ٢٧).

(٢) هويدا عبدالعظيم: المرجع السابق، ص ٢١٥.

الشماليتين وخاصة بالقرب من جزائر تسمى "تاران" عند مدخل خليج العقبة ويُذكر أن فرعون وجنوده هلك في تلك المنطقة من البحر. [١]

نشطت حركة الملاحة بصورة واضحة في النصف الجنوبي من البحر الأحمر أكثر من النصف الشمالي وذلك بسبب الحضارة القديمة التي كانت في الأُقاليم التي على شواطئه وكذلك بسبب اعتدال الرياح في النصف الجنوبي. [٢]

وأياً كانت الصعوبات التي تعترض الملاحة في ذلك البحر فقد لعبت موانية دوراً هاماً في التجارة الخارجية وأهم موانية ذات الدور البارز في ذلك هي ايلة، القلزم، وعيذاب وجدة وعدن باعتبارها عند مدخله الجنوبي.

١- أيلة*

تقع أيلة في طريق مكة من مصر وهي أول الحجاز على ساحل بحر القلزم وهي بمثابة نقطة وصل وفصل ما بين حدود مصر وبلاد الشام وبلاد الحجاز ولهذا وصفت بأنها حجازية شامية مصرية واعتبرت أول بلاد الحجاز أو آخر الحجاز من جهة الشام وآخر حد مصر من جهة الشرق. [٣]

وتاريخ مدينة أيلة قديم يرجع إلى عصور قديمة قبل الإسلام بفترات طويلة فقد عرفت منذ أيام الأدوميين فكانت بمثابة نقطة اتصال بين مصر وبلاد الشام وشمال غرب الجزيرة ومنذ نهاية القرن التاسع وبداية الثامن قبل الميلاد وحتى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد ازدهر موقع أيلة في موضع يعرف الآن "تل الخليفة" الذي يقع إلى الشمال الغربي من مدينة العقبة الحالية وعلى بعد نصف كيلومتر إلى الغرب من

---

(١) ياقوت: المصدر السابق، ج ٤،ص ٢٨٨.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، ج ٣،ص ٣٨٤.

* ايلة أو ويلة اسم عربي للمنطقة ويقابل الاسم العبري أيليم ، أيلات ، أيلوت وبالآرامية أيلون أو أيلونا (ياقوت: المصدر السابق، ج ٣،ص ٢٠٧).

(٣) المصدر نفسه: ج ١،ص ٢٩٢، الحميري، المصدر السابق، ص ٧٠.

ساحل البحر وذلك خلال وجود الأدميين ببلاد الشام حيث كانت بمثابة ميناء مزدهر للأدميين. (١)

وفي العصر الروماني حيث استولى عليها الرومان في سنة ١٠٥م(٢) كانت مركزاً تجارياً هاماً وثغراً من ثغور جباية العشور على التجارة وكذلك في العصر البيزنطي حيث انتقل موضع أيلة إلى الجنوب الشرقي من موضع تل الخليفة إلى الساحل في أقصى طرف الشمال من موضع العقبة الحالية. (٣)

وبعد ظهور الإسلام فتحت أيلة سنة ٩هـ-٦٣٠م صلحاً حيث صالح الرسولﷺ أهلها على الجزية وكتب لهم عهداً وميثاقاً لذلك مما ساعد على ازدهار المدينة وأصبحت من المراكز الحضارية والتجارية الهامة(٤) حيث أصبحت بعد ذلك مجتمع حاج مصر والمغرب والشام من الساحل الشاهي وبيت المقدس وغزة الكرك والتكاررة* من أفريقيا والأندلسيين من الأندلس وكان الحجاج يستريحون فيها من عناء السفر فهي تعتبر نهاية الربع الأول وبداية الربع الثاني من الدرب.(٥)

أصبح لهذه المدينة شأن كبير في التجارة البحرية وتجارة القوافل وذلك لموقعها في أقصى خليج العقبة ملتقي القوافل التي تذهب من مصر إلى أواسط بلاد العرب كذلك القوافل التي تتجه من الموانئ الفلسطينية إلى جنوب بلاد العرب. (٦)

---

(١) سامي صالح: درب الحاج المصري، أعمال ندوة طرق الحج، منشورات ايسيسكو، الرباط، ٢٠٠٧م،ص ٢٨٤.

(٢) دائرة المعارف، ج ٣،ص ٢٠٧.

(٣) سامي صالح: المرجع السابق، ص ٢٨٤.

(٤) البلاذري: المصدر السابق،ص ٧٩-٨٠.

* تكرور مدينة ببلاد السودان قرب مدينة صنغانة على النيل وهي مدينة كبيرة ذات تجارة وإليها يسافر أهل المغرب الأقصى بالصوف والنحاس والخرز ويخرجون منها بالتبر والخدم. وطعامهم السمك والذرة والألبان ومواشيهم الجمال والمعز ولباس عامتهم الصوف وخاصتهم القطن والمآزر. بينها وبين سلجماسة أربعون يوماً بسير القوافل (الحميري، المصدر السابق، ص ١٣٤).

(٥) ياقوت: المصدر السابق، ج ١،ص ٢٩٢، سامي صالح، المرجع السابق،ص ٢٨٣.

(٦) دائرة المعارف الإسلامية، ج ٣،ص ٢٠٧.

ولذلك اجتمع بالمدينة التجارات الكثيرة والأسواق العامرة[١] ومن بينها سوق كبير يعقد عند ذهاب وعودة الحجاج يؤتي له بشتى الأصناف من بلاد الشام وغزة وينصب فيه من الحوانيت التي تحوي كل ما يوجد في المدن العظام لذلك كان السوق عامراً بالخيل والبغال والحمير والأبل والشعير وأنواع الفواكه الشامية وأنواع المآكل والمشارب. [٢]

ولأهمية تجاراتها أصبحت مركزاً من مراكز التمكيس في العصور الوسطي وكانت عملية التمكيس تتم في ديوان أقيم بباب العقبة وذلك بحكم موقعها على الطريق البري والبحري. [٣]

كما أهتم بها المسؤولون حيث أمر أحمد بن طولون ٢٥٤هـ-٨٦٨م بإنشاء طريق على حافة جبل يُسمى "أم نصلة" بدلاً من طريق القوافل القديم الذي كان ضيقاً ومحصوراً بين صخور الجبل من ناحية وبين البحر من ناحية أخرى وكانت تطغى عليه الأمواج في أغلب الأحيان وسمي هذا المكان بعقبة أيلة[٤] وهي العقبة التي لا يصعدها راكب لصعوبتها ولا تقطع إلا في طول اليوم لطولها. [٥]

---

(١) الحميري: المصدر السابق، ص ٧٠.

(٢) سامي صالح: المرجع السابق، ص ٢٨٤.

(٣) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٣،ص ٤٦٧.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية، ج ٣،ص ٢٠٨.

(٥) الحميري: المصدر السابق، ص ٧٠.

٢ - القلزم

القلزم مدينة قديمة على بحر القلزم في الجزء الذي أطلق عليه بحر الصين[١] وهي في عطف هذا البحر في آخر لسانه بينها وبين الفسطاط مرحلتان وهي على مسيرة ثلاثة أيام. [٢]

والقلزم هي الميناء الرئيسي لمصر في البحر على الطريق التجاري وطريق الحج إلى الأماكن المقدسة. وللمدينة أهمية كبيرة لما تقوم به من عملية الوصل بين مصر والحجاز للحج والتجارة ولتزويد أهل مكة والمدينة بما يحتاجونه من غلال ومؤن كما كانت حمولات الشام تحمل منها إلى الحجاز واليمن. [٣]

قلت أهمية هذه المدينة عندما تحول النشاط التجاري عبر البحر الأحمر إلى الخليج العربي وتحولت بضائع الشرق من موانئ البحر الأحمر إلى الخليج بسبب انتهاء عهد الأمويين وقيام خلافة العباسيين ومما ساعد على هذا التحول قيام الخليفة العباسي المنصور بردم خليج المؤمنين على أثر الثورة التي قام بها محمد "النفس الزكية بالحجاز حتى يقطع المدد الذي يأتي من مصر إلى الحجاز فحلت موانئ سيراف والبصرة والإبلة وغيرها من موانئ الخليج محل موانئ البحر الأحمر في استقبال سفن الشرق الأقصى القادمة من الهند والصين. [٤]

ومع ذلك فقد امتد نشاطها التجاري حتى منتصف القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) حيث كانت هذه المدينة أحد محطات تجار اليهود الرازنية القادمون ببضائعهم من بلاد الفرنج قاصدين مصراً حيث يركبون في البحر الغربي ويخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم وبينها وبين الفرما خمسة وعشرون فرسخاً ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم ثم يمضون إلى السند والهند. [٥]

---

(١) المقدسي: المصدر السابق، ص ١٩٩.

(٢) المقريزي: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٦٣، الاصطخري، المصدر السابق، ص ٣١، ياقوت، المصدر السابق، ج ٤،ص ٣٨٨.

(٣) الاصطخري: المصدر السابق، ص ٣١.

(٤) عطية القوطي: عيذاب جدة طرق الحاج المصري، ندوة طرق الحج، المرجع السابق، ص ٣١٦.

(٥) ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص ١٥٤.

ومنذ القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) حلت السويس* محل القلزم وأصبحت تصلها التجارة الصغيرة من ميناء جدة وعدن محملة بالتوابل والعطور والعقاقير والأحجار الكريمة والعنبر والمسك ثم تحمل على ظهور الجمال عبر الصحراء إلى القاهرة ثم بالنيل إلى الإسكندرية على أن هذا الميناء لم يلبث أن هجر وأصبح ميناء مصر الحربي على البحر الأحمر وبنيت به ترسانات السفن الحربية والتجارية القاصدة المياه الشرقية وانتقل منها إلى ميناء الطور**.(١)

ويؤكد ذلك وصف ياقوت الحموي(٢) والذي زارها في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) بأنه لا زرع فيها ولا شجر وهي اليوم خراب.

---

* السويس: على ساحل بحر القلزم وهي ميناء أهل مصر منذ القرن السادس الهجري إلى مكة والمدينة بينها وبين الفسطاط سبعة أيام في برية معطشة يحمل إليها الميرة من مصر على الظهر ثم تطرح في المراكب إلى الحرمين (ياقوت، المصدر السابق، ج ٣،ص ٢٨٦).

** الطور: يوجد في جانب الرأس الداخل في بحر القلزم بين عقبة أيلة وبين بر الديار المصرية والواصل من هذا الساحل إلى الحجاز كثيرا وقد فضله رؤساء المراكب لقرب المراكب فيه من بر الحجاز ولكثرة المراسي في بره (القلقشندي، المصدر السابق، ج ٣،ص ٤٦٤).

(١) نعيم زكي فهمي: المرجع السابق، ص ١٣٤.

(٢) معجم البلدان، مصدر سابق، ج ٤،ص ٣٨٨.

٣- عيذاب

مدينة وميناء نشأ على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر[(١)] استمد شهرته منذ القدم من أيام الفراعنة كان يخدم في نقل معدني الذهب والزمرد الموجود بكثرة في أرض المعدن بوادي العلاقي* بالصحراء الشرقية إلى وادي النيل. كما استمد شهرته من أهمية الدور الذي قام به عدة قرون كقاعدة بحرية تجارية هامة لتجارة المرور من الشرق الأقصى إلى أوربا عبر مصر لذلك تعتبر من المراكز التجارية الهامة على ساحل البحر الأحمر الغربي كما كانت ميناء هاماً في طريق قوافل الحجاج إلى المقدسات الإسلامية بالحجاز ومن سلك إلى اليمن وغيرها عبر البحر الأحمر نظراً لموقعها المقابل لميناء جدة وقصر المسافة بينهما على البحر. [(٢)]

وعلى ذلك كانت المراكب تسير بالحجاج شرقاً إلى جدة ميناء الحجاز أو بالسلع جنوباً إلى بلاد اليمن وعدن حيث تستأنف سيرها إلى سواحل بلاد الهند والصين لتعود محملة بالبضائع إلى عيذاب ومنها إلى بقية الساحل المصري[(٣)] لذلك كانت عيذاب "من أحفل مراسي الدنيا".[(٤)]

ارتبط بميناء عيذاب مدينتان هامتان في تلك العصور هما أسوان* وقوص** عبر طريقين بريين داخل الصحراء الشرقية هما:

---

(١) البكري: المسالك والممالك، المصدر السابق ، ص ٦١٩.

* وادي العلاقي: حيث معدن التبر وهو كالمدينة العظيمة بها أخلاط من العرب والعجم أصحاب المطالب وبها أسواق وتجارات وأكثر من بالوادي قوم من بني حنيفة وبه عمال يخرجون التبر كالزرنيخ ثم يسبك (اليعقوبي: البلدان، ص ٣٣٤، الحميري، المصدر السابق، ص ٦٠٦).

(٢) البكري: المسالك والممالك، المصدر السابق ، ص ٦١٩، الحميري، المصدر السابق، ص ٤٢٤.

(٣) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي ...، ج ٤،ص ٣٨٦.

(٤) ابن جبير: المصدر السابق، ص ٣٥.

* أسوان: في الصعيد آخر بلاد مصر وهي من ثغور النوبة وإلى أسوان تصعد المراكب من فسطاط مصر وعلى أميال منها جبال وأحجار يجرى النيل في وسطها،و تتواجد في هذه المدينة الحنطة وسائر أنواع الحبوب والفواكه والبطيخ والبقول واللحوم وبها تجارات تحمل منها إلى بلاد النوبة وقريباً منها معدن الزمرد الذي يخرج إلى سائر البلاد (مجهول، المصدر السابق، ص ٨٧).

** قوص: تقع على شرق النيل بين أسوان واخميم بينها وبين أسوان مسيرة ثلاثة أيام وهي مدينة كبيرة فيها أسواق وحمامات ومعاصر للسكر ويقال في تلك الصحراء التي بين قوص وأسوان الجبل الذي فيه الزمرد الأخضر إلا أن الخوف من البجة والنوبة يمنع منه (البكري، المصدر السابق، ص ٦١٩).

الطريق الأول: من عيذاب إلى أسوان وهذا الطريق فرعان فرع يعرف بالواضح وهو ثماني عشرة مرحلة في قفر ورمال وليست فيه عمران وقليل الماء ولا يهتدي فيه لمسلك ويقتدي فيها الجمالون بإبل معروفة يقدمونها أما مهم فيهتدون بها. والفرع الآخر يعرف بالعلاقين وهو ثماني عشرة مرحلة وليس فيه عمران إلا مدينة في وسط الطريق وهي كثيرة الثمار والخير يسكنها عرب من كلب بن وبرة وهم على استقامة وحفظ لمن مرّ بهم[1] وهذا الفرع الثاني هو الذي سلكه الرحالة ناصر خسروا وذكر أن طوله ما بين مائتي فرسخ إلى ستمائة ميل وقطعه في خمسة عشر يوماً. [2]

الطريق الثاني: عيذاب قوص وهذا الطريق أطول من الأول وعلى الرغم من شدة الحرارة وقلة الماء في طريق عيذاب- أسوان إلا أنه يمتاز عن طريق قوص بقصره. كما يمتاز بخلوه من الجبال المتشابكة التي تكثر في طريق قوص زيادة على ذلك فإن أسوان كانت ثغراً هاماً للتجارة مع بلاد النوبة لذلك كان المسافرون يفضلون طريق أسوان على طريق مدينة قوص. [3]

وأياً كانت الطرق فقد ظل حجاج مصر والمغرب زيادة على مائتي سنة لا يتوجهون إلى مكة إلا من صحراء عيذاب وكذلك تجار الهند والحبشة يردون في البحر إلى عيذاب ثم يسلكون الصحراء إلى قوص ومنها يردون الفسطاط. فكانت عيذاب بذلك عامرة آهلة بما يصدر أو يرد من قوافل التجار والحجاج[4] ويقول ابن جبير[5] أكثر ما شاهدنا من ذلك أحمال الفلفل فقد خُيل إلينا لكثرته أنه يوازي التراب قيمة ومن عجيب ما شاهدنا بتلك الصحراء أنك تلتقي بقاعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائرها من السلع مطروحة لا حارس لها تترك بهذه السبيل وتبقي بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات على كثرة الماء عليها...".

---

(١) البكري، المسالك والممالك ، المصدر السابق ص ٦٢٠.

(٢) عطية القوصي: المرجع السابق، ص ٣١٥.

(٣) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ...، ج ٤،ص ٣٨٦.

(٤) المقريزي: المصدر السابق، ج ١،ص ٣٧٤.

(٥) رحلة ابن جبير ، ص ٤٣-٤٤.

ولم تزل عيذاب مسلكاً للتجار والحجاج في ذهابهم وإيابهم منذ النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) إلى النصف الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي). (١)

شهدت عيذاب ازدهاراً كبيراً بسبب الأحداث السياسية في الدولة الإسلامية حيث نجد أن ثورتي الزنج والقرامطة في جنوب العراق ومنطقة البحرين اللتين أثرتا على الحركة التجارية بالخليج العربي مما جعل سفن الهند والصين تترك الرسو في موانئ الخليج وتعود للرسو في ميناء عدن اليمني ومنه قام اليمنيون بنقل سلع الشرق إلى كل من جدة على ساحل البحر الشرقي وعيذاب والقصير على الساحل الغربي. وفضل البحارة ورؤساء المراكب الرسو في عيذاب وذلك لخلوه من الشعب المرجانية التي تنبت في قعر هذا البحر وتعوق الملاحة. ومن هذا الساحل توصل البضائع إلى قوص وإلى الفسطاط. (٢)

وإذا تتبعنا تطور هذا الميناء نجده يصل قمة الازدهار في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) حيث أصبح أهم الموانئ التي ترسو بها مراكب كثيرة من البلاد ويجتمع فيها عدد كبير من الحجاج وذلك بسبب الشدة التي قاستها مصر في عهد المستنصر بالله وعرفت بالشدة المستنصرية* نتيجة لأسباب عدة فقد أهتم الخلفاء الفواطم بميناء عيذاب وعملوا على حمايته وحماية قوافل الحجاج والتجار التي ترسو به من متجرمة بحر القلزم وقراصنته فاعدوا أسطولاً يتكون من خمسة

---

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ...، ج ٤،ص ٣٨٦.

(٢) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٣،ص ٤٦٤.

* الشدة المستنصرية: حدثت في سنة ستين وأربعمائة هجرية وكان من إسبابها الفتنة في عهد المستنصر بين الأتراك والعبيد وأيضاً من أسبابها انقطاع النيل مات بسببها أكثر أهل مصر وأكل الناس بعضهم وأكلوا الدواب باسرها وبيع الكلب بخمسة دنانير والهر بثلاثة دنانير وبلغ الحد من هذه المجاعة أن امرأة أخرجت مُد جوهر وقالت من يأخذه بُمد قمح فلم تجد من يلتفت إليها وأخرج المستنصر طستاً وابريقاً بلوراً يسع الطست أربعة أرطال والإبريق رطلان فبيعت باثني عشر درهماً فلوساً واستمرت الشدة سبع سنوات (السيوطي، المصدر السابق، ج ٢،ص ٢٨٨).

مراكب وعملوا على استتباب الأمن والأمان في عيذاب وطريقها البحري التجاري حتى ميناء جدة. [1]

وفي ذلك يقول ناصر خسرو[2]: أما الأمان الذي رأيته في عيذاب فإني لم أره في بلد من قبل ويقول: أنه بلغ أمن المصريين وإطمئنانهم إلى حكوماتهم إلى حد أن البزازين وتجار الجواهر والصيارفة لا يغلقون أبواب الدكاكين بل يسدلون عليها الستائر ولم يكن أحد يجرو على مد يده إلى شيء منها.

استمر ازدهار ميناء عيذاب وطريقه إلى جدة طوال العصر الفاطمي بسبب العناية وبسبب حالة الرخاء التي أصابت البلاد في فترات طويلة من حكمهم ونتيجة ازدهار تجارة البحر الأحمر وقد أدت حوادث الحروب الصليبية إلى أن يظل طريق عيذاب جدة الطريق الرئيسي الذي تعبره القوافل فضلاً عن هذه الظروف فإن سياسة التسامح الديني التي انتهجها حكام الفاطميين مع التجار الأوربيين الجنويين والبنادقة والبيازية والأمالفيين إلى تسابقهم إلى الأسواق المصرية وعدم تأثرهم بإحداث العدوان الصليبي على بلاد الإسلام ذلك لأن سياسة مصالحهم الاقتصادية قد تغلبت آنذاك على التعصب الديني. [3]

مما لا شك فيه أن تحول طريق التجارة قد أدى إلى انتعاش في حالة عيذاب الاقتصادية وفي حالة أهلها فبالرغم من أن عيذاب في صحراء لا نبات فيها ولا شيء يؤكل إلا مجلوب إلا أنه كان لأهلها من الحجاج والتجار فوائد لا تُحصي وكان لهم على كل حمل طعام يحملونه للحجاج ضريبة مقدرة خفيفة. [4]

كما كانوا يكارون الحجاج الجلاب التي تحملهم إلى جدة في البحر ومن جدة إلى عيذاب فيجتمع لأهلها من ذلك مال عظيم ولم يكن في أهل عيذاب إلا من له

---

(١) عطية القوصي: المرجع السابق، ص ٣١٧.

(٢) سفر نامة،ص ١١٠ عن عطية القوصي، المرجع السابق، ص ٣٢٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٢٠.

(٤) المقريزي: المصدر السابق، ج ١،ص ٣٧٤، الحميري،المصدر السابق، ص ٤٢٤، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي ...، ج ٤،ص ٣٨٧.

جلبة فأكثر على قدر يساره. وقد كان الحجاج والتجار يجدون في ركوبهم الجلاب أهوالاً عظيمة لأن الرياح تلقيهم في الغالب بمراس في صحارى بعيدة مما يلي الجنوب ويسلكون بهم على غير ماء فربما هلك أكثرهم عطشاً. (١)

وجلباتهم التي تحمل الحجاج في البحر لا يستعمل فيها مسمار البتة إنما يخيط خشبها بالقبنار وهو متخذ من شجر النارجيل ويخللونها بدسر من عيدان النخل ثم يسقونها بسمن أو دهن الخروع أو دهن القرش وهو حوت عظيم في البحر. ولأهل عيذاب في الحجاج أحكام الطواغيت فإنهم يبالغون في شحن الجلبة بالناس حتى يبقى بعضهم فوق بعض وتعود بهم السفن وكأنها أقفاص الدجاج حرصاً على الأجر ولا يبالون بما يصيب الناس في البحر بل يقولون دائماً: علينا بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح. (٢)

كما استفاد أهالي عيذاب من هذه الحركة التجارية وحركة الحجاج باشتغال عدد كبير منهم في شحن السلع وتفريغها مما أدى إلى رخاء أهلها ونشر الأمن بينهم. (٣)

وفائدة عيذاب الكبرى كانت من المكوس فقد كان على عيذاب والٍ من قبل رئيس البجة* وعامل من قبل ملوك مصر يقتسمون جبايتها نصفين وعلى عامل مصر القيام بجلب الأرزاق المعيشية إلى عيذاب وعلى رئيس البجة القيام بحمايتها من الحبشة ورئيس البجة ينزل الصحاري ولا يدخل المدينة ولكن أهل عيذاب

---

(١) الحميري: المصدر السابق، ص ٤٢٤.

(٢) ابن جبير: المصدر السابق، ص ٤٨.

(٣) حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج ٤،ص ٣٨٧.

* البجة: قوم سودان فيهم مسلمون ونصارى يسيرون بالحجاج في تلك الصحارى والمشهور عنهم الأمانة (ابن سعيد، المصدر السابق، ص ١١٦، وفي أرض البجة معادن الذهب والزمرد وتتصل سراياهم على النُجُب لى بلاد النوبة فيغيرون على النوبة ويسبونهم وقد كانت النوبة قبل ذلك أشد من البجة ولكن قويت بالعرب الذين سكنوا معدن الذهب وبلاد العلاقي وعيذاب وتزوجوا بهم(المسعودي: المصدر السابق، ج ٢،ص ١٨).

يتجولون في كل نواحي أرض البجة يشترون ويبيعون ويجلبون ما هناك من السمن والعسل واللبن. (١)

تُحصل المكوس على ما تحمله السفن الواردة من الحبشة وزنجبار واليمن(٢) كما تؤخذ بعيذاب المكوس من حاج الإسلام القاصد من بلاد المغرب ثمانية دنانير على كل شخص ولا يعبر أحد من حاج المغرب إلى جدة حتى يظهر الرجل البراءة مما يلزمه فإذا جاز المركب ودخل جدة اقتضوا منهم المكوس اللازمة لهم فإن عثر على رجل لا مكس معه لزم الذي جوزه وربما سجن الرجل الحاج حتى يفوته الحج. (٣)

زاد من أهمية عيذاب التجارية وأنعش حركتها الاقتصادية أن في بحرها مغائص اللؤلؤ في جزائر على مقربة منها في شهر يونيو والذي يليه ويستخرج منه جوهر نفيس له قيمة يذهب الغائصون إلى تلك الجزائر في الزوارق ويقيمون أياماً فيعودون باللؤلؤ في أصداف لها أرواح كأنها نوع من الحيتان. (٤)

---

(١) الحميري: المصدر السابق،ص ٤٢٣-٤٢٤.

(٢) محمد جمال سرور: المرجع السابق،ص ١٥١.

(٣) الحميري: المصدر السابق، ص ٤٢٤.

(٤) المصدر نفسه ص ٤٢٤.

٤- ميناء جدة

ارتبط ميناء جدة بموانئ أيلة والقلزم وعيذاب باعتبارها محط التجار والحجاج الذين يفدون من هذه الموانئ وهي ميناء مكة كما كانت القلزم ميناء مصر وسوريا فقد كانت السلع التي تجلب من الشرق إلى جدة ومنها ترسل إلى مكة في موسم الحج كما كانت هذه السلع تصل من جدة إلى الغرب على أيدي التجار المصريين الذين كانوا يفدون إلى بلادهم براً مع الحجاج أو مع التجار السوريين الذين كانوا يحملونها إلى دمشق. (١)

وعلى مدينة جدة وغيرها من الموانئ على البحر الأحمر الغربي القيام بتزويد الحجاج القادمين من مصر وبلاد الشام عبر الطرق المختلفة حيث يتزودون بما يحتاجون إليه من مواد غذائية كما كانت مركز تبادل تجاري بين البدو والمستقرين وأهم السلع التي يتم تبادلها في تلك الأسواق أو تصديرها التمور والحبوب وفضلاً عن كونها مراكز تصدير واستيراد كانت أسواقاً محلية لمنتجات المراكز المجاورة لها. (٢)

زار هذه المدينة عدد من الرحالة ووصفوها فقد وصفها المقدسي(٣): والذي زارها في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بأنها عامرة وأهلها أصحاب تجارات وأموال وهي خزانة مكة. أما ناصر خسرو(٤) والذي زارها في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) فقد قال: أنها "مدينة كبيرة لها سور حصين تقع على شاطئ البحر وبها خمسة آلاف رجل... وفيها أسواق جميلة ولها بوابتان أحداهما شرقية تؤدى إلى مكة والثانية غربية تؤدى إلى البحر وليس بها شجر ولا زرع وكل ما يلزمها يحضرونه إليها من القرى وبينها وبين مكة اثنا عشر فرسخاً وأمير جدة تابع لأمير مكة تاج المعالي بن أبي الفتوح الذي هو أمير المدينة أيضاً".

---

(١) حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج ٢،ص ٣١٧.

(٢) محمد أحمد الرويثي: المرافئ الطبيعية على الساحل السعودي الغربي، مطبوعات دار الملك عبدالعزيز الرياض، ١٩٨٢م،ص ٢٤.

(٣) أحسن التقاسيم، مصدر سابق، ص ٧٩.

(٤) سفرنامة عن عطية القوصي: المرجع السابق، ص ٣٢١.

ووصفها ابن جبير[1] بأنها قرية على ساحل البحر فيها فنادق مبنية بالحجارة والطين وفي أعلاها بيوت كالغرف ولها سطوح يستراح فيها بالليل من أذى الحجر.

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٥٣.

٥- ميناء عدن*

إذا كانت القلزم هي مدخل البحر الأحمر من طرفه الشمالي فإن عدن هي مدخله الجنوبي فهي على ساحل البحر من ناحية اليمن ولهذا الموقع أثره في جعل عدن ميناءاً تجارياً مهماً منذ أقدم العصور فوصفت بأنها بلدة التجارة وفرضة اليمن المشهورة. (١)

كانت مراكب الهند ومصر والحجاز تمر بها منذ القدم للحط والإقلاع لذلك اعتبرت من أكبر محطات تبادل المتاجر والسلع بين الشرق ومصر بطريق البحر الأحمر وظلت فترة طويلة لا يتعداها تجار الصين والهند إلى البحر الأحمر بل تنقل سلعهم على السفن إلى جدة ثم القلزم أو بقية الموانئ الأخرى على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر وفيها تتجمع متاجر الشرق والغرب للتبادل فتنقل الأولى إلى مصر فأوربا والثانية إلى الهند والصين. (٢)

لذلك سميت "دهليز الصين"(٣) فقد نشطت التجارة بين عدن والهند بدرجة كبيرة فكانت سفن الهند وتجارها في ذهاب وإياب من وإلى عدن والهند وكذلك الحال بالنسبة لسفن أهل عدن وقد أسهمت السفن المصرية في التبادل التجاري بين عدن والهند فكانت ترحل إلى عدن لنقل غلات الهند وشرقي آسيا وتحمل منتجات الهند التي تباع بميناء عدن أو تصل إليه لأن عدن كانت بمثابة وسيط تجاري لتبادل السلع والمنتجات. (٤)

---

* قيل أن السبب في تسميتها عدن أن الحبشة عبرت في سفنهم إليها ثم خرجوا فقالوا (عدونه) يعنى خرجنا فسميت عدن وقيل مأخوذة من عدن بالمكان إذا أقام به وكان ملك عدن لبني معن بن زائدة ثم ملكها بني زياد ثم بني زريع ثم امتلكها الأيوبيون بقيادة توران شاه أخي صلاح الدين الأيوبي في سنة (٥٦٩هـ-١١٧٣م وحتى ٦٢٦هـ-١٢٢٨م) (القلقشندي ، المصدر السابق، ج ٥،ص ١٠-١١) وذكر الرازي أنها سُميت عدن نسبة إلى عدن بن سبأ بن يقشان (المصدر السابق، ص ٧٠).

(١) ياقوت: المصدر السابق، ج ٤،ص ٨٩.

(٢) سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص ٢٦٨.

(٣) المقدسي: المصدر السابق، ص ٨٥.

(٤) محمد كريم إبراهيم الشمري: المرجع السابق، ص ٢٠.

وعلاوة على سفن الهند والصين كانت ترسو بعدن سفن الحبشة والخليج العربي وشرق أفريقيا وإليها يسافر تجار هذه المناطق فهي بذلك تعتبر فرضة الهند والزنج والحبشة وعمان وكرمان وقيس وفارس. [١]

يظهر النشاط التجاري واضحاً في ميناء عدن من كثرة المراكب الواردة إليها حيث لا يخلو أسبوع من عدة سفن وتجار واردين عليها وبضائع شتى ومتاجر متنوعة وقد كان لحط هذه المراكب وإقلاعها مواسم مشهودة فإذا أراد أصحاب السفن السفر إلى جهة من الجهات أقام فيها علماً خاصاً يعلم التجار بسفره ويبقى أياماً حتى يسمع الناس فيتسارع التجار في نقل أمتعتهم وحولهم الباعة بالقماش السري والأسلحة النافعة ويخرج أهل عدن للتفرج هناك. [٢]

يبلغ عدد السفن التي ترسو في ميناء عدن في عهد بني أيوب باليمن (٥٦٩-٦٢٦هـ)(١١٧٣-١٢٢٨م) بين ٧٠-٨٠ سفينة قابلة للزيادة والنقصان في العام والمقصود بالعام هنا الموسم ويتضح من هذا العدد أن نشاط الميناء كان واسعاً إذ أن موسم التجارة يرتبط بظروف كثيرة منها الظروف الطبيعية مثل حركة الرياح خاصة الرياح الموسمية ويرتبط كذلك بظروف الاستقرار السياسي وتوفير الحماية اللازمة للسفن التجارية في البحر خلال رحلاتها من وإلى ميناء عدن ذهاباً وإياباً والقضاء على اللصوص والقراصنة الذين يهاجمون تلك السفن. [٣]

انعكست هذه الحركة التجارية على عدن بتوفر الأسواق فيها فقد عرفت فيها الأسواق المتخصصة بالبضائع والمواد المرتبطة بحاجة سكانها فهناك سوق يسمى سوق الخزف وسوق الصاغة وهناك الأسواق المتخصصة ذات المساس بالحياة الاقتصادية اليومية للسكان مثل أسواق الخضرة والجواري والرطب واللحم والدواب. [٤]

---

(١) ياقوت: المصدر السابق، ج ٤،ص ٨٩.

(٢) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٥،ص ١١.

(٣) محمد كريم الشمري: المرجع السابق، ص ٧٩.

(٤) المرجع نفسه ص ٧٩.

وتوافرت السلع المجلوبة من المناطق المختلفة من الهند وحتى أفريقيا فكان من أهم هذه السلع التوابل واللبان والجاوي وخشب السند وعود الند والراوند والمسك والملابس الصوفية والقطنية والحريرية والمعادن من حديد ونحاس وتواجد بها الزئبق والمرجان والسكر والأرز وغيرها من المنتجات التي يصعب حصرها. (١)

وبأسواقها الطيب الذي اشتهرت به عدن ولأهلها فيه صنعة ومهارة فائقة ويخرج طيبها إلى جميع المناطق. ويفخر بطيب عدن تجار البحر من العرب في الهند والسند وترتحل به تجار البر إلى فارس والروم(٢) ومن منتجاتها المحلية والتي زخرت بها أسواقها القنبار الذي يستخدم في عدة مجالات منها الأفرشة الخاصة بالبيوت وكذلك الحبال المفتولة والزجاج والنبيذ والآجر. (٣)

أدى نشاط المنطقة التجاري إلى ثراء أهلها وتقدم حياتهم المعيشية وارتفاعها فالمقيم في عدن يحتاج إلى كلفة في النفقات لارتفاع الأسعار بها في المآكل والشرب ولكن أهلها لا يبالون بهذه الكلفة لكثرة الأموال الزايدة عندهم(٤) وسُمع أنه هناك من الناس من دخلها بألف درهم فرجع بألف دينار ومنهم من دخلها بمائة فرجع بخمسمائة وهناك من دخلها بكندر وخرج منها بكافور. (٥)

ولأهمية التجارة في ميناء عدن أُتخذت وسائل عديدة لحمايتها خاصة في فترة بني أيوب فقاموا بمراقبة السفن القادمة إلى ميناء عدن وهو نظام بدائي يؤديه عدد من الحراس الذين كانوا يقفون في أعلى قمة جبل المنظر يراقبون السفن بعيونهم الحادة البصرة في أفق البحر. كما قاموا بنظام تفتيش السفن القادمة إلى الميناء ويكون التفتيش سارياً على الركاب القادمين على ظهر السفن وكذلك على البضائع

---

(١) نعيم زكي فهمي: المرجع السابق، ص ١٣٧.

(٢) سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص ٢٦٩.

(٣) محمد كريم الشمري: المرجع السابق، ص ٨٠.

(٤) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٥،ص ١٢.

(٥) المقدسي: المصدر السابق، ص ٩٧.

التـي تحملهـا وعنـد ذلـك يـتم تقريـر نسـبة الضـرائب أمـا وفـق كميتهـا أو وفـق نوعيتهـا وهذه الأمور يتولاها موظفون متخصصون في الميناء. [١]

وكان ملوك اليمن التابعة لهم عدن يظهرون التعسف مع سفن التجار أحياناً فلم يكتفوا بما يفرضوه من ضرائب عالية بل استعملوا معهم القسوة وصار من التقاليد المرعية عند وصول أحدى السفن إلى عدن أن يصعد إليها عمال الميناء وينزعوا قلاعها ودفتها ومرساتها حتى لا يمكنوها من الإبحار قبل أن تدفع الأموال والضرائب المستحقة أما التجار فكانوا يفتشون تفتيشاً دقيقاً. [٢]

ومما ساعد على حماية التجارة أن بالمدينة بابين يشكلان طريقين مهمين أحدهما إلى الساحل حيث تدخل منه البضائع وتفرغ وتدفع عليها الرسوم ثم تخرج إلى المدينة عن طريق باب آخر باتجاه اليد وليس لأهل البلد دخول ولا خروج إلا على هذين الثقبين أو من البحر. [٣]

أدى نشاط العمل التجاري في عدن وانفتاحها على التجارة العالمية إلى جذب أعدادٍ كبيرة من العرب القادمين إليها من أطراف اليمن والجزيرة العربية ومن الهنود وغيرهم من الجنسيات المتنوعة القادمة للتجارة وتطلب ذلك التزايد في السكان تقديم الخدمات الاجتماعية فبنوا المساجد والأسواق والدكاكين وحفروا الآبار. [٤]

استمر الميناء مزدهراً حتى القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) حيث عملت الدولة المملوكية على تحويل المركز التجاري من عدن إلى جدة لذلك نجدهم حذروا السفن التجارية من الرسو في عدن وحرموا على تجار مصر والشام دخول الميناء كما خفضوا الرسوم الجمركية في موانئ جدة وفرضوا رسوماً عالية على السفن التي يثبت أنها تمر بعدن أو ترسو بها فكانت الضريبة على السلع الواردة من الشرق لجدة ١٠% وضعفها إذا مرت بعدن أولاً بل إنهم كانوا يصادرونها

(١) محمد كريم الشمري: المرجع السابق، ص ١٣٦.

(٢) نعيم زكي فهمي: المرجع السابق، ص ١٣٧.

(٣) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٥،ص ١١.

(٤) محمد كريم الشمري: المرجع السابق، ص ٨٣.

أحياناً ولدى عودة الحجاج اليمنيين من مكة يدفعون ضرائب عالية على ما يحملونه من الحجاز وموانيه إلى اليمن وعدن. [١]

(١) نعيم زكي فهمي: المرجع السابق،ص ١٣٨.

ثانياً: موانئ التجارة على البحر الأبيض المتوسط:

يعتبر البحر الأبيض المتوسط أهم وأقدم مراكز النقل الاقتصادية والسياسية والإستراتيجية وربما كان أقدم مسطحات الماء التي عرفت الإنسان ملاحاً وشهدت تحركاته في خدمة التجارة الدولية ويكاد يحتل قمة عظمي بين كل المسطحات المائية من وجهة النظر الاقتصادية والسياسية والإستراتيجية. (١)

لعب البحر الأبيض دوراً هاماً في التجارة خاصة بعد سيطرة العرب عليه وعلى طريق التجارة الواصلة بين سوريا ومصر عن طريق "صقلية وكريت وقبرص"* كما زاد من أهمية الدور الذي قام به سكان شمال أفريقية كوسطاء في تجارة هذا البحر. وتحكم الأفريقيون في نقل التجارة بين الشرق والغرب وكانت سفنهم دائبة الحركة لجلب التوابل والمنتجات الفاخرة من بلاد الشرق الأدنى والأقصى إلى شمال أفريقيا وسائر بلاد العرب والإسلام في الغرب. وكان من يريد أن يصل من البحر الأبيض إلى الهند أو شرق آسيا مضطراً إلى حمل بضائعه على الظهر عند الفرما ثم يسير في الصحراء سبع مراحل حتى يصل القلزم وهناك يستطيع حملها في المراكب مرة أخرى فهذا أقرب طريق للوصول إلى المحيط الهندي. (٢)

ويتجلى الدور الذي قام به البحر الأبيض في موانيه المتعددة والتي كان من أهمها: ١- الإسكندرية. ٢- الفرما. ٣- المهدية. ٤- طرابلس. ٥- برقة.

---

(١) صابر محمد: المرجع السابق، ص ١٢.

* صقلية جزيرة على شكل مثلث متساوي الساقين زاويته الحادة من غربي الجزيرة طولها سبعة أيام في أربعة أيام (ابن حوقل، المصدر السابق، ص ١١٣) وهي قريبة من الأفرنجة حيث يرى منها أرض الفرنجة وبها من الخصب والسعة والزروع والمواشي ما يفضل على سائر ممالك الإسلام المتاخمة للبحر في شرقي الأندلس (الاصطخري: المصدر السابق، ص ٥١).

- كريت هي جزيرة أقريطش وهي جزيرة كبيرة في بحر المغرب بها مدن وقرى وقيل أنها فتحت في أول عهد المأمون (ياقوت: المصدر السابق، ج ١،ص ٢٣٦).

- قبرص جزيرة في بحر الروم وبأيديهم وهي مسيرة ستة عشر يوماً(المصدر نفسه، ج ٤،ص ٣٠٥.

(٢) هويدا عبدالعظيم رمضان: المرجع السابق، ص ٢١٦.

١ - الإسكندرية

الإسكندرية مدينة قديمة بناها الإسكندر * عند ما استقام ملكه في بلاده وسار يختار أرضاً صحيحة الهواء والتربة والماء فأتي موضعها وبناها(١) وفي عهد الإسلام افتتحها عمرو بن العاص في خلافة عمر بن الخطاب في سنة ثلاث وعشرين من الهجرة ووضع على أرضها الخراج وعلى أهلها الجزية. (٢)

تعتبر الإسكندرية من أهم الموانئ والقواعد البحرية لمصر المطلة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في قصبة نفيسة على بحر الروم**(٣) وقد ذُكر في تبرير اختيار الإسكندر لهذا الموقع بالذات أن هذا الميناء لا يتعرض للتيارات البحرية في شرق حوض البحر الأبيض المتوسط التي كانت تدفع المناطق النهرية التي يحملها النيل إلى مصبه نحو الشرق وهذه الرواسب كانت تهدد بسد الرواسب الواقعة على البحر شرقي الدلتا كما ذكر أن موقع الإسكندرية شبيهاً بميناء صور الحصينة وهذا الشبه استلفت نظرالإسكندر الذي كان ينشد تأسيس ميناء حصين يسطير من حيث موقعه الإستراتيجي على شرق البحر المتوسط ويتحكم في الطرق التجارية العالمية في آن واحد باعتباره مركزاً للتجارة يربط مصر بالعالم الإغريقي. (٤)

تزداد أهمية الإسكندرية في أن لها ميناءان يتسع كل منهما لعدد كبير من السفن فضلاً عن هدوء المياه فيها لوقوع جزيرة (فاروس) شمال الإسكندرية وكانت

---

* يُقال أن الإسكندر أصاب في موضع الإسكندرية أثر بنيان وعمد رخام منها عمود عظيم مكتوب بالقلم المسند "أنا شداد بن عاد شددت بساعدي الواد وقطعت عظيم العماد من الجبال الأطواد وبنيت إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد أردت أن أبني هنا مدينة وأنقل إليها كل ذي قدم من جميع العشائر والأمم"، وحشد الصناع واستجلب الرخام من صقلية فكانت الإسكندرية (البكري، المسالك والممالك، مصدر سابق، ص ٦٢٨-٦٢٩).

(١) المسعودي: المصدر السابق، ج ١،ص ٣٠٧، البكري، المصدر السابق، ص ٦٢٨.

(٢) البلاذري: المصدر السابق، ص ٣١٠، ياقوت: المصدر السابق، ج ١،ص ١٨٨.

** بحر الروم البحر: الأبيض المتوسط (المقريزي، المصدر السابق، ج١، ص ٣٤).

(٣) المقدسي: المصدر السابق، ص ١٩٧.

(٤) السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ط ١ دار المعارف، مصر ١٩٦١م، ص ٨-٩.

تلك الجزيرة تتصل بمدينة الإسكندرية منذ نشأتها بجسر ضخم أتاح لها مرفأ آمناً للسفن حين تعصف الأنواء بمياه البحر. (١)

ساعد موقع الإسكندرية على جعلها مركزاً رئيسياً للتجارة بين الشرق والغرب فكانت أهم مركز لتجارة البهار بالنسبة لدول أوربا ولذلك سمي أحد أبوابها وهو الباب الجنوبي بباب البهار وكانت البضائع تصل إليها ثم تنقل بالسفن في خليج الإسكندرية حتى تصل إلى النيل ومن الفسطاط إلى البحر الأحمر في طريق خليج أمير المؤمنين. (٢)

ولم يغفل الفاطميون أهمية موقع هذه المدينة على الساحل المصري لهذا البحر فاتخذوها قاعدة بحرية لأسطولهم ومراكبهم التجارية في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ومنذ ذلك الوقت عظمت الإسكندرية وأصبحت العاصمة الثانية لمصر وثغرها المنيع تفد إليه السفن التجارية القادمة من المغرب والأندلس وجزائر الافرنج وبلاد الروس والشام. (٣)

وكانت سفن المغرب تفد من ثغور المغرب إلى الإسكندرية حاملة المتاجر المغربية إليها فقد كانت تسير بحذاء الساحل الأفريقي وترسو بثغور هذا الشاطئ حتى تصل الإسكندرية ومنها تخرج إلى أنطاكية مارة بسواحل مصر كدمياط وتنيس وسواحل الشام. (٤)

نجد المدينة في نهاية العصور لا تقل اتساعاً وأهمية عن أكبر مدن العالم التجارية مثل البندقية وجنوة ومرسيليا وبها عدة أبواب يفتح أحدها على الميناء حيث يوجد به مرسى "البرج" للسفن الواردة من أوربا ومرسى "السلسة" للسفن الوافدة من شمال أفريقيا وتقل فيه رسوم الجمارك عن المرسى الأولى وإلى الشرق من

---

(١) صابر محمد: المرجع السابق، ص ١٨٧.

(٢) السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص ٥١.

(٣) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٣،ص ٤٠٤.

(٤) البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، ص ٨٦.

الإسكندرية "أبوقير" وهو مرفأ السفن السورية الواردة إلى الإسكندرية وتدخله السفن الصغيرة أما الكبيرة فتتصل به من البحر بالقوارب. (١)

وبحكم هذا الموقع المتميز على البحر أصبحت المدينة أهم محطات تجارة العالم وأكبر أسواقاً وأكثرها ازدحاماً وحركة في تجارة القمح والكتان والورق والزجاج وغير ذلك. كما يحمل إليها مقادير عظيمة من الذهب والعاج من بلاد النوبة وأثيوبيا وترد إليها التوابل والبهار والحرير والفضة والجواهر من بحار الصين والهند عبر البحر الأحمر حتى مدينة القلزم ومنها تنحدر إلى ترعة "تراجان" إلى مدينة "منف" على نهر النيل ومنها تنحدر بها السفن إلى ميناء الإسكندرية حيث كانت تصدر إلى جميع موانئ البحر الأبيض المتوسط. (٢)

كما ازدهر مركزها بما اشتهرت به من صناعة النسيج الذي لا يوجد له مثيل في أي بلد حيث كان ينسج بها القماش الفائق الذي ليس له نظير في الدنيا والذي يصدر إلى جميع أقطار الأرض ومنه ثياب "الشرب" وهو نوع من الكتان كانت الإسكندرية تبيع منه كل زنة درهم بدرهم فضة أما طراز الكتان فكان يباع بنظير وزنه مرات عديدة وكذلك يوجد بها الوشي وهو نوع من الثياب الرقيقة المنسوجة من الحرير بالإضافة إلى الأقمشة الحريرية. (٣)

كانت الإسكندرية من الوجهة العمرانية والمعمارية مدينة عامرة بالأسواق كثيرة الأسواق المبنية بالرخام وأرض الأسواق كذلك من رخام وكذلك الحيطان لذلك قل ما يتسخ فيها الثياب وجميع أسواقها حافلة بالبضائع الواردة من شتى البقاع(٤). كما كانت المدينة عامرة بآثارها العظيمة التي بهرت الفاتحين العرب كالمنارة* والمعابد والقصور والصهاريج والحمامات. (١)

---

(١) الوزان: المصدر السابق، ص ١٩٤-١٩٥، نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص ٣٠.

(٢) هويدا عبدالعظيم رمضان: المرجع السابق،ص ٢١٨.

(٣) القلقشندي المصدر السابق، ج ٣،ص ٤٠٤، هويدا عبدالعظيم رمضان، المرجع السابق، ص ١٧٨.

(٤) اليعقوبي: البلدان ، المصدر السابق، ص ١١٨.

* منارة الإسكندرية: بعضهم يقول بناها الإسكندر المقدوني والبعض الآخر يقول بنتها الملكة دلوكة وجعلتها مرقباً للأعداء (المسعودي، المصدر السابق، ج ١،ص ٣٧٥) بنيت المنارة على أربعة سراطين من زجاج

وبعد الإسلام أضيفت إلى عمارتها المساجد التي كانت تتخذ بالإضافة إلى وظيفتها مراكز للاجتماعات العلمية وقد أقيم بالإسكندرية في القرن الأول من الهجرة (السابع الميلاد) خمسة مساجد هي مسجد موسى عليه السلام عند المنار ومسجد سليمان عليه السلام عند القيسارية ومسجد ذي القرنين ومسجد الخضر ومسجد عمرو بن العاص الكبير الذي يعرف بمسجد "الرحمة".[٢]

وبعدها كثرت المساجد بالإسكندرية حتى أصبحت أكثر بلاد الله مساجداً فمنهم من يقول أنها اثني عشر ألف مسجداً ومن يقول ثمانية آلاف وبالجملة فهي كثيرة يكون منها الأربعة والخمسة في موضع وكلها مرتبة بأئمة مرتبين من قبل السلطان بخمسة دنانير مصرية أو أكثر[٣] وقد أُحصيت في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) فكانت عشرين ألف مسجد. [٤]

كما كثرت بالمدينة المدارس والخوانق والربط والزوايا والمنازل الجميلة والبساتين الأنيقة والمستنزهات الفائقة والقصور الدقيقة المحكمة البناء فكانت المدينة رائقة المنظر حسنة الترصيف مبنية بالحجر والكلس مبيضة البيوت ظاهراً وباطناً كأنها حمامة بيضاء ذات شوارع مشرعة كل خط قائم بذاته كأنها رقعة الشطرنج يستدير بها سوران مبنيان يدور عليهما من خارجها خندق في جوانب البلد المتصلة البحر بظاهرها من الجانب الغربي مما يلي الشمال إلى المشرق وبها أبراج حصينة عليها المنجانيق المنصوبة. [٥]

وطولها في الهواء ثلاثمائة درج في كل درجة كوة يطلع منها إلى البحر ويقال أن ارتفاعها في السماء ثلاثمائة ذراع بذراع الملك ويكون ذلك بذراع اليد أربعمائة وخمسين ذراعاً (اليعقوبي، المصدر السابق،ص ١١٨).

(١) السيد عبدالعزيز سالم، المرجع السابق، ص ٤٠.

(٢) المرجع نفسه ،ص ٤٩.

(٣) ابن جبير: المصدر السابق،ص ١٧.

(٤) القلقشندي، المصدر السابق، ج ٣،ص ٤٠٤.

(٥)القلقشندي، المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٠٣.

والإسكندرية تعجب كل من يراها لبهجتها وحسن منظرها وارتفاع مبانيها وإتقانها وسعة شوارعها وطرقاتها وهي برية بحرية وفيها من النعم والأرزاق والفواكه ما ليس ببلد مع طيب هوائها وتربتها. وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن "إرم ذات العماد" هي الإسكندرية. (١)

والدليل على عظم شأن الإسكندرية وكثرة ملوكها أن المطر إذ نزل فيها نزولاً شديداً وسال ترابها مع الماء خرج من فيها من الرجال والنساء والصبيان يلتمسون حواليها فيجدون قطع الذهب والفضة من الحلي والياقوت والزمرد وأنواع الجواهر ولا يرجع منهم أحد بغير شيء. (٢)

ويُذكر أن ابن سعيد حكي حكاية تدل على عظم الرخاء في الإسكندرية فيقول: "أن الآمر بأحكام الله قد قلد سلطان الملوك حيدرة أخا الوزير المأمون بن البطائحي ولاية ثغر الإسكندرية سنة ٥١٧هـ-١١٢٣م وأضاف له إليها الأعمال البحرية فلما وصل حيدرة إلى الثغر وصف له الطبيب دهن الشمع بحضرة القاضي مكين الدولة بن حدير فاحضره له في حُق محتوم ففك حيدرة عنه الحق فوجد فيه منديلاً لطيفاً مذهباً على مداف بلور فيه ثلاثة بيوت كل بيت عليه قبة ذهب مشبكة مرصعة بياقوت وجوهر بيت دهن ممسك وبيت دهن بكافور وبيت دهن بعنبر طيب وأقسم القاضي أن يهبه لحيدرة وذكروا أن قيمة هذا المداف بلغت نحو خمسمائة دينار ويتساءل صاحب الحكاية قائلاً: "أنظر رحمك الله تعالى إلى من يكون دهن الشمع عنده في إناء قيمته خمسمائة دينار ودهن الشمع لا يكاد أكثر الناس يحتاج إليه فماذا تكون ثيابه وحلي نسائه وفرش داره وغير ذلك من التجميلات".(٣)

تأثرت مدينة الإسكندرية بالحملات التي وجهت إلى مصر في أواخر العصر الخالص تأثيراً بالغاً إذ صارت في مواجهة عدائية مع دول أوربا مما ترتب عليه تقلص نشاط الحركة التجارية فيها حتى أصبح لا يرد إليها سوى البضائع القادمة من

---

(١) مجهول: المصدر السابق، ص ١٠٠.

(٢) المصدر نفسه ،ص ١٠١.

(٣) السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص ٦٠-٦١.

دول المشرق عن طريق البحر الأحمر ولكن هذا لم يدفع الخلفاء الفاطميين إلى غلق ميناء الإسكندرية هي وجه تجارة المغرب والدول الأوربية. [١]

ولما جاءت الدولة الأيوبية أدت سياسة التسامح التي أتبعها ملوك الدولة الأيوبية إلى اتجاه كثير من التجار بسفنهم إلى مصر ولم تلبث الإسكندرية أن شهدت نشاطاً تجارياً واسعاً نتيجة للامتيازات التي منحها سلاطين الأيوبيين لتجار المدن الإيطالية حتى وجد بميناء الإسكندرية في سنة ٥٨٣هـ-١١٨٨م سبع وثلاثون سفينة إيطالية تجارية. [٢]

لقد شارك الإسكندرية في الأهمية التجارية مدينتان هما:

أ- دمياط.

ب- تنيس.

أما دمياط فهي ميناء نهري تعتبر مخرجاً لتجارة مصر لمدن وموانئ الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وكريت وتركيا وقبرص كما يتصل بالقوافل البرية إلى موانئ البحر الأحمر. [٣]

ومما زاد من شهرة دمياط دار الصناعة التي أنشاها الفاطميون فكانت السفن الحربية والتجارية تخرج من دور الصناعة بالفسطاط والقاهرة ثم تبحر من مرسى دمياط إلى البحر الأبيض المتوسط[٤] وعلى المدينة حصن من الحجارة وأبواب كثيرة ورباطات كما لها موسم كل سنة يقصدها المرابطون من كل جانب. [٥]

وتبرز أهمية المدينة في أنها من أكبر مراكز النسيج إذ يُنسج بها الشرب الذي هو أجود في صناعته فيها عن تنيس ويُعمل بها طراز الكتان ومناشف الأبدان والأرجل يعمل بها الثوب الأبيض الدبيقي وثياب القصب الأبيض وكان الثوب

---

(١) صابر محمد: المرجع السابق، ص ١٩٠.

(٢) عبدالرحمن الرافعي وسعيد عبدالفتاح عاشور: مصر في العصور الوسطي، دار النهضة القاهرة، ١٩٧٠م، ص ٤٠٤.

(٣) نعيم زكي فهمي: المرجع السابق، ص ١٣٢.

(٤) صابر محمد: المرجع السابق، ص ١٩٢.

(٥) المقدسي: المصدر السابق،ص ٢٠٢.

الأبيض يبلغ ثمنه ثلاثمائة دينار وليس فيه ذهب وربما بلغ الثوب إذا كان مطرزاً بالذهب ألف دينار. [١]

زار هذه المدينة الرحالة المشهور المقدسي[٢] ووصفها بأنها "أطيب وأرحب وأوسع وأفسح وأكثر فواكه وأحسن بناء وأوسع ماء وأحذق صناعاً وأرفع بزاً وأنظف عملاً وأجود حمامات وأوثق جدران".

فقدت دمياط أهميتها البحرية في النصف الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) بعد أن هدم المماليك جزءاً من الميناء وردموا فم بحر دمياط حتى يأمنوا أي غزو أوربي منه لذا لم يعد في استطاعة السفن الأوربية الكبيرة الوصول إليها وأصبحت ترسو بالبحر قريباً من مصب فرع دمياط وتستخدم القوارب النيلية بينها وبين الميناء. [٣]

أما بالنسبة للمدينة الثانية وهي تنيس* فهي جزيرة على بحيرة في شمال الفرما وتتصل ببحر الروم وهي جزيرة قليلة العمق يُسار في أكثرها بالسفن الصغيرة وتلتقي السفينتان تحك إحداهما الأخرى هذه صاعدة وهذه نازلة بريح واحدة. [٤]

وبتنيس قنطرتان يسلك من تحتهما إلى ميناءين كل منهما باب مصفح بالحديد يمنع من يريد أن يدخله أو يخرج منه بغير إذن وهذا يدل على اهتمام القادة بتحصين المدينة حماية لقراهم ومراكبهم الحربية والتجارية كما أنهم جعلوا فوق كل مسجد من مساجدها ومنارة يرصدون منها سفن العدو. [٥]

---

(١) المقريزي: المصدر السابق، ج ٢،ص ٣٢٨، هويدا عبدالعظيم رمضان، المرجع السابق،ص ١٧٧.

(٢) أحسن التقاسيم، مصدر سابق، ص ٢٠٢.

(٣) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٣،ص ٤٠٤، نعيم زكي فهمي، المرجع السابق،ص ١٣٠.

* تِنِيس: بكسر التاء وكسر النون سميت بتنيس بن حام بن نوح ويُقال بناها قليمون من ولد أتريب أحد ملوك القبط في القديم ملكت بعده ابنته فدبرت الملك وساسته بقوة وماتت فقام بالملك من بعدها ابن أختها هذا (المقريزي، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢٦).

(٤) ابن حوقل: المصدر السابق،ص ١٤٦، الاصطخري، المصدر السابق،ص ٤١.

(٥) صابر محمد: المرجع السابق،ص ١٩٤-١٩٥.

تميزت المدينة بجانب النشاط التجاري بالنشاط الصناعي حيث يعمل بها الثياب والأردية الملونة[1] وهي من أكبر مراكز صناعة المنسوجات حيث يوجد بها خمسة آلاف منسج وكان ينسج بها عدة أنواع منها "البدنة" وهي اسم للنسيج الثمين المخصص للسلطان ينسج من الذهب ولا يدخل فيه من الذهب غير أوقيتين وقد أحكمه صانعه حتى لا يحتاج إلى تفصيل ولا خياطة وكان يصلح لكل ملك من ملوك مصر هذا الثوب في كل عام ويحمل إلى بغداد برسم الخلفاء وتباع كل بدنة منها بألف دينار[2]. ويصنع فيها الشرب الذي لا يصنع مثله في أي مكان آخر[3] كما يعمل بها طراز من الكتان بغير ذهب يباع كل طراز منها بمائة دينار ولا يبلغ ثمنه هذا إلا إذا كان مصنوعاً في تنيس أو دمياط. أما الحلل السندسية فإنه لا يوجد ما يشابه التي بتنيس في القيمة والحسن والنعمة والترف والرقة وربما بلغت الحلة من ثيابها مائتي دينار إذا كان فيها ذهب. [4]

كما يعمل فيها الرفيع وكان الحمل منه إلى العراق إلى ما بعد سنة ستين وثلاثمائة من الهجرة يبلغ عشرين ألف دينار وربما ثلاثين ألف دينار. [5]

ارتبط الازدهار التجاري والصناعي في مدينة تنيس بإقامة المنشآت التي تخدم الغرض التجاري والصناعي مثل الأسواق والفنادق للتجار القادمين فقد بلغ عدد هذه الفنادق سنة خمس وأربعمائة ستاً وخمسين فندقاً كما كان بها من عهد الحاكم بامر الله ٢٥٠٠ حانوتاً و ١٠٠ معصرة و ١٥٠ دكاناً تبيع البز والثياب و ١٦٠ طاحونة و ٥٠٠٠ منسج يبلغ عدد عمالها جميعاً عشرة آلاف عامل. [6]

---

(١) المقدسي: المرجع السابق، ص ٢٠١.

(٢) الحميري: المصدر السابق، ص ١٣٧، المقريزي: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢٨.

(٣) مجهول: المصدر السابق، ص ٨٧.

(٤) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ١٤٦.

(٥) المقريزي: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢٩.

(٦) صابر محمد: المصدر السابق، ص ١٩٤-١٩٥، هويدا عبدالعظيم رمضان، المرجع السابق، ص ١٩٩.

لنشاط المدينة الواسع أصبح أهلها أصحاب ثروة ويسار [١] ووصفت بأنها "بغداد الصغرى وجبل الذهب ومتجر الشرق والغرب وأسواق ظريفة وأسماك رخيصة وبلد مقصودة ونعم ظاهرة وساحل نزيه وجامع نفيس وقصور شاهقة ومدنية مفيدة".[٢]

---

(١) مجهول: المصدر السابق، ص ٨٧.

(٢) المقدسي: المصدر السابق، ص ٢٠١.

٢ - الفرما

الفرما* مدينة على ساحل بحر الروم من ناحية مصر بينها وبين البحر الأحمر المتصل ببحر الهند أربعة أيام(١) وقديماً كان منها طريق إلى جزيرة قبرص في البر فغلب عليه البحر وكان فيما غلب عليه البحر مقطع الرخام المجزع الأبيض. وأصبح بينها وبين البحر يوم ثم غلب البحر على ذلك كله وصارت على البحر وصار ما بين الفرما والقلزم هو الحاجز الذي بين بحر الروم وبحر الصين ولا يتقاربان في بقعة من الأرض تقاربهما في هذا الموضع. (٢)

والفرما واحدة من محطات تجار اليهود عبر الطريق البحري من غرب أوربا إلى المشرق حيث يبدأ هؤلاء التجار رحلاتهم التجارية من بروفانس وترسو سفنهم عند الفرما ثم يحملون تجارتهم على الدواب إلى القلزم ومن القلزم تنقل عبر البحر الأحمر مارة بموانيه الهامة مثل جدة ثم يمضون إلى السند والهند والصين.(٣)

أصبح لمدينة الفرما شأن عظيم في العصر الفاطمي لكونها مفتاح مصر من الشرق كما أنها كانت تشرف على الطريق من الصحراء الشرقية وتمتلك ناصية البحر فتبعد عنه بأكثر من ميل وأقل من ميلين ويجرى إليها فرع من النيل يؤدى إلى مصر السفلى كما كانت رأس الطريق إلى الجزيرة العربية. (٤)

وبحكم موقعها ذلك أصبحت المدينة عامرة آهلة بالسكان وممتلئة بالأسواق(٥) تنزل عليهم القوافل بالتجارات المختلفة ولكثرة اجتياز القوافل لهم كانت أكثر متاجرهم

---

* الفرما مدينة قديمة البناء ويذكر أن هاجر أم إسماعيل من قرية من قراها تسمى "أم العرب" (البكري، المسالك والممالك، مصدر سابق، ص ٦٢٤-٦٢٥) وبها أثار كثيرة تدل على أنها كانت دار مملكة ويقال أن الذي بناها هو الملك فرما (مجهول، المصدر السابق، ص ٨٩) والفرما هي السويس الحالية (محمد جمال الدين سرور، المرجع السابق، ص ١٤٩).

(١) ياقوت: المصدر السابق، ج ٤،ص ٢٥٦، المقدسي: المصدر السابق، ص ٢٥٥.

(٢) البكري: المصدر السابق، ص ٦٢٤.

(٣) ابن خرداذبة : المصدر السابق، ص ١٥٤.

(٤) صابر محمد: المرجع السابق،ص ١٩٧.

(٥) المقدسي: المصدر السابق، ص ١٩٥.

من العلف والشعير والتمر الذي يُجهز إلى كل بلد[١] فللفرما نحيل يتمر حيث ينقطع التمر والرطب من سائر البلدان ويبتدئ حين يأتي كانون فلا ينقطع أربعة أشهر حتى يجي البلح في الربيع ويكون في سبرها ما تزن قريباً من عشرين درهماً[٢]. وليس بها غير النخل زرع كما لا يوجد بها ماء ويشرب الناس من المطر الذي يخزن في الجباب ويخزنون مياه النيل حيث يحمل إليهم في المراكب من تنيس[٣]. ورغم ذلك فإن المدينة كانت عامرة منذ القدم بسبب تجارتها ويذكر أهل مصر أن ابن المدبر لما ولي خراج مصر وجه إلى الفرما لهدم أبواب من رخام في شرقي حصن المدينة احتاج إلى أن يعمل منها فرشاً في داره فمنعه من ذلك أهل الفرما وخرجوا إلى رسله بالسلاح وقالوا: هذه الأبواب التي ذكرها الله تعالى على لسان يعقوب:﴿ وَقَالَ يَـٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ ﴾[٤] فكف عن ذلك. [٥]

ظلت الفرما ميناءاً مهماً وفي رجب سنة خمس وأربعين وخمسمائة هجرية نزل الفرنج على الفرما في جمع كبير وأحرقوها ونهبوا أهلها وآخر أمرها أن الوزير شاور خربها لما خرج منها. [٦]

وجملة الأمر فإن كلاً من الإسكندرية والفرما قد كان لهما دوراً بارزاً في تجارة الشرق والغرب بطريق البحر الأبيض المتوسط وقد اهتم الفاطميون بتجديد وتدعيم تلك الموانئ لتؤدى دورها كاملاً في حوض البحر المتوسط تجارياً وحربياً لذلك نجدهم خصصوا جزءاً من إيرادات دولتهم للإنفاق على عمارتها فضلاً عن خراج الإقطاعات المحبوسة عليهما. [٧]

---

(١) ياقوت: المصدر السابق، ج ٤،ص ٢٥٥.

(٢) مجهول: المصدر السابق، ص ٨٩، البكري، المصدر السابق، ص ٦٢٥.

(٣) ياقوت: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٥٥.

(٤) سورة يوسف: الآية ٦٧.

(٥) مجهول: المصدر السابق، ص ٨٩.

(٦) المقريزي: المصدر السابق، ج١، ص ٣٢٩.

(٧) صابر محمد: المرجع السابق، ص ١٩٨.

٣ - المهدية

تعتبر المهدية من أكثر موانئ أفريقية ازدهاراً[١] تقع في نحر البحر الأبيض المتوسط بينها وبين القيروان ٦٠ ميلاً والبحر قد أحاط بها من جميع جهاتها إلا الجانب الغربي. [٢]

بني المدينة عبيدالله المهدي* وسبب بنائه لها قيام جماعة من كتامة عليه وما حاولوه من خلعه وقتل أهل القيروان لهؤلاء الجماعة فكان ابتداؤه بالنظر فيها سنة ثلاثمائة من الهجرة وكمل سورها في سنة خمسة وثلاثمائة من الهجرة وانتقل إليها بعد ثلاث سنوات[٣] ولما بناها أحاطها بأسوار عالية متينة وأبراج ضخمة وأبواب مصفحة بالحديد كما حصن الميناء بأسوار جيدة. [٤]

ومرسى المهدية من أوسع المراسي مساحة منعقد في حجر صلد يسع ثلاثين مركباً على طرف المرسى برجان بينهما سلسلة من حديد فإذا أريد إدخال سفينة فيه أرسل حراس البرجين أحد طرفي السلسلة حتى تدخل السفينة ثم مدوها كما كانت لئلا تطرقها مراكب الروم. [٥]

اجتمع لمدينة المهدية الموقع على البحر والقرب من القيروان فصارت من أهم الموانئ لسفن الإسكندرية التي تأتي محملة ببضائع آسيا. وكذلك سفن الشام وصقلية والأندلس. [٦]

---

(١) حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج ٣،ص ٣٣٦.

(٢) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٧٣، مجهول، المصدر السابق، ص ١١٧، المقدسي، المصدر السابق، ص ٢٢٩.

* عبيد الله المهدي: هو عبيدالله بن الحسن بن محمد بن على بن موسى بن محمد بن على بن أبي طالبؓ استقل بالأمر في سنة سبع وتسعين ومائتين كان جميلاً مهيباً عالماً بكل فن عارف بالسياسة والتدبير لما تم له الأمر باشر الأمور بنفسه وبعث العمال وجبي الأموال وفي أيامه أنقرضت الفواطم الإدارسة عن المغرب ولم تكن لهم قوة بعد ذلك، توفى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة هجرية (ابن أبي دينارالمصدر السابق، ص ٥٦).

(٣) المصدر نفسه والصفحة، البكري، المسالك والممالك، ص ٦٨٤.

(٤) الوزان: المصدر السابق، ج ٢،ص ٨٦.

(٥) البكري: المصدر السابق، ص ٦٨٣.

(٦) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج ٣،ص ٣٣٦.

والعكس لسفن المهدية التي كانت تبحر إلى تلك المناطق في حركة مستمرة لتبادل السلع فقد وصف لنا البكري[1] تفصيلياً طريق سلوك السفن من المهدية إلى الإسكندرية فمن مرسى المهدية "قبودية" وهي قصور إلى رأس الجسر وإلى الزرقاء الكبيرة والصغيرة وهما جزيرتان ثم إلى جزيرة قرضة ثم إلى رأس الرملة ثم إلى الجرف ثم إلى قصر الروم ثم إلى مدينة فأس ثم إلى جزيرة جرية ثم تخرج السفن إلى مرسى الأندلسيين.... وإلى سوسة وبرقة ومرسى السلوم وإلى رأس العوسج وإلى الكنائس وإلى الشقراء وإلى بوصير وإلى مبني الزجاج والأندلسيين ثم إلى منار الإسكندرية.

ونظراً لأن المدينة كانت كثيرة التجارات فقد أولى المهدي عناية كبيرة بالمنشآت التجارية حيث أقام بها الدكاكين ورتب فيها أرباب المهن وجعل لكل طبقة سوقاً خاصاً بها فنقلوا إليها أموالهم[2] وبني الأسواق من الصخر الجليل ولها بابان من حديد لا خشب فيهما زنة كل واحد منهما ١٠٠٠ قنطار وطوله ٣٠ شبراً وفيها صور الحيوان وهي من أعجب الأسواق التي عملت في الإسلام. [3]

ورغم أننا لا نجد تفصيلاً لعمارة المهدية إلا أن وصف الرحالة الذين زاروها في تلك الفترة تعطينا انطباعاً على أن المدينة كانت عامرة بمبانيها المختلفة وآهلة بالسكان فقد وصفها المقدسي[4] "بأنها خزانة القيروان ومطرح صقلية ومصر وعامرة وآهلة ومن أحب أن ينظر القسطنطينية فلينظر إليها..." وكذلك ابن حوقل[5] والذي زارها في النصف الأول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بعد نصف قرن من زيارة المقدسي لها يصفها بأنها "كثيرة التجارة وحسنة السور والعمارة لها سور من حجارة وله بابان ليس لهما فيما رأيته من الأرض شبيه ولا نظير وهي كثيرة القصور

---

(١) المسالك والممالك، مصدر سابق، ص ٧٦١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٨٣-٦٨٤.

(٣) مجهول: المصدر السابق، ص ١١٧-١١٨.

(٤) أحسن التقاسيم، مصدر سابق، ص ٢٢٩.

(٥) صورة الأرض، مصدر سابق، ص ٧٣.

نظيفة المنازل والدور حسنة الحمامات والخانات خصبة كثيرة الغلال طيبة الداخل نزهة الخارج بهية المنظر" وأيضاً مما يدل على أن المهدية كانت عامرة بالسكان كثرة الأرباض بها مثل ربض زويلة الذي كان أقرب أرباض المدينة إلى قصر المهدي وفيه الأسواق والحمامات وهناك ربض الحمي الذي أقام فيه أجناد أفريقية من العرب والبربر وهناك ربض يسمى قفصة وغيرها من أرباض المدينة المتعددة. (١)

٤ -طرابلس

تعتبر مدينة طرابلس من الموانئ الهامة على ساحل البحر الأبيض المتوسط افتتحها عمرو بن العاص* في خلافة عمر بن الخطاب وهي آخر ما افتتح في خلافة عمر من المغرب. (٢)

كانت طرابلس مركزاً تجارياً مميزاً حيث تحط السفن على مينائها ليلاً ونهاراً وترد بالتجارة على مر الأوقات والساعات من بلد الروم وأرض المغرب بضروب الأمتعة والمطاعم. (٣)

وكانت سفن البندقية ترسو بها وتقوم بتجارة كبيرة مع تجار طرابلس ومع الذين يفدون إليها كل سنة من أجل هذه السفن كما أن قرب المدينة من مالطة وصقلية وتونس دون أن توجد مدينة غيرها حتى الإسكندرية أعطاها طابعاً خاصاً في التجارة التي تعاطاها أهل طرابلس(٤) بكثرة فقد كان أهلها يسافرون براً وبحراً واشتهروا بالتجمل في اللبس وحسن المعاش فانعكس ذلك على سلوكهم فكانوا أحسن الناس معاملة وأصحاب مروءة وعُشرة فكانت المراكب إذا وردت الميناء عرضت لهم دائماً

---

(١) البكري: المسالك والممالك، مصدر سابق، ص ٦٨٣.

* يقال أن عمرو بن العاص لما افتتحها أصاب بها أحمالاً كثيرة من التجارة فباعها وقسم ثمنه بين المسلمين وكتب إلى عمر بن الخطاب: أنا قد بلغنا أطرابلس بينها وبين أفريقية ستة أيام فإن رأي أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فنهاه (ابن عبدالحكم، المصدر السابق، ص ١٧١).

(٢) البلاذري: المصدر السابق، ص ٣١٦، اليعقوبي، المصدر السابق، ص ٣٤٩، الحميري، المصدر السابق، ص ٣٨٩.

(٣) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٧٢.

(٤) الوزان: المصدر السابق، ج ٢،ص ٩٨.

الريح البحرية فيشتد الموج لانكشافه ويصعب الإرساء فيبادر أهل البلد بقواربهم ومراسهم متطوعين فيرسى المركب بالميناء في أسرع وقت من غير كلفة لأحد ولا جزاء. [١]

وبالمدينة أسواق متنوعة ومنسقة مفصولة بعضها عن بعض بحسب اختلاف الحرف لا سيما حرفة النساجين[٢] وقد امتلأت هذه الأسواق الأنية الفاخرة والفواكه الجيدة مثل الخوخ والكمثري وغيرها. [٣]

يبدو أن وضع المدينة تدهور في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ويتضح ذلك من وصف صاحب كتاب "وصف أفريقية" بقوله: "كان بهذه المدينة عدة جوامع وبعض المدارس والبيمارستانات لإيواء المساكين والغرباء ويأكل السكان طعاماً رديئاً وهو بازين الشعير والحبوب المستوردة للمدينة لا تكفى لإعالتها ولو يوماً واحداً ويعتبر الفلاح غنياً لو استطاع أن يدخر ستيه أو ستيتين من الحب لزاده".[٤]

٥ - برقة

تعتبر برقة من الموانئ التجارية المهمة على ساحل البحر الأبيض وهي مدينة محصنة عليها سور وأبواب حديد وخندق أمر ببناء السور المتوكل على الله.[٥]

كانت السفن بعد إقلاعها من الإسكندرية ترسو أول الأمر في ميناء برقة التي تكثر فيها السلع الشرقية والغربية خاصة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) [٦] وبالمدينة عدد كبير من التجار والغرباء لما فيها من التجارة فهم عابرين عليها مشرقين ومغربين فقد كانت تتفرد بتجارة القطران الذي لا يوجد نظيره والجلود المجلوبة للدباغ بمصر والتمور الواصلة إليها من جزيرة أوجلة ولها أسواق حادة تباع

---

(١) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٧٢.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج ٢،ص ٩٧.

(٣) ابن حوقل: المصدر السابق،ص ٧٢.

(٤) الوزان: المصدر السابق، ص ٩٨.

(٥) اليعقوبي: البلدان، ص ٣٤٣.

(٦) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ...، ج ٣،ص ٣٣٧.

فيها الصوف والفلفل والعسل والشمع والزيت وضروب المتاجر الصادرة من المشرق والواردة من المغرب وقد تميزت أسواق المدينة برخص الأسعار في الأغذية. [١]

ونفهم من كلام صاحب "صبح الأعشى" أن المدينة لم تكن كبيرة فهو يقول: أن برقة شبيهة بأطراف الشام في منابت أشجارها وكيفية أرضها وأنها لو عمرت بالسكان وتأهلت لكانت إقليماً كبيراً يقارب نصف الشام. [٢]

---

(١) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٦٩.

(٢) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٣،ص ٣٩١.

ثالثاً : موانئ التجارة على الخليج العربي* :

يتمتع الخليج بموقع جغرافي بالغ الأهمية جعله منذ أقدم العصور أهم رابط تجاري يصل بين حضارات العالم القديم في الصين والهند واليمن وعمان والبحرين وسومر وأكد وبابل وآشور وكنعان ومصر ولم يكن هناك طريق دولي يقارب طريق الخليج في الأهمية سوى طريق البحر الأحمر. (١)

بلغت أهمية الخليج قمتها في العصور الوسطي فهو إلى جانب كونه حلقة اتصال بين الشرق الأقصى (الهند والصين وجزر الهند الشرقية) وبين دول العالم الإسلامي حينذاك وهي العراق والشام وشبه الجزيرة العربية ومصر. كان كذلك حلقة اتصال غير مباشر بين الشرق الأقصى وشرق أفريقية وجزر البحر الأبيض المتوسط وبعض من جنوب أوربا. (٢)

وقد احتل الخليج مكانة مرموقة في الحياة الاقتصادية في الدولة العباسية التي اتجهت نحو الشرق وبعدت عن مركز الثقل التجاري الذي كان موجوداً في البحر المتوسط في عهد الأمويين وأصبح من الضروري أن ينتقل مركز الثقل التجاري إلى الخليج لقربه من حاضرة العباسيين في بغداد فنشطت الحركة التجارية نشاطاً فائقاً بين موانئ الخليج وبين الهند والصين على وجه الخصوص وأخذت السفن العربية

---

* هناك اختلاف في تسمية هذا الخليج فالعرب تسميه الخليج العربي ومن يسكن على الشاطئ الشرقي منه يسميه (الخليج العربي) والاسم الشائع في الغرب هو الخليج العربي وبغض النظر عن هذا فمن الواضح أن الخليج لا هو بالعربي المطلق ولا بالفارسي المطلق بل هو عربي وفارسي في القديم وفي العصر الإسلامي بالذات أطلقت عليه أسماء عديدة منها: البحر الحبشي، بحر الصين، بحر فارس، بحر الأبلة، بحر البصرة، بحر القطيف، الخليج العربي، الخليج العربي وغيرها من الأسماء ويقال إن أول من أطلق عليه اسم الخليج العربي هو "نياركوس" أحد قادة الإسكندر المقدوني في العقد الثالث من القرن الرابع قبل الميلاد وكذلك استعمل اسم (الخليج العربي) من قبل العرب دون حساسية ولكن الحساسية نشأت عندما أراد محمد رضا (بهلوي) الشاه السابق أن يستخدم الاسم أداة لادعاءات توسعية (عبدالله أبوعزة، الخليج العربي في العصر الإسلامي، مكتبة الفلاح، الكويت، ٢٠٠١م، ص ١١).

(١) المرجع نفسه،ص ٤٠.

(٢) أحمد عبدالحميد الشامي: المرجع السابق،ص ٧.

تكثـر وتزيـد حتـى أصـبحت التجـارة الإسـلامية مظهـراً مـن مظـاهر أبهـة العـرب والمسلمين. [١]

وقد أصبحت سفن التجارة القادمة من الشرق الأقصى ترسو في موانئ مدن الخليج وتفرغ حمولتها من التجارات وكانت تلك الموانئ والمدن تقوم بتوزيع ما يرد إليها على المدن الداخلية أو تحتفظ بجزء منه لتقوم سفن الخليج بتصديره مرة أخرى إما إلى حاضرة العالم الإسلامي بغداد أو إلى شرق القارة الأفريقية. [٢]

وعلى ذلك كانت موانئ الخليج العربي مراكز رئيسية للواردات التجارية من الشرق الأقصى وهي تقوم بتصدير هذه التجارات إلى البلدان المختلفة ومن أهم الموانئ التي قامت بدور كبير في تلك الفترة هي:

١- الأبلة "ميناء البصرة".

٢- سيراف.

٣- عمان.

١ - الأبلة

الأبلة هي مرفأ البصرة ومركز تجارتها البحرية تقع إلى الشمال من رأس الخليج العربي عند مصب دجلة والفرات بينها وبين البصرة عشرة أميال في بساتين متصلة ونخيل مظللة عن اليمين واليسار وقد شيدت الأبلة قبل البصرة. [٣]

ترجع أهمية الأبلة إلى أنها مخرج تجارة العراق إلى الخليج العربي كما أنها حاضرة ميناء البصرة وتقع عند ملتقي أهم طرق التجارة من إيران والعراق وبلاد العرب بل اعتبرت الأبلة في يوم ما ميناء العراق الرئيسي إلى الخليج العربي بسبب صعوبة الملاحة عند مصب الرافدين. [٤]

---

(١) نقولا زيادة: المرجع السابق، ص ٢٢٤.

(٢) أحمد عبدالحميد الشامي: المرجع السابق، ص ٧.

(٣) ابن بطوطة: المصدر السابق، ج ٢،ص ١٦٥، المقدسي، المصدر السابق، ص ١١٨.

(٤) نعيم زكي فهمي: المرجع السابق، ص ١٢٣.

كانت الرحلة إلى بحار الصين تبدأ من الأبلة في منطقة البصرة وتجتاز عبادان* بإرشاد الخشبات** وما إلى ذلك مستفيدة من المد وأوقاته وقد تحمل المتاجر في صغار السفن من البصرة إلى سيراف حيث توضع في السفن الكبار فإذا انحدرت السفن في الخليج كان علها أن تتجنب متلصصة البحرين وقطر ومسقط وحتى الهند لذلك فإن السفن في أغلب الأحيان تحمل النفاطين والمقاتلين.[1]

كان ميناء الأبلة مرصوفاً بالسفن بصورة مستمرة وقد صرفت مبالغ كثيرة لإنشاء أدراج صخرية على ضفاف نهر الأبلة ليمكن النزول إلى مستوى النهر الواطئ وقت الجزر تسهيلاً لشحن السفن بالبضائع[2] كما أنشئت به فنارات لهداية السفن ليلاً وهي الآتية من سيراف وعمان وكذلك أنشئت الوكالات والفنادق لخدمة التجار. [3]

بدأت الأبلة في التأخر وانكمشت في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) حيث تحولت التجارة بصفة عامة من موانئ الخليج العربي إلى البحر الأحمر ومصر. لتصير الأبلة نجعاً صغيراً ثم أقفرت تماماً بعد

---

* عبادان: في الضفة الغربية من نهر دجلة حيث تتسع دجلة هناك على وجه الأرض كثيراً (الحميري، المصدر السابق، ص ٤٠٧) وهي تقوم على جزيرة صغيرة ذات حصن صغير وأهلها يصنعون الحُصر (المقدسي، المرجع السابق،ص ١١٨) وواضح أن عبادان كانت في وقت من الأوقات مقراً للقرصان ومتلصصة البحر ثم أصبحت مقراً لحامية تدفع أذاهم عن المسافرين(ابن حوقل، المصدر السابق،ص ٤٥).

** يوجد في الأبلة بحر رقيق يسمى بالجرارة وهي دخلة من البحر بقرب الأبلة واتخذت لهذه الجرارة الخشبات في البحر مما يلي الأبلة وعبادان عليها أناس يوقدون النار بالليل على خشبات ثلاث كالكراسي في جوف الليل خوفاً على المراكب الواردة من عمان وسيراف (المسعودي، المصدر السابق، ج ١،ص ١٠٦، ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٤٥).

(١) نقولا زيادة: المرجع السابق،ص ٢٢٧.

(٢) عبدالعزيز الدوري: المرجع السابق،ص ١٥٨.

(٣) نعيم زكي فهمي: المرجع السابق، ص ٢٣.

تحول التجارة إلى رأس الرجاء الصالح في مطلع القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي). [١]

والذي نراه أن الأبلة بدأت في التأخر قبل ذلك التاريخ وذلك لأن الرحالة ابن بطوطة[٢] والذي زارها في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي يذكر أنها "قرية بها آثار قصور" وقد كانت قبل ذلك واسعة العمارة متصلة بالبساتين عامرة بالناس المياسير الذين يعيشون في أخصب العيش ورفاهيته. [٣]

٢ – سيراف

تقع سيراف على ساحل بحر فارس كانت قديماً فرضة الهند وقيل كانت قصبة أردشير وهي من أعمال فارس والتجار يسمونها شيلا[٤] وهي فرضة فارس يتجهز التجار منها إلى عدن وعمان وديبل والصين. [٥]

ظلت سيراف حتى أواخر العصور الوسطي من أكبر أسواق الخليج العربي لقربها من أسواق البلاد العربية فتركزت فيها السلع العربية أكثر من أي مركز تجاري آخر على الخليج العربي وتصلها سفن التجارة من الصين والهند واليمن ومسقط كما يصلها تجار شرق البحر الأبيض المتوسط والعراق لذا كانت مركزاً لتبادل السلع الشرقية والغربية. [٦]

كانت البضائع تنقل في سفن صغيرة من البصرة وغيرها من مدن الخليج العربي إلى سيراف حيث تنقل السفن الكبيرة إلى الصين وكانت أهم الصادرات التي توصل من سيراف إلى الشرق الأقصى المنسوجات على اختلاف أنواعها والسجاجيد وخام الحديد وسبائك الذهب والفضة. [٧]

---

(١) نعيم زكي فهمي: المرجع السابق ص ١٢٣.

(٢) تحفة الأنظار : المصدر السابق ، ج ٢،ص ١٦٥.

(٣) ابن العراق: المصدر السابق، ص ٧٧.

(٤) ياقوت: المصدر السابق، ج ٣،ص ٢٩٤.

(٥) الحميري: المصدر السابق،ص ٣٣٣.

(٦) نعيم زكي فهمي: المرجع السابق،ص ١٢١.

(٧) محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص ١٥٢.

ويعود السبب في شهرة سيراف وازدهارها إلى تجارتها البرية التي بلغت مبلغاً جعل منها منافساً للبصرة في الغنى والثروة[1] ويعود أيضاً إلى صعوبة الملاحة عبر مصب دجلة والفرات حيث اتجهت لذلك السبب السفن إلى سيراف بدلاً من مدخل النهرين. [2]

على الرغم من أن ميناء سيراف لا يخلو من المخاطر فالمراكب إذا قدمت إليه كانت في خطر إلى أن تقرب منها إلى نحو من فرسخين من موضع يسمى "قابر" وهو خليج بين جبلين وميناء جيد إذا وصلته المراكب أمنت من جميع أنواع الرياح. [3]

ولارتباط المدينة بالبحر اشتهر أهلها بالسير فيه حتى ربما غاب أحدهم عمره كله في البحر وقد حكُي أن رجلاً من سيراف ألف البحر حتى أنه لم يخرج من السفينة نحواً من أربعين سنة وكان إذا قارب البحر أخرج صاحبه لقضاء حوائجه وفي كل مدينة يتحول من سفينة إلى أخرى. [4]

كما عرف عن أهل سيراف أنهم أغنى تجار فارس كلها ويقيمون في مساكن عالية تتكون من عدة طبقات مبنية من خشب الساج المستورد من الهند وغيره من الأخشاب المجلوبة من شرق أفريقية ويبالغون في نفقات الأبنية حتى أن الرجل من التجار لينفق على داره زيادة عن ثلاثين ألف دينار وليس عليها بساتين وأشجار.[5]

وهناك نموذج لغنى تجار سيراف يتمثل في شخصية تاجر اسمه ابن عمر السيرافي اعتل بعلة خيف عليه منها فأوصى بثلث ماله فكانت وصيته تسعمائة ألف دينار بين مركب قائم بنفسه وآلته في يد وكيل معلوم. [6]

---

(١)محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص ١٥٢.

(٢) نعيم زكي فهمي: المرجع السابق، ص ١٢١.

(٣) ياقوت: المصدر السابق، ج ٣،ص ٢٩٤.

(٤) الاصطخري: المصدر السابق، ص ٨٣-٨٤، ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٢٥٥، الحميري، المصدر السابق، ص ٣٣٣.

(٥) المقدسي: المصدر السابق،ص ٤٢٧، الاصطخري، المصدر السابق،ص ٧٨.

(٦) ابن حوقل: المصدر السابق،ص ٢٥٥.

وملابس تجار سيراف مع هذا الغنى بسيطة إلى درجة تبعث العجب فإن الإنسان ليجد فيهم من يملك الأربعة آلاف دينار ومع ذلك لا يتميز عنهم في ملبسه. (١)

ظلت المدينة من أغنى بلاد فارس مع أنه ليس بها مأكول ولا مشروب ولا ملبوس إلا ما يحمل إليها من البلدان وليس بها زرع ولا ضرع حتى استولى عليها أمير قيس* وحول عنها التجارة فصارت قيس فرضة الهند وإليها منقلب التجارة(٢) فأخذت في الانهيار تماماً في أواخر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) وانصرف عنها أهلها إلى محطات أخرى. (٣)

كان من أثر المركز العظيم الذي تمتعت به مدينة سيراف أن اللغة الفارسية أصبحت أكبر لسان يتكلم به تجار المسلمين الذين يقصدون الهند وشرق آسيا ولا تزال اللغة العربية إلى اليوم تشتمل على كثير من الاصطلاحات البحرية الفارسية مثل "ديدبان" وهو الحارس "وربان" وهو قائد السفينة وكان الرجل الذي يبلغ أوامر الربان الملاحين بصوته يسمى المنادٍ وهو لفظ شائع عند الناطقين بالعربية. (٤)

٣- عمان

عمان هي قاعدة الخليج تقع على مداخلة من الجهة الجنوبية على الشاطئ الغربي وفي الوقت نفسه تطل على المحيط الهندي أي أنها تقع على الطريق الرئيس

---

(١) الاصطخري: المصدر السابق،ص ٨٣.

* قيس: وهو تعريب كيش جزيرة في وسط البحر من أعمال فارس لأن أهلها فرس وتعد في أعمال عمان وهي مرفأ مراكب الهند وفارس فيها أسواق وخيرات ولملكها هيبة وقدر عند ملوك الهند لكثرة مراكبه وعنده الخيول العراب الكثيرة والنعمة الظاهرة وفي هذه الجزيرة مغاص على اللؤلؤ(ياقوت، المصدر السابق، ج ٤،ص ٤٢٢،ص ٤٩٧).

(٢) المصدر نفسه، ج ٣،ص ٢٩٤.

(٣) نعيم زكي فهمي: المرجع السابق،ص ١٢١.

(٤) آدم متز: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٣٤.

للتجارة الرائجة الممتدة من الصين إلى المدن الواقعة على جانب الخليج بها مرسى السفن الآتية من الصين والهند والزنج وليس على بحر الخليج مدينة أجل منها[١] .

وهي أحد المراكز الرئيسية التي تمر بها التجارة بين شرق أفريقيا والصين والخليج العربي إلى العراق أو العكس ، فقد كانت الرحلة إلى بحار الصين أو إلى شرق أفريقيا تبدأ من الأبلة في منطقة البصرة وللسفن أن تختار في سيرها إلى الصين واحداً من الطريقين أما أن تعرج على عمان (صحار ومسقط) حيث تحمل البضائع وتتزود بالماء والمؤن ثم تقصد (كولام) في مالابار ، أما الطريق الآخر فكان السير فيه محاذياً لشواطئ فارس ثم شواطئ السند[٢] .

وقصبة هذه المدينة (صحار) على البحر وهي "مدينة عامرة بالتجارة والتجار وتعتبر أعمر مدينة بعمان وأكثرها مالاً (بها أسواق عجيبة .. ودورهم من الآجر والساج شاهقة ونفيسة ... فهي دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن"[٣] .

ومن مدنها أيضاً مسقط وهي تبعد عن عمان خمسين فرسخاً ومنها يستقي أرباب المراكب الماء من آبار عذبة فهي محطة من محطات التجارة لذلك ازدهرت وكثرت أموالها[٤] .

زار عمان الرحالة ابن بطوطة[٥] ووصفها بأنها خصبة ذات أنهار ، وأشجار وبساتين وحدائق ونخل وفاكهة ومن مزروعاتها الكثيرة شجر (الكُندُر) وهو شجر اللبان ذو الورق الرقيق الذي يشق فيقطر منه سائل أبيض وهو اللبان وقد وجده بكثرة في المرسي، وقد وصف ابن بطوطة بيوتهم ومساجدهم.

---

(١) القلقسندي : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٥٥.

(٢) المسعودي : ج١، ص ١٤٠ ، نقولا زيادة ، المرجع السابق ص ٢٢٧.

(٣) المقدسي المصدر السابق ص ٩٢.

(٤) المسعودي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٤٩.

(٥) تحفة الأنظار في غرائب الأمصار ، المصدر السابق ج ١ ، ص ١٣٨ .

المبحث الثالث

المكوس التجارية

المكوس مفرد مكس وأصل المكس هو الجباية مكس في البيع يمكس ومكس ومماكسة ومكاساً والماكس هو العشار الذي يُقال له صاحب المكس والمكس هو انتقاص الثمن في البياعة ومكس درهم أي نقص درهم قال الشاعر قديماً:

أفــي كــل أســواق العــراق أتــاوة * وفـي كل مـا بـاع امرؤ مكس درهم

ألا ينتهــي رجــال عنــا وتُتقــي * محارمنــا لا يــدرأ الــدم بالــدم[1]

والمكس هو ما يأخذه أعوان الدولة عن أشياء معينة عند بيعها أو عند إدخالها المدن[2] ويقال أن قوم شعيب عليه السلام كانوا مكاسين لا يدعون شيئاً إلا مكسوه ومنه قيل للمكس "النجس".[3]

وهذه المكوس تعتبر ضرائب غير مشروعة قال صاحب "الأموال" حدثنا يزيد بن هارون بن عامر عن محمد بن إسحق عن يزيد بن أبي حبيب عن عبدالرحمن بن إسحق التجيبي عن عقبة بن عامر أنه سمع رسول اللهﷺ يقول: "لا يدخل الجنة صاحب مكس" كما أن هناك حديث عن عطاء بن السائب عن حرب ابن عبيد الله الثقفي عن جده أبي أمه أن رسول اللهﷺ قال: "ليس على المسلمين عشور وإنما العشور على اليهود والنصارى".[4]

هذه الأحاديث التي تنهي عن العشر كراهته توضح أنه كان لذلك الفعل أصل في الجاهلية عند ملوك العرب والعجم فقد كانت سنتهم أن يأخذوا من التجار عشر

---

(١) الجوهري: (إسماعيل بن حماد) مختار الصحاح، ج ٣، تحقيق أمين بديع يعقوب، محمد نبيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م، ص ٦٠.

(٢) أبوعبيد القاسم: الأموال، مؤسسة ناصر ، بيروت، ١٩٨١م، ص ٢١١.

(٣) المقريزي: المصدر السابق، ص ١١٨.

(٤) أبوعبيد القاسم: المصدر السابق، ص ٢١١.

أموالهم فأبطله الإسلام وجاءت فريضة الزكاة في التجارة والأموال بربع العشر من كل مائتي درهم. (١)

وفي ذلك يقول صاحب "الخراج": إنما السنة في المائتي درهم أو عشرين مثقالاً فعلى المسلم في المائتين خمسة دراهم وعلى الذمي في المائتين عشرة دراهم وعلى ذلك التنظيم الدقيق يجب أن تولى العشور لأهل الصلاح والدين كي لا يتعدوا على الناس ولا يظلمونهم ولا يأخذوا منهم أكثر مما يجب عليهم. (٢)

قال أبويوسف "صاحب الإمام أبي حنيفة" سمعت زياد بن جرير قال: أول من بعث عمر بن الخطابﷺ منا على العشور أنا فأمرني أن لا أفتش أحداً وما مر عليَّ من شيء آخذ من حساب أربعين درهماً درهماً من المسلمين وأخذت من أهل الذمة من عشرين واحداً ومن لا ذمة له العشر وأمرني أن أغلظ على نصارى بني تغلب". (٣)

وورد عن زريق بن حبان وكان على مكس مصر أن عمر بن عبدالعزيز كتب إليه أن من مرّ عليك من المسلمين فخذ مما ظهر من أموالهم وما ظهر لك من التجارات من كل أربعين ديناراً ديناراً فما نقص فبحسابه حتى تبلغ عشرين ديناراً وإذا مرّ عليك أهل الذمة فخذ من كل عشرين ديناراً ديناراً فما نقص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرة دنانير ثم دعها لا تأخذ منها شيئاً وأكتب لهم كتاباً بما تأخذ إلى مثلها من الحول. (٤)

من السابق يتضح أن فقهاء المسلمين يعتبرون كل ما زاد عن الضرائب الشرعية ضرائب غير قانونية وهي ضرائب جديدة نشأت لحاجة الدولة إليها ويعلل ابن خلدون(٥) "ذلك بأن الدولة عندما تكون في أولها تكون قليلة الحاجات لبداوتها

---

(١)أبوعبيد القاسم: المصدر السابق ، ص ٢١٢.

(٢) أبويوسف: يعقوب بن إبراهيم صاحب الإمام أبي حنيفة، الخراج مطبعة التقدم اعتماداً على نسخة مخطوطة في الخزانة التيمورية رقم ٦٧٤ مع معارضتها بطبعة بولاق، ١٣٠٢هـ، ص ١٤٣-١٤٤.

(٣) المصدر نفسه،ص ١٤٤.

(٤) المقريزي: المصدر السابق، ج ٣،ص ٢٢٠.

(٥) المقدمة، المصدر السابق، ص١٥٥.

وعندما تأخذ بأسباب الحضارة والترف لا تفني جباياتها بذلك فتحتاج إلى الزيادة في الجباية "فتثقل الجباية وتكثر العوائد ويكثر بكثرتها أرزاق الجند وعطاؤهم فيستحدث صاحب الدولة أنواعاً من الجباية يضربها على البياعات ويفرض لها قدراً معلوماً على الأثمان في الأسواق وعلى أعيان السلع في أموال المدينة وهو مع ذلك مضطر لذلك ما دعاه إليه ترف الناس من كثرة العطاء مع زيادة الجيوش والحامية وربما يزيد ذلك في أواخر الدولة زيادة بالغة فتكسد الأسواق لفساد الآمال".

وفي بلاد العراق كانت الضرائب تُجبي على البضائع المنقولة من منطقة إلى أخرى براً وبحراً وقد كانت الضرائب ثقيلة وقد شكا المقدسي منها قائلاً: "وأما الضرائب فثقيلة كثيرة محدثة في البر والنهر وفي البصرة تفتيش صعب وشوكات منكرة وكذلك بالبطائح تقوم الأمتعة وتفتيش وأما القرامطة فلهم ديوان على باب البصرة وللديلم ديوان آخر حتى أنه يؤخذ على الغنمة الواحدة أربعة دراهم ولا يفتح إلا ساعة من نهار وإذا رجع الحاج مكسُوا أحمال الأدم والجمال إلا الأغربية وكذلك بالكوفة وبغداد ويؤخذ من الحاج للحمل ستون ومن الكنيسة أو حمل البر مائة ومن العمارية خمسون ومائة وبالبصرة والكوفة"[(١)] وكان يؤخذ من كل حمل دخل حي اليهودية بمدينة اصفهان ثلاثون درهماً[(٢)] وكان في طوران يؤخذ عن الحمل ستة دراهم إذا دخل وكذلك إذا خرج ومن الرقيق اثنا عشر إذا دخل وإن كان من نحو الهند فعشرون من الحمل وإن كان من قبل السند فعلى حسب الغِنم.[(٣)]

وقد أنشئت دور خاصة للمكوس في أماكن مختلفة خاصة على ضفاف الأنهار وفي الطريق من بغداد إلى البصرة وبين واسط والبصرة شرقي دجلة "يوجد أصحاب المآصر * من قبل السلطان والمأصُر أن تشدُ سفينتان من أحد جانبي دجلة وسفينتان

---

(١) المقدسي: المصدر السابق، ص ١٣٣-١٣٤.

(٢) المصدر نفسه،ص ٤٠٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٨٥.

* المآصر: جمع مأصر أصره أصراً معناها حبسه والموضع مأصر والإصر والأيصر حبل قصير يشد في أسفل الخباء إلى وتد" (الجوهري، المصدر السابق، ج ٢،ص ٢١١).

من الجانب الآخر وتشد السفن على شطين ثم تؤخذ قلوس على عرض دجلة وتشد رأسها إلى السفن لئلا تجوز السفن ليلاً".(١)

وكان أول من وضع المآصر ببغداد هو ابن رائق (٣٢٤-٣٢٦هـ)(٩٣٥-٩٣٧م) ولم تعرف بغداد ذلك من قبله. (٢)

كما كانت المكوس في بغداد تفرض على البضائع التي يأخذها الحجاج أو يأتون بها وقد افتخر عزا الدولة في كتاب أرسله إلى حاجبه سنة ٣٦٣-٩٧٣م بأنه أحسن إلى أهل بغداد إذ يقول: "ورفعنا عنهم ما كان يؤخذ منهم لك ولنظرائك من ضرائب الغنم المجلوبة والأمتعة التي يأخذها الحجيج صادرة وواردة".(٣)

ويبدو أن هذه المكوس الثقيلة كانت موضع احتجاج فعندما همّ صمام الدولة سنة ٣٧٥هـ -٩٨٥م أن يجعل على الثياب الإبر سيميات والقطنيات التي تنسج ببغداد ونواحيها ضريبة اجتمع الناس في جامع المنصور وعزموا على المنع من صلاة الجمعة وكاد البلد يفتتن فأعفوا من ذلك الرسم. (٤)

كما كانت هناك ضرائب فيما وراء النهر فقد كان الرقيق لا يعبر نهر جيجون إلا بجواز من السلطان ويأخذ السلطان مع الجواز من سبعين إلى مائة درهم. وكذلك يؤخذ على الجواري بدون جواز إذا كانوا أتراكاً حيث يؤخذ على المرأة عشرون إلى ثلاثين درهماً وعلى الجمل درهمان وعلى قماش الراكب درهم. (٥)

أما في مصر فإن رواج التجارة العالمية العابرة بها وكثرة مراكزها التجارية على البحرين الأحمر والأبيض معناه ارتفاع حصيلة الجباية والمكوس وليس أدل على ذلك من قول "صاحب الإنشا": وقد عمت البلوى بهذه المكوس وزادت عن الحدود ودخلت الشبهة في أموال الكثير من الناس بسببها. (٦)

---

(١) ابن رستة: المصدر السابق، مج ٧،ص ١٨٤-١٨٥.

(٢) مسكوية: (علي بن أحمد) تجارب الأمم، ج ١، مطبعة التمدن، القاهرة ١٩١٤م، ص ٣٨٣.

(٣) عبدالعزيز الدوري: المرجع السابق، ص ٢٤٤.

(٤) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ١٤، ص ٣١١.

(٥) المقدسي: المصدر السابق، ص ٣٤٠.

(٦) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٣،ص ٤٦٦.

وأول من استحدث مالاً سوى مال الخراج هو أحمد بن محمد بن المدبر لما ولى خراج مصر وقد وُصفت هذه الشخصية وسُمى "شياطين الكتاب" حيث ابتدع بدعاً صارت مستمرة من بعده. (١)

وقد نظمت الخلافة الفاطمية الضرائب على الإنتاج من الوارد والصادر وقد اتخذت أسماء عديدة فقد أطلقت المكوس على البضائع الواردة إلى المدن والعشر على بضائع الأجانب والخمس على بضائع المسلمين وقد كانت هذه الضرائب تأتي بحصيلة وافرة من المال إذ كانت تفرض على كل شيء ما عدا الهواء الذي أطلق سراحه. (٢)

وكانت الدولة تتقاضى من تجار الروم والفرنج الواردين على الثغور خمس ثمن السلع وقد كانت نسبة الرسوم متفاوتة ويرجع ذلك إلى اختلاف أنواع السلع وقيمتها لذلك ربما يزيد الذي يؤخذ منهم على الخمس وربما يتساوى منهم العشر إلا أنه لما كان الخمس أكثر كانت النسبة إليه أشهر ولهذه الضرائب أوضاع معروفة في الدواوين. (٣)

وأخذ من تجار المسلمين الذين يأتون بتجارة الشرق والغرب أقل مما يؤديه تجار المسيحيين كما لم يكن التجار الأوربيون يعاملون معاملة واحدة فكانت الرسوم الجمركية تخفض على واردات دور الصناعة من الحديد والخشب بسبب حاجة الدولة إليها. (٤)

وصف لنا الرحالة الذين زاروا مصر الضرائب في المراكز التجارية وكيفية جمعها وصفاً دقيقاً ومن ذلك وصف المقدسي الذي يقول(٥): "أما الضرائب فثقيلة جداً بخاصة لتنيس ودمياط وعلى ساحل النيل وأما الثياب الشطوية فلا يمكن القبطي

---

(١) المقريزي: المصدر السابق، ج ٢،ص ١٩٤.

(٢) عبدالمنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، المرجع السابق، ص ٢٩٥.

(٣) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٣،ص ٤٦.

(٤) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي ...، ج ٤،ص ٣٩٢.

(٥) أحسن التقاسيم، المصدر السابق، ص ٢١٣.

أن ينسج منها شيئاً إلا بعد ما يختم عليها بختم السلطان ولا تباع إلا على يد سماسرة عقدت عليهم وصاحب السلطان يثبت ما يُباع في جريدته ثم تحمل إلى من يطويها ثم إلى من يشدها في السفط وإلى من يحزمها وكل واحد منهم له رسم يأخذه ثم على باب الفرضة يؤخذ أيضاً شيء وكل واحد يكتب على السفط علامته ثم تفتش المراكب عند إقلاعها... ثم على النيل بالفسطاط ضرائب ثقال رأيت بساحل تنيس ضرائبياً جالساً وقيل قبالة هذا الموضع في كل يوم ألف دينار ومثله عدة على ساحل بالبحر بالصعيد وساحل الإسكندرية أيضاً على مراكب الغرب وبالفرما على مراكب الشام ويؤخذ بالقلزم من كل حمل درهم".

كما وصف صاحب "الرحلة" في سنة ٥٧٨هـ-١١٨٢م الطريقة المخزية التي تجبي بها الضرائب في الإسكندرية قائلاً: "فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان لتقييد جميع ما جلب فيه فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً وكُتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناضّ ليؤدى زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو لم يحل وكان أكثرهم مشخصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم. فألزموا أداء زكاة ذلك دون أن يسأل هل حال عليه الحول أم لا. واستنزل أحمد بن حسان منا ليسأل عن أبناء المغرب فطبق به مرقباً على السلطان أولاً ثم على القاضي ثم على أهل الديوان ثم على جماعة من حاشية السلطان وفي كل ذلك يستفهم ثم يقيد قوله فخلى سبيله... فوقع التفتيش لجميع الأسباب ما دقّ منها وما جل واختلط بعضهم ببعض وأُدخلت الأيدي إلى أوساطهم بحثاً عما عسى أن يكون فيها ثم استحلفوه بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا وفي أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدي وتكاثر الزحام ثم أطلقوا بعد موقف من الذل والخزى عظيم...". [١]

---

(١) ابن جبير: المصدر السابق، ص ٢٠٩.

ظلت هذه المكوس في مصر ثقيلة وقاسية في جمعها حتى جاء صلاح الدين يوسف بن أيوب وأسقطها ومحا آثارها في كل من مصر والقاهرة[١] وكانت جملة هذه المكوس في كل سنة مائة ألف دينار ومن بين ذلك مكس البهار الذي كانت عمالته ثلاثة وثلاثون ألفاً ومكس البضائع والقوافل تسعة آلاف وثلاثمائة وخمسون ديناراً ومكس البز والمرجان والنحاس خمسة آلاف ومائة وثلاثون وتسعون ديناراً وما إلى ذلك من المكوس العديدة. [٢]

أما بلاد الشام فقد عرفت المكوس منذ زمن بعيد فقد اكتشف أمير روسي في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) كتابة رسمية كتبت بالتدمرية واليونانية ترجع إلى سنة ١٣٧م فهمت منها أحوال التجارة وفيها بيان ما يضرب من المكوس على البضائع والمعاملات التجارية إجمالاً وإفراداً وهي باهظة فكان حمل جمل أو حمار يرد أو يصدر تضرب عليه أولاً ثلاثة دنانير رومانية ثم أفريقية أخرى تختلف باختلاف جنس البضائع وينقسم كل حمل إلى ثلاثة أقسام حمل الحمار وحمل الجمل وحمل العجلة وثقل الأول منه كيلو والثاني أثقل منه بثلاثة أضعاف والثالث يبلغ نحو ألف كيلو. [٣]

وصفت ضرائب الشام في العصر العباسي بقلتها ففي القرن الرابع الهجري وُصفت الضرائب بأنها "هينة" ما عدا الضرائب التي كانت تفرض على الفنادق في بيت المقدس فإنها كانت ثقيلة على ما يُباع فيها على الأبواب فلا يمكن أحد أن يبيع شيئاً مما يرتفق به الناس...". [٤]

زادت الضرائب في وقت لاحق وربما يكون ذلك راجعاً للأحوال السياسية المضطربة فنجدها في أواخر القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) عالية فقد

---

(١) ابن خلدون: المصدر السابق، ص ١٥٥.

(٢) المقريزي: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٩٤-١٩٥.

(٣) محمد كرد على: المرجع السابق،ج ٤،ص ٢٣٧.

(٤) المقدسي: المصدر السابق،ص ١٦٧.

كان المتحصل من مكس القمح بدمشق يزيد على مليون درهم وكانت رسوم الذبح في طرابلس الشام في الوقت ذاته ثمانين درهماً في اليوم الواحد. [١]

وفي بلاد المغرب كذلك يبدو أن المكوس كانت قليلة[٢] لا سيما في عهد المرابطين ومن بعدهم الموحدين. فقد شاع عن المرابطين منذ بداية حكمهم إزالة المكوس وإسقاط المغارم بالزكاة والأعشار خاصة في عهد يوسف بن تاشفين* الذي أسقط كل ما هو دون الأحكام الشرعية فلم يوجد في بلدٍ من بلاده ولا عمل من أعماله رسم مكس ولا معونة ولا خراج إلا ما أمر الله تعالى به من الزكاة والأعشار والجزية وأخماس غنائم المسلمين.[٣]

---

(١) نقولا زيادة: المرجع السابق، ص ٢٥.

(٢) عزالدين أحمد موسي: المرجع السابق،ص ١٦٥.

* يوسف بن تاشفين: ملك الملثمين رجلاً شجاعاً اختط بالمغرب مدينة مراكش التي كانت موضعاً للصوص (ابن خلكان ، المصدر السابق، ص ٤٧٠).

(٣) ابن أبي زرع، المصدر السابق ، ص ١٢٨.

الفصل الثالث

الأسواق ومعاملاتها المالية والتجارية

المبحث الأول

أهم أسواق المدن والسلع الواردة إليها والصادرة منها

- مدخل تعريفي بالأسواق .

١ - أسواق العراق وسلعها الواردة والصادرة

٢ - أسواق مصر وسلعها الواردة والصادرة

٣ - أسواق الشام وسلعها الواردة والصادرة

٤ - أسواق المغرب وسلعها الواردة والصادرة

٥ - أسواق الأندلس وسلعها الواردة والصادرة

المبحث الثاني

المعاملات المالية والتجارية

١ - النقد

٢ - الصك

٣ - السفتجة

٤ - الموازين والمكاييل

٥ - الرقابة على الأسواق

المبحث الأول

أهم أسواق المدن والسلع الواردة إليها والصادرة منها

مدخل تعريفي بالأسواق:

كلمة سوق في اللغة العربية تعنى الموضع الذي يُجلب إليه المتاع والسلع للبيع والابتياع.[١]

ويُعرف ابن خلدون[٢] الأسواق بقوله: "أعلم أن الأسواق تشتمل على حاجات الناس فمنها الضروري وهي الأقوات من الحنطة وما في معناها كالباقلا والبصل والثوم وأشباهه. ومنها الحاجي والكمالي مثل الأدم والفواكه والملابس والماعون والمراكب وسائر المصانع والمباني".

وكلمة سوق تعنى أيضاً مجموعة من الحوانيت والمصانع التي تتركز فيها الحياة الصناعية والتجارية كما تعنى الأسواق البسيطة التي تنتشر في القرى. [٣]

وهي مركز التجارة الداخلية[٤] كما أنها أقدم أشكال النظم التجارية سواء كانت محلية أو موسمية أو سنوية. [٥]

وقد عرف العرب كثيراً من الأسواق في الجاهلية والإسلام والكل يعرف ما كان لسوق عكاظ* من شهرة داوية. ولذا حرص العرب بعد انتهاء الفتوحات العربية الإسلامية على إنشاء الأسواق في الأمصار المفتوحة. [٦]

---

(١) إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط، ج ١، ط ٣، القاهرة ١٩٧٢م،ص ٤٨٢.

(٢) المقدمة، المصدر السابق، ص ٢٠٠.

(٣) حسين يوسف وعبدالفتاح الصعيدي: الإفصاح في فقه اللغة، ج ٢، ط ٢، دار الفكر العربي، ١٩٢٩م، ص ١٢٠٤، على حسني الخربوطلي، الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٥م ص ٢٥٩.

(٤) محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة في الشرق، ص ١٤٢.

(٥) نعيم زكي فهمي: الرجع السابق، ص ٨٢.

* اشتق اسم عكاظ من المعاكظة وهي المحاجة في المفاخرة التي كانت هي إحدى نشاطات ذلك السوق ومن ذلك قول الخليل بن أحمد فيعكظ بعضهم بعضاً بالمفاخرة: أي يدعك ويعرك [ناصر بن سعد الرشيد، سوق عكاظ في الجاهلية والإسلام تاريخه ونشاطاته وموقعه، دار الأنصار، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٧].

(٦) على حسني الخربوطلي، المرجع السابق، ص ٢٦٠.

وواضح أن معظم الأسواق التي أقامها العرب بعد الإسلام في الشرق كانت أسواقاً محلية ودائمة ولها أيام معينة في الأسبوع وإن كانت في وقت مبكر من العصور قد اتخذت صفة التخصص ببيع أنواع معينة من السلع في مكان واحد. (١) وعليه كان كل طائفة من التجار يجلسون معاً في قسمٍ واحد ويمكثون إلى ما بعد الظهر ويأكلون في أحد المطابخ أو يستحضرون شيئاً إلى دكاكينهم ولا يذهبون إلى بيوتهم إلا في المساء(٢). وقد تكون لهم مواضع فوق الدكاكين كالمواضع التي كانت للهراسين بالعراق، فيها الحصر والموائد والحزم والطشوت والأباريق ويُدفع فيها دانق*. (٣)

وحيث أن أسواق المدن في أول أمرها كانت أسبوعية حيث تقام في أيام معينة فقد سُميت معظم الأسواق في الدولة الإسلامية بأيام الأسبوع كسوق الثلاثاء بشرق بغداد(٤)، وسوق الأحد والخميس بالقيروان(٥) وسوق الأحد بتونس(٦) وسوق الثلاثاء بطنجه(٧) وسوق الجمعة بمدينة البصرة بالمغرب(٨) وهناك ثلاثة أسواق بين طنجة والرباط تسمى بسوق الثلاثاء والأربعاء والخميس وبين المكان والآخر ما يعادل مسيرة يوم على الدواب. (٩)

---

(١) نعيم زكي فهمي: المرجع السابق، ص ٨٢.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ....، ص ٣٩١.

* الدانق: سدس الدرهم والكلمة فارسية، (أبوعبيد القاسم، المصدر السابق،ص ٢١٠).

(٣) آدم متز: المرجع السابق، ص ٣٨٠.

(٤) ابن بطوطة: المصدر السابق ، ص ٦٢.

(٥) المقدسي: المصدر السابق ، ص ٢١٥.

(٦) البكري: أبوعبيد، المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، مصدر سابق، ١٨٥٧م، ص ٤٠.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٠٧.

(٨) المصدر نفسه، ص ١١١.

(٩) نقولا زيادة: الحسبة والمحتسب في الإسلام، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ، لبنان،١٩٦٢م، ص ٢٣.
ويرى نقولا أن السبب في تسميتها بالأيام ربما يعود إلى أن كثيراً من هذه الأسواق كانت في بادئ الأمر دكاكين لا تمتلئ إلا في يوم السوق ثم تغيرت طبيعتها واحتفظت بأسمائها، المرجع نفسه، ص ٢٣.

وثمة أسواق لا تسمى بأيام الأسبوع فقد كانت بعض الأسواق تسمى باسم منشئها كسوق "أسد" بالكوفة نسبة إلى أسد بن عبدالله القسري وسميت سوق "وردان" بالفسطاط باسم منشئها وردان. وهناك أسواق ترجع أسماؤها إلى القوم النازلين فيها كسوق البربر بالفسطاط أيضاً ولكن الغالب على التسمية أن تعرف باسم السلعة التي تغلب عليها أو العمل الذي يتم فيها كسوق البزازين ببغداد مثلاً[١].

وواضح أن أسواق المدن الثابتة كانت تتأثر في شكلها وتنظيمها وتنسيقها وموقعها بالإقليم والمدينة فقد كانت الدكاكين في مصر وبلاد الشام تمتد على طول الشارع من الجانبين[٢] وفي المشرق كانت الأسواق الجزء التجاري المنفصل عن المدينة الرسمية وعن القلعة[٣] وقد استلزمت العادة جمع الدكاكين صفوفاً من كل جانب كالدار التي بناها عضد الدولة بن بويه بمدينة كازرون. فقد بني أسواقاً عند جامع رام هُرمز وكانت غاية في الحسن فقد بُلطت وظلُلت كما هو الحال في معظم أسواق المشرق وجعلت عليها دروب تغلق كل ليلة. [٤]

وفي غرب المملكة الإسلامية لم يكن هناك فنادق للتجار الغرباء بل كانت أشبه بالأسواق الكبيرة وكانوا يضعون بضائعهم في أسفلها وينامون في أعلاها ويغلقون غرفهم بأقفال رومية ويطلق على هذه الأسواق اسم الفنادق أو القيسارية.[٥]

أما في الأندلس كانت أسواق المدن الكبيرة كقرطبة مثلاً تحيط بالجامع وتتضمن طابق أو أكثر معداً كفندق أو خان لإقامة المسافرين التجار الأجانب كما كانت في الأدوار العليا مخازن للبضائع وبها غرف تؤخر لأولئك التجار العابرين.[٦]

---

(١) البغدادي: المصدر السابق، ص ١٢٦.

(٢) جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، دار المعارف، ١٩٦٧م،ص ٢٣.

(٣) نقولا زيادة: المرجع السابق، ص ٢٢، آدم متز، المرجع السابق، ج ١،ص ٣٨١.

(٤) المقدسي: المصدر السابق، ص ٢٧٧.

(٥) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ...، ج ٤، ص ٣٩١.

(٦) عبدالوهاب خلاف: قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي– الخامس الهجري، الحياة الاقتصادية والاجتماعية، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م، تونس ص ١٢٧.

وفي ما قبل نهاية العصور الوسطى خدمت الأسواق منشآت هامة كانت تؤدى مهمة الأسواق خاصة في مصر والشام والأندلس وهذه المنشآت هي الوكالات* والقيساريات** والخانات*** والفنادق. ومعظم مؤرخي العصور الوسطى من العرب لم يفرقوا بين هذه المنشآت كثيراً إذ لم يجدوا بينها فروقاً واضحة ولاحظوا أنها تتشابه في حوش في وسطها وحول الحوش ممر يصل إلى المخازن وقد تكون دورين كما أن بها دكاكين ومساكن ولكلٍ مفتاح خاص.

ومن أهم هذه الوكالات التي ينزلها التجار ببضائع بلاد الشام من الزيت والشيرج والصابون والدبس والفستق والجوز واللوز "قوص" وهي وكالة مزدحمة بالناس والبضائع ولها ضجيج من شدة أصوات العتالين عند حمل هذه البضائع ومن أشهر القيساريات قيسارية ابن قريش في صدر سوق الجملون الكبير بجوار باب سوق الوراقين. ومن الخانات خان مسرور وهو مكانان أحدهما كبير والآخر صغير. الكبير على يسار سوق الزهومة والصغير على يمنه الجامع الأزهر وهناك أيضاً فندق مسرور. (١)

---

* الوكالة: هي في معنى الفنادق والخانات حيث ينزلها التجار من بلاد بعيدة ببضائعهم (المقريزي: المصدر السابق، ص ١٧٠).

** القيسارية: لفظ رومي (الزبيدي: السيد محمد مرتضي تاج العروس، ج ٣، دار صادر، بيروت، ص ٤٩٣) وهي بناء كبير مستطيل الشكل بداخله طريق تتوزع فيه الحوانيت على كل الصفين (السيد عبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٨٨٥، ص ٢١٨).

*** الخان: هو الحانوت أو صاحبه وهو فارسي معرب (الزبيدي، المصدر السابق، ج ٩، ص ١٩٤).

(١) المقريزي، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٥٧-١٧٢.

١- أسواق العراق وسلعها الواردة والصادرة

أولاً: الأسواق

من أهم أسواق المدن الداخلية هي أسواق بغداد وذلك لأن بغداد كما هو ثابت أنها أهم مركز تجاري في الدولة العباسية[١] "حيث يجرى في حافتيها النهران الأعظمان دجلة والفرات فتأتيها التجارات والميرة براً وبحراً حتى تكامل بها كل متجر يحمل من المشرق والمغرب من أرض الإسلام وغيرها"[٢] فإنه يُحمل إليها من الصين والهند والترك والديلم والخزر والحبشة وسائر البلاد القاصية والدانية حتى يكون لها من التجارات أكثر مما في البلاد التي خرجت منها التجارات إلى بغداد. [٣]

وقد احتفظت بغداد بأهميتها كمركز تجاري بفضل القناة الملاحية التي مدها العباسيون إليها من الفرات عبر العراق إذ ربطت هذه القناة آسيا الصغرى وسوريا وبلاد العرب ومصر على حين كانت تأتي إليها القوافل من آسيا الوسطى مارة ببخاري وفارس. [٤]

من هنا تتضح الأهمية التجارية لموقع بغداد لذلك لا نستعجب حين يذكر العديد من الكُتاب "أن بغداد والإسكندرية تتحكمان في الأسواق والأسعار".[٥]

وهذا الموقع التجاري الهام لبغداد يفسر لنا كثرة الأسواق بجانبيها الشرقي والغربي وأعظم هذه الأسواق سوق الكرخ* في الجانب الغربي من بغداد "مارة من قصر وضاح- مولى أمير المؤمنين- إلى سوق الثلاثاء بمقدار فرسخين ومن قطيعة الربيع -وزير الخليفة- إلى دجلة عرضها مقدار فرسخ واحد".[٦]

---

(١) محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية ، المرجع السابق،ص ١٤٢.

(٢) اليعقوبي: البلدان ، المصدر السابق، ص ٢٣٤.

(٣) الحميري ، المصدر السابق ، ص ١١١.

(٤) محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق،ص ١٤٣.

(٥) أحمد أمين: المرجع السابق ،ص ١٦.

* الكرْخ: بتسكين الراء وبالخاء المعجمة وهو اسم نبطي (الحميري، المصدر السابق، ص ١١١).

(٦) اليعقوبي: المصدر السابق، ص ٢٤٦.

ولما ابتني المنصور مدينة بغداد أمر أن تجعل الأسواق في طاقات المدينة إزاء كل باب سوق فلم يزل على ذلك[1] إلى أن جاء اليوم الذي قدم فيه أحد بطارقة الروم وطلب المنصور من حاجبه الربيع بن يونس أن يطوف به بغداد ليرى معالمها وأسوارها وأسواقها، حتى إذا عاد البطريق من جولته وأراد المنصور أن يقف منه على رأيه في حاضرته الجديدة فوضح له البطريق بصراحة بأن في هذه المدينة ثلاثة عيوب فكان من العيب الثالث: أن رعيتك معك وإذا كانت الرعية مع الملك في بنائه فشأ سره وعندما سأله المنصور عنهم أجاب: السوقة[2] فكان ذلك مما جعل المنصور يعزم على نقل الأسواق من المدينة. ولكن هناك من يجعل أن السبب هو انتشار الدخان الذي سوَّد جدران المدينة[3] وآخر يجعل السبب هو ضجيج الأسواق الذي يسمع من قصر الأمارة. [4]

هذا وقد وردت رواية مفادها أن السبب في نقل الأسواق سياسي وهو الشغب الذي أثاره أنصار محمد المعروف "بالنفس الذكية" والذي كان له صلة بمحتسب بغداد أبي زكريا يحيى بن عبدالله. حيث أجتمع هؤلاء بجماعة من أهل بغداد وأحدثوا اضطراباً في بغداد وأسواقها وتصدى الخليفة لهذا الشغب بسرعة فقتل محتسب بغداد وأوعز بنقل الأسواق. [5]

وأيما كان السبب فقد عزم المنصور على نقل الأسواق وتقدم إلى إبراهيم بن حُبيش الكوفي وجواس بن المسيب اليماني وأمرهما أن يبنيا الأسواق من ناحية الكرخ في الجهة الجنوبية من بغداد ما بين الصراة ونهر عيسى ودعا بثوب واسع حدد فيه الأسواق وجعلها صفوفاً ورتب كل صنف منها في موضعه وأمرهم بان يجعلوا

---

(١) ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج ٥،ص ٤٤٨.

(٢) الطبري :المصدر السابق، ج٧، ص ٦٥٣، البغدادي، المصدر السابق، ج ١،ص ٩٩.

(٣) ياقوت الحموي، المصدر السابق، مج ٥،ص ٤٤٨.

(٤) رمزيه محمد الأطرقجي: بناء بغداد في عهد أبي جعفر المنصور، النجف، مطبعة النعمان، ١٩٧٥م ص٢١.

(٥) الطبري، المصدر السابق، ج ٧،ص ٦٥٣.

الجزارين في آخر الأسواق بحجة أنهم سفهاء وفي أيديهم الحديد القاطع. وأمر أن يبني لهم مسجد يجتمعون فيه يوم الجمعة ولا يدخلون المدينة. [١]

وهذا ما يؤكده اليعقوبي[٢] الذي كانت رحلته في سنة ٢٨٤هـ- واصفاً أسواق بغداد بقوله "إن لكل تجارة وتجار شوارع معلومة وصفوف في تلك الشوارع وعراض ولا يختلط قوم بقومٍ ولا تجارة بتجارة ولا يباع صنف مع غير صنفه ولا يختلط أصحاب المهن من سائر الصناعات بغيرهم".

وهذا الانفراد في التجارة يوضح بروز ظاهرة التخصص في الأسواق في ذلك الوقت والذي وصفه البعض بأنه من أبرز عيوب الأسواق فالمشترى الذي يريد عدة أصناف كان عليه أن يقطع المدينة طولاً وعرضاً حتى يقضى حاجته لأنه لا يجد في السوق الواحدة سوى نوع واحد من السلع وفي الوقت نفسه لهذا النوع من التخصص مزاياه فمن المزايا سهولة الإشراف الحكومي كما أن التاجر الجشع لا يستطيع أن يرفع سلعته خوفاً من جيرانه المنافسين له في نفس السلعة. وفي هذه الحالة يقل احتمال حدوث الاحتكار أو أي ارتفاع غير طبيعي في سعر البضائع ثم إن المشترى يستطيع أن ينتقي أجود ما يحتاج إليه من هذا الصنف من السلع في وقت قصير لتقارب الحوانيت المعروض فيها البضائع المتشابهة. [٣]

وعلى هذا التخصص كانت هناك سوق البزازين الذين كانوا يقومون ببيع الأقمشة على اختلاف أنواعها ويبدأ سوقهم من القنطرة التي أنشئت على نهر البزازين[٤] وإلى الشرق من سوق البزازين توجد سوق الجزارين الذي اقتصر البيع فيه على اللحوم. وهناك سوق أصحاب الصابون وسوق الطعام والدواب وسوق الغنم[٥]. كما وجدت سوق الوراقين التي كانت تحوي في سنة (٢٧٩هـ-٨٩٢م) ما يزيد على

---

(١) ياقوت: المصدر السابق، مج ٥،ص ٤٤٨، البغدادي، المصدر السابق، ج ١، ص ٩٩، الطبري، المصدر السابق، مج ٧،ص ٦٥٣.

(٢) البلدان: المصدر السابق، ص ٢٤٦.

(٣) حمدان عبدالمجيد الكيسي:المرجع السابق، ص ١٧٦ نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص ٢٨٢.

(٤) البغدادي: المصدر السابق، ج ١،ص ١٢٦-١٢٧.

(٥) اليعقوبي: البلدان ، المصدر السابق، ص ٢٤٦.

مئة مكتبة[١] وهناك "دار البطيخ"* التي اختصت ببيع الفواكه والتي ظلت داخل أسوار المدينة ولم تنقل إلى الكرخ لحاجة الناس لمثل هذه السلع في الحياة اليومية. [٢]

والكرخ بهذا التنظيم ومنذ ذلك الوقت "وهي معدن التجار"[٣] يمتد على جانبيها أسواق مهمة فهناك سويقة أبي الورد وسوق القنطرة الجديد وسوق بشارع باب المحول وجميع هذه الأسواق فيها "سائر البياعات"[٤] وفي محله الحربية يوجد "سوق باب الشام وهي سوق عظيمة فيها جميع التجارات والبياعات ممتدة ذات اليمين وذات الشمال آهلة عامرة الشوارع والدروب والعراض وتمتد في شارع عظيم فيه الدروب الطوال كل درب ينسب إلى أهل بلد من البلدان ينزلونه في جنبيه جميعاً إلى ربض حرب البلخي وليس ببغداد ربض أوسع ولا أكبر ولا أكثر دروباً وأسواقاً في الحال منه وآهلة بأهل بلخ وأهل مرو وخوارزم ولكل أهل بلد قائد ورئيس".[٥]

كل هذه الأسواق بما فيها الكرخ كانت بالجانب الغربي من بغداد ولكن ليس معنى ذلك أنه لا توجد أسواق بالجانب الشرقي من بغداد. فهذه الجهة كانت "حفيلة الأسواق عظيمة الترتيب تشتمل من الخلق على بشر لا يحصيهم إلا الله تعالى الذي أحصى كل شيء عدداً"[٦] فمن الأسواق التي عرفت بنشاطها التجاري أسواق الرصافة "باب الطاق" المشهور على الشط وهي الحي التجاري الرئيسي في الجانب الشرقي من بغداد[٧]. ومن الأسواق أيضاً سوق خُصير وهذه السوق كانت قد

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٤٥.

* رُوى أن شاعراً مدح وزيراً بقصيدة أكثر فيها من ذكر الفاكهة فسماها عامة بغداد "دار البطيخ" تشبيهاً لها بمكان بيع الفاكهة (نقولا زيادة، المرجع السابق، ص ٢٥).

(٢) البغدادي: المصدر السابق، ج ١،ص ١٠٨.

(٣) عبدالعزيز الدوري: المرجع السابق، ص ١٥٥.

(٤) اليعقوبي: المصدر السابق، ص ٢٤٤.

(٥) المصدر نفسه،ص ٢٤٨.

(٦) ابن جبير: المصدر السابق، ص ٢٠٤.

(٧) المصدر نفسه، ص ٢٠٢.

اشتهرت ببيع طرائف الهند[١] وسوق يحيى بن خالد التي صارت لأم جعفر ثم أقطعها المأمون لشخص آخر. وهناك سوق أبي عبيدالله معاوية بن عبيدالله الوزير وسوق العطش وسوق نصر بن مالك بن الهيثم التي أعجبت ملك الروم عندما صُورت له بغداد بكل أرضها وأسواقها وشوارعها. فكان ملك الروم إذا شرب دعا بالصور فيشرب على صورة شارع سُويقه نصر ويقول: لم أر صورة لشيء من الأبنية أحسن منه. [٢]

وكما تعددت الأسواق في الجانب الشرقي فقد تخصصت أيضاً فهناك سوق الدواب حيث تباع حيوانات النقل والركوب به، وهناك سوق الطعام وفيها حوانيت الخبازين والقصابين[٣]. أيضاً انفردت سوق في بغداد ببيع الأسلحة التي تتطلب حاجة الدفاع عن النفس اقتنائها خاصة في أوقات الفتن والثورات. [٤]

ومجمل القول أن أسواق بغداد جميعاً رائجة التجارة وفيها ما تشتهى الأنفس وتلذ العين وغاية في الاحتفال جامعة لاخلاط التجار إلا سوق الصاغة فإنه منفرد بالفرس الذين بلغوا من الإجادة أن رصعوا الزجاج بالجواهر. ومن طرائف الأسواق سوق الجواري فيه الحبشيات والروميات والشركسيات ومعهن الدلال ينادى المشترين ويصف الجواري بما لهن من الأوصاف الحسان وهم يتسابقون إلى شرائهن. [٥]

يلي بغداد في الأهمية التجارية في أسواقها العراق مدينة البصرة وهي مدينة الدنيا ومعدن تجاراتها وأموالها[٦] وقد قيل في فضلها "الدنيا والبصرة"[٧] ويعد أهل البصرة وأهالي اليمن من أحسن تجار الدولة الإسلامية وفي ذلك يُقال: أبعد الناس نجعة في الكسب بصري وحميري ومن دخل فرغانة والسوس الأقصى فلابد أن يرى

---

(١) اليعقوبي: البلدان ، المصدر السابق، ص ٢٥٣.

(٢) البغدادي: المصدر السابق، ج ١،ص ١١١.

(٣) اليعقوبي: المصدر السابق، ص ٢٥٣.

(٤) ياقوت: المصدر السابق، مج ٥،ص ٤٤٩.

(٥) نقولا زيادة: الحسبة والمحتسب في الإسلام، ص ٢٤.

(٦) اليعقوبي: البلدان، المصدر السابق ، ص ٣٢٣.

(٧) ابن العراق: المصدر السابق، ص ١٤.

بصرياً أو حميرياً[1] ويُقال: إنه ليس في الأرض بلدة واسطة ولا بادية شاسعة ولا طرف من الأطراف إلا وأنت واجد بها المديني والبصري والحميري.[2]

ونظراً لأن البصرة كانت تمتاز بموقع جغرافي مناسب هو ملتقي البحر والسهل الخصيب والصحراء فقد كانت البضائع تُحمل إليها من مختلف بلدان الشرق حتى وصفت أنها "قبة الإسلام".[3]

ومن أقدم وأشهر أسواق البصرة المِرْبد* وهو ضاحية من ضواحي البصرة في الجهة الغربية منها مما يلي البادية وبين البصرة ثلاثة أميال[4] أنشئ المِربد لما مصرت البصرة في زمن عمر بن الخطاب والأصل فيه أنه متسع للإبل تعرض للبيع ثم نما وصار محلة عظيمة[5]. واتسعت تجارته في عهد الراشدين فشمل السلاح والتمر وصار مركزاً للدباغين[6] وفي العصر الأموي أصبح المِربد سوقاً عامة وملتقي البدو والحضر للتجارة ثم أصبح مركزاً تجارياً تتخذ فيه المجالس ويلتقي فيه الشعراء والرجاز والأشراف فيتناشدون ويتهاجون فيه كما فعل جرير والأخطل وأبونواس. [7]

وإلى جانب الأدب شمل السياسة فقد نزلت به السيدة عائشة أم المؤمنين بعد مقتل عثمان بن عفانﷺ تطالب الناس بدمه وكان والي البصرة من قبل عثمان ينقض قولها حتى وقعت بين الفريقين معركة بالحجارة تضرر منها كثيرون. [8]

---

(١) ابن الفقيه:المصدر السابق، ص ١٩١.

(٢) آدم متز: المرجع السابق، ج ٢،ص ١٩١.

(٣) سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص ٣٥٣.

* المرِبْد: بالكسر ثم السكون وفتح الباء الموحدة ودال مهملة وهو كل شيء حُبس فيه الإبل ولهذا قيل مِربد النعم بالمدينة به سمى مِربد البصرة (ياقوت، المصدر السابق، ج ٥،ص ٩٧).

(٤) أحمد أمين: المرجع السابق، ج ٢،ص ٨٠.

(٥) ياقوت: المصدر السابق، مج ٤،ص ٩٨.

(٦) على حسني الخربوطلي: المرجع السابق، ص ٢٦٠،نقولا زيادة،الحسبة والمحتسب في الإسلام، ص ٢١.

(٧) أحمد أمين: المرجع السابق، ج ٢،ص ٨٠.

(٨) سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص ٤٢١، نقولا زيادة، المرجع السابق،ص ٢١.

واستمر المِربْد في العصر العباسي يقصده الشعراء لا ليتهاجوا ولكن ليأخذوا عن أعراب المِربد الملكة الشعرية يحتذون ويسيرون على منوالهم- خاصة بعد أن فشأ اللحن نتيجة لدخول الموالي في الدولة الإسلامية- فكان يخرج إلى المربد بشار وأبونواس وأمثالهما اللغويون يأخذون عن أهله(١) وهو بذلك يكون قد خدم الأغراض السياسية والأدبية بجانب الأغراض الاقتصادية. (٢)

ولكن المربد بعد الازدهار بدأ في الاضمحلال منذ القرن الرابع الهجري(٣) حتى إذا ما جاء القرن السابع الهجري نجد المربد قد صار خراباً لأن ياقوت الحموي (٦٢٦هـ-١٢٢٩م)(٤) يقول: الآن بينه وبين البصرة نحو ثلاثة أميال وكان ما بين ذلك قبل هذا الوقت عامراً فصار الآن كالبلدة المفردة وسط البرية.

وكذلك نجد أن أسواق البصرة عندما زارها المقدسي (٣٧٥هـ-٩٨٣م) كانت ثلاثة وهي قطع الكلا على النهر وسوق الكبير وباب الجامع. (٥)

وفي زمن ناصر خسرو (٤٤٣هـ-١٠٥١م) كانت الفعالية التجارية في البصرة تستمر طيلة النهار وحتى المساء ويكون التبادل التجاري في الصباح في سوق خزاعة وفي الظهر يكون التبادل في سوق يُسمي سوق عثمان وفي المغرب يكون التبادل في سوق القداحين. (٦)

وجميع هذه الأسواق أكثر ما اشتهرت به هو بيع التمر الذي كان يباع بحساب أربعة عشر رطلاً عراقية بدرهم ويصنع من التمر عسل يسمي السيَّلان.(٧)

ولا يفوتنا أن نذكر أن من أسواق البصرة المهمة للغاية سوق الصرافين حيث لم يكن هناك غنى عن الصراف في سوق البصرة وكان العمل أن كل من معه مال

---

(١) أحمد أمين: المرجع السابق، ج ٢،ص ٨١، سعيد الأفغاني، المرجع السابق، ص ٤٣.

(٢) على حسني الخربوطلي: المرجع السابق، ص ٢٦٠.

(٣) المقدسي: المصدر السابق، ص ١١٨.

(٤) معجم البلدان، المصدر السابق، مج ٥،ص ٩٧.

(٥) المقدسي: المصدر السابق،ص ١١٧.

(٦) عبدالعزيز الدوري: المرجع السابق، ص ١٥٨.

(٧) ابن بطوطة: المصدر السابق، مج ١،ص ١٢.

يعطيه للصراف ويأخذ منه رقاعاً ثم يشترى ما يلزمه ويحول ثمنه على الصراف ولا يعطون شيئاً غير الرقاع ماداموا في المدينة. [١]

أما أسواق مدينة الموصل والتي اعتبرها ياقوت[٢] باب العراق. واعتبرها المقدسي[٣] قصبة إقليم الجزيرة. فقد كانت غنية بسلعها ومنتجاتها التي انعدم نظيرها في كثرتها بحيث أن هذه المنتجات والخيرات إذا انقطعت في بلد من البلدان تواجدت في أسواق الموصل. [٤]

كانت أسواق الموصل حافلة بالبضائع المتنوعة والسلع الوفيرة خاصة الغذائية منها مثل الحبوب واللوز وحب الرمان والقصب والعسل[٥] وكذلك لا نستعجب إن كانت هي الممول الرئيسي للعراق من الحبوب في أوقات الشدة التي تكررت في بغداد على مدى سنوات لأسباب كثيرة. [٦]

استمرت أسواق الموصل حافلة بالسلع حتى نهاية القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) حيث وصفها ابن جبير[٧] بالروعة والجمال خاصة قيسارية التجار ذات الأبواب الحديدية والدكاكين المتراصة بعضها على بعض مبنية بالبناء المزخرف الجميل في منظر لا يوجد أجمل منه في بلاد. كما ذكر أنها تقع في ربض المدينة حيث توجد المساجد والحمامات.

وعن أسواق الكوفة فقد كانت حسنة وعامرة بالبضائع وأهل الكوفة مياسير.[٨]

وبالكوفة مركزان تجاريان "دار الرزق" على الضفة اليمني للفرات وأسواقها مغطاة تمتد من جسر الكوفة إلى مركز المدينة. والمركز الثاني "الكناسة" عند الباب

---

(١) نقولا زيادة: المرجع السابق، ص ٢٥.

(٢) معجم البلدان، المصدر السابق، مج ٥،ص ٢٢٤.

(٣) أحسن التقاسيم، المصدر السابق، ص ١٣٨.

(٤) ياقوت: المصدر السابق، مج ٥، ص ٢٢٤.

(٥) ابن حوقل:المصدر السابق، ص ١٩٦-١٩٧.

(٦) مسكويه: المصدر السابق، ص ١٣٨.

(٧) رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢١١.

(٨) الإدريسي:المصدر السابق، ص ٣٨١.

الغربي للمدينة وهي مركز التجارة مع الجزيرة العربية وتباع البغال والمواشي في أحد أسواقها وهو سوق البرادين وقد تدهورت الكناسة في النصف الثاني للقرن الرابع الهجري. (١)

ومن أسواق العراق أسواق حلوان التي كانت عامرة بالفواكه خاصة التين الموصوف بالروعة والحلاوة. (٢)

ثانياً: السلع الواردة والصادرة:

لم يلاق أهالي العراق صعوبة في استيراد البضائع من الخارج لوقوع كثير من البلاد والطرق في قبضتهم كما تيسر لهم تزويد أسواقهم بالمتاجر وخامات الصناعة بفضل نهري دجلة والفرات اللذين كثرت عليهما حركة النقل وقد أُحصى عدد السفن التي تنقل الناس في بغداد فبلغت ثلاثين ألف(٣) وعلى ذلك حُمل إليها التجارات من جميع أنحاء العالم حتى البعيد منها كالهند والصين والتبت والترك والديلم والخزر والحبشة وسائر البلدان فيكون بها من البضائع أكثر مما في تلك البلدان التي خرجت منها تلك التجارات فتكاملت فيها خيرات الدنيا وبركات العالم وجُمعت فيها كل ذخائر ونفائس. (٤)

والثابت أن هذا الموقع الإستراتيجي لحاضرة العراق قد رُوعي منذ اختيارها عندما أشار أحدهم إلى المنصور بمميزات الموقع بأنه "على الصراط ودجلة وتجيئك الميرة من الغرب وفي الفرات من الشام والجزيرة ومصر وتحمل إليك طرائف الهند والبصرة وواسط في دجلة وتجيئك ميرة أرمينية وأذربيجان والموصل وديار بكر وربيعة..." (٥)وقد احتفظت بغداد بهذا الموقع بفضل الملاحة التي مدها العباسيون

---

(١) عبدالعزيز الدوري: المرجع السابق، ص ١٥٩.

(٢) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٢٢٠.

(٣) محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص ١٤٤.

(٤) اليعقوبي: البلدان، المصدر السابق، ص ٢٣٤.

(٥) البغدادي: المصدر السابق، ج ١،ص ٩٠.

إليها من نهر الفرات عبر العراق. إذ ربطت المدينة بآسيا الصغرى وسوريا وبلاد العرب ومصر على حين كانت القوافل تأتيها من آسيا الوسطى. (١)

هذا التميز في الموقع سبباً لأن ترد على أسواق بغداد سلعاً كثيرة من مناطق شتى بعضاً منها استورد من دولٍ بعيدة فاخترقت حدود الدولة العباسية. وفي الغالب كانت هذه السلع تستقر في أسواق بغداد وفي حالات نادرة يُعاد تصديرها إلى أسواق خارجية من قبل تجار بغداد. (٢)

وردت على أسواق بغداد بضائع وسلع شتى من جزيرة العرب حيث كانت العلاقة التجارية بينهما قوية ونشطة. من ذلك الخيل التي كثر استعمالها في أوربا والجاموس الذي جلبه العرب من موطنه الأصلي وهو بلاد الهند(٣) والنعام والإبل والجلد المدبوغ والأحذية وألقنا التي يُعمل بها الرماح(٤) ومن بلاد اليمن وردت البرود التي يُقال لها وشى اليمن وعصب اليمن والتي كانت غاية في الحسن والجمال– كما وردت من اليمن السيوف والعقيق والمنجانيق(٥) والديباج والزعفران والبخور والمرُ والبغال والحمير. (٦)

والتبادل التجاري بين مصر والعراق واسعاً فقد كان يأتي من مصر نسيج الدبيقي* خاصة من مدينة تنيس التي تصدر إلى العراق من الأقمشة ما يبلغ قيمته

---

(١) محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص ١٤٤.

(٢) حمدان عبدالمجيد الكبيسي: المرجع السابق، ص ٢٨٢.

(٣) آدم متز: المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٨٤.

(٤) عبدالعزيز الدوري: المرجع السابق، ص ١٦٣، حمدان عبدالمجيد الكبيسي، المرجع السابق، ص ١٨٧.

(٥) الثعالبي (أبومنصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، ١٣٨٤هـ–١٩٦٥م، ص ٥٣٤.

(٦) عبدالعزيز الدوري: المرجع السابق، ص ١٦٣.

* الدبيقي: نوع من النسيج اشتهرت بصناعته في القرن الرابع مدينة مصرية تسمى دبيق ربما بلغ الثوب منه مائة دينار ومنه كانت تصنع المنسوجات للخليفة البغدادي ولا يدخل فيه من الغزل غير أوقيتين وينسج باقية من الذهب (الدمشقي، جعفر بن على: الإشارة إلى ذكر محاسن التجارة، تحقيق البشري، الشوربجي، مكتبة الكتاب، ١٩٧٧م،ص ٤٦).

عشرون إلى ثلاثين ألف دينار[١] وكان هذا النوع من النسيج المصري يلقي رواجاً كبيراً في بغداد من قبل الخاصة والعامة كما كان يصل من هذا النوع البسُط الدبيقية المطرزة[٢] ويصل أيضاً من مصر إلى بغداد البغال والحمير** والزبرجد ودهن البلسان[٣] أما ما يرد على العراق منذ العصر العباسي الأول من القراطيس فهو فوق الحاجة ويقال أن أسواق بغداد امتلأت بقراطيس مصر وكثر عددها في خزانة الخلفاء حتى أن المنصور همّ ببيعها وأمر صاحب المصلى ببيع هذه القراطيس المكدسة بأقل الأسعار ولكن المنصور عدّل عن هذا الرأي خوفاً من أن يحتاج إليها في وقت آخر قد تنقطع فيه القراطيس من مصر لأي سبب من الأسباب. [٤]

وما يرد من الشام على إقليم العراق فهو من أجود الأشياء فقد كان يأتيها زيت الزيتون* والزبيب الذي كثر وجوده بمدينة حمص[٥] كما جُلب من أرض الشام الفواكه لا سيما تفاح الشام**[٦] والأدوات الزجاجية الملونة*** التي صارت من لوازم المنزل

---

(١) أحمد أمين: المرجع السابق، ج ٢،ص ٣٤٥.

(٢) البغدادي: المصدر السابق، ج ٢،ص ٩٩.

** كانت حمير مصر موصوفة بحسن المنظر وكرم المخبر والخلفاء العباسيين لا يركبون إلا حمير مصر في دورهم وبساتينهم وكان المتوكل يصعد منارة سرمن رأى على حمارٍ من مصر وكان طول هذه المنارة تسع وتسعون ذراعاً (الثعالبي، المصدر السابق، ص ٥٣٠، ابن حوقل، المصدر السابق، ص ١٥٢).

(٣) المقدسي: المصدر السابق، ص ٢٠٤.

(٤) الجهيشاري: (محمد بن عبدوس) الوزراء والكتاب، حققه مصطفى السقا وآخرون، ط ١، مطبعة البابي القاهرة، ١٩٣٨م،ص ١٣٨.

* زيت الشام: يُضرب به المثل في الجودة والنظافة ويقال له الزيت الركابي لأنه يحمل على الإبل من بلاد الشام التي هي أكثر البلاد زيتوناً [الثعالبي، المصدر السابق، ص ٥٣٢].

(٥) الجهشياري: المصدر السابق، ص ٨٧، آدم متز، المرجع السابق، ص ٣٨٩.

** تفاح الشام: يُضرب به المثل في الحسن والطيب ويقال أنه اجتمعت فيه الحُمرة الخمرية والصفرة الوردية مع شعاع الذهب وبياض الفضة يُحمل منه إلى العراق مع الخراج ثلاثون ألف تفاحة [الثعالبي، المصدر السابق، ص ٥٣٢].

(٦) المقدسي: المصدر السابق، ص ٨.

*** زجاج الشام: مثال في الرقة والصفاء ويقال أرفق بالعدو كما يرفق بزجاج الشام [الثعالبي، المصدر السابق، ص ٥٣٢].

والرفاهية وكثر الطلب عليها ليس من العراق فقط بل من جميع الدول العربية[١] كما كانت السفن تأتي بالبضائع السورية كالدقيق مثلاً[٢] والسكر هذا غير المنسوجات الحريرية والقطن والمنسوجات القطنية. [٣]

وللتجار العراقيين تبادل تجاري مربح مع البربر في شمالي أفريقيا فيحملون إليهم الثياب البصرية البراقة ويستبدلونها بالذهب والعاج والأبنوس والرقيق الأسود[٤] واللبود والبرود والسنجاب والثياب الصوفية[٥] ويأتي إليهم من الأندلس الذي يُحمل من مدينة مالقة[٦] والديباج والخز والفراء والسمور والسيوف[٧] والنسيج الذي يخرج من بلنسيه[٨] والمرجان والعنبر * والبز والغلمان من الصقالبة؟ والجواري من الجنس الأبيض[٩] والبغال. [١٠]

أما ما يُحمل من المشرق الإسلامي- كبلاد فارس وما وراء النهر وغيرها- فهو فوق الوصف فقد كان يأتيهم من فارس ماء الورد الذي يوجد بكثرة بكوار وجور ولا يوجد ماء ورد أطيب منه في سائر البلاد ويُحمل منه الخلفاء ببغداد كل عام من خراج فارس ألف قارورة[١١] ويأتي منهم الزبيب والنيلة التي تعتبر من أهم مواد

---

(١) فيليب حتى: تاريخ العرب، دار العلم، بيروت ، ١٩٦٥م،ص ١٤٠.

(٢) اليعقوبي: البلدان، المصدر السابق، ص ٢٥٠.

(٣) المقدسي: المصدر السابق، ص ١٨١.

(٤) فيليب حتي: المرجع السابق، ص ١٣٨.

(٥) المقدسي: المصدر السابق، ص ١٣٩.

(٦) الحميري: المصدر السابق، ص ٢٧٦.

(٧) ابن خرداذبة:المصدر السابق، ص ١٥٣.

(٨) المقري: (أبوالعباس أحمد بن محمد)، نفح الطيب من غصبن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، ج ٣ تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م،ص ٢٢١.

* العنبر: مادة صلبة ذات لون رمادي تشبه الشمع لها رائحة ذكية عطرة نفاذة إذا ما احترقت وتحتل الصدارة بين أنواع العطور الممتازة [نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص ٢٢٩].

(٩) ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص ٩٢.

(١٠) الاصطخري:المصدر السابق،ص ١٣٨.

(١١) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٢٦٠، الجهشياري، المصدر السابق، ص ٢٨٢، أحمد أمين، المرجع السابق، ج ٢،ص ٣٤٥.

الصباغة[١] كما يُحمل من بخاري إلى العراق نسيج قطن خاص يسمى الزندريخى** وكان دار صناعة هذه النسيج يذهب إليها كل عام عامل خاص من بغداد ويأخذ من هذه الثياب ما يقابل خراج بخاري[٢]. وخرج من مرو ثياب القطن اللينة والفاخرة والبطيخ الذي اهتم به خلفاء الدولة العباسية وكان يحمل إليهم من العصر العباسي الأول في قوالب من رصاص معبأة بالثلج. [٣]

ويخرج من أصفهان إلى العراق نسيج العتابي* والوشي[٤] والشمع الذي يرد منه إلى بلاط الخلافة حوالي عشرون ألف رطل من العسل [٥] وجُلب منها أيضاً النبيذ[٦] ومن جرجان الابرسيم[٧] ومن الري الثياب[٨] والرمان والخوخ[٩] ومن كرمان التمر والكمون[١٠] ومن سجستان الثياب والحلوى[١١] كما يأتي منها نبات "أبوكير"** ومن

---

(١) الجهشياري: المصدر السابق، ص ٢٨٢، نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص ٢٣٦.

** الزندريخي: سُمى هكذا لأنه ظهر لأول مرة في قري تسمى زندريق ومن هذا النوع ثلاثة ألوان الأخضر والأبيض والأحمر [بشير رمضان التليسي: تاريخ الحضارة الإسلامية، دار المداد الإسلامي، بيروت ٢٠٠٢م،ص ٢٣٢].

(٢) المرجع نفسه،ص ٢٣٢.

(٣) آدم متز: المرجع السابق، ج ٢،ص ٢٣٥.

* العتابي: نوع من النسيج يُسمى كذلك نسبة لأمير أموي كان يسكن في حي النسيج هذا فأصبح النسيج المخطط المصنوع فيه والذي ظهر لأول مرة في القرن الثاني عشر الميلادي يعرف بهذا الاسم ، (فيلب حتي)، المرجع السابق،ص ١٣٩.

(٤) الثعالبي: المصدر السابق، ص ٣٩.

(٥) الجهشياري: المصدر السابق، ص ٨٥، الثعالبي، المصدر السابق، ص ٥٣٨.

(٦) غوستاف لوبون: المرجع السابق،ص ١٣٩.

(٧) الجهشياري: المصدر السابق، ص ٢٨٤.

(٨) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٥، راجعه وعلق عليه حسين مؤنس دار الهلال، القاهرة، ص٣٩.

(٩) الجهشياري: المصدر السابق، ص ٢٨٤.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٨٢-٢٨٣.

(١١) المصدر نفسه،ص ٢٨٣.

** أبوكير: صمغ أو نبات يتخذ منه نوع من المخدرات للاضطرابات العصبية (الاصطخري، المصدر السابق،ص ١٤١).

طبرستان الأكسية والثياب والمناديل والخامات[١] ومن شيراز العباءات الصوفية المخططة والأقمشة الناعمة والشفافة والمنسوجات[٢] والنبيذ[٣] ويأتي من مدينة تستر البُسط والدمقس*** ومن همدان الزعفران والثعالب[٤] ومن بلخ النوق النبخاتي[٥] ومن سيراف العنب السيرافي[٦] ومن سمرقند الكاغد المشهور "بكواغد سمرقند" والتي عطلت قراطيس مصر والجلود التي كان الأوائل يكتبون عليها، ويأتي منها النوشادر والملح الكشي* ومن أرمينية جلبوا خشب البناء الذي كان متواجداً بكثرة في جبالها والبندق الذي هو أجود من بندق سمرقند والشاه بلوط** والفرش والستائر والصوف[٧] والبُسط المحفورة والبغال. [٨]

وإقليم الجزيرة المجاور للعراق كانت تجارته واسعة حتى قيل أن "كل ميرته للعراق"[٩] وقد كان يأتي من الموصل*** وهي قصبة هذا الإقليم ، الحبوب والعسل

(١) الجهشياري: المصدر السابق،ص ٢٨٤، الاصطخري، المصدر السابق،ص ١٤١.

(٢) فيلب حتي: المرجع السابق،ص ١٣٩.

(٣) غوستاف: المرجع السابق،ص ١٣٧.

*** الدمقس: نسيج صنع أصلاً في دمشق، موشي بالذهب والستائر المصنوعة من الحرير المغزول، (فيلب حتي، المرجع السابق، ص ١٣٩).

(٤) المقدسي: المصدر السابق،ص ٣٩٦.

(٥) الحميري: المصدر السابق، ص ٧٠.

(٦)الحميري: المصدر السابق ،ص ٥٤٣.

* الملح الكشي: جوهر يقطع من الغيران في الجبال يكون أحمر فإذا دُق صار أشد بياضاً وأصلح من كل ملح (الثعالبي، المصدر السابق، ص ٥٤٣).

** الشاه بلوط: هو ثمرة أكبر من البندق وأطيب وليس بمدور وهو على تقدير نصف جوزه سوداء ويعرف في مصر بأبي فروة (المقدسي، المصدر السابق،ص ١٤٥).

(٧) آدم متز: المرجع السابق، ج ٢،ص ٢٨٩.

(٨) الجهشياري: المصدر السابق، ص ٢٨٦.

(٩) المقدسي: المرجع السابق،ص ١٣٦.

والفحم والشحوم وحب الرمان والحديد[1] ومن الرقة الدقيق والصابون الجيد والزيتون والزيت والأقلام[2] ومن عبادان ثياب القز الرفيع والحُصر[3] ومن حران القطن والموازين وعسل النحل[4] وآلات الفلك كالاصطرلاب[5] ومن آمد ثياب الصوف والكتان الرومية[6] ومن نصيبين الشاه بلوط والفواكه المقدودة والموازين والرصاص وحجر الزجاج [7]ومن النهروان الغلات والنخيل والكروم والسمسم[8] ومن الجزيرة الجوز واللوز والسمن والخيل الجياد[9] ومن حلوان يُحمل التين.[10]

والعلاقات التجارية بين الدولة الإسلامية والمشرق الأقصى قديمة جداً فقد توغل التجار شرقاً حتى الصين واستجلبوا الحرير الصيني الفاخر وهو أقدم ما أتحف به الصينيون العالم الغربي وقد سلكت هذه التجارة طريقاً عرف بـ"طريق الحرير العظيمة" مارة بسمرقند وتركستان الصينية التي قل من يطرقها من المسافرين والسياح حتى اليوم[11] وبما أن تجارة الحرير هي السبب الأساسي في ذهاب قوافل المسلمين فقد

*** بعض الكتاب المحدثين يضم إقليم الجزيرة إلى العراق كالدوري في كتابه تاريخ العراق الاقتصادي،ص ١٦٠-١٦١. كما يطلق عليه بعض الرحالة إقليم "أقور" كالمقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم،ص ١٤٥.

الموصل: سميت الموصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق وقيل وصلت بين دجلة والفرات وهذه البلدة لا يقل شيء من الخيرات في بلد إلا وجد فيها (ياقوت، المصدر السابق، مج ٥،ص ٢٢٣-٢٢٤).

(١) المقدسي: المصدر السابق، ص ١٤٥.

(٢) الحميري: المصدر السابق، ص ١١٢.

(٣) آدم متز: المرجع السابق، ص ٣٥٥، زيدان، المرجع السابق، ص ٣٩.

(٤) المقدسي: المصدر السابق، ص ١٤٥.

(٥) أحمد أمين: المرجع السابق، ج ٢،ص ٢٤٦.

(٦) المقدسي: المصدر السابق، ص ١٤١.

(٧) المصدر نفسه،ص ١٤١.

(٨) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٢١٨.

(٩) المقدسي: المصدر السابق، ص ١٤٥.

(١٠) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٢٢٠.

(١١) جرجي زيدان، المرجع السابق، ص ٣٩.

قل مسير هذه القوافل بعد أن انتشر هذا النوع من الحرير في شمال فارس[١] ولكنها لم تنقطع بل أصبحت منظمة منذ النصف الثاني من القرن الثاني الهجري(الثامن الميلادي) ثم ازدهرت خلال وبعد القرن الثالث الهجري[٢] كما يأتي من الصين اللبود الصينية التي كانت تُفضل على المغربية والسنجاب الذي يعتبر من أنفس الأوبار والحديد المصنوع[٣] والعقاقير والدارصيني* والمسك والسروج والكاغد والمداد[٤] وجُلبت أيضاً الأقفال وأواني الذهب والفضة والجواري. [٥]

وبلاد الهند العظيمة الوافرة التجارات يأتي منها بضائع تعتمد في الدرجة الأولى على المواد الكمالية الغالية الثمن خاصة بعد قيام الدولة العباسية الأمر الذي أدى إلى تحويل طرق التجارة تدريجياً عن البحر الأحمر وصارت تسلك طريق الخليج فالبصرة وبغداد وكان هذا التغيير في صالح بغداد وتجارها الذين استطاعوا أن يوسعوا نشاطهم التجاري في مجالات كثيرة وبذلك أصبحت التجارة مع الهند نشطة[٦] فكانت التوابل والبهارات والعقاقير والكافور** والأطياب والبخور والعود الهندي***

---

(١) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج ٢،ص ٣١٨.

(٢) حمدان عبدالمجيد الكبيسي: المرجع السابق، ص ٢٠٩.

(٣) الثعالبي: المصدر السابق،ص ٥٤٤.

* الدارصيني: نوع من القرفة "أصله من الصين لذلك عرف بالدار صيني وأقل أنواعه يُعرف باسم دارصوص وقرفه القرنفل أما الدار صيني الحقيقي فهو أضخم وفيه حُمرة وطعمه حريف قابض مع حلاوة ثم مرارة" ويستخدم الدار صيني كمادة طبية لأمراض عديدة (نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص ٢٢).

(٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ..، ج ٢، ص ٣٨.

(٥) عبدالعزيز الدوري: المرجع السابق، ص ١٦٣.

(٦) حمدان عبدالمجيد الكبيسي: المرجع السابق،ص ٢٠٧.

** الكافور: هو من أشرف الصموغ لفضله في التركيب ودخوله في الأدوية والطيب" (العمري: أحمد بن يحيى بن فضل الله مسالك الأبصار في ممالك الأمصار دراسة وتحقيق الدكتور محمد سالم بن شديد العوني، ط ١، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٩٠م،ص ٨٨) "أجوده ما حلا ذوقه وخف وعذب ريحه (الدمشقي، المصدر السابق، ص ٣٩).

*** العود الهندي: شجر عظيم ينبت ببلاد الهند لا تصير له رائحة إلا بعد أن يعتق ويبخر ويقشر ويستخرج من قلب الشجر (العمري، المصدر السابق، ص ٨٨) وهو ثلاثة أنواع كل نوع له لون يتميز به في الطب منه الأصفر الليموني والأصفر الغامق والأصفر الكالح (نعيم زكي، المرجع السابق، ص ٢١٦).

والسنجاب والثعالب السود كما كان يأتي من جنوب الهند اللؤلؤ والياقوت من جبل سرنديب. [١]

ورد من بلاد السند وهي بلد خيراتها وبضائعها كثيرة وأسعارها رخيصة– الفيلة والعود الهندي وسائر أصناف العود[٢] كما جلب التجار المسلمين من التيت المسك المعروف بجوزة طيبة. [٣]

وهناك مناطق مختلفة تأتي منها البضائع إلى أسواق العراق مثل بلاد الروم التي اشتهرت بديباجها الفائق الحُسن والمصطكي* والأرز والثياب الكتانية والبسُط[٤] وجُلب القصدير والعنبر والفراء من كافة أرجاء أوربا[٥] ومن بلاد الروس السمود الأسود وجلود الخز وجلود الثعالب السود.[٦]

لا شك أن هذا الكم الهائل من الوارد على بلاد العراق يبين لنا مدى كبر حجم التبادل التجاري بينها وبين العالم الإسلامي بل وغير الإسلامي ولابد أن يقابل هذا الوارد صادر وذلك لأن مسألة الصادر والوارد هي محاولة لسد حاجات المجتمعات بتصدير الفائض عن الحاجة واستيراد الناقص.

وعلى ذلك وبنفس الطرق البرية والبحرية التي ترد عن طريقها السلع التجارية على أسواق بغداد خرجت القوافل محملة بالبضائع إلى داخل الدولة العباسية وخارجها وكان بعضها يتجه نحو الغرب قاصدة دمشق وبلاد الشام وربما اجتازت إلى مصر وشمال أفريقيا وقوافل أخرى اتجهت نحو الجنوب إلى البصرة والهند

---

(١) الثعالبي: المصدر السابق، ص ٥٤٤

(٢) المقدسي: المصدر السابق، ص ٤٧٤، الجهشياري، المصدر السابق، ص ٢٨٣.

(٣) الثعالبي: المصدر السابق، ص ٥٤٤.

* المصَطَّكي: علك رومي ويستعمل في علاج العديد من الأمراض خاصة الأبيض منه مثل أمراض المعدة والإمعاء والكبد والسعال المزمن (حسين يوسف موسى، عبدالفتاح الصعيدي، المرجع السابق، ص ٤٠٤،ص ٥٤٨).

(٤) الثعالبي: المصدر السابق، ص ٥٣٥، عبدالعزيز الدوري، المرجع السابق، ص ١٦٤.

(٥) غوستاق: المصدر السابق،ص ٥٦٠.

(٦) جرجي زيدان: المرجع السابق، ص ٣٩.

والشرق الأقصى وثالثة إلى الشمال نحو الموصل وطربزون على البحر الأسود وربما توغلت في أوربا ورابعة إلى الشرق نحو خراسان ثم سمرقند وبحر الخزر. [١]

كانت بغداد تقوم بتصدير الأقمشة القطنية والمنسوجات الحريرية خاصة المناديل والعمائم وقد اشتهرت صناعتها في محلة العتابية ببغداد[٢] كما قامت بغداد بتصدير التمور العراقية والتي يأتي معظمهما من البصرة إلى الهند والصين[٣] ويخرج من بغداد الأدوات الزجاجية التي اشتهرت بصناعتها مع أدوات الترف الأخرى التي كانت مطلب الأغنياء[٤] وقد نبغ في هذه الصناعة الفرس الذين رصعوا الزجاج بالجواهر وكانوا يكتبون عليه بالذهب المجسم ويصنعون منه أقداحاً للملوك. [٥]

وما من البصرة كثير جداً ولكن أهم ذلك التمور * فللبصرة "نخيل متصل من عبدسي إلى عبادان نيف وخمسون فرسخاً متصلاً لا يكون الإنسان منه في مكان إلا هو في نهر أو نخيل"[٦] ويُحمل لبغداد ويأتي من البصرة الزجاج والخزف[٧] والخز وماء الورد والبنفسج والحناء[٨] كما يخرج من الأبلة ثياب الكتان الرفيعة على عمل القصب[٩] ومن الكوفة عمائم الخز وهي المناديل الحريرية التي تلبس للرأس وهي معروفة إلى اليوم بالكوفية[١٠] ومنها دهن البنفسج الذي يُحمل إلى بغداد[١] أما

---

(١) حمدان عبدالمجيد الكبيسي: المرجع السابق،ص ٢١٧.

(٢) المقدسي: المصدر السابق، ص ١٢٨، فليب حتي، المرجع السابق، ص ١٣٩.

(٣) محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص ١٢٨.

(٤) المقدسي: المرجع السابق، ص ١٢٨.

(٥) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والاجتماعي والثقافي ج٣ ، ص ٣١٠.

* لأهل البصرة من النخيل وأنواع التمور ما عدم مثله في جميع الكور التي بها نخل وقد أحصوا أصناف نخل البصرة فوجدوه ثلاثمائة وستين ضرباً وكلها ذات طعم عجيب (ابن الفقيه، المصدر السابق، ص ٢٥٣) يقال أن التمور بالبصرة بلغت درجة يباع في سوقها أربعة عشر رطلاً بدرهم ويصنع منه عسل يسمى السيلان (ابن بطوطة، المصدر السابق، ج ١،ص ١٢).

(٦) الحميري: المصدر السابق، ص ١١٢.

(٧) جرجي زيدان: المرجع السابق، ص ٣٩.

(٨) المقدسي: المصدر السابق، ص ١٤٥.

(٩) المصدر نفسه، ص ١٢٨.

(١٠) ابن الفقيه: المصدر السابق، ص ٢٥٢.

من واسط فتخرج البُسط* والستور الواسطية والشيم والدقيق وهذه تحمل أيضاً إلى بغداد[2] وسُامراء يخرج منها النخيل والكروم[3] والتين من حلوان[4]هذه السلع التي تخرج من مدن العراق أنها تحمل إلى بغداد لتستقر في أسواقها وتعرض فيها وقد يعاد تصديرها إلى أسواق خارجية من قبل تجار بغداد.

---

(١) المقدسي: المصدر السابق، ص ٢٨.

* البسط "أجودها ما حسن صبغه وضعف نسجه وثبتت قوته من ظاهره أكثر من باطنه" (الدمشقي، المصدر السابق، ص ٤٧).

(٢) المقدسي: المصدر السابق، ص ١٢٨-١٢٩.

(٣) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٢١٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٢٠.

٢- أسواق مصر وسلعها الواردة والصادرة

أولاً: الأسواق

كانت المدن المصرية غنية بأسواقها كما كان الحال في مدن العراق[١] ومن أشهر أسواق المدن الداخلية بمصر أسواق الفسطاط التي كانت عامرة بمختلف أنواع البضائع والسلع التي ترد إليها من الشام والمغرب والجزيرة والروم[٢] وقد ساعد على ذلك الغنى في الأسواق أمور عديدة منها زيادة السكان المضطردة بالمدينة ولكن السبب الرئيسي في ذلك يعود للموقع المتميز للفسطاط على رأس الدلتا إذ ينتهي إليها النيل منحدراً من الصعيد ثم يتفرع من شماليها ليتصل بشرق الدلتا وغربها ثم ينتهي إلى البحر الأبيض المتوسط كما كان خليج أمير المؤمنين يصل بين الفسطاط والبحر الأحمر. [٣]

والفسطاط بهذه الأسواق الحافلة بالبضائع كانت موضع إعجاب الرحالة الذين زاروها فوصفوها أوصافاً رائعة مثال ذلك ابن حوقل[٤] والذي كانت رحلته في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) يعجب بأسواقها ويصفها بالعظمة والفخامة في المتاجر.

أما المقدسي[٥] والذي زارها في نفس الوقت الذي زارها فيه ابن حوقل – فقد أدهشته تلك الأسواق بما فيها من "أطعمة لطيفة وادامات نظيفة وحلاوات رخيصة" فذكر لنا تفصيلاً السلع الواردة على تلك الأسواق من زجاج ورخام وخل وصوف وبز وكتاب وجلود وليف ووز وموز وشمع وريش وغزل وهريسة وحمص وترمس وقلقاس وحُصر وحُمر وبقر وحيتان وجميع هذه السلع غاية في الجودة.

---

(١) سيدة إسماعيل كاشف: المرجع السابق،ص ٢٩٤.

(٢) المقدسي: المصدر السابق، ص ٩٩.

(٣) جمال الدين الشيال: المرجع السابق،ص ١٠١.

(٤) صورة الأرض، المصدر السابق، ص ١٣٧.

(٥) أحسن التقاسيم، المصدر السابق، ص ١٩٩.

كما أبدى الرحالة ناصر خسرو- الذي كانت رحلته في النصف الأول من القرن الخامس الهجري- إعجابه الشديد بهذه الأسواق واصفاً لها بأنها تحتوى على جميع السلع وشد انتباهه سوق القناديل الزاخر بالتحف النادرة الجميلة. ووجد أنها كانت تحتوى على ما لا يقل عن عشرين ألف دكان يتراوح إيجار الواحد منها بين دينارين وعشرة دنانير مغربية. (١)

أما المقريزي(٢) فإنه يؤكد على أن ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الإسكندراني والبحر الحجازي فوق الوصف ويذكر أن رجلاً من الصالحين قال: "عددت من مسجد عبدالله إلى جامع ابن طولون ثلاثمائة وتسعين قدر حمص مصلوق١٢٣ بقصبة هذا السوق بالأرض سوى المقاعد والحوانيت التي بها الحمص فتأمل- أعزك الله- ما في هذا الخبر مما يدل على عظمة مصر. فإن هذا السوق كان خارج الفسطاط ومن المعروف أن الأسواق بداخل المدينة أعظم من الأسواق بخارجها ومع هذا ففي هذا السوق من صنف واحد من المآكل هذا القدر كم ترى تكون جملة ما فيه من سائر أصناف المآكل وقد كان بمصر عشرة أسواق كلها أو أكثرها أجل من هذا السوق.

وكان يرد إلى الفسطاط سلعاً عديدة من داخل مصر فورد إليها من الصعيد الأرز والصوف والتمور والخل والزبيب ومن تنيس الثياب الملونة ومن دمياط القصب ومن الفيوم الأرز الكتان ومن الفرما السمك. (٣)

وأسواق الفسطاط كانت تسمى بأسماء التجارات والمهن والحرف والصناعات المختلفة فهناك أسواق السراجين والوراقين والخبازين والزياتين والعلاقين والقشاشين والسماكين والصيادين وسوق العداسين وسوق الشوايين. (٤)

---

(١) سفر نامة، ص ٥٩ عن محمد جمال الدين سرور، المرجع السابق، ص ١٤٩.

(٢) الخطط والآثار، المصدر السابق، ص ١٥١.

(٣) المقدسي: المصدر السابق، ص ٢٠٣.

(٤) جمال الدين الشيال: المرجع السابق، ج ١،ص ١٠٣.

ومع تنوع هذه الأسواق وتنوع سلعها فإنها تميزت برخص أسعارها على الرغم من كثرة السكان بها فقد كان الخبز ثلاثين رطلاً بدرهم والبيض ثمانية بدانق[1] كما بيع القمح كل خمسة أرادب بدينار وبيعت عشرة أرادب بدينار في زمن أحمد بن طولون[2] وبلغ الحد من رخص أسعارها ورفاهية أسواقها أن البقالين والعطارين وبائعي الخردة كانوا يعطون الشاري الأواني الزجاجية والخزفية ليضع فيها ما يبتاع. [3]

مما لا شك فيه أن هذه الأسواق بمدينة الفسطاط تعد مظهراً من مظاهر الحضارة بما اشتملت عليه من نظام ونظافة ودكاكين عامرة بمختلف السلع وبما شهدته من ازدحام الناس حتى يُقال أنها "شبهت بالجوامع".[4]

وعن أسواق مدينة الإسكندرية التي أصبحت العاصمة الثانية لمصر منذ أن استولى عليها الفاطميون وثغرها المنيع الذي تفد إليه السفن التجارية حاملة سلع الشرق والغرب ومنها تنقل إلى الفسطاط ونافست بغداد في الزعامة التجارية كما أنها أصبحت قاعدة الأسطول الفاطمي في البحر الأبيض المتوسط للسفن القادمة من المغرب والأندلس. [5]

كما كان ميناء الإسكندرية مزدحماً بالسفن والتجار الذين يفدون عليها لشراء التوابل ولكل أمة من هؤلاء التجار مخازن خاصة بها وأسواق ومتاجر علقت فوقها لافتات تشير إلى أنواع السلع التي تباع فيها. [6]

لكل ذلك لا تستعجب إن وصُفت أسواق الإسكندرية بأنها في نهاية الاحتفال بجميع الخيرات ومن جميع البلاد. وفي جميع الأوقات ليلاً ونهاراً كحال تصرف أهلها في جميع أحوالهم. [7]

---

(١) المقدسي: المصدر السابق، ص ١٩٩.

(٢) المقريزي: المصدر السابق، ج ٢،ص ١٥١.

(٣) ناصر خسرو: سفر نامة، ص ١٣٥ نقلاً عن الشيال: المرجع السابق، ص ١٠٦.

(٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب ، ص ٥٩٩.

(٥) البكري: أبوعبيد، المسالك والممالك، المصدر السابق، ص ٢٠٢.

(٦) سونيا ي هاو: المرجع السابق، ص ٥٦.

(٧) ابن جبير: المصدر السابق، ص ١٤–١٧.

والقاهرة كذلك كانت تحوى الأسواق الجميلة المملوءة بما تشتهى الأنفس والحانات المشحونة بالواردين والفنادق المكتظة بالسكان. (١)

معظم أسواق هذه المدينة مبلطة ويكون في جانبيها إفريزان يمشى عليهما الناس في زمن الشتاء كما أن أغلبها مغطى بالسقائف وبعضها يضاء ليلاً ونهاراً بالقناديل لأن ضوء الشمس لا يصل إلى داخلها ولتسهيل الانتقال في أسواق القاهرة وجدت على نواصيها الخمر المسرجة عليها برادع مزينة لتكون في خدمة من يريد الركوب. (٢)

وقد كانت دكاكين البزازين مملوءة بكل ما هو متصور من أنواع الثياب من خريفي وربيعي وشتوي وصيفي. (٣)

أعظم أسواق القاهرة في العصر الفاطمي كانت سوق القصبة التي تحتوى على اثني عشر ألف حانوت عامرة بأنواع المآكل والمشارب والأمتعة وكلها مبهجة المنظر وممتعة وبالقصبة نفسها عدة أسواق مثال ذلك سوق الشماعين الذي كان يُباع فيه كل ليلة من الشمع ما لا يقدر ثمنه وكان رمضان موسم عظيم لهذا السوق لكثرة ما يشترى من الشموع التي تزن الواحدة عشرة أرطال ومن الشمع الذي يُحمل على عجل ويبلغ وزن الواحدة منها قنطار وما فوق وكل ذلك برسم ركوب الصبيان لصلاة التراويح وهناك سوق الدجاجين وهو يلي سوق الشماعين يُباع فيه الدجاج والأوز وفي يوم الجمعة يباع فيه أصناف القماري والهزارات والسُمان. (٤)

وبالقاهرة أسواق أخرى كسوق الزجاجين وسوق الحرير وسوق القشاشين والسراجين والمرحلين وكلها أسواق عامرة وغاية في الروعة والجمال. (٥)

---

(١) المقريزي: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٧٢.

(٢) عبدالمنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٨م، ص ٣٠٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٠٣.

(٤) المقريزي: المصدر السابق، ج ٣،ص ١٧٥.

(٥) المصدر نفسه ، ج ٣،ص ١٧٥.

ثانياً: السلع الواردة والصادرة

كانت الفسطاط مجمع التجارة الواردة من الشمال والجنوب عن طريق النيل فإن الأسطول الكبير من السفن النيلية كان يصعد وينحدر شمالاً ثم يعود محملاً بجميع أصناف التجارة.

كذلك كانت تنتهي إلى الفسطاط التجارة الواردة من بلدان الشرق كبلاد العرب والهند والصين وكانت تلتقي مع التجارة الوافدة من جنوب أفريقيا وأواسطها وتصلان إلى مصر عن طريق القلزم وخليج أمير المؤمنين أو عن طريق عيذاب – قوص– قفط– قنا ثم تحملها الدواب أو السفن حتى تصل الفسطاط. (١)

وهذا التميز في الموقع يوضح لنا عِظم حجم الواردات إلى مصر والتي كان من أهمها التوابل وهذا النوع من التجارة يستحق شيء من التوضيح إن لم يكن الإطالة وذلك لأن تجارة التوابل تعتبر منشأ العلاقات بين الأمم منها تكونت حلقات الاتصال بين فترات التاريخ.

يرجع الفضل لهذه التجارة بأنها أوجدت اتصالاً بين الشرق والغرب بصورة مستمرة فالطرق التي سلكتها القوافل المحملة بتوابل الشرق لم تلبث أن أصبحت أهم شرايين الاتصال في آسيا وأفريقيا. وقد عُدل بعض الوقت في بعض الأزمنة عن انتهاج هذه الطرق. ولكن قدر لها أن تستعيد مكانتها. وهناك طرق قوافل لم تنقطع منذ آلاف السنين بينما فتحت طرق جديدة منها ما اقتضت فتحه أحداث معينة لها أهميتها في محيط السياسة الدولي ومنها ما اقتضاه تزايد الطلب عليها.(٢)

لعبت مصر دور الوسيط التجاري في تجارة التوابل التي كانت تنقلها من الهند والشرق الأقصى وشرق أفريقيا وكانت أهم أنواع التجارة في عصر الفاطميين بحيث ظهرت طبقة من التجار تخصصت لهذه التجارة عرفت لاحقاً في أيام المماليك باسم تجار "الكارم" "أو الكاريمي" أو "الكارمية". نسبة إلى تجار من كانم– جماعة سودانية

---

(١) جمال الدين الشيال: المرجع السابق، ج ١،ص ١٠٢.

(٢) سونيا ي هاو: المرجع السابق، ص ٢٧–٢٨.

الأصل- كانت تعيش في مصر وأصبحت التسمية تطلق على كل من يتاجر في التوابل. (١)

من أهم أنواع التوابل التي جلبتها مصر من الشرق الأقصى الفلفل* والقرفة والقرنفل** الذي ورد ذكره بكثرة في الكتب التي تتحدث عن حفظ الأطعمة خاصة الأسماك ومن التوابل أيضاً تابل الخلنجان والزنجبيل وجوز الطيب*** ولم تقتصر التجارة على التوابل بل شملت كذلك العطور والبخور والتي ورد معظمها من الشرق الأقصى وفارس وبلاد ما وراء النهرين وكانت تصل إلى القاهرة عن طريق البحر الأحمر والشام وسوقها رائجة في القاهرة ويرث تجارتها المصريون أباً عن جد وكانت القاهرة منذ عام ٩٦٩م قد امتلأت شوارعها الضيقة ببائعي العطور والتوابل حتى أن جوها المشبع برائحة التوابل والعطور العتيقة الحادة يبدو اليوم وكأنه يحمل بين طياته خيال ذلك العهد البعيد".(٢)

ومن أنواع العطور والبخور التي استجلبت من الشرق المسك أو العنبر وخشب الصندل**** والبخور واللبان الجاوي وعود الند*****.(٣)

---

(١) عبدالمنعم ماجد: المرجع السابق، ص ٣٠١.

* الفلفل: وهو حريف المذاق ذو رائحة طيبة ويشترط وجود الماء بكثرة في جذوره وثمرته تشبه العناقيد وإذا اشتدت الشمس وارتفع حرها تنضم أوراقها على عناقيدها وإلا حرق الفلفل قبل أوان إدراكه (حسين يوسف وعبدالفتاح الصعيدي، المرجع السابق، ج ١،ص ٤٠٤) وللفلفل تأثير قوي كعلاج الأمراض وتنشيط الجهاز الهضمي وحفظ اللحوم والأطعمة (نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص ٢٠٠).

** القرنفل: وهي براعم بها ثمار تحملها أغصان شجرة معروفة بهذا الاسم وكانت تستعمل أغصان الشجرة وأوراقها في الطب والأطعمة والأشربة ومن أشهر أسواقه الإسكندرية (الدمشقي، المصدر السابق، ص ٣٩).

*** جوز الطيب: شجر كبير دائم الخضرة وهو من أشجار جوز الهند والملايو وسيلان وهو طيب الرائحة أجوده ما كان أشد حمرة وأدسمه وأرزنه وأدناه أشده سواداً وأخفه وأيبسه، (العمري،المصدر السابق، ص ٩).

(٢) سونيا ي هاو: المرجع السابق، ص ٤٠.

**** خشب الصندل: خشب طيب الرائحة وهو صنفان الأبيض والأحمر فالأبيض منه يدخل في الأدوية والطيب والأبيض منه يستخدم في الأدوية فقط (الدمشقي، المصدر السابق، ص ٣٩).

***** عود الند: هو خشب طيب الرائحة وهو معروف في التجارة والطب والصيدلة وأفضله الهندي وأجل صفاته الرزانة واللون المائل إلى السواد(المصدر نفسه، ص ٣٨).

(٣) على حسني الخربوطلي: المرجع السابق، ص ١٣٩.

وهناك سلعة هامة جلبتها مصر من الخارج لافتقارها إليها وهي الأخشاب المتينة التي تحتاجها لصناعة المراكب إذ كانت غابات مصر لا توجد فيها إلا أشجار خشب السنط[1] ومعظم هذه الأخشاب تأتي من أوربا خاصة المدن الإيطالية مثل بيزا وجنوا والبندقية حيث يأتي منهما خشب اللبخ والسنديان[2] أما خشب الأرز فيأتي من آسيا الصغرى وسوريا ولبنان وأخشاب الزينة كخشب التاك والساج من الهند وبلاد الشام وخشب الأبنوس من السودان. [3]

استجلبت مصر من بلاد المغرب سلعاً شتى مثل زيت الزيتون والفاكهة خاصة التين المالقي والمرجان البلورى الذي يخرج من مدينة صفاقص[4] كما استوردت من برقة الصوف والعسل والقطران[5] ومنها أيضاً استوردت الحيوانات للذبح[6] ومن الأندلس الجوهر والياقوت ومن صقلية القمح والفاكهة والشاه بلوط والبندق والمعادن والشمع والعسل والنوشادر [7]ولمصر تجارة واسعة مع بلاد فارس ومنها يخرج إلى مصر ماء الورد الذي اشتهرت به[8] ويأتيها من نيسابور النقل* والفيروز ومن بلوخستان اللازورد الذي يستخدم في التزويق. [9]

---

(١) ابن مماتي:المصدر السابق، ص ٣٦٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٦٥.

(٣) جمال الدين الشيال: المرجع السابق، ص ١١٠.

(٤) البكري: المقري في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، ص ٢٠٥.

(٥) أحمد أمين: المصدر السابق، ج ٢،ص ٣٤٧.

(٦) البكري: المصدر السابق، ص ٥.

(٧) ابن جبير: المصدر السابق، ص ٢٩٧.

(٨) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٢٦٠.

* النقل: نوع من الطين الأخضر يستعملونه بعد الأكل ويباع الرطل منه في مصر بدينار (أحمد أمين، المرجع السابق، ج ٢،ص ٣٤٧).

(٩) الدمشقي: المصدر السابق، ص ٣٦.المقريزي: المصدر السابق، ج ٣،ص ١٧٠، المقدسي: المصدر السابق، ص ١٨٠.

ومن بلاد الشام خرج إلى مصر زيت الزيتون والصابون والدبس والفستق والجوز واللوز والخرنوب. (١)

أما السلع التي كانت تأتي من أفريقية وتمتلئ بها أسواق الإسكندرية في كثيرة جداً من أهمها العاج الذي كان موجوداً بكثرة في أثيوبيا ويفوق عاجها عاج الهند فهو أطول وأثقل منه(٢) وسن الفيل وخشب الأبنوس يأتيان من بلاد الفرات والرقيق من بلاد النوبة(٣) والصمغ الذي يصل للقاهرة في الربيع ويأتي من كردفان وهو أجود من صمغ بلاد فارس. (٤)

كما ذكرنا أن مصر لعبت دور الوسيط التجاري لأهم السلع التجارية من الشرقين الأدنى والأقصى لأوربا. كالتوابل التي احتلت مكانة في المرتبة الأولى من الأهمية في أوربا لأنها تعتبر من الوسائل المفيدة للصحة فهي بتحسينها نكهة الطعام تنشط الشهية وتجعل في استطاعة الإنسان استساغة تلك الأطعمة التي كثيراً ما تكون غير مستساغة. (٥)

وعلى ذلك كانت التوابل منذ أوائل العصور الوسطي هي غذاء الأغنياء في غرب أوربا كما كان البخور الشرقي من متطلبات الكنائس الغربية ويقال أن الأشراف ورجال الكنيسة كانوا مولعين بالطعام المتبل وفي عصر النهضة أولع الشعب بهذه الطريقة في الطهو بعد أن اعتاد استعمال التوابل في الأطعمة منذ الحروب الصليبية. (٦)

وأبرز هذه التوابل التي اشتد عليها الطلب في أوربا الفلفل الذي اشتدت الرغبة في الحصول عليه أكثر من أي تابل آخر على الرغم من ارتفاع ثمنه حتى قيل في المثل "أن شيئاً ما غالٍ كالفلفل" وسبب ذلك أنه كان للفلفل قوة شرائية يتعامل بها في

---

(١) المقريزي: المصدر السابق، ج ٣،ص ١٧٠، المقدسي: المصدر السابق، ص ١٨٠

(٢) نعيم زكي: المرجع السابق، ص ٢٤١.

(٣) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٦١٤.

(٤) نعيم زكي: المصدر السابق، ص ٢٣٤.

(٥) سونيا ي هاو: المرجع السابق، ص ٤٥.

(٦) نعيم زكي فهمي: المرجع السابق،ص ١٩٢.

ظـروف معينــة حيـث كــان مـن العــادات الشــائعة بـين رؤســاء الكنيســة الفرنســية أن يتقاضوا العشور تـوابلاً فلفلاً أو جنزبيلاً. ويفُرض علـى اليهود جزيـة ضرائبيه قوامها الفلفـل والجنزبيـل والشـمع نظيـر السـماح لهـم بحـق بحيـازة مـدافن لموتـاهم ومـدارس لأبنائهم[١] وفي إنجلترا كانت له قوة شرائية مثل العملة تماماً لندرتـه وغلوه وكـان يقوم مقام العملة في الإيجارات الزراعية ومهور الزواج. [٢]

لهـذه الأهميـة القصـوى للتوابـل فـي أوربـا كانـت عيـذاب علـى البحـر الأحمـر وقوص في الصعيد طريق التجارة الواردة من الهند لكي تصعد في النيل إلى الموانئ تبحر بعدها إلى أوربا لا سيما المدن الإيطالية النشطة مثل بيزة وجنوة والبندقية والتي كما ذكرنا تورد لمصر بدورها منتجات أوربا لا سيما الأخشاب ومن ثم تجتاز جبال الألب ومنها تنحدر إلى وادي نهر الراين حتى تصل هولندا.[٣]

وهناك سلع أخرى لعبت فيها مصر دور الوسيط مثل الصمغ اللك* الذي كان يصل لأوربا عن طريق موانئ البحر الأبيض المتوسط كالإسكندرية ومن السلع أيضاً العـاج الـذي حفلـت بـه أسـواق الإسـكندرية وقـد اسـتخدم العـاج فـي نهايـة العصـور الوسطي في التطعيم والترصيع وصنع قطع الأثاث الفخم ومنه تصنع تحف المعابد والكنـائس والتماثيـل وأيـدي المقاعـد والعصـى ويُقـال أنـه يـدخل فـي بعـض العلاجـات الطبية. [٤]

ومثلما كانت أسواق مصر تقوم بتصدير منتجات الشرق الأقصى إلى الغرب فكذلك قامت بتصدير سلع كانت من إنتاج مصر مثل ذلك صناعة هامة لقيت رواجاً كبيراً في العالم الإسلامي وأوربا خاصـة وهي المنسوجات المصرية. وقد اشتهرت بصناعته عديد من المدن المصرية كتنيس التـي ينسب إلـى إحدى مدنها "دبيـق"

(١) سونيا ي هاو: المرجع السابق،ص ٢٣، نعيم زكي، المرجع السابق، ص ١٩٩.

(٢) عبدالمنعم ماجد: المرجع السابق، ص ٣٠٢.

(٣) سونيا ي هاو: المرجع السابق،ص ٤٥.

* موطنه الهند ويخرج من الشجر عندما تحدث فيه حشرة المن ثقوباً وأنواعه ثلاثة الصمغ الأخضر والصمغ الأحمر الغامق والنوع الثالث وسط بين الأخضر والأحمر (نعيم زكي، المرجع السابق، ص ٢٣٥).

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٤١.

القماش المسمى بالدبيقي، وكانت تنيس تصدر أيضاً ثياباً رقيقة جداً كالمنخل يسمى بالقصب وكان هذا القصب يكون ويعمل منه عمائم للرجال ولا ينسج في جهة أخرى غيرها وإن كان الأبيض ينسج في دمياط[١] التي اشتهرت أيضاً بالملابس الكتانية كما كان بمصر منسوجات الإسكندرية التي لم يكن لها نظير في العالم في ذلك الحين. وهناك مدن صعيدية كذلك اختصت بالنسيج الممتاز كالبهنسا بالمنيا وأسيوط واخميم وأهناس وبوصير[٢] وأسوان التي تصدر المعمول شقه والمناديل. [٣]

هذا النوع المهم من السلع المصدرة يخضع لرقابة حكومية صارمة محافظة على مستواها الفني فلم تكن الحكومة تترك المصانع الأهلية حُرة في تسويق إنتاجها فكانت لا تبيع إلا للسماسرة الذين تعينهم الحكومة ويختم على إنتاج هذه السلعة بخاتم الدولة الرسمي ويُقيد ما يُباع منها في سجلات خاصة وكان حزم الأقمشة وربطها وشحنها يقوم به عمال تعيينهم الحكومة. [٤]

لهذه الجودة في النسيج والدقة في تصنيعه ومتابعته حرصت معظم أقطار العالم على استيراد المنسوجات المصرية خاصة الخلافة العباسية حيث كان الخليفة العباسي وحاشيته في بغداد يحرصون على تلقي منسوجات مصر الفاخرة كل سنة ومن ذلك نسيج الدبيقي السالف ذكره فقد كان معظمه ينسج بالذهب بطريقة محكمة لا تحتاج إلى تفصيل ولا خياطة وتبلغ قيمته نحو ألف دينار. [٥]

كما كان التجار الأوربيون يقدرون المنسوجات الحريرية المصرية تقديراً يفوق سائر المنسوجات ويتحدثون عن منسوجات القاهرة والإسكندرية التي تبلغ من الرقة درجة يُستطاع معها أن تمر في خاتم الأصبع. [٦]

---

(١) اليعقوبي: البلدان، المصدر السابق، ص ٣٣٥، عبدالمنعم ماجد، المرجع السابق،ص ٣٣.

(٢) على حسني الخربوطلي: المرجع السابق، ص ٦٢.

(٣) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ١٤٨.

(٤) حسن أحمد محمود: مصر في عصر الطولونيين، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ١١١.

(٥) أحمد أمين: المرجع السابق، ج ٢،ص ٢٢٤.

(٦) شوقي أبوخليل : الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٤م،ص ٣٨١.

ومن السلع التي تواجدت في صعيد مصر بكميات وافرة المعادن والأحجار الكريمة فقد كان الذهب متواجداً في حدود البجة وعيذاب التي تعتبر مجمع تجارات أهل المدن بالعلاقي حيث يقوم أهلها بصيد اللؤلؤ في شهري يونيه ويوليو من كل سنة وتكاثر بها الزمرد الذي صُدر إلى أوربا وآسيا والحبشة وتقع مناجمه على الحدود بين مصر والنوبة في منطقة توازي الجبال بين النيل والبحر الأحمر[١] والأكثر شيوعاً في مصر من المعادن النفيسة الذهب فقد كان عند غنيهم ومتوسطهم وفقيرهم لتواجده بكميات كبيرة في مناجمه بالصحراء بين أسوان وعيذاب. [٢]

ومن السلع التي صدرتها مصر خاصة إلى جنوة الشب والنطرون* ولاحقاً نجد أن الحكومة الفاطمية احتكرت تجارتهما واحتفظت لنفسها بحق بيعه للروم[٣] وحُمل الدقيق والغلات التي كانت تزرع في الواحات والفيوم إلى الحجاز وقد أحصيت ميرة الحجاز من الدقيق والغلات في وقتٍ من السنة بحوالي ثلاثة آلاف حمل في كل أسبوع[٤] ومن هذه الغلات حُمل القمح والشعير إلى بلاد الأندلس[٥] ومع الغلال فقد صدرت مصر السكر والتمر والموالح والقطن معظم ذلك يذهب للغرب. [٦]

كل هذه السلع الصادرة عن أسواق مصر غاية في الجودة وفي خصائص تجارتهم يقول صاحب التقاسيم "لا نظير لأقلامهم وزجاجهم وخلهم وصوفهم وخيشهم وبزهم وكتانهم وجلودهم وليفهم ووزهم وموزهم وشمعهم ودقهم وصبغهم وريشهم

---

(١) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ١٥١.

(٢) نعيم زكي فهمي: المرجع السابق، ص ٢٥٣.

* يوجد النطرون بالديار المصرية في معدنين أحدهما في البر الغربي وهما نوعان الأحمر والأخضر وحاجة الأخضر أكثر والمعدن الآخر بمنطقة الفاقوسية وهو أقل جودة من المكان الأول (ابن مماتي، المصدر السابق، ص ٣٣٤).

(٣) حسن إبراهيم حسن: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٢٥١.

(٤) المقدسي: المصدر السابق،ص ١٩٦.

(٥) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ج٤، ص٦١٤.

(٦) نعيم زكي فهمي: المرجع السابق، ص ١٩٦.

وغزلهم وأشنانهم وهريستهم وحمصهم وترمسهم وقرطهم وقلقاسهم وحصرهم وبقرهم وحمرهم وحزمهم ومزارعهم ونهرهم...". [١]

(١) المقدسي: المصدر السابق، ص ٢٠٣.

٣-أسواق الشام وسلعها الواردة والصادرة

أولاً: الأسواق

اشتملت بلاد الشام والتي هي إحدى أقاليم الدولة العباسية الهامة على العديد من الأسواق والمراكز التجارية من أهمها دمشق التي كانت أسواقها من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها انتظاماً وقد أُعجب الرحالة بهذه الأسواق وخاصة القيساريات التي كانت تشبه الفنادق في ارتفاعها والقصور في أبوابها المغلقة بالأغلاق الجيدة وأهم أسواق دمشق السوق الكبير يبدأ من باب الجابية إلى الباب الشرقي وفيه مصلى(١).

وهناك أسواق حلب وهي أسواق حسنة وواسعة وذات فنادق كثيرة(٢) "وهي منظمة ومستطيلة تخرج من صف صنعة إلى صف صنعة أخرى إلى أن تنتهي من جميع الصناعات بالمدينة وكلها مسقفة بالخشب وقيساريتها غاية في الجمال والنظافة وحوانيتها "خزائن من الخشب البديعة الصنعة وقد اتصل سماط "صف" خزانة واحدة وتخللتها شرفة خشبية بديعة النقش وتفتحت كلها حوانيت فجاء منظرها أجمل منظر وكل سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع المكرم"(٣) ومع جمال هذه الأسواق فقد كانت رخيصة الأسعار في المآكل والمشارب. (٤)

ومن الأسواق التي حفلت بها بلاد الشام أسواق حماة وهي أسواق جامعة لجميع الصناعات وهي حسنة التنظيم وبديعة الترتيب والتقسيم(٥) وأسواق منبج التي وصفت باتساعها واتساع دكاكينها وحوانيتها. (٦)

---

(١) ابن جبير : المصدر السابق، ص ٢٦٢.

(٢) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ١٦٣.

(٣) ابن بطوطة: المصدر السابق، مج ١،ص ٢٧٦.

(٤) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ١٦٣.

(٥) ابن جبير: المصدر السابق، ص ٢٣١.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٢٣.

ثانياً: السلع الواردة والصادرة

لا شك أن هذه الأسواق المنظمة الواسعة والحافلة بضائعاً قد لعبت دوراً كبيراً في فترة النشاط التجاري الذي عمّ العالم الإسلامي في العصور الوسطي حيث كانت دمشق مركزاً للقوافل الآتية من آسيا الصغرى أو من أقاليم الفرات إلى بلاد العرب ومصر. وكان كثير من الحجاج يجتمعون في دمشق ثم يسيرون إلى مكة وقد ساعد ذلك على وفرة السلع في أسواق دمشق وكانت المدن مثل طرابلس وصور وعكا تحصل على ما تحتاج إليه من السلع من سوق دمشق الكبيرة. (١)

خرجت القوافل التجارية من بلاد العراق إلى الشام سالكه اتجاه الغرب محملة ببضائع العراق من التمور(٢) والخز ومار الورد والبنفسج والحناء الواردة من الكوفة(٣) كما كان يرد لأسواق الشام من بلاد فارس ثياب القطن خاصة القطن المعروف بالزندريخي الذي يتخذ منه الملوك في الشام ثياباً(٤) كما كان يأتيهم منها البسط والستور وكل منتجات البحر الفارسي الآتية من المشرق كالعود والعنبر والصندل والكافور والفلفل والجواهر وغيرها من أنواع التوابل والعطور. (٥)

ورد إليهم من بلاد المغرب بضائع كثيرة مثل القطران والقمح والقطن الذي كان يجلب لسورية(٦) والثياب الرفيعة مثل عمائم المعمور(٧) كما تُحمل إليهم بعضاً من الفاكهة التي اشتهرت في المغرب كالخوخ والكمثري والسفرجل وغيره. (٨)

---

(١) محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص ١٤٤.

(٢) الحميري: المصدر السابق، ص ١١٢.

(٣) المقدسي: المصدر السابق،ص ١٤٥.

(٤) بشير رمضان التليسي: المرجع السابق، ص ٢٣٢.

(٥) الاصطخري: المصر السابق، ص ٩٢.

(٦) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٦٩.

(٧) مجهول: المصدر السابق، ص ٢٠.

(٨) المقدسي: المصدر السابق، ص ٢٣١.

أما من الأندلس فقد كان يُحمل إليهم التين المالقي الذي يخرج من مالقة ويوزع إلى الآفاق بما في ذلك الشام[١] والخز والفراء والسيوف[٢] والبغال[٣] والزعفران*. [٤]

ومن الهند حُمل إلى بلاد الشام الأطياب والبخور والتوابل التي سبق ذكرها لا سيما عود الند[٥] ومن أسواق أوربا وردت إليهم المنسوجات الصوفية. [٦]

وما يخرج من مدن الشام وأسواقها كثير وعلى رأس ذلك المنسوجات القطنية والتيلية والحريرية التي وصلت إلى سائر الأقطار الإسلامية وأوربا والشرق الأقصى والهند وقد أنشأ المسلمون عديداً من مصانع النسيج وخاصة مصانع الحرير والديباج الدمشقي الذي اشتهرت به دمشق وصدرته مع منتجاتها الأخرى كدهن البنفسج والكاغد والقطين كما خرج من حلب وأسواقها القطن والثياب المذهبة والمنقوشة والتي تصدر إلى جهات عديدة أهمها المغرب[٧] ومن منبج السمسم والكروم والفستق والزبيب[٨] الذي كان يخرج من فلسطين أيضاً جنباً إلى جنب مع الصابون وكل ذلك يذهب إلى العراق والمغرب والأندلس[٩] ومما اشتهرت به بلاد الشام وخرج إلى الأقطار الإسلامية زيت الزيتون الذي كثر وجوده بفلسطين وسوريا وخرج إلى مصر والعراق وبقية أنحاء العالم الإسلامي.[١٠] كما خرج منها معظم أنواع الحبوب والغلات

---

(١) الحميري: المصدر السابق،ص ٥١٧.

(٢) ابن خرداذبة: المصدر السابق،ص ١٥٣.

(٣) الاصطخري: المصدر السابق، ص ٣٧.

* الزعفران: نبات يشبه السمسم يستعمل في التلوين باللون الأصفر أجوده الحديث العهد الخالي من البياض (الدمشقي، المصدر السابق،ص ٣٩).

(٤) البكري: المصدر السابق، ص ٨٨.

(٥) الثعالبي: المصدر السابق،ص ٥٤٤، المقدسي، المصدر السابق،ص ٤٤٨.

(٦) نعيم زكي فهمي: المرجع السابق، ص ٢٢٧.

(٧) المقدسي: المصدر السابق، ص ١٨١.

(٨) ابن حوقل: المصدر السابق،ص ١٦٦.

(٩) الجهشياري: المصدر السابق،ص ٢٨٧.

(١٠) المقدسي: المصدر السابق،ص ١٨١.

كـالقمح والشـعير مـن طرطـوس وبـالس وبعلبـك وعمـان[١] ويخـرج أيضـاً الأدوات الزجاجية والدقيق[٢] هذا غير الفاكهة كالعنب وتفاح الشام والبطيخ الذي يخرج من دمشق وبعلبك ويُصدر معظمه إلى بلاد العراق[٣] هذا بالإضافة إلى منتجات أخرى كالجوز واللوز والخرنوب الذي يخرج من فلسطين[٤] والخرفان والعسل والكاغد الذي يخرج من طبريه وصور والقطن والنخيل وقصب السكر[٥] أما السكر فقد خرج من مناطق كثيرة من بلاد الشام مثل بيروت وصور وكان يصدر للغرب الذي أحتاج إليه كثيراً مع سكر مصر الأبيض. [٦]

ومن المنتجات التي وردت كثيراً على أسواق أوربا من بلاد الشام المن* الذي اشتد عليه الطلب من قِبل صيادلة وأطباء الغرب الأوربي. [٧]

---

(١) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ١٦٥.

(٢) اليعقوبي: البلدان، المصدر السابق، ص ٢٥٠.

(٣) المقدسي: المصدر السابق،ص ١٨١.

(٤) المقريزي: المصدر السابق، ج ٣،ص ١٧٠.

(٥) المقدسي: المرجع السابق،ص ١٨٠، ابن حوقل، المصدر السابق،ص ١٦٢.

(٦) المصدر نفسه،ص ١٦٢.

* المن: نوع من النباتات التي تستخدم في صناعة العقاقير الطبية ويخرج من شجرة القز أي من أشجار الصبغة (نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص ٢١٦).

(٧) المرجع نفسه ص ٢١٦.

٤-أسواق المغرب وسلعها الواردة والصادرة

أولاً: الأسواق

بلاد المغرب كغيرها من أقاليم الدولة العباسية حفلت بأسواق عظيمة وذات نشاط تجاري واسع وأعظم هذه الأسواق أسواق مدينة فأس التي كان "لها من كل شيء حسن أوفر حظ"[١] وكانت أسواق فأس التجارية مركزة داخل وسط المدينة وإن كان تجار الجملة عادة يستقرون بالقرب من أبواب المدينة تلافياً لاختراق الدواب لسلعهم[٢]. وقد كانت غاية في النظام فلكل حرفة سوقها الخاص وأهم هذه الأسواق ما يحيط بجامع "القرويين" وبالقرب منه وأول هذه الأسواق سوق العدول تشتمل على ثمانين دكاناً وإلى الجنوب منها بائعو الأحذية الذين يشغلون قرابة مائة وخمسين دكاناً يشترون الأحذية بالجملة ثم يبيعونها بالتقسيط وفي شرقي الجامع باعة أواني النحاس وأمام الجامع الباب الرئيسي في الجهة الغربية باعة الفواكه الذين يشغلون نحو خمسين دكاناً. ثم الشماعون الذين يصنعون من الشمع أشكالاً جميلة وبعد ذلك بائعي الزهور. [٣]

ومما يدل على تنظيم الأسواق والحرف في المدينة أن الصناعات التي تتطلب استيراد موادها من جهات المدينة تتخذ موقعاً خارج الأسوار كصناعة الفخار ومعاصر الزيوت ومناشر الأخشاب أما الصناعات التي تتطلب تدفق المياه فكانت على ضفتي النهر الذي يفصل بين عدوة القرويين وعدوة الأندلس مثل المطاحن والمدابغ أما صناعة الحياكة والصباغة والزجاج والكاغد والنحاسة والحدادة فكانت موزعة. [٤]

---

(١) الحميري: المصدر السابق،ص ٤٣٤.

(٢) ندوة لجنة التراث والقيم الروحية والفكرية، فأس في تاريخ المغرب، القسم الأول، أكاديمية المملكة المغربية، فأس، ٢٠٠٨م،ص ٥٠٣.

(٣) الوزان:المصدر السابق، ص ٢٣٣-٢٣٤.

(٤) ندوة لجنة التراث، المرجع السابق،ص ٥٠٣.

ونستدل على وفرة الإنتاج والبضائع التي كانت بمدينة فأس بسوق كبير يدعى "سوق التجار" الذي وصف بأنه شبه مدينة صغيرة مسورة بجدران ينفتح فيها اثنا عشر باباً وينقسم السوق إلى خمسة عشر حياً اثنان للخزازين الذين يصنعون أحذية الأعيان وحيان آخران لتجار الأقمشة الحريرية وحيان آخران لتجار الأقمشة الصوفية وثلاث أحياء يحتلها الخياطون وحي للعمال الذين يكفون حواشي الثياب وحيان لتجار الكتان الذين هم أغنى تجار فأس وحي لزينة الملابس وحي تباع فيه ملابس القماش الأوربي وأخيراً حي يُباع فيه قمصان الكتان القديمة. (١)

وغير هذه الأسواق الثابتة اشتهرت بفأس أسواق أسبوعية كسوق الأحد(٢) وسوق الخميس الذي لم يُرى سوق مثله في تكامل بضائعه. (٣)

ومن أسواق بلاد المغرب الرائجة أسواق تونس التي تضم عدداً كبيراً من تجار القماش الذين يعتبرون أغنى سكان المدينة كما تضم الأسواق عدداً كبيراً من الصناع والتجار كالعطارين وبائعي الأشربة والعقاقير المحلاة بالسكر وتجار العطور والحرير والخياطين والسراجين والفرائين والفاكهانين واللبانين والخبازين والقصابين الذين يذبحون الخرفان فقط. إلى غيرها من الحِرف التي تمارس في هذا السوق. (٤)

وأسواق برقه بالمغرب العربي أسواق حافلة بالبضائع أيضاً كبقية أسواق هذا الإقليم ومليئة بالمتاجر الصادرة عن المشرق والمغرب كالصوف والفلفل والعسل والشمع والزيت ووصفت هذه الأسواق برخص أسعارها لا سيما الأغذية. (٥)

وببلاد المغرب أسواق جامعة كثيرة منها أسواق ذات الحمام وأجدابية وأسواق سوسة التي كانت متخصصة بكثرة الأمتعة والتمر واللحوم وهي زيادة على ذلك رخيصة الأسعار(٦).

---

(١) الوزان: المصدر السابق، ص ٢٤٠-٢٤١.

(٢) البكري: المسالك والممالك، المصدر السابق، ص ٧٩٨.

(٣) ندوة لجنة إحياء التراث، المرجع السابق، ص ٥٠٣.

(٤) الوزان: المصدر السابق، ج ٢،ص ٧٥.

(٥) ابن حوقل: المصدر السابق،ص ٦٩.

(٦) مجهول: المصدر السابق،ص ١٤٤.

وأهم أسواق المغرب توجد في أعظم مدن المغرب وهي القيروان بما فيها أموال كثيرة وتجارة رابحة وسلعاً نافقة وأرباحاً نامية. [١]

وأسواق مراكش من أعظم وأجمل الأسواق مليئة بالفنادق وقيساريتها من أعظم القيساريات في مدن الأرض وأسواقها ممتلئة بالفواكه والثمرات خاصة الزيتون والزيت الذي تمتار به بلاد كثيرة. [٢]

وأما أسواق المهدية فهي تقع في ربض كبير يسمى زويلة وهي أسواق متينة البنيان بُنيت بالصخر الجليل[٣] تكثر بها الثياب الجيدة التي تحمل إلى الآفاق. [٤]

وتِلمسان من المدن ذات السواق الرخيصة والكثيرة النِعم والخيرات يوجد بها الخيل الراشدية التي لها فضل على سائر الخيول ويعمل النساء في أسواقها بشغل الصوف. [٥]

وهناك أسواق تاهرت العامرة بالعسل والسمن والفواكه خاصة السفرجل الذي يفوق سفرجل جميع البلاد حسناً[٦] وأسواق وهران ذات البضائع الكثيرة والتجارات الواسعة. [٧]

وكان للأسواق التجارية في بلاد المغرب منشآت هامة وهي الفنادق التي تعتبر مخازن كبرى لتسويق المواد المصنعة واستيراد المواد الخارجية مثل فندق الزيت وفندق السكر كما أن ازدياد التجار الأجانب في التجارة المغربية استدعى ترغيبهم بالامتيازات فسمح لهم بإنشاء الفنادق والحمامات. [٨]

ثانياً: السلع الواردة والصادرة

---

(١) الإدريسي: المصدر السابق، ج ١،ص ١٨٤.

(٢) مجهول: المصدر السابق، ص ٢١٠.

(٣) المصدر نفسه،ص ١١٧.

(٤) الإدريسي: المصدر السابق، ج ١،ص ٢٨٢.

(٥) ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج ، ص ٤٤.

(٦) مجهول: المصدر السابق، ص ١٧٨، الإدريسي، المصدر السابق، ج ١،ص ٢٥٦.

(٧) المصدر نفسه، ج ١،ص ٢٥٢.

(٨) ندوة لجنة إحياء التراث، المرجع السابق، ص ٥٠٣.

الأسواق المغربية باحتوائها على مختلف السلع الغذائية والثياب والمواد الخام تُوحي بعظم النشاط التجاري في هذه المدن انعكس ذلك في ما يحمل إلى هذه البلاد وما يخرج منها فجاءت الأقمشة المذهبة والمنسوجات الحريرية والثياب الصوفية في قائمة ما يحمل إلى بلاد المغرب فجاءها من مصر جميع المنسوجات المصرية التي كانت مطلب العالم حتى أوربا(١) والمنسوجات الحريرية كانت تأتي إليها من العراق خاصة المناديل والعمائم(٢) والأقمشة المذهبة كانت تحمل إليها من بلاد الشام(٣) والأقمشة الصوفية من أوربا. (٤)

وكانت بعضا من أنواع المنتجات الزراعية كالفواكه والغلات تحمل من بلاد الشام إلى المغرب مثل الزبيب والجوز وفستق الشام(٥) والزبيب والسمسم والكروم وزيت الزيتون ومعظمها يخرج من مدينة منبج وأسواقها. (٦)

أما المواد الخام فكانت ضمن السلع التي وردت إلى أسواق المغرب كالذهب الذي كانت تجلبه من السودان مع الزمرد والعاج والأبنوس والشب وجلود الحيوانات وريش النعام(٧) ومن المواد الخام القطن والكتان والنحاس وهذه كانت ترد من أوربا لا سيما المدن الإيطالية كجنوة وبيشة والأندلس والفراء من جلد السمور البحرية. (٨)

وبلاد الهند كعادتها في التجارة مع البلاد الإسلامية فقد كانت تأتيها بالبضائع الغالية الثمن والكمالية كالتوابل والبخور والعطور والسيوف والجواهر. (٩)

---

(١) أحمد أمين: المرجع السابق، ج ٢،ص ٢٢٤.

(٢) المقدسي: المصدر السابق، ص ١٢٨.

(٣) الجهشياري: المصدر السابق،ص ٢٨٧، المقدسي، المصدر السابق، ص ١٨١.

(٤) المقري: (أبوالعباس أحمد المقري التلمساني) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر ، بيروت، ٢٠٠٨م،ص ١٩٧.

(٥) ابن حوقل: المصدر السابق،ص ١٦٦.

(٦) مجهول: المصدر السابق، ص١٥٥.

(٧) السيد عبدالعزيز سالم: المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٦٢م،ص ٤٩١.

(٨) المقري: المصدر السابق، ج ١،ص ١٩٧.

(٩) الثعالبي: المصدر السابق، ص ٥٣٣، سونيا بي هاو، المرجع السابق،ص ٢٧-٢٨.

وما يخرج من المغرب فكثير كثرة خيراتها ومنتجاتها المتعددة لا سيما الزراعية منها فقد كانت تصدر أنواعاً عديدة من الفواكه والحبوب وغيرها من المنتجات الغذائية الزراعية من ذلك التين الذي يخرج من فأس وسجلماسة ويصدر إلى مصر وأوربا[١] والزيتون الذي يخرج من فأس أيضاً وسفاقص والقيروان ويحمل إلى مصر وصقلية وبلاد الروم[٢] والفستق الذي يُحمل إلى مصر[٣] ومن أطرابلس الخوخ والكمثري والتفاح والأعناب التي تحمل إلى بلاد مختلفة[٤] والرومان والسفرجل* والأترج الجليل الطعم[٥] كما خرج القمح من فأس وتونس إلى السودان وسوريا والقطن. [٦]

وخرجت من المغرب الثياب والأكسية الصوفية من أجدابية[٧] وأطرابلس[٨] وبرقه[٩] ومن تاهرت المنسوجات الصوفية والكتانية والحريرية التي خرجت من فأس أيضاً وكانت تحمل إلى السودان[١٠] ومن سوسة الثياب الرفيعة مثل عمائم المعمور تساوى العمامة منها مائة دينار ويحمل إلى جميع الأرض شرقاً وغرباً خاصة ثياب السندس التي تصل الهند كما يذهب الوشي المذهب الشرق. [١١]

---

(١) المقدسي: المصدر السابق،ص ٢٣٩، أحمد أمين، المرجع السابق،ج ٢،ص ٣٤٧.

(٢) البكري: المصدر السابق،ص ٢٠-٢٧.

(٣) مجهول: المصدر السابق،ص ١٥٤.

(٤) الحميري: المصدر السابق،ص ٧٨.

* السفرجل: نوع من الفاكهة تكثر في بلاد العرب واحدته سفرجلة والجمع سفارج وهو أصفر اللون في حجم الرمان زكي الرائحة (حسين يوسف، عبدالفتاح الصعيدي، المرجع السابق،ص ١١٥٨).

(٥) البكري: المصدر السابق،ص ٤١، المقدسي، المصدر السابق،ص ٢٣١.

(٦) ابن حوقل: المصدر السابق،ص ٨٤.

(٧) المصدر نفسه،ص ٦٩-٧٠.

(٨) الحميري: المصدر السابق،ص ٧٨.

(٩) المقدسي: المصدر السابق،ص ٢٣٩.

(١٠) السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق،ص ٣٩١.

(١١) مجهول: المصدر السابق، ص ١٩٠.

وكما خرج من المغرب المنتجات الزراعية من فواكه وغلات وحبوب ومنتجات نسيجية من صوف وكتان وحرير فقد صدرت أيضاً مواد خام مثل الجلود التي تخرج من برقه وفأس وتُحمل إلى أوربا لا سيما المدن الإيطالية وفرنسا[1] كما صدرت المرجان الطبرقي إلى الهند والصين والسبتي إلى السودان[2] كما كان أهل سجلماسة يخرجون بالملح والنحاس والودع إلى السودان الغربي[3] ومن السلع التي انفردت بتجارتها برقه القطران الذي ليس من النواحي مثله[4] أما الشب فكان يخرج من مراكش وسرت. [5]

(١) ابن حوقل: المصدر السابق،ص ٩٥،ص ٨٩.

(٢) مجهول: المصدر السابق، ص ١٢٦.

(٣) ابن حوقل: المصدر السابق،ص ١٩٠.

(٤) المقدسي: المصدر السابق،ص ٢٢٤.

(٥) نعيم زكي فهمي: المرجع السابق، ص ٢٣٦.

٥-أسواق الأندلس وسلعها الواردة والصادرة

أولاً: الأسواق

اشتملت الأندلس على عدد من المدن الزاهرة بأسواقها أهما مدينة قرطبة حاضرة الأندلس وأعظم مدنها وأكثرها أسواقاً. [١]

تميزت أسواق مدينة قرطبة وغيرها من مدن الأندلس بالتخصص فقد كانت كل طائفة من التجار يجلسون في قسم واحد. ولذا كانت السوق الرئيسية في كل مدينة تتألف من عدد من الأسواق المختلفة حسب السلع والصناعات[٢] ومثال لذلك نجد في قرطبة سوق الدواب التي تخصصت ببيع الماشية جميعها[٣] كما وجدت أسواق النخاسة التي تخصصت في بيع الرقيق من الغلمان والجواري والمجلوب من أوربا بواسطة تجار اليهود. [٤]

كما تميزت الأسواق في قرطبة بموقعها المتميز حيث كانت تحيط بجامع قرطبة وفي ربض المدينة. [٥]

وبالأندلس توجد أيضاً أسواق طليطلة التي كانت حافلة بأنواع الغلات والتجارات كثيرة الخانات والبيوع رخيصة الأسعار[٦] وهناك أسواق مالقة وطرطوشة ولورقة وجميعها تحتل مواقع متميزة في الأرباض. [٧]

ثانياً: السلع الواردة والصادرة:

تنوع الأسواق بالأندلس يعكس حجم التبادل التجاري بينها وبين أسواق الدولة العباسية وعليه فقد وردت إلى تلك الأسواق سلعٌ متنوعة من ذلك:

---

(١) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ١٠٨.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج٤، ص ٣٩١.

(٣) خالد عبدالكريم البكري، النشاط الاقتصادي في المغرب، مطبعة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤١٤هـ،ص ٢٤١.

(٤) ابن خرداذبة: المصدر السابق،ص ١٥٣.

(٥) المقدسي: المصدر السابق، ص ٢٣٣.

(٦) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ١١١.

(٧) ابن جبير: المصدر السابق،ص ٢٩٧.

الملابس والثياب وعلى الرغم من أن الأندلس كانت مصدرة للمنسوجات والملابس الكتانية إلا أنها استجلبت أنواعاً أخرى من الثياب. [١]

ورد إليها من العراق الملابس وخاصة الثياب المروية والأكسية من برقه والثياب المقصورة من صقلية[٢] واستجلبت الأقمشة الصوفية من أوربا ومن مصر المنسوجات المصرية الرقيقة التي يعمل منها عمائم للرجال[٣] من بلاد الشام وردت إليها الثياب المذهبة والمنقوشة التي عمت معظم أرجاء العالم الإسلامي. [٤]

أما فيما يختص باستيراد المواد الزراعية والغذائية فالملاحظ أن ذلك قليل فقد استوردت القمح من وهران[٥] والتمور من فأس[٦] والسمسم والكروم والزبيب الذي يخرج من فلسطين. [٧]

ومن بلاد الشرق الأقصى فقد وصلها كعادة أقاليم الدولة العباسية في ذلك الوقت المواد الكمالية الغالية الثمن كالتوابل والبهارات والأطياب والبخور وغيرها من منتجات الشرق الأقصى التي وردت إلى أقاليم الدولة وسبق ذكرها في هذا الفصل.

ورد إليهم من بلاد فارس ماء الورد[٨] ومن السودان الذهب ومن اودغست يأتيها الصمغ. [٩]

---

(١) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ١٠٥-١٠٦.

(٢) المقدسي: المصدر السابق،ص ٢٣٩.

(٣) اليعقوبي: المصدر السابق،ص ٣٣٥.

(٤) المقدسي: المصدر السابق،ص ١٨١.

(٥) البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، المصدر السابق، ص ٧٩.

(٦) المقدسي: المصدر السابق،ص ٢٣٩.

(٧) الجهشياري: المصدر السابق،ص ٢٨٧.

(٨) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٢٦٠.

(٩) الحميري: المصدر السابق،ص ٦٣.

وما كانت تصدره بلاد الأندلس فكثير ومن ذلك منتجات المناجم مثل الفولاذ الأندلسي الذي كان ذا شهرة عالمية[١] والزئبق والأحجار الكريمة التي كانت تصدر إلى المغرب وبقية بلدان العالم[٢] كما كان يخرج من مدنها الأسلحة كالسيوف التي اشتهرت بها طليطلة والدروع في قرطبة ويصدر إلى أفريقية والشرق بواسطة تجار اليهود والبربر. [٣]

وفي مجال المنتجات الزراعية خرج من الأندلس التين المالقي من مالقة إلى مصر والشام والعراق[٤] وإلى الهند والصين القطن الذي يخرج من أشبيلية إلى القيروان وسجلماسة. [٥]

وفي مجال النسيج فقد قامت بها معامل النسيج المختلفة فخرج منها المنسوجات والأكسية والأردية إلى مصر ومكة واليمن[٦] كما خرج النسيج من بلنسية إلى بلاد المغرب والمنسوجات المطرزة إلى خراسان ومصر. [٧]

---

(١) شوقي أبوخليل: المرجع السابق،ص ٣٨٢.

(٢) البكري: المصدر السابق،ص ١٢٩.

(٣) ابن خرداذبة: المصدر السابق،ص ١٥٣.

(٤) الحميري: المصدر السابق،ص ٥١٧.

(٥) المقري: المصدر السابق، ج ١،ص ١٥١.

(٦) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ١٠٩.

(٧) المصدر نفسه،ص ١٠٥.

المبحث الثاني

المعاملات المالية والتجارية في الأسواق

١ - النقود

إن نشاط الحركة الاقتصادية والتجارية بصفة خاصة يقتضى وجود أساليب عديدة في مسألة التعامل المالي، وعملية في الوقت ذاته تواكب ذلك الازدهار والنشاط ولذلك كانت هناك عدة أساليب للتعامل المالي التجاري أهمها وأوسعها التعامل النقدي أي التعامل بالنقود.*

بدأ التعامل بالنقود عند العرب منذ الجاهلية فقد كانت ترد على أهل مكة الدنانير من الروم والدراهم من الفرس[١] ومما يؤكد أن الذهب "الدينار" والفضة "الدراهم" جرى التعامل بنقديهما قبل الإسلام قوله تعالى:﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾[٢] ويقول متحدثاً عن أصحاب العير الذين وجدوا يوسف عليه السلام:﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾[٣] فمن غير المعقول أن يوجه القرآن إلى العرب حديثاً عن شيء يجهلونه كما ذكر في نصاب الزكاة كلا من الذهب والفضة لتقدير المبالغ التي يجب فيهما زكاة هذين النقدين. [٤]

---

* النقود تعريفها عند علماء الاقتصاد هي الشيء الذي يلقي قبولاً عاماً في التداول وتستخدم وسيطاً للتبادل ومقياساً للقيم ومستودعاً لها كما تستخدم وسيلة للمدفوعات الآجلة واحتياطي لقروض البنك وهي بذلك تعتبر وسيطاً لنقل ملكية السلع والخدمات من طرف إلى آخر (مجدى محمود شهاب، اقتصاديات المال، دار الجامعة الجديدة للنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٠م،ص ٧،ص ٩).

(١) البلاذري:المصدر السابق، ص ٦٥٢.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٧٥.

(٣) سورة يوسف: الآية ٢٠.

(٤) صبحي الصالح: تطور النقود الإسلامية حتى نهاية الخلافة العباسية، دار كنوز للمعرفة عمان، ٢٠٠٨م، ص ٤٢٣.

وقد كان المثقال "الدينار" يزن اثنان وعشرون قيراطاً إلا كسراً والعشرة دراهم تزن سبعة مثاقيل وجميعها أقرها الرسولﷺ[١] وهذا ما يؤكده لنا ابن خلدون[٢] بقوله: "أعلم أن الإجماع منعقد منذ صدر الإسلام وعهد الصحابة والتابعين أن الدرهم الشرعي هو الذي تزن العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب والأوقية منه أربعون درهماً وهو على هذا سبعة أعشار الدنيار ووزن المثقال من الذهب اثنتان وسبعون حبة من الشعير فالدرهم هو سبعة أعشار خمسون حبة وخمساً وهذه المقادير كلها ثابتة بالإجماع".

وكما أقر الرسول ﷺ نقود الفرس والروم فقد أقرها الخلفاء من بعده واستمروا في استخدامها ولكن هذا لا يعني أنه لم يدر بخلدهم قضية نقود خاصة بالدولة الإسلامية. بل إن الانتقال من النقود المعدنية إلى نقود أخرى تشبه النقود الورقية قد دار بذهن الخليفة عمر بن الخطاب الذي هم أن يجعل الدراهم من جلود الإبل فقيل له: إذن لا بعير فأمسك عن ذلك. [٣]

وعلى ذلك لم يكن في الحجاز سكة* خاصة لضرب النقود ولم يكن بالحجاز إلا الدينار والدرهم المسكوكان في دول أجنبية. وربما يعود ذلك إلى أن الأسباب الداعية لم تكن متواجدة في ذلك الوقت من ناحية إمكانية استخراج المعادن النفيسة في أراضي المسلمين بكميات توفي الغرض.

استمر استخدام الدنانير الرومية والدراهم الفارسية في عهد دولة بني أمية ولما ولي عبدالملك سأل وفحص عن أمر الدنانير والدراهم فكتب إلى الحجاج بن يوسف

---

(١) البلاذري: المصدر السابق،ص ٦٥٢.

(٢) المقدمة، المصدر السابق، ص١٤٤.

(٣) وقائع ندوة النظم الإسلامية، ج ٢، مكتب التربية العربي لدول الخليج، أبوظبي، ١٩٨٤م،ص ٢٦.

* السكة: هي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد نقش فيه صور أو كلمات ولفظ السكة كان اسماً للطابع وهي الحديدة المتخذة لذلك ثم إلى أثرها وهي النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم (ابن خلدون، المصدر السابق، ص ١٤٤).

أن يضرب الدراهم على خمسة عشر قيراطاً من الدنانير وضرب هو الدنانير الدمشقية. [١]

وفي العصر العباسي ضرب النقود الإسلامية على نفس نماذج الخلافة الأموية مع أحداث بعض التغيرات المحدودة الغرض منها في البداية الدعاية للخلافة العباسية فظهرت مؤثرات سياسية على النقد بنقش الآيات على النقد الهدف منها إثبات حق العباسيين في الخلافة بقرابتهم للرسولﷺ مثال ذلك أنهم وضعوا على الدينار الآية: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ ﴾[٢] كما تظهر المؤثرات السياسية من خلال ذكر أسماء الخلفاء وألقابهم وأسماء ولاة العهد والأمراء وحتى ألقاب الوزراء مثل ذي الوزارتين التي نقشت على مسكوكات المعتمد كما نقشت أسماء المشرفين على دار السكة. [٣]

اقتضت الضرورة التطويل في مسألة التطورات التي مر بها الدينار والدراهم وأياً كانت هذه التطورات فالثابت أنهما كانا النقدين الأساسيين اللذين يتم بها التبادل والتقدير في أنحاء الدولة الإسلامية وخاصة في العصر العباسي.

أما عن كيفية التعامل بهذين النقدين فقد وضح أن المعاملات المالية التجارية بهما لم تكن موحدة ففي البلاد الإسلامية التي كانت خاضعة للدولة الرومانية الغربية ثم استولى عليها العرب شاع استعمال دنانير الذهب كالشام[٤] التي ذكر أن خراجها بلغ في سنة من السنوات حوالي اثني عشر ألف ألف دينار. أربع مائة ألف دينار من قسنرين والعواصم وما حولها[٥] وثلاثمائة ألف وأربعون دينار من حمص وثلاثمائة ألف وخمسون دينار من الأردن ومائة ألف دينار من فلسطين.[٦] ومصر

---

(١) البلاذري: المصدر السابق،ص ٥٦٤.

(٢) المقريزي: شذور العقود في ذكر النقود، تحقيق محمد السيد بحر العلوم، النجف، ١٩٦٧م،ص ٢٥٠.

(٣) إسحق محمد رباح: تطور النقود الإسلامية حتى نهاية عهد الخلافة العباسية، الأردن، ٢٠٠٨م،ص ٣٩٨.

(٤) محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق،ص ١٦١.

(٥) ابن خرداذبة: المصدر السابق،ص ٧٥.

(٦) المقدسي: المصدر السابق،ص ١٨٩.

التي لم تكن تعرف غير الدنانير الذهبية منذ عهد فرعون حيث كان خراجها في ذلك الوقت ستة وتسعين ألف ألف دينار وكذلك في عهد بني أمية "فقد جباها عبدالله بن الحباب ألفي ألف وسبع مئة ألف وثلاثة وعشرين ألف وثمان مائة وسبعة وثلاثين ديناراً وكذلك في زمن الدولة العباسية حمل منها موسى بن عيسى ألفي ألف ومائة ألف وثمانين ألف دينار "[١]. أما في البلاد الشرقية كبلاد فارس فالعملة الجارية هي الدراهم الفضية وظلت تتعامل بها حتى القرن الرابع الهجري في البيع والشراء والدينار عندهم كالعرض وليس على سكتهم إلا اسم أمير المؤمنين[٢]. وكذلك العراق فإن العملة الأساسية هي الدرهم فهو "القطب الذي تدور عليه رحى الدنيا"[٣] وقد كانت جباية السواد تدفع بالدراهم كما حصل أن عُمل في أيام هارون الرشيد تقديراً لما يُحمل إلى بيت المال من فارس وكرمان والسند وسجستان وخراسان وجرجان وطبرستان والري وأصفهان وهمدان والموصل وأذربيجان وأرمينية وكان لكل ذلك بالدرهم[٤] كما ذكر ارتفاع البصرة وواسط سنة ٣٥٨هـ وكان عشرة ألف ألف درهم[٥] وكانت عطايا الخلفاء تمنح معظمها بالدرهم كما فعل المنصور[٦] كما منح هارون الرشيد المغنى إبراهيم الموصلي مائتي ألف درهم والأمثلة في ذلك كثيرة. [٧]

ولكن هناك من يذكر أن ارتفاع العراق في سنة ٣٣هـ-١٩٥م ذكر بالدينار[٨] وهذا يبين أن الدولة الإسلامية في مركز الخلافة بدأت تتعامل بالدرهم والدينار معاً منذ القرن الرابع الهجري وهذا ما يسمى بالنظام "النقدي المزدوج" الذي كان سائداً في العراق وإقليم الجبال وجرجان وطبرستان والري. في الوقت الذي كان فيه نظام النقد

(١) ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص ٨٣-٨٤.

(٢) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٢٦٢.

(٣) الجاحظ: (أبوعثمان عمرو بن بحر) البخلاء، دمشق، ١٩٣٨م،ص ٢٦٨.

(٤) الجهشياري: المصدر السابق، ص ٢٨١-٢٨٦.

(٥) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٢٢١.

(٦) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك، دار الفكر، بيروت، ١٩٥٥م ص ١٤٤-١٤٥.

(٧)المصدر نفسه ، ص ٥٠.

(٨) آدم متز: المرجع السابق، ج ٢،ص ٣٦٩.

فردي القاعدة في مصر التي كانت تتعامل بالدينار * وفي كرمان وبخاري وفارس حيث يتم التعامل بالدراهم ويعتبر الذهب نوع من البضاعة. [(١)]

ومما لا شك فيه أن السبب في تعامل الخلافة الإسلامية الأم بالنقدين يرجع إلى الخراج الذي يُجبي من بعض الأقاليم التابعة لمنطقة الذهب بالدينار كمصر والشام التي يبلغ خراجها في بعض الأوقات أربعة آلاف ألف دينار [(٢)] ومن بعض الأقاليم الأخرى بالدراهم وهي التابعة لمنطقة الفضة مثل العراق وفارس. وبذلك أصبح كلاً من النقدين مقبولين ويحول أحدهما إلى آخر بحسب النسبة "سعر الصرف"** والذي تحدده الأحوال التجارية دون تدخل الحكومة. [(٣)]

وبالنسبة لسعر صرف الدينار بالدراهم فقد اختلف الأمر فبعد أن كان الدينار مساوياً لعشرة دراهم في العهد الثاني صار في النصف الثاني من العهد الأموي يساوى اثني عشر درهماً وفي العصر العباسي اختلف كذلك ما بين الزيادة والنقصان ففي عهد الأمين كان الدينار يزن عشرة دراهم وفي القرن الرابع الهجري كان الدينار يساوى أربعة عشر درهماً[(٤)] وحتى في أقاليم الدولة اختلف سعر الصرف ففي مصر كان صرف الدينار المعزي خمسة عشر درهماً ونصف في سنة ٣٦٢هـ وفي سنة (٣٩٩هـ-١٠٠٨م) صرف كل الدينار المعزي بثمانية عشر درهماً. [(٥)]

---

* يُقال أن الناس في مصر لم يرد ذكر الدراهم على ألسنتهم إلا أيام الفقر في عهد صلاح الدين، (آدم متز ، المرجع السابق ج ٢،ص ٣٧١.

(١) عبدالعزيز الدوري: المرجع السابق،ص ٢٤٦.

(٢) الثعالبي: المصدر السابق، ص ٥٣٠.

** سعر الصرف: هو قيمة عملة بلد ما مقومة بعملة بلدٍ آخر، (علي بن محمد الجمعة، معجم المصطلحات الاقتصادية والإسلامية، مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠٠م، ص ٣٢١).

(٣) محمد ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، ط ٤، دار الأنصاري، القاهرة ١٩٧٧م،ص ٣٦٠.

(٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج ٤،ص ٣٩٦.

(٥) محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ،ص ١٦٢.

وفي القرن الخامس (٤٢٧هـ-١٠٣٦م) خف الدرهم حتى صار الخمسة وعشرون بل والأربعون بل المائة وخمسون أحياناً بدينار واحد[١] كما كان الراضي يصرف بخمسة عشر درهماً. [٢]

وربما يعود هذا الاختلاف في سعر الصرف إلى اختلاف الوزن أحياناً في الدرهم والدينار وقد كان النقص في وزن الدرهم قد بدأ منذ بداية الدولة العباسية عندما نقص السفاح حبة من الدرهم ثم أنقصه بعد ذلك حبتين ثم أنقصه المنصور ثلاث حبات[٣] وفي المغرب اختلفت الدراهم في أوزانها في جميع العواصم حتى نجدهم في العصر المرابطي قد ضربوا درهم من حساب عشرين درهم في الأوقية[٤] وكان من قبل ذلك قد قام الأغالبة في القرن الثالث الهجري بجهدٍ كبير للمحافظة على الدرهم فأمر إبراهيم ابن أحمد في سنة ٢٧٥هـ بضرب الدراهم الصحاح[٥] وكذلك الحال بالنسبة للدينار فقد اختلفت أوزانه: كما حدث في عهد ناصر الدولة الذي ضرب ديناراً في سنة ٣٣١هـ-٩٤٢م زائداً في وزنه وسمى الإبريزي. [٦]

تم التعامل بالدينار والدرهم في كافة أقاليم الخلافة العباسية وكانت مقبولة في بغداد مادامت محتفظة بالوزن الشرعي أو قد تكون زائدة عن الوزن الشرعي فقد ضربت بغداد نقود جديدة ذات أوزان كبيرة يبدو أن الغرض من ضربها كان لدوافع سياسية إذ كان يرمى ضاربها من وراء ذلك تحقيق أمجاد شخصية بوضع اسمه عليها وتحقيق مصالح قومية تبرز واضحة في توقيت عملية توزيع هذه الدنانير في مناسبات قومية كما يمكن اعتبارها مظهراً من مظاهر الاستقرار الاقتصادي[٧] أو قد يكون الغرض منها الصلة ومن ذلك ما أرسله ناصر الدولة إلى أبي إسحق الصابي

---

(١) آدم متز: المرجع السابق، ج ٢،ص ٣٧٢.

(٢) إسحق محمد رباح: المرجع السابق، ص ٢٦٩.

(٣) المقريزي: شذور العقود في ذكر النقود، ص ١٧.

(٤) شوقي أبوخليل: المرجع السابق،ص ٣٨٩.

(٥) السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق،ص ٣٢٦-٣٢٧.

(٦) مسكوية: المصدر السابق، ج ١،ص ٣١.

(٧) حمدان عبدالمجيد الكبيسي: المرجع السابق،ص ٢٣٣.

عشرة دنانير من دنانير الصلة وزنها خمسمائة مثقال وضرب سيف الدولة دنانير صلة وزن الواحد منها عشرة مثاقيل وعليها اسمه وصورته وأجاز ابن العميد الوزير البويهي المشهور أحد الشعراء بدراهم ودنانير قيمة كل منها خمسة أضعاف قيمة النقود الاعتيادية وضرب المقتدر ومعز الدولة وعضد الدولة دراهم يزن الواحد منها درهمين وفي سنة ٣٢٥هـ-٩٣٦م ضرب الراضي دراهم تذكارية زنة كل منها خمسة دراهم اعتيادية. (١)

ضُربت نقود كثيرة بولايات وأقاليم الدولة العباسية اشتهرت في تاريخ النقود من ذلك الدينار المرابطي الذي حصل على شهرة عالمية وسمعة اقتصادية ممتازة حتى غدت الدولة الإسلامية والمسيحية تتنافس عليه وربما يعود السبب في ذلك إلى نقائه في معدن الذهب الذي سيطر على تجارته المرابطون في ذلك الوقت. (٢) كما ضرب يوسف بن تاشفين قبل ذلك في النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي الدرهم الجوهري المعلوم إلى اليوم في بلاد المغرب. (٣)

ومن الدنانير التي شاع استعمالها في مصر الأحمدي* الذي لقى تقدير الناس لنقاوته وكذلك الدينار المغربي(٤) الذي أدخله الفاطميون** من المغرب وهو الذي وجد مقاومة ومحاربة من حكومة بغداد حين أمر الخليفة سنة ٤٢٧هـ-١٠٣٦م بترك الدينار المغربي وأمر الشهود أن لا يشهدوا في كتاب إبتياع ولا إجارة ولا مداينة تذكر

---

(١) عبدالعزيز الدوري: المرجع السابق،ص ٢٥٠.

(٢) بشير رمضان التليسي: المرجع السابق،ص ٢٤٤.

(٣) شوقي أبوخليل: المرجع السابق،ص ٣٨٩.

* الأحمدي: نسبة إلى أحمد بن طولون الذي ضرب هذه الدنانير من الذهب النقي، (محمد جمال الدين سرور، مرجع سابق،ص ١٤٢).

(٤) المقدسي: المصدر السابق،ص ٢٠٤.

** لما جاء الفاطميون لم يلجأوا في البداية إلى منع العملة السنية حتى لا يحدثوا اضطراباً في التعامل فابقوا على الراضي والدرهم الرباعي المعروف في عهد المأمون ولكن نجدهم بعد ذلك قد أصدروا عملة خاصة بهم تحمل عقيدهم الشيعية وأسماء خلفائهم وألقابهم فظهر الدينار المغربي الذي أدخلوه من المغرب والدينار المعزي (عبدالمنعم ماجد، المرجع السابق،ص ٢٩٨).

فيها الدنانير المغربية فعدل الناس عن هذه العملة[1] وكذلك الدينار المعزي نسبة إلى المعز لدين الله الفاطمي- الذي صار يُجني به خراج مصر فأثر في قيمة الراضي الذي أصبحت قيمته خمسة عشر درهماً على حين كانت قيمة المعزي خمسة عشر ونصف درهماً فخسر الناس كثيراً من أموالهم في الدينار الراضي والدينار الأبيض*. [2]

بجانب الدينار والدراهم تداول الناس في الدولة الإسلامية الفلوس وذلك في المبيعات التي يقل سعرها عن الدراهم أو جزء منه وكانت الفلوس تتدرج على أساس القاعدية السداسية فكان الدرهم يساوى ستة دوانق والدانق اثني عشر قيراطا والقيراط أربعة وعشرين طسوجاً والطسوج ثمانية وأربعين حبة كما كانت العملة الفضية المكسرة تستعمل في المعاملات اليسيرة رغم أن ذلك كان يلقي الاعتراض دائماً. [3]

حافظت الدولة الإسلامية على سلامة النقد طيلة أيام القوة[4] إذا استثنينا فترة الفتنة بين الأمين والمأمون فإن درجة النقاء كانت عادة بين ٩٦% و٩٨% واستمرت بهذا المعدل حتى نهاية القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي). [5]

وبذلك بقيت النقود خالصة حتى أيام المتوكل فلما قتل المتوكل وتغلبت الموالي من الأتراك وكثرت نفقات الدولة وقلت مواردها لاستغلال الولاة بأطراف الدولة الإسلامية بدأ غش الدراهم[6] وبدأت تظهر النقود المغشوشة مثل البهرج* والزيوف**

---

(١) آدم متز: المرجع السابق، ج ٢،ص ٣٧٢.

* الدينار الأبيض: هو الدينار الذي سك في عهد الأمويين (عبدالمنعم ماجد، المرجع السابق، ص ٢٩٧).

(٢) إسحق محمد رباح: المرجع السابق،ص ٢٦٩.

(٣) آدم متز: المرجع السابق، ج ٢،ص ٣٧٢-٣٧٣.

(٤) محمد ضياء الدين الريس، المرجع السابق، ص ٣٦٣.

(٥) عبدالعزيز الدوري: المرجع السابق،ص ٢٣٨.

(٦) وقائع ندوة النظم الإسلامية، المرجع السابق ص ٢٩.

* البهرج: هو الدرهم الذي فضته رديئة وكل ردئ من الدراهم وهو كلمة فارسية معربة من بهرة وهو مبطل السكة، والنبهرج هو ما يرده التجار (المعلم بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، ١٩٩٨م، ص ٣٨٧).

والستوق***[1] والواقع أن كل هذه المسميات تدور حول معنى واحد وهو الخلط وعدم الجودة.

ومن ذلك يتضح أن الغش في الدراهم بإكثار المعادن الرخيصة إلى الفضة وقد تسهم الدولة بشكل من الأشكال في الارتباك الناتج في تزوير العملة وذلك عندما تتهاون في محاسبة أولئك المزيفين وخاصة عندما تتعرض لأزمة سياسية فيصعب عليها تطبيق ما تراه ضرورياً كما فعلت الدولة الموحدية عندما ضرب يوسف بن تاشفين ستة وثلاثين ألف دينار من الصفر مموهة لما طالبه العرب في البلاد الشرقية بفداء واليها. [2]

** الزيوف: من وصف الدراهم إذا صارت مردودة لغش فيها ومفردها زيف (ابن منظور، المصدر السابق، مج ٧،ص ٨٩) وهي ما خلط بنحاس وفات صفة الجودة فيرد إلى بيت المال (المعلم بطرس البستاني، المصدر السابق، ص ٣٨٧).

*** الستوق: أصلها فارسية وعربت وهي البهرج والزيف لا خير فيه (ابن منظور، المصدر السابق، مج ٧،ص ١٢٢) وهي ما يغلب عليه الغش (المعلم بطرس البستاني، المرجع السابق،ص ٢٩٦).

(١) البلاذري: المصدر السابق، ص ٥٦٥.

(٢) عزالدين أحمد موسى:المرجع السابق، ص ٣٠١.

٢ -الصك*

من الوسائل الهامة للتعامل المالي الصك الذي لم يكن استعماله في أوائل الإسلام شائعاً ويتضح ذلك من قلة الإشارة إلى استعمال الصك في ذلك الوقت وأول من صك وختم أسفل الصك هو عمر بن الخطاب وذلك عندما جاءه خبر فتح مصر فأمر الفاتحين أن يحملوا طعاماً في البحر إلى المدينة يكفى عامة المسلمين ولما جاء الطعام على السفن أمر عمر زيد بن ثابت أن يكتب الناس على منازلهم وأن يكتب لهم صكاً من قراطيس ثم يختم أسفلها. (١)

ويفهم من هذا أن الصك كان يشتمل على أصحاب الاستحقاق وما يستحقونه ثم يوقع من قِبل الشخص المسئول سواء كان الخليفة أو الأمير أو الموظف المكلف بذلك ويكون ذلك في آخر الصك لاعتماد الدفع.

أما في عهد الدولة العباسية فقد كثر استعمال الصكوك كوسيلة لدفع المال وأول من أشار بالصك هو الفضل بن يحيى البرمكي عندما ركب إليه محمد بن إبراهيم الإمام وأخبره بأنه قد لزم عليه دين واحتاج لأدائه إلى ألف ألف درهم موضحاً له إنه كره بذل وجهه للتجار وقائلاً له: ولك من يعطيك منهم يقصد بذلك هارون الرشيد فلما لقي الفضل الرشيد أخبره خبر ابن الإمام ولم يزل يفاوضه إلى أن تقرر الأمر منه على ألف ألف فشكره الفضل على ذلك وسأل الرشيد أن يصك بها صكاً بخطه. (٢)

وقد كثر استعمال الصكوك في حاضرة الخلافة منذ أواخر القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) واستعملت على النطاق الرسمي للدولة كدفع رواتب الجند. ويذكر من هذا أن صاحب ديوان الخراج في أيام المكتفي ٢٨٩هـ أخذ على متولي عطاء

---

* الصك: أمر خطي بدفع مقدار من النقود إلى الشخص المسمى فيها أو هو الكتاب الذي يكتب فيه المعاملات والأقارير ووقائع الدعوى ويطلق الآن على وثيقة بمال أو نحوه وعلى مثال مطبوع بشكل خاص يستعمله المودع في أحد المصارف للأمر بصرف المبلغ المحدد به والجمع صكوك (حسين يوسف موسى وعبدالفتاح الصعيدي، المرجع السابق، ج ٢،ص ١٢٠٨).

(١) ابن عبدالحكم : المصدر السابق، ص ١٦٦.

(٢) الجهشياري: المصدر السابق،ص ١٩٥-١٩٦.

الجيش أنه يطلق عطاء الجيش بغير صك. فأمره ألا يطلق شيخاً إلا أن يعرفه هو ويأذن فيه ويوقع فيه على الصكاك. (١)

وأحياناً كانت تصرف رواتب من هم في خدمة دار الخلافة بالصكوك إذ كان يكتب لكل طائفة من هؤلاء المستخدمين في الدار صك مفرد من الديوان وبعد صرف هذا الصك توزع الأرزاق الشهرية عليهم. (٢)

ولم يكن استعمال الصكوك خاصة بحاضرة الخلافة وأسواقها بل عمّ ذلك أقاليم الدولة ومن ذلك نجد أن الأمير محمد بن عبدالرحمن استدرك على بعض موظفي الخزانة في صكٍ يشتمل على مائة ألف دينار مبلغاً ضئيلاً قدره خمسة دراهم فأعاد إليهم الصك وأمر بتصحيحه. (٣)

وكانت المنح المالية التي يهبها المسؤولون لمقربيهم من الشعراء والأدباء والمغنين تتم في بعض الأحيان صكاً ومن ذلك ما قاله الشاعر والأديب جحظة* "إن بعض الرؤساء صك لي صكاً فدافعني الجهبذ** حتى ضجرت فكتب قائلا:

إذا كانت صلاتكم رقاعاً * تخط بالأنامل والأكف

ولم تكن الرقاع تجر نفعاً * فها خطي خذوه بألف ألف(٤)

---

(١) الصابي: (أبوالحسن الهلال بن المحسن بن إبراهيم) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، دار إحياء الكتب العربية بدون تاريخ، ص ٢٤٩.

(٢) المصدر نفسه،ص ٢٢.

(٣) ابن حيان: (أبومروان خلف بن حسين بن حيان القرطبي) المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق محمود على مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣م،ص ١٣٦.

* جحظة: هو أبوالحسن بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك النديم وكان حسن الأدب كثير الرواية للأخبار متصرفاً في فنون شتى من العلم كالنحو واللغة والنجوم وقد كان مغنياً أيضاً (ياقوت: معجم الأدباء، ج ٣، تحقيق إحسان عباس، ط ١، دار العرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م،ص ٢٠٧).

** الجهبذ: كاتب يرسم استخراج المال وقبضه وكتب الوصلات به (ابن مماتي، المصدر السابق، ص ٣٠٤) وهو الناقد العارف بتمييز الجيد من الردئ ويراد بها مهنة الصرافة (الصابي،المصدر السابق،ص ٩٢).

(٤) ياقوت: المصدر السابق، ج ١،ص ٢٠٨.

ولجحظة هذا موقف آخر مع الصكوك وذلك حين وهبه متولي دواوين الأزمة في عهد المعتمد صكاً بخمسمائة دينار على صيرفي* ولما ذهب جحظة إلى الصيرفي قال له: أنت تعلم أن أمثالنا يعاملون للفائدة ورسمنا أن نعطى في مثل هذا ما يُكسر في كل دينار درهماً وخيره الصيرفي بين ذلك أو أن يركب معه إلى داره ويسامره لأنه كان قد سمع به ويتمنى أن يسمع صوته فوافق جحظة على ذلك وحصل بعدها على أمر الصك كاملاً وزاده في ذلك. (١)

ولعل في هذا الموقف ما يدل على أن الصيارفة كانوا يفيدون من هذه الصكوك بصرفها مقابل فائدة قد تختلف من صيرفي إلى آخر.

كما منحت الصكوك واستعملت في تقضية حوائج الناس فها هو ابن الآجري صديق ابن الفرات الوزير يتوسط لابن أبي البغل الذي كان مذنباً واحتاج إلى مال كي يرحل عن البلد ويأمن على نفسه ويرتاح ولما أخبر ابن الآجري بذلك أمر له الوزير ابن الفرات بصكٍ بثلاثة ألف درهم ليجعلها نفقته. (٢)

واستخدم الصك- وهو الاستخدام الأصلي للصك- سنداً للدين فإذا اشترى الرجل عقاراً مثلاً كتب صكاً بشرائه(٣) ويؤكد على هذا النوع من استخدام الصك ما ذكره ابن حوقل(٤) في وصفه لتجارة سجلماسة أنه رأي "صكاً بدين على محمد بن أبي سعدون بأودغست بمراكش وشهد عليه العدول باثنين وأربعين ألف دينار" وصاحب هذا الصك يُدعى أبا إسحق إبراهيم بن عبدالله المعروف "بفرغ شغله".

---

* الصيرفي: كانت المهمة الأولى للصيرفي تقييم النقود من حيث الجودة ونوعها كما كان يقوم بتحويل النقود أو صرفها لأغراض التجارة خاصة وفي العصر العباسي الثاني توسع عمل الصيارفة فأخذوا يشتغلون بالتسليف ويقبلون الودائع وقد شجعوا التجارة بتسهيلهم معاملات الائتمان وكانوا من أصحاب المهن الحرة يتعاملون مع الشعب على الأكثر عبدالعزيز الدوري، المرجع السابق، ص ١٩٢).

(١) ياقوت: المصدر السابق، ج ١،ص ٢٢١.

(٢) الصابي: المصدر السابق، ص ٨٤.

(٣) آدم متز: المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٧٣.

(٤) صورة الأرض، المصدر السابق، ص ٩٧.

وأرقي ما وصل إليه التعامل المالي في الدولة الإسلامية ما يجرى في سوق الصرافين بمدينة أصفهان التي بها ما لا يقل عن مائتي صراف يجلسون جميعاً في هذا السوق ففي البصرة كان التعامل المالي يجرى على يد هؤلاء الصيارفة فيعطى التاجر المال للصراف ويحصل منه على صك بما دفعه وكلما اشترى بضائع سدد ثمنها بهذه الصكوك محولة على الصراف وهي ما تعرف الآن باسم الشيكات المحولة.

والاستعمال الغريب لهذه الصكوك كان في أسواق النخاسة بالأندلس فقد وُجد أن لكل غلام أو جارية من الرقيق عهدة أو صك بحوزة المشترى لإثبات ملكيته على هؤلاء الرقيق الذين اشتراهم. [١]

ويُفهم من هذه الاستخدامات المختلفة للصكوك أنها قد جرى التعامل بها على نطاق واسع شمل الجهات الرسمية والتجار والشعب وقد جعلت المعاملات المالية منظمة وضمنت للمتعامل وصاحب رأس المال حقوقه بلا عناء.

---

(١) خالد عبدالكريم البكري: النشاط الاقتصادي في الأندلس، مطبعة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤١٤هـ، ص ٢٦١.

٣ -السفتجة*

لكثرة الأعمال التجارية وصعوبة نقل الأموال وخطورتها استعملت الحوالات المالية وسموها السفتجة واضح من تعريفها أنها كانت تستخدم غالباً في المعاملات الضخمة التي تكون بين مدينة وأخرى أو بلد وآخر وهي بذلك تجنب صاحب المال أخطار الطريق.

بدأ استعمال السفتجه مع بداية الإسلام وإن لم يرد ما يدل على أنها تطلق بهذا الاسم وإنما كانت تستعمل على أنها حوالة فمن ذلك ما يذكره السرخسي(١) من "أن ابن الزبير كان يأخذ بمكة الورق من التجار فيكتب لهم إلى البصرة وإلى الكوفة فيأخذون أجود من ورقهم".

وردت كلمة "سفاتج" في العصر العباسي الأول وذلك عندما أرسل أبوجعفر المنصور مالاً بسفاتج إلى البصرة. (٢)

وبدأ يظهر استعمال هذه السفاتج بكثرة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) حيث وردت في سنة ٣٠٤هـ-٩١٤م "أموال سفاتج من فارس وأصفهان ونواحي المشرق في درج كتب بحمول على أن تصل إلى على بن عيسى"(٣) وفي سنة ٣١٣هـ-٩٢٥م أرسل والي مصر على بن عيسى حاجبه إلى بغداد وهو موجود في مكة حاجاً- سفاتج بمائة ألف وتسعة وأربعين ألف دينار.(٤)

---

* السفتجة في اللغة أن يعطى آخر مالاً وللآخر مال في بلد المعطي فيوفيه إياه هناك فيستفيد أمن الطريق والجمع سفاتج (إبراهيم أنيس وآخرون، المرجع السابق،ص ٤٤٨) وفي علم الاقتصاد هي عبارة عن رقعة أو كتاب يكتبه الشخص لنائبه أو مدينة في بلد آخر يلزمه فيه بدفع مبلغ من المال لشخص أقرضه مثله وقد سميت سفتجة لما فيها من أحكام الأمر وتوثيقه وتجنب العناء والمخاطر وهي لفظ فارسي معرب (على بن محمد الجمعه، المرجع السابق، ص ٣٢٣).

(١) السرخسي: (شمس الدين) المبسوط، ج ١٩، دار المعرفة بيروت، ١٩٨٦م،ص ٥٢.

(٢) الجهشياري: المصدر السابق،ص ٩٨.

(٣) مسكوية: المصدر السابق،ج ١،ص ١٤٣.

(٤) المصدر نفسه والجزء، ص ١٤٦.

وفي سنة ٣١٤هـ - ٩٢٦م أرسلت ضمانات العمال من المال بالسواد والأهواز وفارس سفاتج بأربعمائة ألف درهم. [١]

كانت السفاتج تحول أو تسحب في بعض الأحيان على تجار ويذكر بعض التجار بالبصرة أن رجلاً غريباً أورد عليه سفتجه باجل وكان يتردد عليه إلى ان حلّ ميعاد السفتجة ثم قال له دعها عندك حتى أخذها متفرقة وكان يجيء في كل يوم فيأخذ بقدر نفقته إلى أن نفدت[٢] وأيضاً ما يؤكد أن السفاتج تسحب على التجار أن الوزير ابن الفرات ألزم المادرائي عامل مصر بأن يكون حمل الخراج إليه أما مع رسول أو بسفاتج تجار على تجار".[٣]

وكان على بن عيسى إذا حلّ المال وليس له شيء استسلف من التجار على سفاتج عشرة آلاف دينار بربح دانق ونصف فضة في كل دينار يلزمه في كل شهر ألفان وخمسمائة درهم أرباحاً[٤] ومعنى ذلك أن التجار يأخذون فائدة على السفاتج التي يصرفونها بنسبة معدودة.

وكانت ترد إلى بغداد سفاتج على المستوى الرسمي ومن ذلك السفاتج التي أرسلها الأخشيد صاحب مصر إلى نائبه ببغداد ليسلمها للوزير ابن مقله وكان لها ثلاثين ألف دينار[٥]. وأيضاًَ ترد على المستوى الشعبي فقد روى أن أحد التجار الأثرياء في الأندلس قد كتب سفتجه من الأندلس إلى بغداد. [٦]

---

(١) مسكوية، المصدر السابق، ج١، ص١٥٠.

(٢) التنوخي: (أبوعلى المحسن بن على بن محمد بن أبي الفهم) الفرج بعد الشدة، وضع حواشيه خليل عمران، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ٢٠٠١م،ص ٢٨٧.

(٣) الصابي: المصدر السابق،ص ٨١.

(٤) المصدر نفسه،ص ٩٣.

(٥) آدم متز، المرجع السابق، ص ٣٧٣.

(٦) خالد عبدالكريم البكر: المرجع السابق، ص ٢٦١.

٤ - الموازين والمكاييل

أكد القرآن الكريم في أكثر من سورة على ضرورة ضبط الموازين والمكاييل والأمانة فيهما حفظاً لمصالح المشترين من الضرر قال تعالى:﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾[١] وقال:﴿ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴾[٢] كما قال:﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴾[٣] وقد وعد الله المطففين عذاب أليم في قوله:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[٤].

عرف العرب منذ الجاهلية أوزاناً عدة وكانوا يتبايعون بها وأقر الرسولﷺ هذه الموازين قائلاً: "المكيال على مكيال المدينة والوزن على وزن مكة"[٥] وعلى ذلك تعامل بها العرب في الدولة الإسلامية وكان لهم العديد من هذه الموازين:

الدينار: الذي ذكره في القرآن الكريم كما ذكر سابقاً في أمر النقود وهو مثقال ولذلك يسمى المثقال وهو يساوى ٢٤٢٥ غراماً وهو ٧٢ حبة شعير.

الدرهم: والتام الذي اجتمعت عليه الأمة يزن ستة دوانق وهو سبعة أعشار الدينار. [٦]

الرطل: وهو معيار يُوزن به أو يكال ويختلف باختلاف البلاد وهو في مصر اثنا عشر أوقية والأوقية اثنا عشر درهماً[٧] والرطل عند الفقهاء هو الرطل البغدادي

---

(١) سورة المطففين: الآيات ١-٤.

(٢) سورة الشعراء: الآية ١٨١.

(٣) سورة الرحمن: الآيات ٧-٩.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٢١.

(٥) أبوعبيد: القاسم بن سلام، المصدر السابق، ص ٢٠٨.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢١٠.

(٧) عمر سليمان الأشقر وآخرون: أبحاث فقهية في قضايا الزكاة المعاصرة، ج ٣، الأردن، ٢٠٠٨م، ص ٥٤٧.

العراقي وهو تسعون مثقالاً شرعياً أي مائة وثمانية وعشرون درهماً وأربعة أسباع الدرهم وهو بذلك أصغر من الرطل المصري. (١)

المن: وهو وحدة كيل ووزن وشرعاً يساوى رطلين. (٢)

الأوقية: سبعة مثاقيل زنتها أربعون درهماً. (٣)

النواة: هي أوقية من الذهب أو أربعة دنانير ما زنته خمسة دراهم. (٤)

الحبة: ربع قيراط أو سُدس ثُمن درهم. (٥)

القيراط: نصف دانق وهو يساوى ثلاث حبات وأربعة أسباع الحبة. (٦)

الدانق: سدس الدرهم. (٧)

القنطار: وهو أضخم هذه الأوزان جميعها قال تعالى:﴿ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾(٨) وهو وزن أربعين أوقية من ذهب أو ألف ومائة دينار أو ثمانون ألف درهم أو مائة رطل من ذهب أو فضة. (٩)

كما عرف المسلمون في الدولة الإسلامية الموازين فقد تعاملوا أيضاً بالمكاييل وهي عديدة ومختلفة الأحجام منها ما كان موجوداً في زمن الرسولﷺ وأصحابه والتابعين وهذه حصرت في ثمانية أصناف وهي الصاع، المد، الفرق، القسط، المدى، المختوم، القفيز والمكوك. (١٠)

---

(١) محمد ضياء الدين الريس، المرجع السابق،ص ٣٨٠.

(٢) ابن منظور: المصدر السابق، ج ١٤، ص ١٣٦.

(٣) حسين يوسف موسى وعبدالفتاح الصعيدي: المرجع السابق، ص ١٢٤٩، عمر سليمان الأشقر وآخرون، المرجع السابق، ج٣، ص ٥٤٦.

(٤) حسين يوسف موسى وعبدالفتاح الصعيدي: المرجع السابق، ج ١،ص ١٢٤٩.

(٥) المرجع نفسه والجزء، ص ١٢٤٩.

(٦) عمر سليمان الأشقر وآخرون: المرجع السابق، ج ٣،ص ٥٤٣.

(٧) أبوعبيد: المصدر السابق،ص ٢١٠.

(٨) سورة آل عمران: الآية ١٤.

(٩) ابن منظور: المصدر السابق مج ١٢ مادة قنطرة،ص ٢٠٠.

(١٠) أبوعبيد: المصدر السابق، ص ٢٠٦.

فالصاع أو الصَّواع أربعة أمداد[١] وقد اختلف أهل الحجاز وأهل العراق في الصاع وذهب أهل العراق إلى أن الصاع ثمانية أرطال لأنهم سمعوا أن النبي كان يغتسل بالصاع وسمعوا في حديث آخر أنه كان يغتسل بثمانية أرطال. وأهل الحجاز الصاع عندهم خمسة أرطال وثلث يعرفه عالمهم وجاهلهم ويباع في أسواقهم. [٢]

والمد مختلف فيه قيل هو رطل وثلث بالعراق وذلك قول الشافعي وفقهاء المدينة وقيل هو رطلان وقد أخذ به أبوحنيفة وفقهاء العراق وعليه يكون الصاع ثمانية أرطال[٣] والفرق ثلاثة آصع والقسط يبدو أنه لا خلاف فيه فهو نصف صاع[٤] وهناك المدى وهو مكيال لأهل الشام[٥] يسع خمسة عشر مكوكاً والمكوك صاع ونصف[٦] وهناك أقوال مختلفة حول المدى فهناك من يقول أنه مثل الجريب أي أنه ٤٥ رطلاً. [٧]

والمختوم هو الصاع بعينه وسمى مختوم لأن الأمراء جعلت على أعلاه خاتماً مطبوعاً لئلا يزاد فيه ولا ينقص[٨] والقفيز والجمع منه أقفزة وقفزات وهو ثمانية مكوك[٩] والمكوك هو مكيال لأهل العراق وهو صاع ونصف[١٠] تلك هي المكاييل التي أثرت عن النبيﷺ وهنالك مكاييل أخرى تم التعامل بها من ذلك الكرّ وهو أكبر

---

(١) أبوعبيد، المصدر السابق، ص ٢٠٨.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٣) ابن منظور: المصدر السابق، ج ١٤،ص ٣٤.

(٤) السبتي: (أبوالعباس أحمد العزفي) أثبات ما ليس منه بد لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد، تخريج ودراسة محمد الشريف، المجمع الثقافي أبوظبي، ١٩٩٩م،ص ١٢٧.

(٥) المقدسي: المصدر السابق، ص ١٨٢-١٨٣.

(٦) محمد ضياء الدين الريس: المرجع السابق، ص ٣٢٩.

(٧) المرجع نفسه ، ص ١٥٩.

(٨) أبوعبيد: المصدر السابق، ص ٢٠٧، محمد ضياء الدين الريس: المرجع السابق، ص ٣٣٢.

(٩) ابن منظور: لسان العرب، مج ١٤، مادة قفز، ص ١٥٩.

(١٠) المصدر نفسه والجزء، مادة مك،ص ١١١.

مقاييس الكيل العربية[1] وهو ستون قفيزاً[2] أما الوسق فهو من المكاييل التي لا خلاف فيها بين أصحاب المعاجم والمتفقهون فهو ستون صاعاً.[3]

ومن المكاييل الضخمة الإردب ويضم أربع وعشرين صاعاً[4] والجريب وهو مكيال قدره أربعة أقفزة وهذا هو الجريب الأصلي. وقد ضُوعف فصار يتركب من ثمانية وهو حينئذ يساوى خمسمائة رطلاً. ويبلغ بالكيل المصري ستة عشر كيلة أو إردباً وثلث[5]. أما الكيلجة فهي نصف الصاع والست عشر كليجة تساوى جريباً. [6]

من كل ما سبق يتضح أن الموازين والمكاييل قد تختلف من بلدٍ لآخر ومن وقت خر وهذا ما ورد في حديث رسول اللهﷺ أنه قال: "منعت العراق درهمها وقفيزها ومنعت الشام مُديها ودينارها ومنعت مصر إردبها ودينارها وعدتم من حيث بدأتم....". [7]

وعلى ذلك فإن أهل كل إقليم أو بلد قد اصطلحوا في معاملاتهم على أرطال تتفاوت في الزيادة والنقصان. [8]

ففي إقليم العراق كانت وحدة الوزن الأكثر شيوعاً هي الرطل المعروف بالرطل البغدادي وهو الرطل الذي اعتمده الفقهاء وهو تسعون مثقالاً شرعية وهو نصف المن[9] وأما مكاييلهم فقد كان منها القفيز وهو ثلاثون مناً والمكوك خمسة أمناء والكيلجة منوان ولديهم الكرّ وهو ستون قفيزاً. [10]

---

(١) محمد ضياء الدين الريس: المرجع السابق، ص ٣٣٤.

(٢) ابن منظور: المصدر السابق، مج ١٤،مادة كرّ،ص ٤٧.

(٣) أبوعبيد: المصدر السابق، ص ٢٠٧.

(٤) حسين يوسف وعبدالفتاح الصعيدي: المرجع السابق، ج ٢،ص ١٢٥٠.

(٥) محمد ضياء الدين الريس: المرجع السابق، ص ٣٢٨.

(٦) السبتي: المصدر السابق،ص ١٢٧.

(٧) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٧، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٧م،ص ٢٠.

(٨) الشيرزي: (عبدالرحمن بن نصر)، نهاية الرتبة في طلبة الحسبة، نشره السيد الباز العريني، القاهرة، ١٩٤٦م، ص ١٥.

(٩) المقدسي: المصدر السابق، ص ١٤٩.

(١٠) المصدر نفسه ص ١٤٩.

وفي إقليم الجزيرة المجاور لإقليم العراق كانت أوزانهم الرطل البغدادي والفرق البغدادي وهو ستة وثلاثون رطلاً. ومكاييلهم المد والمكوك والقفيز والكارة فالمكوك خمسة عشر رطلاً والمد ربعه والكارة مائتان وأربعون والقفيز ربع الكارة والمكوك ربع القفيز. (١)

وأوزان بلاد فارس هي الدراهم كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل ولا تختلف عندهم مقادير أوزان الدرهم. وما تُوزن به الأمتعة فهو "المنا شيراز" وهو اثنان صغير وكبير الكبير ألف ألف درهم وأربعون درهماً. والآخر "منا بغداد" وهو وزن مائتين وستين درهماً. (٢)

ومكاييلهم اختلفت من بلد لآخر ففي شيراز الجريب عشرة أقفزة والقفيز ستة عشر رطلاً قد يزيد أو ينقص قليلاً. وجريب اصطخر وقفيزها نصف جريب شيراز وقفيزها ومكاييل البيضاء تزيد على مكاييل اصطخر بالعشر ونص. ومكاييل أرجان تزيد على شيراز الربع وسابور وكازرون تزيد على العشر ستة ومكاييل فسا تنقص عن مكاييل شيراز الربع(٣). ومهما كان الاختلاف بين بلد وآخر فالواضح أن وحدة المكاييل في فارس هي الجريب والقفيز. أما بلاد الديلم فكانت أوزانهم عديدة وأهمها المن الذي يساوى ستمائة درهم. (٤)

في مصر وحدة الوزن هي الرطل المصري المستعمل في القاهرة والفسطاط ويساوى مائة وأربعة وأربعين درهما والرطل في مصر اختلف من مدينة لأخرى وحسب الأشياء الموزونة سواء كان لحم أو خبز أو خضر(٥) وأحسن أنواع الأرطال

---

(١) المقدسي، المصدر السابق، ص١٤٩.

(٢) ابن حوقل: المصدر السابق،ص ٢٦٣.

(٣) الاصطخري: المصدر السابق، ص ٩٤.

(٤) المصدر نفسه،ص ١٢٥.

(٥) ابن الأخوة: محمد بن محمد بن أحمد القرشي، معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق د. ممد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٧٦م، ص ١٣٨-١٣٩.

في مصر ما يسمى المن ويساوى ستة وستين درهماً وبه ستة وعشرين أوقية وأوقيته عشرة دراهم والقنطار يساوى مائة رطل. [١]

ووحدة الكيل عندهم هي القدح وهو يختلف من مكان إلى مكان[٢] والويبة وهي ستة عشر قدحاً كما تساوى خمسة عشر مناً[٣] ومن مكاييل أهل مصر الإردب وهو ست ويبات وقد يبلغ في بعض البلاد المصرية أحد عشر ويبة[٤] ويسع الأردب الشرعي أربع وعشرين صاعاً[٥] كما استعملوا الويبة وهي اثنان وعشرون أو أربعة وعشرون مداً[٦] ولديهم الجريب الذي يساوى ست عشر كيلجة. [٧]

اختلفت الأوزان والمكاييل كذلك في بلاد المغرب والأندلس فوحدة الوزن الأكثر شيوعاً هي الرطل وفي القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) كانت الأرطال البغدادية في الإقليم كله إلا الذي يوزن به الفلفل يزيد على البغدادي بعشرة دراهم[٨] ولكن لاحقاً اختلف الرطل في بلاد المغرب من مكان لآخر خاصة في مناطق مالقة والقيروان وساحل تلمسان ومنطقة الخضراء[٩] وفي العصر الموحدي أصبح الرطل يساوى ستة عشر أوقية[١٠] وأيضاً من وحدات الوزن الكبيرة عندهم القنطار. [١١]

---

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٦٠٤.

(٢) المرجع نفسه ، ص٦٠٤.

(٣) المقدسي: المصدر السابق، ص ٢٠٤.

(٤) المصدر نفسه ص ٢٠٤.

(٥) عمر سليمان الأشقر وآخرون: المرجع السابق، ص ٥٦٤.

(٦) المرجع نفسه ،ص ٥٦٢.

(٧) الريس: المرجع السابق،ص ٣٢٨.

(٨) المقدسي: المصدر السابق، ص ٢٤٠.

(٩) مجهول: المصدر السابق، ص ١٨٤-١٨٥.

(١٠) البكري: المغرب، المصدر السابق، ص ١١٧.

(١١) مجهول: المصدر السابق، ص ١٨٤.

ومن وحدات المكاييل المد والقفيز ويختلف القفيز من مكان لآخر فقفيز القيروان اثنان وثلاثون ثمناً والثمن ستة امداد بمد النبيﷺ وقفيز الأندلس ستون رطلاً ولديهم الوسق الذي لم يختلف فيه فهو ستون صاعاً بالصاع النبوي. (١)

وكما هو الحال في الرطل فقد أُختلف فيه في إقليم الشام أيضاً فقد كان الرطل الحموي ستمائة وستون درهماً والرطل الحلبي –نسبة إلى حلب– سبعمائة وعشرون درهماً(٢) والأرطال من حمص إلى الجفار ستمائة درهم غير أنه يتفاوت فأكثره رطل عكا وأقله الرطل الدمشقي والرطل اثنان عشر أوقية والأوقية من خمسين إلى بضع وأربعين درهماً. (٣)

واختلفت كذلك مكاييلهم من مكان لآخر فقد كان لأهل الرملة القفيز والويبة والمكوك والكيلجة والمكوك ثلاث كيالج والويبة مكوكان والقفيز أربع ويبات ولهم المُدى ومدى عمان ست كيالج وقفيزهم نصف كيلجة. (٤)

---

(١) المقدسي: المصدر السابق، ص ١٨٢.

(٢) ابن الأخوة: المصدر السابق، ص ١٣٨–١٣٩.

(٣) المقدسي: المصدر السابق، ص ١٨٢–١٨٣.

(٤) المصدر نفسه والصفحة.

٥ -الرقابة على الأسواق

للأهمية الكبرى التي تؤديها الأسواق في حياة الناس الاقتصادية والمالية اقتضت الضرورة أن لا يترك التعامل في الأسواق دون مراقبة. وعلى الرغم من أن قواعد الشرع واضحة لدى معظم أهل السوق إلا أن حب المال ونشاط الحركة التجارية قد لعبا دوراً سيئاً في سلوك بعض التجار. (١)

وبما أن السوق هو آخر مكان تستقر فيه البضائع والسلع لتعرض مباشرة إلى المشترين من عامة الناس فقد كان لابد من وجود قوانين دقيقة تمنع التلاعب في جميع المعاملات المالية والتجارية سواء كان ذلك في النقود أو في الموازين أو في غش السلع وتدليسها أو حتى في الأسواق من حيث عنايتها ونظافتها.

ومن هنا تظهر وظيفة الحسبة مؤكدة عليها العديد من آيات القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(٢)وقوله تعالى: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(٣).

والحسبة يعرفها الإمام ابن تيمية(٤) قائلاً: "إذا كان جماع الدين وجميع الولايات أمر ونهى فالأمر هو أمر بالمعروف والنهى هو نهى عن المنكر... وجميع الولايات الإسلامية إنما مقصودة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر سواء ذلك في ولاية الحرب الكبرى مثل نيابة السلطة الصغرى والكبرى مثل الشرطة وولاية الحكم أو ولاية المال وهي الدواوين المالية...".

---

(١) حمدان عبدالمجيد الكبيسي: المرجع السابق،ص ٣٠٦.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١١٤.

(٤) (شيخ الإسلام تقي الدين أحمد) الحسبة في الإسلام، نشرها قصى محب الدين الخطيب، ط ٢، دار المكتبة السلفية، (بدون م) ١٤٠٠هـ،ص ٦.

وصاحب الأحكام السلطانية عرفها بأنها أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهى عن المنكر إذا ظهر فعله. (1)

ويؤكد على ذلك ابن خلدون(2) بأنها وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين.

لم تظهر الحسبة في عهد الرسولﷺ كوظيفة ومؤسسة ذات معالم ثابتة شأنها في ذلك شأن العديد من المؤسسات الأخرى في الدولة الإسلامية الناشئة ولكن المبادئ التي ظهرت في ذلك العهد والممارسات التي صدرت عن الرسولﷺ قد أرست الأسس المبدئية التي ستقوم عليها وظيفة الحسبة في العصور التالية.

من هذه الممارسات التي صدرت عنهﷺ ما رُوى في صحيح مسلم عن أبي هريرةرضي الله عنه "أن رسول الله ﷺ مر على صبرة طعام فأدخل يده فنالت أصابعه بللاً فقال: ما هذا يا صاحب الطعام فقال: أصابته السماء يا رسول الله قال: أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غشنا فليس منا".(3)

إذن فقد قام الرسولﷺ بدور المحتسب في الأسواق من غير مسمى لهذه الوظيفة وقد ذُكر أنه ﷺ ولي سعيد بن العاص على سوق مكة وولى عبدالله بن سعيد بن العاص على سوق المدينة. (4)

وكذلك الخلفاء الأربعة تدل أخبار وشواهد متنوعة لممارستهم أعمال الحسبة والرقابة على السوق وحتى ذلك الوقت لم تستقل بنفسها كوظيفة دائمة قائمة بذاتها بل قاموا بها ضمن واجباتهم واعتنوا بأمرها بأنفسهم أو بتعيين من يرونه أهلاً للقيام بها على نهج النبيﷺ.

---

(1) الماوردي(أبوالحسن على بن محمد بن حبيب البصري) الأحكام السلطانية، تحقيق أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٣٤٩.

(2) المقدمة، المصدر السابق، ص ١٤٥.

(3) ابن تيمية: المصدر السابق، ص ٩.

(4) ابن الأخوة: المصدر السابق، ص ٣٦.

ومثال لذلك ما ذُكر من أن عمر بن الخطاب كان يهتم بأمر الحسبة ويتجول في الأسواق وورد عنه أنه ضرب جمالاً وقال له: حملت جملك ما لا يطيق وكان يضرب التجار بدَرَه*. [١]

يتبين من ذلك أن الحسبة في عهد الخلفاء الراشدين كانت في دائرة ضيقة وبالقدر الذي كانت تسمح به حاجاتهم فقد "كانوا يباشرونها بأنفسهم لعموم صلاحها وجزيل ثوابها".[٢]

ولما جاء عصر الدولة الأموية والعباسية وعمت الهجرة إلى البلاد المفتوحة واتسعت الحضارة ووجدت المدنيات "أصبح للحسبة ولاية كولاية القضاء وولاية المظالم فوضعت لها القواعد وحددت الاختصاصات واستقلت سلطة متوليها".[٣]

وأصبح لهذه الوظيفة شروط يجب أن تتوافر فيمن يتولاها فلابد للقائم بأمور المسلمين أن يعين من يراه أهلاً لذلك فيتعين فرضه عليه. [٤]

فمن الشروط الواجب توافرها فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون مسلماً مكلفاً[٥] حراً، عدلاً، ذا رأي وصرامة وخشونة في الدين وعالماً بالمنكرات الظاهرة. [٦]

وبما أن المحتسب قد اتسعت سلطاته بحيث لم يبق كثير من مجالات الحياة التي لم يكن له عليها بعض الإشراف فقد أصبحت الصفات المطلوبة فيه كثيرة من ذلك أن يكون عف اللسان، نقي القلب، صبوراً، رقيقاً، ولين القول، طلق الوجه وسهل الأخلاق عند أمره للناس ونهيه. [٧]

---

* الدرة: هي العصا (ابن جبير، المصدر السابق، ص ٤٨).

(١) ابن الأخوة: المصدر السابق، ص ٣٦.

(٢) الماوردي: المصدر السابق،ص ٣٧٣.

(٣) ابن الأخوة: المرجع السابق،ص ١٥.

(٤) ابن خلدون المصدر السابق، ص ١٢٥.

(٥) ابن الأخوة: المصدر السابق، ص ٢٥٠.

(٦) الماوردي: المصدر السابق،ص ٣٤٩.

(٧) نقولا زيادة: المرجع السابق،ص ٣٤.

وللمحتسب أن يتخذ الأعوان على ذلك[١] ومنهم عريف السوق وقد تكون الشرطة من هؤلاء الأعوان[٢] وعلى هؤلاء الأعوان أن يكونوا ملتزمين بشروط الأمانة والعفة فإن أكثر ما تتطرق التهمة إلى المحتسب من أعوانه وغلمانه فإن علم أن أحدهم أخذ رشوة أو هدية صرفه عنه لتنتهي عنه الظنون والشبهات. [٣]

اهتمت الدولة العباسية بالغ الاهتمام بالأسواق وشددت رقابتها عليها وربما يعود ذلك للنشاط التجاري الواسع في ذلك العصر حيث امتلأت الأسواق بالبضاعة والسلع المتنوعة من ناحية ومن ناحية أخرى ظهور الغش والتدليس في السلع بصورة أوسع مما كان ولا سيما الغش في النقود.

قد كان الخليفة هارون الرشيد يراقب الأسواق بنفسه وأحياناً كان يلبس لبس التجار ليقف على حقيقة الأوضاع في أسواق بغداد دون أن يتظاهر التجار بمظهر غير مظهرهم الحقيقي. [٤]

كما كان المعتضد بالله يهتم أيضاً بمراقبة الأسواق ويستمع إلى الشكاوى التي تصله من الأسواق ويحلها بنفسه[٥].

صار المحتسب يشغل وظيفة هامة في الدولة الإسلامية في العصر العباسي فتعددت واجباته فكان مما يقوم به منع التطفيف في الكيل والميزان في ذلك يقول الماوردي[٦] "يجوز للمحتسب إذا استراب بموازين السُوقة* ومكاييلهم أن يختبرها ويعابرها".

وعلى ذلك فقد كان الوزير على بن عيسى حريصاً على أمر الأسواق فقد كان يأمر المحتسب بأن يكون ملازماً للأسواق ويكشف الدكاكين ويتفقد الموازين والأرطال

---

(١) ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٢٠١.

(٢) نقولا زيادة: المرجع السابق،ص ٣٧.

(٣) ابن الأخوة: المصدر السابق، ص ٢٨.

(٤) حمدان عبدالمجيد الكبيسي، المرجع السابق، ص٣٠٥.

(٥)المرجع نفسه ص ٣٠٥.

(٦) الأحكام السلطانية ، المصدر السابق ، ص ٣٦٨.

* السوقة: عامة الناس ومن لم يكن ذا سلطان (ابن منظور، المصدر السابق، ج ٧،ص ١٩٨).

والمكاييل[١] وكذلك المقاييس فقد كان المحتسب يشرف على هذه المقاييس فقد بني قيسارية فأس ذراعاً وضبط قياسها لتكون أساساً لمقاييس أهل القيسارية. [٢]

وعلى المحتسب أن يتفقد الموازين والمكاييل ويفحصها بين حين وآخر للتأكد من شرعيتها ودقتها وقد اتخذ هذا الأمر طابعاً مؤسسياً في مصر أيام الدولة الفاطمية فأنشئت دار العيار أو دار الموازين.

وهي الدار التي يُراعى فيها للرعية موازينهم صنجهم* ومكاييلهم ويقوم المستخدمون فيها والمحتسب على التغيير فيها والإصلاح فمن وجدوا صنجه زائداً أو ناقصاً استهلكوها وباعوا عليه غيره. [٣]

والوصف الدقيق للميزان هو "ما استوى جانباه واعتدالت كفتاه وكان ثقب علاقته في جانبي وسط القصبة في ثلث سمكها فيكون تحت مرود العلاقة الثلث ومن فوقه الثلثان" وواجب على أصحاب الموازين أن يقوموا بمسحها وتنظيفها من الأدهان والأوساخ حتى لا تتجمد بها الأوساخ وتظهر في الوزن".[٤]

أما الوصف الدقيق للمكيال فهو "ما استوى أعلاه وأسفله في الفتح والسعة من غير أن يكون مخصراً ولا بعضه داخلاً وإن كان في أسفله طوق من حديد كان أحفظ له..." وينبغي أن يشد بالمسامير لئلا يصعد فيزيد أو ينزل فينقص..". [٥]

ومن اختصاصات المحتسب في الأسواق مراقبة الأسعار رغم أن هذا الأمر تنازع فيه العلماء فبعضهم يرى أنه لا يحد لأهل السوق حد لا يتجاوزونه[٦] والدليل على ذلك أن أهل المدينة سألوا الرسولﷺ أن يسعر لهم فقال لهم: "إن الله هو

---

(١) ابن الأخوة: المصدر السابق، ص ١٩.

(٢) نقولا زيادة: المرجع السابق، ص ٤١.

* الصنج: قطع معدنية ذات أثقال محددة ومختلفة المقادير يوزن بها (حسين يوسف، المرجع السابق، ج ٢،ص ١٢٤٩٢).

(٣) ابن مماتي: المصدر السابق، ص ٣٣٤.

(٤) الشيرزي: المصدر السابق، ص ١٨.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٠.

(٦) ابن تيمية: المصدر السابق، ص ٢٠.

القابض الباسط الرازق وأني لأرجو أن ألقي الله ولا يطلبني أحد بمظلمة ظلمتها إياه في دمٍ ولا مال".[١]

هذا الرأي لم يُعمل به في معظم أقاليم الدولة العباسية ففي عصر الدولة الفاطمية في مصر والشام والأندلس فإن أهم ما تميزت به الحسبة في ذلك الوقت عنايتهم التامة بشأن التسعير وإلزام الناس بما حدده المحتسب من أثمان بحيث لا يزيد ولا ينقص من ذلك شيئاً. [٢]

وكذلك الأمر في بغداد فقد عمل الخلفاء بالتسعير عندما زادت الأسعار في الأسواق نتيجة لاشتداد الغلاء لأسباب مختلفة ومن ذلك أن قفيز الحنطة ببغداد بلغ مائة درهم نتيجة للصراع بين الخليفة المستعين ببغداد وبين المعتز بالله الذي حاصر بغداد فقلت السلع الواردة على أسواقها وارتفعت الأسعار[٣] وفي سنة ٣٠٧هـ- ٩١٩م زادت الأسعار بصورة أكبر حيث بيعت ثمانية أرطال من الخبز بدرهم. [٤]

وفي سنة ٣٢٣هـ-٩٣٤م زادت الأسعار حتى وصل الكر من الحنطة مائة وعشرين ديناراً والشعير بلغ تسعين ديناراً مما اضطر بالناس أن يأكلوا خبز الذرة والدخن والعدس[٥]. وكذلك الأمر في سنة ٣٣٢هـ-٩٤٣م اشتد الغلاء بالناس حتى بيع القفيز الواحد من الدقيق بأكثر من ستين درهماً والخبز ثلاثة أرطال بدرهم. [٦]

إذن فقد تكررت حالات الغلاء مما جعل الخلفاء يسعرون للناس وهم في ذلك قد أخذوا بالرأي الثاني للتسعير وهو أن يسعر للناس في حالة الغلاء على حسب ما أجازه الإمام مالك. [٧]

---

(١)ابن تيمية: المصدر السابق ، ص ١١.

(٢) ابن الأخوة: المصدر السابق، ص ٣٩.

(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، المصدر السابق، ج ٢،ص ٤٤٩.

(٤) مسكويه: المصدر السابق، ج ١،ص ٧٧٢.

(٥) ابن الأثير:المصدر السابق، ص ٢٥١.

(٦) نفس المصدر، ج ٦،ص ٥٩٩.

(٧) الماوردي: المصدر السابق، ص ٣٧٠، ابن تيمية، المصدر السابقن ص ٩.

وهناك خلفاء ببغداد لم يلجأوا إلى التسعير عندما زادت الأسعار واشتد الغلاء بالناس فهارون الرشيد مثلاً والذي بدأت في عهده إشارات الغلاء اكتفى بأن طلب من الناس الدعاء والبكاء. [١]

ومما يدل على أن سلطات المحتسب في تطور مستمر أنه قد أوكل إليه أمر النقود التي هي مادة الأسواق وأساسها فأُوكلت إليه مهمة الرقابة عليها. ومن ذلك أن يمنع "جعل النقود متجراً فإنه بذلك يدخل على الناس من الفساد ما لا يعلمه إلا الله بل الواجب أنها رؤوس أموال يتجر بها ولا يتجر فيها"[٢] وعليه كان من واجب المحتسب وأعوانه التفتيش عن النقود خاصة عندما ظهرت في الدولة النقود الرديئة كالزيوف والبهرج والستوق*. وحينما وصلت معلومات لمحتسب بغداد عام ٣٢٩هـ-٩٤٠م بان أحدهم قد اتخذ بيتاً ووضع فيه آلات لضرب الدراهم عاقبه بالضرب وحمله على جمل وشهره بين الناس. [٣]

زادت سلطات المحتسب بصورة أوسع في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) عندما أعطى صلاحية الإشراف على دار ضرب النقود في بغداد وإثبات اسم الخليفة على ما يضرب من الدنانير والدراهم. [٤]

ويدخل في مراقبة المحتسب للنقود مراقبته للتعامل المصرفي وذلك لدقة عمل الصيرفة ذلك أن "التعيش بالصرف خطر عظيم على دين متعاطيه بل لابقاء للدين معه إلا بعد معرفة الشرع لتجنب الوقوع في المحظورات من أبوابه".[٥]

فكان على المحتسب مراقبة الصيارفة خاصة وأن معظمهم من اليهود والنصارى[١]. فعليه أن يراقبه احترازاً من الوقوع في ربا النسيئة بألا يبيع شيئاً من

---

(١) الأبشيهي(الشيخ شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور) المستطرف في كل فن مستطرف، ج ٢، القاهرة ١٢٧٩هـ،ص ٨١.

(٢) الماوردي" المصدر السابق، ص ٥١.

* ورد توضيح هذه الكلمات في الجزء السابق من هذا الفصل.

(٣) هاشم عبدالراضي الملاح: قضايا ومواقف من التاريخ العباسي، ط ٢، أكتوبر، ٢٠٠٠م، ص ١٦٩.

(٤) ابن الأخوة: المصدر السابق، ص ٣٠.

(٥) الشيرزي: المصدر السابق،ص ٧٤.

جواهر النقدين بشيء من جواهر النقدين إلا يداً بيدٍ بأن يجرى التقابض في المجلس وألا يقوم بتسليم الذهب إلى دار الضرب وشراء الدنانير المضروبة به.

أما ربا الفضل فيكون في بيع المكسور بالصحيح إلا مع المماثلة أو بيع الجيد بالردئ ولا يشترى ردیئاً بجيد دونه في الوزن أو بيع ردئ بجيد فوقه في الوزن ويقصد بذلك في حالة الذهب بالذهب والفضة بالفضة أما إذا اختلف الجنسان فلا حرج. (٢)

كل ذلك أوجب على المحتسب مراقبة الصرافين حتى يكون التعامل التجاري بعيداً عن الغش والاستغلال الربوي للآخرين فإن عثر بمن رابي أو فعل في الصرف ما لا يجوز في الشريعة عزره وأقامه من السوق هذا بعد أن يعرفهم بأصول مسائل الربا. (٣)

مما يقوم به المحتسب أيضاً المعاملات المنكرة في البيع والشراء كالبيوع الفاسدة في الأسواق لا سيما أسواق البزازين* ومن ذلك بيع النجش** والبيع على بيع الغير*** والبيع إلى أجل مجهول**** وغيرها من البيوع التي يغبن فيها البائع.

كما كان على المحتسب مراقبة الأسواق من ناحية نظافة الأطعمة والدكاكين وعليه أن يمنع كل ما من شأنه أن يسبب ضرراً للناس كأحمال الحطب والتبن وقرب الماء وسعف النخيل والرماد والشوك بحيث يمزق ثياب الناس. (٤)

من كل ما سبق يتضح أن مهمة المحتسب تدور حول خدمة المجتمع فهي دينية في المقام الأول اجتماعية في المقام الثاني تركزت بصورة كبيرة في السوق الذي بدوره يؤدى خدمة اجتماعية بالغة الأهمية.

---

(١) المقدسي: المصدر السابق، ص ٢٨٣.

(٢) ابن الأخوة: المصدر السابق، ص ١٢٤.

(٣) الشيرزي: المصدر السابق، ص ٧٤.

* البزازين: بائعي ثياب البز وهي ثياب من الكتان أو القطن (التنوخي: المصدر السابق، ص ٢٦٣).

** النجش: هو أن يزيد في السلعة ممن لا يريد شراءها (ابن تيمية، المصدر السابق، ص ١٠).

*** البيع على بيع الغير وهي أن يشترى الرجل سلعة بثمن معلوم بشرط الخيار فيقول له رجل آخر: ردها إليها وأنا أبيعك خيراً منها بهذا الثمن أو دون هذا الثمن (الشيرزي: المصدر السابق، ص ٦١).

**** البيع إلى أجل مجهول هو أن يقول: بعتك هذا الثوب إلى قدوم الحج أو حصاد الغلة أو على عطاء السلطان (المصدر نفسه والصفحة).

(٤) ابن الأخوة: المصدر السابق، ص ١٣٦.

ومما يؤكد على أهمية هذه الوظيفة أن الصليبيين في فترة احتلالهم وإقامتهم المملكة اللاتينية في فلسطين وما جاورها أبقوا على منصب المحتسب في تلك المناطق وأوكلت إليه أعمال عديدة منها أن يذهب إلى الأسواق في الصباح ليتفقد حوانيت الجزارين وحوانيت الخبز والنبيذ وغيرها من حوانيت المأكول والمشروب وأن يراعى وجود الخبز في الأسواق وجوداً غير مقطوع وأن يكون وزن الخبز مطابقاً للوزن المقدر بمجلس الحكم وأن يراقب السلع المعروضة للبيع وأثمانها. (١)

---

(١) نقولا زيادة: المرجع السابق، ص ٣٩-٤٠.

الفصل الرابع

أثر التجارة على الجوانب الحضارية للمجتمع

المبحث الأول : أثر التجارة في نشر الإسلام

أولاً: شرق وغرب أفريقيا

ثانياً: منطقة جنوب شرق آسيا

ثالثاً: منطقة تركستان الصينية

المبحث الثاني : أثر التجارة في الجانب الاجتماعي

أولاً: قصور الخلفاء وفرشهم

ثانياً: الطعام

ثالثاً: الملابس

رابعاً: الرقيق

المبحث الثالث : أثر التجارة في أدب الرحلة والجغرافية

أولاً: أثر التجارة في أدب الرحلة

ثانياً: أثر التجارة في الجغرافيا

المبحث الرابع : أثر التجارة في الجانب الثقافي

المبحث الأول

أثر التجارة في نشر الإسلام

أولاً: منطقة شرق وغرب أفريقيا:

أ/ شرق أفريقيا :

العلاقات التجارية بين بلاد العراق وشرق إفريقيا قديمة فقد كانت السفن التجارية تبدأ رحلتها من العراق إلى الصين وإلى شرق أفريقيا تحمل الخناجر والرماح والزجاج وتعود محملة بالعاج وجلود السلحفاة[١] .

كما أن لمصر أيضاً علاقات تجارية قديمة مع شرق أفريقيا يرجع ذلك بعضهم إلى عصر الهلينيين[٢] والبعض الآخر يرجعها إلى حضارة الفراعنة حيث أرسل أحد ملوك الأسرة الخامسة بعثة كانت أول الرحلات المصرية المعروفة إلى بلاد الصومال والمناطق الواقعة جنوب خليج عدن لجلب العطور والهدف من هذه الرحلات تجارية في المكان الأول[٣] .

زيادة على ذلك فقد اشتهر العرب بجنوب الجزيرة العربية في مناطق اليمن وحضرموت بأنه شعب تجاري أصيل وأنه يتخطى الصعاب ليزاول تجارته وعلى ذلك فإن عرب هذه المنطقة عبروا البحر الأحمر في فترات بعيدة قبل الإسلام وتعرفوا على الساحل الشرقي لأفريقيا وكانت لهم معه تجارة واسعة ومتصلة[٤] .

وبعد ظهور الإسلام وتعرض المسلمين للاضطهاد في بداية الدعوة الإسلامية أمر الرسول ﷺ صحابته بالهجرة إلى الحبشة وكان عدد المهاجرين الأوائل في الهجرة الأولى لا يزيد عددهم على أحد عشر مسلماً ثم جاءت الهجرة الثانية إلى الحبشة وحمل المهاجرون العقيدة الإسلامية الجديدة التي وجدت لها أرضاً خصبة للانتشار

---

(١) المسعودي : المصدر السابق ، ج١، ص ٢٣١ ، الإدريسي ، المصدر السابق ، ج ١، ص ٦١.

(٢) نقولا زيادة : المرجع السابق ، ص ٢١٦.

(٣) أحمد شلبي : المرجع السابق، ج ٦، ص ٣٤.

(٤) المرجع نفسه ، ج ٦، ص ٣٥.

وزاد ذلك عن طريق التجارة والتجار والتزاوج بين العرب والمسلمين المهاجرين والنازلين بينهم[١] .

ويرجع الاستقرار العربي الملحوظ في الساحل الشرقي إلى القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) وبمرور الزمن زاد عدد الوافدين للاستقرار وزادت العلاقات مع الداخل والتوغل فيه وتشعبت المصالح وأصبحت للعرب إمارات عربية لها اتصال بالجماعات التجارية العربية في الجزيرة العربية نفسها، وبالتجار العرب في القارة الإفريقية ، وقد أسهمت الأوضاع السياسية في الدولة العربية في العهدين الأموي والعباسي في زيادة عدد المهاجرين إلى سواحل أفريقيا الشرقية فعند اشتداد النزاع بين أحزاب المسلمين كانت الأحزاب المغلوبة على أمرها تهاجر إلى شرق أفريقيا وتتخذ هذه الجهات موطناً لها[٢] .

تعززت العلاقات العربية مع شرق أفريقيا نتيجة لتتابع الهجرات العربية إلى الساحل سواء أن كان ذلك بغرض التجارة أو لأسباب دينية أو سياسية مما أدى إلى تكوين دويلات ومدن تجارية إسلامية على طول الساحل الشرقي لأفريقيا من سفالة جنوباً ، وحتى مقدشيو شمالاً*[٣] .

مما سبق يتضح أنه كان لازدهار التجارة في الساحل الشرقي لأفريقيا زيادة على تتابع الهجرات انعكاساً كبير على نشر الدين الإسلامي وثقافته خاصة وأن معظم هؤلاء الوافدين انتقل من بلاد عرفت الإسلام منذ زمن بعيد.

ولاشك أن انتشار الإسلام في شرق أفريقيا أدى إلى نتائج عديدة من ذلك أن المجتمع في شرق أفريقيا كان يتكون من أجناس متعددة وأمم مختلفة في صفاتها وعاداتها وثقافاتها ولكنها بعد الإسلام أخذت تنصهر هذه الأجناس في بوتقة الحضارة الإسلامية ، واختلطت هذه الدماء اختلاطاً ساعد عليه التزاوج بين الفاتحين

---

(١) جعفر عباس حميدي، المرجع السابق، ص ٢١.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٤.

* لمعرفة المدن التجارية انظر الفصل الأول ، المبحث الثاني العلاقات التجارية مع شرق وغرب أفريقيا .

(٣) جعفر عباس حميدي : المرجع السابق ، ص ٣٠.

وأهل البلاد المحليين ، ومن هذا الاختلاط نشأ جيل جديد يعرف باسم العنصر السواحيلي (يعيش اليوم في كينيا وتنزانيا والصومال) ويتكلم لغة واحدة هي السواحيلية ويدين بالدين الإسلامي الذي وحد بينها وكون منها أمة واحدة لها آداب واحدة وثقافة واحدة ومصير واحد[١] .

كما كان من نتائج انتشار الإسلام في هذه المناطق انتشار اللغة العربية التي هي لغة دين وافد وهو الإسلام وهي لغة تجار من العرب اتصلوا بهذه المنطقة قبل الإسلام وبعد الإسلام وهي لغة مستوطنين هاجروا إلى هذه البلاد واتخذوها موطناً ومستقراً حتى صاروا من أهلها وحكموا معظمها وكونوا فيها إمارات وسلطات إسلامية[٢] .

هكذا يمكن القول أن العرب الذين استوطنوا الساحل الشرقي وكونوا إمارات عربية ومدن تجارية قد أسهموا في نقل الحضارة العربية والثقافة الإسلامية.

ب/ غرب أفريقيا *:

أسهمت التجارة بشكل كبير في نشر الإسلام والثقافة العربية في غرب أفريقيا ذلك أن العلاقات بين شمال أفريقيا ومنطقة السودان الغربي قائمة منذ أقدم عهود التاريخ، فقد كان المصريون القدماء تربطهم ببلاد أفريقيا تجارة الرقيق. كما خرجت القوافل التجارية من المستعمرات الفينيقية خاصة من قرطاجنة تشترى من السودان

(١) السر سيد أحمد العراقي : الإسلام والمسلمون في كينيا ويوغندا في العصور الوسطى، وآثاره السياسية والثقافية ، ٢٠٠٩م، ص ١٢.

(٢) حياة سيد أحمد عبدالرحيم : مملكة كلوة الإسلامية ودورها السياسي والاجتماعي في شرق إفريقيا (٣٦٥-٩٢١هـ) (٩٧٥ – ١٥١٥م) رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية، جامعة أم درمان الإسلامية ، ٢٠١١م ، ص ١٣٤.

* ساد الاعتقاد لفترة طويلة أن المرابطين هم أول من أدخل الإسلام إلى السودان الغربي أي في القرن الحادي عشر الميلادي، الخامس الهجري ولكن هذا الاعتقاد لا يستند إلى أساس إذ أن الذين زاروا تلك المناطق في فترات سابقة لذلك العهد ذكروا أن الإسلام منتشر في تلك المناطق عن طريق تجار البربر ودعاة وادي النيل ومصر (جلال يحيى، تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الإسكندرية، ١٩٨٣،ص ٢٧).

الذهب والعاج والرقيق وتعطيهم مقابل ذلك المنسوجات والنحاس ويتم هذا الاتصال عن طريق النيل والصحراء في العهدين اليوناني والروماني. (١)

اتسعت الصلات التجارية بين الشمال الأفريقي وغرب أفريقيا بعد الفتح الإسلامي لشمال أفريقيا حيث تولى العرب الذين عملوا على طول الساحل الشرقي لأفريقيا في هذه التجارة فقد وجدوا أن مصدر ثروتهم الرئيسي في بيع الرقيق وذلك بواسطة بعض زعماء القبائل الأفريقية في الداخل والذين كانوا على اتصال بالعرب وكان هؤلاء الزعماء يحصلون على الرقيق بواسطة شن الغزوات. (٢)

استمرت القوافل التجارية في سيرها تحمل إلى السودان سلعاً هاماً مثل الملح* والأقمشة الأوربية والسلاح من سيوف وخناجر وغيرها. كما حملت الفلفل والخيول والزجاج الأزرق وأسورة النحاس وعُقد خشب الصنوبر. وما أن انتهى القرن السابع الميلادي حتى كان المسلمون في مصر وأفريقيا والمغرب يؤمون أسواق المدن الكبرى. (٣)

سلكت هذه القوافل عدة طرق** وعلى هذه الطرق التجارية وغيرها قامت مراكز تجارية تدين بانتعاشها لتجارة القوافل عبر الصحراء لا سيما وأن هذه الطرق حُظيت

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، ج ١٢،ص ٣٢٨.

(٢) دنيس بولم: المرجع السابق، ص ٤٢.

* كانت حاجتهم ماسة إلى الملح الوارد إليهم من ناحية بلاد الإسلام ولا قوام لهم إلا به لذلك ارتفع ثمنه وربما بلغ حمل الملح بدواخل بلاد السودان وأقاصيه ما بين مائتين إلى ثلاثمائة دينار (ابن حوقل المصدر السابق، ص ٩٨) لمعرفة المزيد عن تجارة الملح أنظر الفصل الأول لجزء الخاص بالتجارة الخارجية.

(٣) ياقوت:المصدر السابق، ج ٢،ص ١٢، ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٩٨، الوزان، المصدر السابق، ج١، ص ١٦٣.

** وصف أصحاب المسالك هذه الطرق وصفاً دقيقاً مبنياً على عدد المراحل بين كل مدينة وأخرى كأمثال البكري في كتابه المسالك والممالك الجزء المسمي المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب ص ١٤-١٦٣ وابن خرداذبة الذي يصف الطريق من الفسطاط إلى المغرب ومن برقه إلى المغرب ص ٨٤-٨٥ وقدامة بن جعفر في كتابه الخراج يصف الطريق من الفسطاط إلى برقه وأفريقيا والمغرب ص ٣٢٢ وكذلك الاصطخري في المسالك والممالك ص ٣٢٧ وتوضيح ذلك في الفصل الخاص بالتجارة الخارجية المبحث الثاني.

بعناية المسلمين فأخذ التجار المسلمون من عرب وبربر يؤمون أسواق المراكز بل نجد أن بعضهم استقر فيها وعملوا مراسلين أو وكلاء لمواطنيهم من سكان سواحل البحر الأبيض المتوسط. (١)

هذه المراكز التجارية أدت دوراً هاماً في خدمة الإسلام وفي ذلك دلالة واضحة على صلة انتشار الإسلام بالتجارة حيث أن هذه المدن التي يرتادها البائعون والمشترون المسلمين سرعان ما تصبح مراكز ثقافية يقصدها المعلم والمريد حتى أصبح الشائع أن مراكز الاحتكاك تبودلت فيها السلع والأفكار. (٢)

وبهذا الاندماج الاقتصادي والثقافي في المدن والمراكز التجارية مثل ولاته* وجني** وتكرور*** أصبحت التجارة الوسيلة الحضارية لانتقال المؤثرات من مصر وبقية شمال أفريقية حيث نقل التجار معهم الإسلام واللغة العربية.

وكانت أساليب هؤلاء التجار المقيمين في المراكز أو المتنقلين من مراكز إلى آخر- لها دور كبير في نشر الدعوة السلمية حيث "أنهم لم يستخدموا السيف لتحويل الناس إلى الإسلام بل ولم يدعوا لأنفسهم حقوق جنس أسمى يتمتع بالغلبة والسيادة لكي يحطموا بذلك شأن السكان الأصليين ويسلبوا حقوقهم بل قدموا في زي التجار

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، ج ٢،ص ٣٢٨، يسرى الجوهري، أفريقيا الإسلامية، دار المعارف، مصر، ١٩٨٠م،ص ١٥.

(٢) أحمد شلبي: المرجع السابق ، ج٦، ص ١٩٤.

* من هذه المراكز "ولاتة" التي تقع إلى الشمال الغربي من تمبكتو وهي مملكة صغيرة بالنسبة لسائر ممالك السودان الغربي وأهلها فرع من مسوفة الذين يتنقلون في الجزء الصحراوي الواقع شمال هذه الناحية وكانوا يقومون بقيادة القوافل التجارية القاطعة للصحراء وحمايتها. إلى هذه المملكة كان يأتي التجار من الشمال والشمال الشرقي وصحب نشاطها التجاري نشاطاً ثقافياً (الوزان، المصدر السابق، ص ١٦١، أحمد شلبي، المرجع السابق، ج ٦،ص ١٩٨).

** جنى: تتاخم مملكة ولاتة مع وجود مسافة خمسمائة ميل بينهما وتقع إلى الجنوب الغربي من تمبكتو لها تجارة مع البربر فأصبحت مركزاً تجارياً مهماً وهذا جعل التجار يحملون إليها الإسلام مع ما حملوا من السلع (الوزان، المصدر السابق، ص ١٦٣).

*** تكرور :لمعرفة التكاررة أنظر الفصل الثالث المبحث الثاني من هذا البحث.

واستخدموا ما لديهم من ذكاء أسمى ومدنية أزهر في سبيل الدين أكثر من أن يكونوا قد استخدموا ذلك وسيلة لتوسيع نفوذهم الشخصي أو لتنمية ثرواتهم".(١)

وربما يعود ذلك إلى أن الإسلام جاء إلى الزنوج وهم سادة في أوطانهم يتمتعون بكامل الحرية والسيادة والاستقلال والقوة ويمارسون حكوماتهم وينظمون شئونهم الخاصة فلم يكن لدعاة الإسلام من العرب والبربر أو ناشريه أدنى قِسط من السيطرة وإن كان نفوذهم الروحي عظيماً ومقبولاً. (٢)

أيضاً من أساليب التجار أنهم اتخذوا لغة القوم وعاداتهم فأصبحوا قادرين على التحدث معهم وشرح مبادئ وتعاليم الدعوة المحمدية وما شرعه الله لخير عباده في الدنيا والآخرة واشتروا العبيد ليرفعوا من قيمتهم الشخصية كما تزوجوا من الأهالي وهم في الغالب يتزوجون من بيوت رؤساء القبائل وأصحاب النفوذ حيث أنهم كانوا أهلاً لذلك بصفاتهم وتُراثهم الكبير وكثيراً ما يدخل رؤساء القبائل في دين أصهارهم فتتبعهم باقي القبيلة. (٣)

نجح هؤلاء التجار في أن يدخلوا أنفسهم في زمرة الزعماء ويتصلوا بأفراد الطبقات العليا وعملوا مع بعضهم البعض على نحوٍ أكثر إجادة مما يصنع أهل البلاد وزادوا من قوتهم شيئاً فشيئاً حتى أسسوا نوعاً من الحكومات الملكية الوراثية مع محافظتهم في نفس الوقت على علاقتهم مع تلك الطبقات العليا. (٤) وفتحوا صدورهم للدين الإسلامي والناس على دين ملوكهم- فبدأت جموع غفيرة من الشعب تدخل الدين الذي اعتنقه الكبار. (٥)

---

(١) توماس ارنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن، عبدالمجيد عابدين، إسماعيل النحراوي، النهضة، القاهرة، ١٩٧٠م،ص ٤٠٣.

(٢) إبراهيم على طرخان: دولة مالي الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة،١٩٧٣م،ص ٥٦.

(٣) موسوعة العالم الإسلامي، مركز الأبحاث والدراسات الدولية في دار الرأي العام، ١٩٧٩م،ص ٨٠٧.

(٤) توماس ارنولد: المرجع السابق، ص ٤٠٣، جلال يحيى، المدر السابق،ص ٢٥.

(٥) موسوعة العالم الإسلامي،ص ٨٠٧.

للصفات الجميلة التي اتصف بها المسلمين من صدق التعامل في تجارتهم وحيث أن الإسلام يمنع التطفيف والغش وبما تمتعوا به من صحة جيدة ونظافة وملابس فخمة دور كبير في محاولة هؤلاء إلى مجاراتهم فضلاً عن اعتناق دينهم.

كان للإسلام الذي أسهم في نشره التجار بصورة كبيرة أثره الواضح على هذه المناطق من غرب أفريقيا على التطورات الثقافية حيث انتشرت اللغة العربية التي أصبحت لغة العبادة والتجارة والحضارة وأُسست المدارس التي أُلحقت بالمساجد لتدريس القرآن والفقه ووفد إليها العديد من الفقهاء والوعاظ وحملة العلم.

كما أثر في المجال الاقتصادي وظهر ذلك واضحاً في سلوكيات التعامل التجاري لأن الإسلام حث على الكسب الحلال بحيث أصبح التاجر المسلم يمثل الصورة المشرقة للمبادئ فحصل على التقدير والاحترام. كما أسهم الازدهار الاقتصادي في بناء المدن التجارية التي أدت دوراً هاماً في تطوير الحياة الاقتصادية حيث تطور التبادل التجاري والمعاملات المالية فظهرت العملة والصكوك. (١)

ثانياً: منطقة جنوب شرق آسيا:

المطلع على تاريخ التجارة في العالم يدرك بوضوح أهمية الصين ودول جنوب شرقي آسيا ودول الشرق الأوسط ثم أوربا في مجال التجارة ففي كل منطقة من هذه المناطق إنتاج خاص تحتاج إليه المناطق الأخرى. ومنطقة جنوب شرقي آسيا بوجه خاص اشتهرت بالعديد من المنتجات أهمها التوابل والكافور والصندل وجوز الطيب والنارجيل والبخور والملح والأخشاب والعاج والقصدير وخشب الأبنوس(٢) ومعظم هذه المنتجات كانت ضرورية قبل الإسلام للمعابد والقصور. وكان الحرير الصيني مطلوباً بكثرة في الشرق الأوسط كما كانت الصين سوقاً واسعةً لاستهلاك منتجات الشرق الأوسط من نسيج وتمور وحبوب وحلي ذهبية وأواني منزلية وسيوف. (٣)

---

(١) جعفر عباس حميدي: المرجع السابق، ص ٤٤-٤٥.

(٢) ياقوت، المصدر السابق،ج ٣، ص ٤٤٢.

(٣) ياقوت، المصدر السابق،ج ٣ ، ص ١٢.

تفردت منطقة أرخبيل الملايو * عبر تاريخها بالقيام بدور مهم في الوساطات التجارية والشهرة بسلعها المحببة لمناطق أخرى مما أكسب هذه المنطقة أهمية خاصة إذ تعد معبداً ووسيطاً للتجارة بين غرب وشرق آسيا وبين الشرق الأوسط والغرب والصين. (١)

وكان العرب من جنوب شبه الجزيرة العربية هم أول من مخروا عباب المحيط الهندي وذلك قبل الإسلام بقرون عديدة حيث كانوا يعملون كوسطاء بين التجار الأوربيين والتجار الآسيويين في الهند وغربي ماليزيا على الرغم من أن الرومان والفرس منذ نهاية القرن الخامس الميلادي كانوا ينافسونهم في محاولة السيطرة على تجارة المحيط الهندي. (٢)

ويقرر باحث عاش في هذه المناطق فترة من الزمان أن التاريخ يحدث عن وجود جماعات عربية كانت تقطن قبل الإسلام بعض موانئ الملايو وأندونيسيا وكانت هذه الجماعات تعيش تحت حكم شريف عربي. وتتبع النظام القبلي بشبه الجزيرة العربية ويشمل ذلك الاستيطان القديم مصر بحكم ما كان لمصر من دور كبير في هذه التجارة القديمة. (٣)

فقد كانت السفن تترك الموانئ المصرية على البحر الأحمر أول يوليو وتبحر جنوباً إلى خليج عدن لتحملها الرياح الموسمية الجنوبية الغربية في الوقت المناسب إلى شواطئ الهند في سبتمبر وفي أواخر نوفمبر وأوائل ديسمبر تهب رياح موسمية

---

* عرفت أرخبيل الملايو في كتابات الجغرافيين بمختلف الأسماء فقد كانت تعرف بـ"كلاه" Kalah أو كله بار Kallah bar وكلاهبار Kallah bar وهذه الكتابات والقراءات للكلمة كله التي وردت في معظم كتابات الجغرافيين يقصد بها قدح Kedah (أبوهريرة عبدالله محمد وعبدالغنى يعقوب فطاني، ملامح من تاريخ ارخبيل الملايو، دار التجديد،ماليزيا، ٢٠٠٦م،ص ٤٩.

(١) المرجع نفسه، ص ٤٢.

(٢) قيصر أديب مخول: الإسلام في الشرق الأقصى وصوله انتشاره ودوافعه، تعريب د. نبيل صحبي، (بدون د) بيروت، ١٩٦٦م،ص ١٥.

(٣) أحمد شلبي: المرجع السابق، ص ٤٥٦.

جنوبية شرقية فتعود بالمراكب العربية إلى موانئ الجنوب العربي ومنها تدخل المراكب البحر الأحمر مرة أخرى لترسوا على شواطئه المصرية. (١)

لعل ذلك يثبت أن كلاً من الجزيرة العربية ومصر تربطهما علاقات تجارية قوية مع دول جنوب شرقي آسيا والصين من قبل الإسلام.

وبعد الإسلام استمرت هذه العلاقات بصورة أكبر حيث تؤكد البحوث أنه كان للعرب أماكن استيطان ومراكز تجارة ومحاسبة في كانتون* ولذا يمكن القول أن العرب في العصور القديمة والوسطي قد ملكوا زمام التجارة البحرية بين مصر وإيران والهند من جهة وبين الهند وشرقي وجنوب شرقي آسيا من جهة أخرى. (٢)

ويشهد القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) استقرار عدد من التجار العرب المسلمين في موانئ أرخبيل الملايو(٣) حيث شهد ذلك القرن بداية سيطرة التجار على تجارة نانهي Nanhi. وكانت سفنهم الآتية من سواحل عمان تبحر من وإلى ميناء سرى فيجايا Sry Viyaya وشبه جزيرة الملايو. وازداد ازدهار الميناء بازدياد أهميته عند العرب في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي عندما أغلق ميناء كانتون الصين بوجه التجار الأجانب نتيجة لاضطراب مملكة تانك الصينية وبذلك أصبحت سري فيجايا أبعد نقطة وصلت إليها السفن العربية والفارسية في الشرق الأقصى. (٤)

وعلى هذا الاستقرار في الموانئ الهامة تكونت جاليات عربية إسلامية حيث كان من عادة التجار العرب البقاء لفترة زمنية طويلة في الموانئ لجمع أصناف السلع والبضائع والقيام بدور الوسيط بين التجار القادمين إلى هذه الموانئ والتجار المحليين المقيمين خاصة الذين يتعاملون بالتجارة المحلية. (٥)

---

(١) قيصر أديب مخول: المرجع السابق، ص ١٧.

* كانتون: هي خانفو ميناء الصين التجاري الكبير سبقت الإشارة إليه في الفصل الخاص بالتجارة الخارجية المبحث الثاني من ذلك الفصل.

(٢) توماس ارنولد، المرجع السابق،ص ٤٠١-٤٠٢.

(٣) أبوهريرة وفطاني، المرجع السابق،ص ٥٥.

(٤) قيصر أديب مخول: المرجع السابق،ص ١٩.

(٥) أبوهريرة وفطاني: المرجع السابق،ص ٥١.

وحيث أن التاجر العربي المسلم كان يسير في تجارته إلى هذه المناطق النائية دون أن يصحب زوجته فكثيراً ما تزوج هؤلاء التجار من نساء أهل الجزائر وكان أول ما ينبغي على الزوجة عمله الدخول في الإسلام فتكسب جاهاً كبيراً بين أهلها وقبيلتها وكان للعرب الذين كثرت رحلتهم وتجارتهم مكانة ملحوظة بين الفلاحين البسطاء من أهل البلاد ولا يزال لهذه المكانة فضل عظيم في نشر الإسلام بين الممالك الوثنية وهذا بدوره أدى لأن تسلم بقية الأسرة والعائلة.(١)

نجح هؤلاء التجار في نشر الإسلام بهذه المناطق البعيدة كما كانوا عاملاً فعالاً في تهذيب أخلاق الناس والحفاظ على أعراضهم وكرامتهم وحرمت على الغرباء الأعراض إلا بالزواج وأصبح شرب الخمر محظوراً بعد أن كان يحتسيه الناس عامة. (٢)

وكان لهذه الجاليات في كل مدينة حي يقيمون فيه مساجدهم لإقامة شعائرهم الدينية وكانوا معظمين ومحترمين ولكل جالية رئيس منهم يتولى أمرهم ويقيم القضاء فيهم وينظر في شئونهم ومصالحهم وكانوا لا يقبلون غير حكم المسلمين فيهم ولا يقبلون إلا شهادة المسلمين عليهم. (٣)

كان التجار المسلمون حاذقين ونهجهم الدعوة السلمية وبالحكمة والموعظة الحسنة وعرَّفوا الإسلام في هذه الفترة بأسلوب بسيط يفهمه الخاصة والعامة ويدركون تعاليمه التعبدية والاجتماعية القائمة على فلسفة التوحيد وقيم العدل والمساواة بين الناس فأحبهم أهل البلاد وأعجبوا بأخلاقهم. (٤)

---

(١) دائرة المعارف، ج ٦،ص ٤٣١.

(٢) ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص ٧٦-٧٧.

(٣) المصدر نفسه ،ص ٧٥.

(٤) أبوهريرة وفطاني: المرجع السابق،ص ٥٣.

كما تميزوا بالدبلوماسية والحنكة في استغلال نقاط الضعف في نفوس السكان المحليين دون أن يجر ذلك إذلالاً لكرامتهم وكانوا أصحاب موهبة في الاتصال والتعبير بصفة عامة وطابقت أفعالهم أقوالهم. (١)

كما أن وفود هذه التجارة نقلت إلى الملايو وإندونيسيا أخبار أحداث وقعت في الشرق مرتبطة بالإسلام فقد دخل الإسلام الشام ومصر وبلاد فارس وغيرها وكثير من الأهلين اعتنقوا هذه الديانة ليتخلصوا من عبادة الطاغوت ومن دكتاتورية الحاكم ولا نزاع في أن بعض السكان في الملايو وإندونيسيا تأثروا بهذه الأخبار وحذوا حذو الآخرين في الشرق الأوسط. (٢)

ثالثاً: منطقة تركستان الصينية:

منذ أن تم للمسلمين النصر على الأتراك* الشرقيين في العصر الأموي قام الأمويون بالدعوة السلمية إلى الإسلام وألزم الخلفاء العمال أن ينشروا الإسلام بين الأتراك ودعا هشام بن عبدالملك أهل ما وراء النهر إلى الإسلام وأمر بطرح الجزية عمن أسلم فسارعوا إلى الإسلام. (٣)

ويرجع الفضل إلى العباسيين في أنهم مكنوا لحركة الإسلام من أن تمضى في سبيل نجاحها ليكتسب إقليم ما وراء النهر في مستهل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) طابعاً إسلامياً واضحاً وفي عهد المعتصم كان الإسلام قد رسخت أقدامه في بلاد ما وراء النهر وبدأ التجار الأتراك أنفسهم يتبنون حركته بين جيرانهم الأتراك الشرقيين ويقول البلاذري(٤) "المعتصم بالله حل شهود عسكره من أهل ما وراء النهر

---

(١) قيصر أديب مخول: المرجع السابق، ص ٤٥.

(٢) أحمد شلبي: المرجع السابق،ص ٤٥٥.

* كلمة الأتراك علماً على شعب من البدو (دائرة المعارف الإسلامية، ج ٥،ص ٣٤).

(٣) البلاذري : المصدر السابق، ص ٦٠٣.

(٤) المصدر نفسه ،ص ٦٠٦.

من الصغد والفراغنة والأشروشنة وأهل الشاش** وغيرهم وحضر ملوكهم بابه وغلب الإسلام على ما هناك وصار أهل تلك البلاد يغزون من وراءهم من الترك".

وفي القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كان الإسلام قد انتشر في قبائل الترك الرحل وفي بعض مدن التركستان الصينية بواسطة التجار وبدون استخدام أي سلاح فقد كان الأتراك الذين استولوا على البلاد الإسلامية في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) مسلمين وتوغل التجار المسلمون فيما بعد نحو الشرق.(١)

كان الاحتكاك التجاري بين مناطق البدو وأماكن الاستقرار احتكاك طبيعي فالبدو الترك كانوا ينظرون إلى البلاد المستقرة نظرة إكبار وهي موردهم الطبيعي للمنسوجات وغيرها من المصنوعات التي لا تتوافر في البيئات البدوية ومناطق الاستقرار بدورها تتطلع إلى مناطق البداوة على أنها مورد طبيعي للمواد الخام والثروة الحيوانية. (٢)

كان هناك إقبال من البدو على أسواق المسلمين في ما وراء النهر ويألفون البضائع الإسلامية ويعتمدون عليها فكانوا يرحلون إلى التجار في هذه المدن دون انتظار رحيل التجار إليهم وخاصة إنهم يقودون قطعانهم إلى المدن الواقعة على الحدود حيث الأعشاب الطويلة على ضفاف الأنهار زمن الشتاء فتستهويهم من التجار المسلمين الجوانب المادية المتمثلة في حاصلاتهم وصناعاتهم ثم يتبعون هذا الإعجاب بالمادة إلى الدين الإسلامي باعتباره العامل الموجه لهذه الحضارة المزدهرة ثم تميل قلوبهم إليه فيدخلون فيه. (٣)

** الصغد والفراغنة والأشروشنة والشاش: كور من إقليم هيطل في بلاد المشرق (المقدسي، المصدر السابق، ص٢٩١).

(١) بارتولد : المرجع السابق ،ص ١٢٢.

(٢) حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطي، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ١٣٦.

(٣) المرجع نفسه ص ١٣٦.

المبحث الثاني

أثر التجارة في الجانب الاجتماعي

أولاً- قصور الخلفاء وفرشهم

لعب التجار دوراً كبيراً في ما وصلت إليه قصور الخلفاء من روعة البناء وفخامته وذلك بما شاهدوه خلال رحلاتهم وبما زودوا به تلك القصور من سلع ثمينة ومجهودات ورياش فاخر.

نجد أن البناء في عصر صدر الإسلام كان بسيطاً وكانت البيوت مكونة من دور واحد ثم ما لبث فن العمارة منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) أن تأثر من ناحية الشكل والزخرفة والرسوم وما أدخل عليه من حمامات. وانتشر هذا الطراز في العالم العربي بصفة عامة وفي العراق بصفة خاصة وكان لمشاهدات التجار والرحالة العرب وما نقلوه من أوصاف للقصور والأبنية في المناطق التي زاروها أثر كبير على هذا الفن. (١)

كانت قصور الخلفاء أشبه بمدن كبيرة لاتساعها تشتمل على دُور وبساتين تظللها الأشجار وتشتمل على قاعات ذات قباب وأروقة وجُلب إلى هذه البساتين الأشجار من مختلف أنحاء العالم حتى من الهند البعيدة وجعل مع هذه الأشجار الطيور المجلوبة كذلك وهي مختلفة من قماري وببغاء وشحارير.

ويتجلي فن البناء في ذلك الذي أحدثه المتوكل على الله* والمسمى بالحيري وذلك البناء كان من وصف أحد سُماره حيث أخبره أن بعض ملوك الحيرة من النعمانية** أحدث بنياناً على صورة الحرب وهيئتها فكان الرواق فيه مجلس الملك وهو الصدر والكمان ميمنة وميسرة. ويكون في البيتين اللذين هما الكمين من يقرب

---

(١) أحمد عبدالحميد الشامي : المرجع السابق، ص ٣٣.

* المتوكل على الله: جعفر بن محمد بن هارون بن عبدالله بن محمد بن على السجاد بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب (الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٩،ص ١٥٤) أمه تركية اسمها شجاع تولى الخلافة في سنة اثنتين وثلاثين ومائتين وتوفى سنة سبع وأربعين ومائتين، (ابن خلكان، المصدر السابق،ص ٣٢٧).

** الحيرة النعمانية: نسبة إلى النعمان بن أمري القيس ومن بعده المنذر بن النعمان والنعمان بن المنذر تناقض عمران الحيرة منذ بناء الكوفة إلى صدرٍ من أيام المعتضد فاستولى عليها الخراب وكان خلفاء بني العباس كالسفاح والمنصور والرشيد ينزلونها لطيب هوائها (المسعودي، المصدر السابق، ج ٢،ص ١٠٤).

منه من خواصه وفي اليمين منهما خزانة الكسوة وفي الشمال ما أُحتيج إليه من الشراب والرواق قد عمّ فضاؤه الصدر والكمين والأبواب الثلاثة واتبع الناس المتوكل في ذلك واشتهر. (١)

ومن الأبنية الشهيرة في بغداد قصر "التاج" و"الثريا" وكان التاج قد ابتدأ في بنائه المعتضد بالله* ثم عدل عنه وبني الثريا. ولما توفى وتولى ابنه أتم بناء التاج والواقع أن كلاً منهما غاية في الحسن والجمال وقد وصفهما ياقوت في معجمه وصفاً دقيقاً. (٢)

ومن القصور الضخمة قصر المقتدر بالله** والذي يظهر فيه بوضوح أن التجار إن وقع شيء ثمين في يدهم لا يجدون له نفاقاً إلا في قصور الخلفاء.

وصف ذلك القصر بمناسبة زيارة رسول من الروم للخليفة فتعجب الرسول لما شاهده من الخزائن والآلات مرتبة فيها كما يُفعل لخزائن العروس وأكثر ما تعجب منه الشجرة التي كانت من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم عليها طيور مصنوعة من الفضة تصفر بحركات قد جُعلت لها. وكان عدد ما عُلق في القصور من الستور الديباج المذهبة بالطرز الذهبية الجليلة المصورة بالفيلة والخيل والسباع والستور الكبار الأرمنية والواسطية والبهنسية والمنقوشة والدبيقية ثمانية وثلاثين ألف ستر. (٣)

وبعد أن طافوا برسول الروم ثلاثة وعشرين قصراً وصلوا إلى حضرة المقتدر بالله وهو جالس في التاج مما يلي دجلة بعد أن لُبِّس بالثياب الدبيقية المطرزة

---

(١)المسعودي ، المصدر السابق، ج ٤،ص ٨٧.

* المعتضد بالله: اسمه أبوالعباس أحمد بن طلحة تولى الخلافة وهو ابن واحد وثلاثين سنة وذلك في سنة تسع وسبعين ومائتين وأمه أم ولد رومية يُقال لها ضرار توفى وعمره أربعين سنة وذلك في سنة تسع وثمانين ومائتين وفي عهده سكنت الفتن وصلحت البلاد ورخصت البلدان وسالمه كل مخالف وانفتح له الشرق والغرب (المسعودي، المصدر السابق، ج ٤،ص ٢٣٢).

(٢) ياقوت : المصدر السابق، ج ٢،ص ٣.

** المقتدر بالله: هو جعفر بن المعتضد بالله بويع بالخلافة سنة خمس وتسعين ومائتين وهو ابن ثلاث عشر أمه أم ولد يقال لها شغب (الطبري، المصدر السابق، ج ١٠،ص ١٣٩) كان سمحاً كريماً كثير الإنفاق اتسمت خلافته بسعة الإدارات والمعاش وكثرة الخلع والصلات دارت بينه وبين أمير الجيوش مؤنس المظفر منافرة أدت إلى الحرب وقتل المقتدر في سنة عشرين وثلاثمائة هجرية (ابن طباطبا، المصدر السابق، ص٢٦٠).

(٣) البغدادي: المصدر السابق، ج ١،ص ١١٦-١١٨.

بالذهب على سرير أبنوس قد فرش بالدبيقي المطرز بالذهب على رأسه الطويلة وعلى يمين السرير تسعة عقود مثل السبح معلقة وعن يساره تسعة أخرى من أفخر الجواهر وأعظمها قيمة غالبة الضوء على ضوء النهار. (١)

وتبع بناء القصور إنشاء البساتين فقد أنشأ عضد الدولة البويهي* بستاناً بلغت النفقة عليه وعلى سوق الماء إليه خمسة آلاف ألف درهم كما أنشأ المقتدر في القصر المتقدم ذكره بستاناً بميادين فيها نخل وعدده أربعمائة نخلة وطول كل واحدة خمسة أذرع قد لبس جميعها ساجاً منقوشاً مذهباً. (٢)

ومن أشهر هذه البساتين بستان النارنج الذي كان للقاهر بالله** وهو من ريحان ونارنج حُمل إليه من البصرة وعمان وجاءت إليها محمولة من الهند. وقد حملت الأشجار من مختلف الألوان من أحمر وأصفر وغيره وجعل مع هذه الأشجار في الصحن أنواعاً مختلفة من الطيور التي جُلبت من الممالك والأمصار القريبة والبعيدة. (٣)

كما كان للوزير ابن مقلة* "بستان عظيم عدة أجربة شجر ونخل عمل له شبكة أبرسيم وكان يفرخ فيه الطيور التي لا تفرخ إلا في الشجر كالقماري والدِّباس والهزار والببغ والبلابل والقبح وكان فيه من الغزلان والنعام والأيل وحُمر الوحوش".(١)

---

(١)البغدادي: المصدر السابق ، ج ١،ص ١١٩.

* عضد الدولة البويهي: هو أبوشجاع فناخسرو بن ركن الدولة بن على بن الحسن بن بويه الديلمي بلغ درجة كبيرة من سعة الملك والاستيلاء على الملوك وممالكهم وكان فاضلاً محباً للفضلاء مشاركاً في عدة فنون قصده فحول الشعراء في عصره ومدحوه مثل المتنبي توفى سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة هجرية ببغداد (ابن خلكان، المصدر السابق، ج ٣،ص ٤٨٤-٤٨٦).

(٢) البغدادي: المصدر السابق، ج ١،ص ١١٨.

** القاهر بالله: هو محمد بن أحمد المعتضد بالله بويع له في سنة عشرين وثلاثمائة هجرية وخلع في سنة اثنتين وثلاثمائة وسُملت عيناه على يد أمير الأمراء توزون كان القاهر متقلباً شديد البطش بأعدائه حيث أباد جماعة من أهل الدولة منهم مؤنس الخادم (المسعودي، المصدر السابق، ج ٤،ص ٣١٢-٣١٣).

(٣) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام الديني والسياسي والاجتماعي والثقافي، المرجع السابق، ج٣، ص٤٤٣.

* ابن مقلة: أبوعلى محمد بن على بن الحسين بن مقلة الكاتب المشهور كان في أول أمره يتقلد أعمال فارس ويجبي خراجها وتنقلت أحواله إلى أن صار وزير المقتدر بالله في سنة ستة عشرة وثلاثمائة هجرية ثم عزله

وهذا الذي كان سائداً في العراق من بناء القصور وتزويدها بأفخم الفرش والأثاث ساد كذلك في الشام التي لم تكن بمنأى عن العراق.

فقد ابتنى الأمراء الحمدانيون القصور الضخمة العديدة وكان أشهرها قصر سيف الدولة الحمداني** المسمى بالدارين والذي كان الدخول عليه عن طريق أبواب برونزية كبيرة منقوش عليها آلاف التصاوير الجميلة وتدور الأبواب على محاورٍ من الزجاج وكان للقصر قاعة فخمة كبيرة تحف بها أعمدة صغيرة تعلوها تجاويف القباب المزخرفة بالأزهار الملونة ، وبالقصر قاعة كبرى ذات قباب لازوردية محمولة على أربعة وأربعين عموداً ذات حلقات من الفضة تضئ جوانبها شموس ملونة وقد طوقت بإطارات من الجص وبه البرك العديدة التي تسبح فيها أزهار النيلوفر*** وتنطلق النافورات. وكان البلاط المرمري عليه السجاد الثمين الناعم والستائر من الحرير المزركش وكانت الكراسي والآرائك والمناضد مطعمة بالصدف والعاج* وعبير العطور الزكية يتصاعد من المباخر الدمشقية. (٢)

سنة ثمانية عشر وثلاثمائة هجرية ونفاه إلى بلاد فارس بعد أن صادره ثم استوزره القاهر بالله وعزل مرة أخرى ثم استوزره الراضي (ابن خلكان، المصدر السابق، ج ٤،ص ٣٤٥).

(١) أحمد أمين، المرجع السابق، ج ٢،ص ١٠٣.

** سيف الدولة الحمداني: اسمه أبوالهجاء بن حمدان وعرف فيما بعد باسم سيف الدولة، واستطاع أن يقنع الخليفة المكتفي بأن يوليه إمرة الموصل وأعمالها لأول مرة في سنة ثلاث وتسعين ومائتين وهو التاريخ الذي يذهب كثير من المؤرخين إنه بداية دولة بني حمدان (مصطفى الشكعة: سيف الدولة الحمداني، دار العلم، مصر، ١٩٥٩م،ص ٣٣).

*** النيلوفر: اسم فارسي معناه" النيلي الأجنحة" وهو نبات ينبت في الماء وساقه ملساء يطول بحسب عمق الماء وهو متعدد الألوان أغلبها أصفر وأبيض وأزهاره تتفتح بمطلع الشمس وعند الغروب تنقبض (العمري: المصدر السابق، ص ١١٩).

* العاج: لقلة مصادره كان يستعمل في الأدوات الصغيرة نسبياً أو في عناصر زخارف وكان الأدوات المصنوعة من العاج في العصر الإسلامي تشتمل على علب الجواهر والأمشاط وأكبر مصادر العاج في ذلك الوقت أفريقيا (دائرة المعارف الإسلامية، مج ١٥،ص ٤٤٢).

(٢) مصطفى الشكعة: المرجع السابق،ص ٥٨، سامي الكيال، سيف الدولة وعصر الحمدانيين، دار المعارف، مصر١٩٥٩م،ص ١٦٠.

ويبدو أن ما جلبته التجارة أثر كثيراً حتى في المراسم الدينية في بلاد الشام فعند عودة الخاثون** من الحج خرج أمير البلد للقاء والدته مع زعماء دولته في احتفال وأبهة وقد دخل الحجاج الذين كانت في صحبتهم الخاثون وكان ابن جبير من ضمن هؤلاء وقد زينوا أعناق إبلهم بالحرير الملون وقلدوها القلائد المزوقة ودخلت خاتون تقود عسكر جوادها وأمامها عسكر رجالها يطوفون لها وقد حُليت قبتها بسبائك ذهبية مصوغة ودنانير سعة آلاف وسلاسل وتماثيل بديعة الصنعة ومطاياها مجللة الأعناق بالذهب وصخب ذلك يسد السامع. (١)

وأغرب من ذلك أن يظهر ترفهم بعد الموت فعندما توفى الأمير سيف الدولة الحمداني غسل تسع مرات أولها بالماء ثم بزيت النيلوفر ثم بالصندل وبعده بالضريرة ثم العنبر ثم الكافور ثم ماء الورد وغسل بعد ذلك ثلاث مرات بالماء المقطر ونشف بعد ذلك بدبيقي ثمنه خمسون ديناراً أخذه الغاسل بعد ذلك وهو قاضى مكة. ثم دهن بالزعفران والكافور ووضع على رقبته مائة مثقال من الغالية وفي عينيه وأذنيه ثلاثون مثقالاً من الكافور وبلغ ثمن كفنه ألف دينار ثم وضع في تابوته ورش عليه الكافور. (٢)

وفي مصر تقلبت الحياة بين ألواناً من البذخ في القصور التي كانت مليئة بالفرش والأمتعة والجواهر وغيرها من السلع الثمينة التي تقتضيها الحياة ويجلبها التجار.

لقد بني ابن طولون العديد من القصور الشامخة والمباني الضخمة في الحي الذي كان فيه جامع ابن طولون وكان قصره المسمى بقصر ابن طولون مبنياً على مثال قصور الخلافة العباسية كبناء الحيري. (٣)

** الخاتون: أم معز الدين بن بابك صاحب الموصل زوجة بابك نورالدين صاحب الشام وهي من ربات البر والإحسان خلفت أعمالاً كثيرة من البر وخرجت إلى الحج حوالي سنة تسع وسبعين وخمسمائة وهي الرحلة التي رآها فيها ابن جبير ذاتها (عمر رضا كحالة: المرجع السابق، ص ٦٤).

(١) ابن جبير: الرحلة، المصدر السابق، ص ٢١٢-٢١٣.

(٢) آدم متز: المرجع السابق، ج ٢،ص ٢٢٨.

(٣) ابن تعزى بردي: المصدر السابق ، ج ٣،ص ١٦.

كان بجوار الجامع الذي بني فيه ابن طولون قصره ميداناً فسيحاً بني فيه ابنه خمارويه* بستاناً بديع زرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر وحُمل إليه من البلدان المختلفة كل صنف من الشجر المطعم وزرع الزعفران وكسا النخل نحاساً مذهب حسن الصنعة وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء. وعمل في البستان برجاً من خشب الساج منقوشاً ومطعماً وسرح فيه أصناف من الحمام والطيور مثل الطواويس والدجاج الحبشي وعمل فيه مجلس سماه دار الذهب طلي حيطانه كلها بالذهب واللازورد. (١)

وقصور الخلافة الفاطمية كانت فوق الوصف فقد كان أعظمها وأكبرها القصر الكبير في الجهة الشرقية من القاهرة ويقال له القصر الكبير الشرقي ويوجد به قاعة الذهب وبالقصر ما إن وُزن ما استعمل من الذهب الإبريز الخالص من سرير الملك ما يكون ألف مثقال وعشر آلاف مثقال ووزن ما حلي به الستر من الذهب ثلاثون ألف مثقال ورصع بألف وخمسمائة وستين قطعة جوهر أما قاعة الذهب حيث مجلس الخليفة فقد كانت مؤثثة أثاثاً فخماً فكانت مزينة تفرش بستور الديباج في الشتاء وبالدبيقي صيفاً. هذا غير البسط المزركشة ما بين طبري وطبرستاني مذهب والقاعة كلها من رسمٍ واحد ولون واحد وفي صدر القاعة يوجد الخليفة محجوب بستور ترفع تلك الستور بعد انعقاد المجلس واكتمال عدد الحاضرين. (٢)

---

* خمارويه: ابن طولون تمت بيعته من قبل الجند بعد وفاة والده أحمد وهو ابن عشرين سنة وذلك في خلافة المعتمد العباسي كان خمارويه من أحسن الناس خطاً زوج ابنته قطر الندي للخليفة العباسي المعتضد وجهزها بجهازٍ لم يُعمل مثله قتل سنة اثنتان وثمانين ومائتين هجرية على يد غلمانه (ابن خلكان، المصدر السابق، مج ٢،ص ٢١٠-٢١١).

(١) ابن تعزى بردى: المصدر السابق، ج ٣،ص ٥٤.

(٢) المقريزي: المصدر السابق، ج ١،ص ٢٥٠-٢٥١، إبراهيم العدوي، التاريخ الإسلامي في آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية، الانجلو، القاهرة، ١٩٧٦م،ص ٣٤٦.

ولم يكن الترف وكثرة المقتنيات خاصاً بالخلفاء الفاطميين بل شمل وزرائهم وأعوانهم فقد اتخذ الوزير الأفضل* داراً فيها محال خاصة تُقام فيها الطعام في الأعياد واتخذ في أحد أبهائها مجلساً يجلس فيه للعطاء وقد وجد في هذه الدار بعد وفاته ما لا يحصى من الأدوات وتسعون ألف من ثوب الحرير العتابي وثلاثة خزائن ممتلئة بالثياب الدبيقية من صنع تنيس ودمياط وخزانة الطيب وأربعة آلاف من البسط والستور المصنوعة من خيوط السجاد وله مجلس شراب به ثمانية تماثيل لثمان جوار متقابلات منهن أربع بيض من كافور وأربع سود من عنبر وكن مرتديات أفخم الثياب ومتزينات بأثمن الحلي ويمسكن بأيديهن أثمن الأحجار الكريمة. (١)

وجدت في خزائن الفاطميين ما يصعب حصره من الفرش والأمتعة والجواهر والحلى فقد وجدت في خزانة العاضد الفاطمي** بالقصر مائة صندوق كسوة فاخرة من موشى ومرصع وعقود ثمينة وجواهر نفيسة. وفي أيام شدة الخليفة المستنصر* اخرج من بعض خزائن القصر صندوق كيل منه سبعة أمداد زمرد وأخرج عقد جوهر قيمته من ثمانية ألف دينار فصاعداً وأخرج ألف ومائتا خاتم ذهباً وفضةً. وأحضرت ويبة جواهر وطاؤوس ذهب مرصع بالجواهر عيناه ياقوت أحمر وريشه من الزجاج المينا وديك من ذهب مرصع بالذهب وعيناه ياقوت. (٢)

---

* الأفضل: هو بن بدر الجمالي وزير المستنصر بل هو صاحب الحل والعقد فوض إليه المستنصر جميع أمور مصر والشام خاصة بعد الغلاء الذي حدث في مصر في عهده فاستقام الأمر بتدبيره وصار الأمر كله له وليس للمستنصر شيء ولما توفى بدر الجمالي أقام ابنه أبالقاسم شاهنشاه ولقبه الأفضل فأحسن الأفضل السيرة وعظم في الدولة أضعاف مكانة أبيه(ابن تغري بردي ، المصدر السابق،ج ٥،ص ١٤١).

(١) محمد جمال الدين سرور، ظهور خلافة الفاطميين في مصر وسقوطها، ،ص ١٤٤.

** العاضد الفاطمي: هو أبوعبدالله بن يوسف بن محمد بن المستنصر بن الطاهر آخر ملوك مصر من الفاطميين ولي بعد وفاة ابن عمه الفائز كان شديد التشيع متغالياً في سب الصحابة وإذا رأي سنياً استحل دمه توفى سنة ست وأربعين وخمسمائة هجرية (ابن خلكان، المصدر السابق، ج ٣،ص ٩١).

* المستنصر: أبوتميم معد الملقب بالمستنصر بالله بن الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم بأمر الله ولي بعد موت أبيه الظاهر سنة سبع وعشرين وأربعمائة وعمره يوم ولي الخلاف سبع سنين وبقي في الخلافة ستين سنة حدثت في عهده مجاعة أكل الناس بعضهم بعض حتى بيع الرغيف واحدة بخمسين دينار (ابن تغرى بردى، المصدر السابق، ج ٥،ص ٢).

(٢) المقريزي: المصدر السابق، ج ٢،ص ٣٠٠.

كما وجدت في خزائنهم عدة صناديق مملؤة سكاكين مذهبة وعدة آنيةً من الفضة مملؤة بالعنبر الشحري- المجلوب من شحر- والمسك التبتي- مجلوب من التبت- ونجد من الطيب خمسة صواري عود هندي وكافور وعنبر وزن القطعة منه ثلاثة ألف مثقالاً ووجدت الفرش من القلموني والدبيقي من سائر ألوانه وأنواعه وأخرجت الحُصر المطرزة بالذهب والفضة والطيور والفيلة ومن الستور الحريرية المنسوجة بالذهب على اختلافها. (١)

كما أن القصور في بلاد الأندلس لم تخل من مجلوبات التجارة الثمينة فقد كانت قصورهم مليئة بصور وأشكال مختلفة من الذهب والفضة الخالصة والنحاس المموه ومن ذلك قصر الزهراء في قرطبة الذي جلب إليه الرخام الأبيض من المرية والوردي والأخضر من سفاقس وقرطاجنة والحوض المنقوش بالذهب من الشام وبني داخل القصر المجلس المسمى بقصر الخلافة. (٢)

---

(١) المصدر نفسه، ج ٢،ص ٣٠١-٣٠٤.

(٢) المقري، المصدر السابق، ج ١،ص ٥٢٧.

ثانياً: الطعام:

كان طعام العرب قبل الإسلام قاصراً على الألبان وما يستخرج منها كالمضيرة* ومن التمر والحبوب كالربيكية والبسيسية**. أما اللحم فقد كانوا يأكلونه على أبسط ما يكون من أحواله كالوشيقة*** مثلاً. وكذلك الحال بعد الإسلام. ولكن بعد توسع الفتح الإسلامي تغيرت عادات العرب في الطعام بسبب اختلاطهم بالموالي فالأسواق التجارية التي كانت مراكز البيع والشراء وملتقي كبار التجار حيث تعقد الصفقات التجارية بين المسلمين وغير مسلمين عرب وغير عرب. فقد كان التعارف يتم أثناء البيع والشراء وحيث أن كثير من الفرس والعرب يعملون في هذه الأسواق فقد تأثرت جوانب من حياة الجانبين لا سيما العرب الذين قلدوا الفرس في كثير من الأشياء. (١)

والواقع أنهم رضخوا لتيار الترف الذي اجتاح الدولة في ذلك العصر وتكيفوا لموافقة البيئة التي تحف بهم فبعد أن كانوا يحسبون الكافور ملحاً والأزر طعاماً مسموماً والخبز المرقق كاغداً فاقوا الفرس والروم في التأنق فتفننوا في معالجة اللحوم واصطناع التوابل المنبهة لشهوة الطعام التماساً لطعم ألذ فكان الخلفاء إذا جلسوا للطعام يقف الأطباء بين أيديهم المساحيق الهاضمة المقوية للحرارة في الشتاء ويقفون في الصيف ومعهم الأشربة الباردة. (٢)

وبعد أن كان العرب يأكلون بأيديهم تعلموا من الفرس استعمال الفوط والملاعق التي تصنع من الخشب كما جلبوا من الهند بعض ملاعق الفخار والخزف وكانوا

---

* المضيرة: هي لحم يطبخ باللبن الرائب سميت بذلك لأنها طبخت باللبن الماضر وهو الحامض (ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة) عيون الأطباء تحقيق نزار رضا مكتبة الحياة، لبنان، ١٩٦٥، ص ٤١٨).

** الربيكية: طعام يطبخ بالتمر والبر والبسيسة كل شيء يخلط مثل الدقيق يخلط بالجبن (ابن عبد ربه: أحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسي: العقد الفريد، ج ٨، تحقيق محمد عبدالقادر شاهين ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ٢٠٠٩م،ص ٦)

*** الوشيقة: طعام يغلى فيها اللحم إغلاءه ثم يُرفع (المصدر نفسه، ج ٨،ص ٥).

(١) أحمد عبدالحميد الشامي: المرجع السابق،ص ٣٢.

(٢) جرجي زيدان: المرجع السابق، ج ٥، ص ١٢١.

يجلسون على الكراسي أمام المائدة التي يغطونها بمفرشٍ من القماش وكان الطعام يقدم في صحاف* توضع على جلود مغطاة بالقماش وأهم الأواني هي "السكرجة" وهي إناء صغير و"الدسيسة" التي هي وعاء كبيرة. (١)

بدأت المحاولة في تغيير طعام العرب وتقليد الفرس في مآكلهم منذ عصر الدولة الأموية فقد ذكروا أن الحجاج بن يوسف أولم لختان أحد أولاده فاستحضر أحد التجار وسأله عن ولائم الفرس وقال له: أخبرني بأعظم صنيع: شهدته فقال: شهدت أيها الأمير بعض كبراء الفرس وقد صنع لأهل فارس صنيعاً أحضر فيه صحاف الذهب على صواني الفضة أربعاً على كل واحد وتحمله أربع وصائف ويجلس عليه أربعة من الناس فإذا أطعموا اتبعوا أربعتهم المائدة بصحافها ووصائفها فلما سمع الحجاج ذلك أكبره وغلبت عليه بداوته فقال: يا غلام أنحر الجزر وأطعم الناس. (٢)

شهدت الموائد العراقية ألواناً من الأطعمة المتباينة منها ما يمكن أن نطلق عليه بالأكلات الارستقراطية وتلك هي التي تعج بها موائد الخلفاء والأمراء والسلاطين والوزراء والأثرياء وقد تأنق العباسيون في أصناف الأغذية ومواعيدها وكيفية تقديمها ونمط الأكل عليها فأوجدوا لها آداباً ورسوماً متبعة كما أنهم استخدموا المطبخ الفارسي على نطاق واسع وبنفقة أكثر مما كان عليه الفرس.

كان الخلفاء العباسيون ووزراؤهم والأعيان من أهل العراق يبالغون في تنوع الطعام والنفقة عليه. فكانت مطابخهم تحوي على كل ما تشتهي الأنفس من الأكلات وأصناف الحلوى التي بلغت حداً أن جازوا للشعراء وصفها كما فعل الخليفة المكتفي

---

* الصحاف: الإناء الذي يشبع الخمسة وقد يكون صغيراً فيشبع رجلاً ومفردها صحفة (عبدالفتاح الصعيدي، المرجع السابق، ج ١،ص ٤٢٨).

(١) على حسني الخربوطلي، المرجع السابق، ص ١٧٧.

(٢) زيدان: المرجع السابق، ج ٥، ص ١٢١.

بالله حين طلب من أحد الشعراء وكانوا جلوس ووضعت بين أيديهم قطائف*
فوصفها ذلك الشاعر قائلاً:

قطائف قد حُشيت باللوز * والسكر الماذي حشو الموز
تسبح في آذي دهن الجوز * سُررت لما وقعت في حوزي(١)

فهذا الوصف الذي وصفه الشاعر يدل على أن القطائف كانت في نهاية النضارة ورقة الخبز وإحكام العمل وفي هذا دلالة واضحة على أنهم فاقوا الفرس في عملهم خاصة إذا علمنا أن العرب كانت لا تعرف القطائف قبل ذلك.

وإذا انتقلنا إلى طعام الوزراء فإن من أعظم الموائد كانت مائدة الوزير ابن الفرات ويُذكر أن ذلك الوزير كان يدعو إلى طعامه في كل يوم تسعة من الكتاب الذين اختص بهم ويقدم إلى كل واحد منهم طبقاً يشتمل على الفواكه من سفرجل وخوخ وكمثرى فإذا انتهوا من ذلك بعد غسل أيديهم أُحضرت المائدة مغطاة بالدبيقي ومن حولها مناديل الغمر** فإذا أكلوا وضعت أخرى وأخرى ولا يزالون على ذلك الحال والألوان توضع وترفع أكثر من ساعتين ثم ينهضون لغسل الأيدي والفراشون قيام يصبون عليهم الماء والخدم وقوف وعلى أيديهم المناديل الدبيقية ورطليات ماء الورد لمسح أيديهم وصبه على وجوههم. (٢)

كما عنى الأمراء بتنوع الطعام والإسراف فيه فقد كان يعقوب بن الليث الصفار* تذبح له في كل يوم عشرون شاه وتطبخ في خمس قدور وأوزة في كل يوم

---

* القطائف: قرص تصنع من عجين يعجن قريباً من الميوعة وتحمر جيداً ثم يسكب على فولاذ أو طبق وقد تفرك بدهن اللوز والعسل وقد تحشى بالفستق والعسل وسُميت قطائف لما عليها من خملٍ كخمل القطائف الملبوسة ولا تعرف العرب هذه الحلوى (عبدالفتاح الصعيدي، المرجع السابق، ج ١،ص ٤٣٦).

(١) المسعودي: المصدر السابق، ج ٤،ص ٢٨٩.

** مناديل الغمر: مجلوبة من الصين وهي إذا اتسخت وألقيت في النار تنتقي ولا تحترق فهي من طرائف الصين والعرب تقول لكل طرفة من الأواني وما أشبهها كائناً ما كانت صينية لاختصاص الصين بالطرف (ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٢٠٢).

(٢) آدم متز، المرجع السابق ج ٢،ص ٢٣١.

* يعقوب بن الليث بن الصفار: مؤسس الدولة الصفارية نشأ في صناعة الصفر وكان بداية تأسيس دولته أن اجتمع هو وأخوه عمر مع جماعة بنواحي سجستان لقتل المتوكل ويتزعم هذه الجماعة على بن صالح بن

ورقاق** وتوضع له مع كل ذلك حلوى الفالوذج*** فيأكل من كل ذلك ويفرق الباقي على الناس والغلمان وأهل عسكره حسب مراتبهم عنده. (١)

كما كان يبالغ عيسى بن على العباسي في تنويع مائدة ويذكر أنه استضاف مرة الخليفة فقدم له ولأتباعه من ألوان الطعام ما يشتمل على كل اللحوم من الجدى والدجاج وألسنة السمك وأكباد الدجاج وصدورها والمخ وغيرها من الأصناف. (٢)

وقد وصف لنا أحدهم ويُدعى عبدالله القمي مائدة لأحد أعيان الدولة قد كان من الجالسين فيها قائلاً: "أتوني بمائة جزع لم أر أحسن منها وفي وسطها جام جزع ملونة حتى لوى جنباتها الذهب الأحمر وهي مملؤة من ماء ورد وصدور الدجاج كهيئة الصومعة وعلى المائدة سكرجان جزع فيها الأصباع وأنواع الملح ثم أتينا بسنبوسق نقور وبعد ذلك جامات اللوزينج*** ورفعت المائدة وقمنا من فورنا إلى موضع الستارة فقدم بين أيدينا بعض كوم بالبنفسج وأخرى بالتفاح الشامي فيه حوالي ألف تفاحة فما رأيت طعاماً أنظف منه".(٣)

وكذلك عرف التفنن والإسراف في الطعام في مصر فقد بلغت نفقة أحمد بن طولون على مطبخه في كل يوم ألف دينار. (٤)

فقد كانت مطابخه التي أقيمت في داره للفقراء والمساكين مليئة بالطعام من لحوم البقر والكباش ويغرف للناس في القدور(٥) وكذلك كان يفعل ابنه خمارويه فقد

نصر الكناني وعندما هلك على بن صالح تزعمهم يعقوب بن الليث وسار على خراسان بعد أن ملكوا سجستان واستولى على كرمان وفارس وخراسان والأهواز وساس الليث من تغلب عليهم سياسة سلطانية عالية وطمع في الاستيلاء على بغداد والعراق لكنه فشل. (المسعودي، المصدر السابق،ج ٤، ص ٢٠٠).

** رقاق: الخبز الرقيق والواحدة رقاقة والمرقاق ما يرق به الخبز (الصعيدي،المرجع السابق،ج ١،ص ٤١١).

*** الفالوذج: نوع من الحلوى تعمل من الدقيق والماء والعسل(ابن عبد ربه: المصدر السابق، ج ٨،ص ٨).

(١) المسعودي: المصدر السابق، ج ٤،ص ٢٠٠.

(٢) السيد عبدالعزيز سالم، المرجع السابق، ص ١٨٢.

*** اللوزينج: حلوى تحشى باللوز والسكر.

(٣) المسعودي: المصدر السابق، ج ٤،ص ٣٠٤.

(٤) ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج ٣،ص ٨.

(٥) المصدر نفسه، ج ٣،ص ١٧.

بلغت نفقات مطبخه الذي عرف بمطبخ العامة ثلاثة وعشرين ألف ديناراً في كل شهر. وكان به من ألوان الطعام اللحوم المختلفة وحلوى الفالوذج واللوزينج والقطائف والهرائس والعصيدة التي تعرف بالمأمونية وبلغت هذه الأطعمة وفرة بحيث أن الرجل إذا جاءه ضيف حصل عليها بسهولة. (١)

أما مطبخ كافور فقد كان يعمل فيه كل يوم من اللحوم الضأن ألفان وسبعمائة رطل وخمسمائة طائر ودجاج وألف طائر حمام ومائة إوزة ومائة جدي سمين وسمك لا يقدر عدده وخمسمائة صحن حلوى في كل صحن عشرون رطلاً ومائتان وخمسون طبقاً فاكهة وخمسمائة كوز فقاع* كبير. (٢)

والفاطميون تفننوا في الأطعمة وفاقوا العباسيين في العناية بالحلوى فشاعت عندهم القطائف والكعك مثل ست الحسن وأصابع زينب والمشبك والقاهرية والمنقوش وغيرها من الحلويات التي تنسب للفاطميين. (٣)

واعتاد الفاطميون إقامة المآدب في شهر رمضان حيث يرتب السماط بقاعة الذهب تحضر فيه أصناف المأكولات والأغذية والفراشون قيام لخدمة الحاضرين ويحضرون الماء المبخر في أكواز الخزف بعدد الحاضرين وبعد نهاية الأكل يأخذ الحاضرون من هذا السماط ما يكفى جماعتهم وكذلك تقام سماط عيد الفطر حيث تجهز المائدة بالأواني الفضية والذهبية والصيني وتكون حاوية للأطعمة الشهية من دجاج وحلوي. (٤)

---

(١) المقريزي: المصدر السابق، ج ١،ص ٣١٦.

* الفُقاع: شراب يُتخذ من الشعير وسُمى كذلك لما يرتفع في رأسه ويعوله من الزبد (ابن تغرى بردى، المصدر السابق، ج٤، ص ٩).

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٣) السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق،ص ١٨٢.

(٤) المقريزي: المصدر السابق، ج ١،ص ٢٥٢-٢٥٣.

كما عرفت بلاد المغرب عدة أنواع من الأطعمة ظهر على طعامهم التأثير الفارسي فأخذوا منهم الطعام المخلل وطعام البلاجة* ومن أطعمتهم اللمتونية** التي كانت تصنع في جميع بلاد المغرب وعرف سائر السكان تصنيع الجبن من الألبان حيث اشتهرت المجبنة التي تتكون من الجبن البقري والغنمي. زيادة على ذلك فقد عرفوا الأطعمة الحلوة مثل الكنافة والكعك. (١)

ومن أكلاتهم الخبز المقلي بالزيت ويشبه الخبز الصغير يعجن بالسمن ويؤكل بالزبد والعسل ويتناوله الناس مع طعام الإفطار خاصة في الأعياد وتفنن أهل فاس في أكل الأسماك واللحم الذي لا يشوى بالسفود بل يُبني له فرنان أحدهما فوق الآخر وتوقد النار في الفرن الأسفل حتى إذا سخن الأعلى أدخلت فيه الخرفان كاملة من فتحته لئلا تحترق الأيدي وهكذا ينضج اللحم مكتسباً لوناً جميلاً وطعماً لذيذاً.(٢)

وأهل الأندلس اخترعوا من الطبيخ النوع المسمى "إلتفايا" تحضر من لحم الضان السمين في قطع صغار ويضاف إليها ملح وكزبرة يابسة ويسير ماء والبصل والزيت ويجعل عليه بندق ولوز مقشر. ويلي هذا الصنف عندهم التقلية المنسوبة على زرياب* حيث أخذ الناس عنه تفضيل آنية الزجاج الرفيعة على آنية الذهب وإيثاره فرش الأديم اللينة وناعمة على ملاحف الكتان واختيار السفرة. (٣)

---

* البلاجة: تصنع من اللحم البقري السمين المضاف إليه الملح والبصل والكزبرة اليابسة والزيت اليسير وتضع على نار معتدلة حتى تنضج ثم وتقلى في مقلاة بزيت حتى تحمر ثم توضع في طاجن وتضاف اللوز والزعفران وتدخل الفرن (جمال أحمد طه، المرجع السابق ، ص ١٩٣).

** اللمتونية: تصنع من الطير مثل الدجاج والأوز وفراخ الحمام مضاف إليه التوم واللوز والجوز وعند نضج هذه اللحوم تصب مرقتها على الرقاق المفتت ويضاف إليها الزيت والفلفل والكمون، (المرجع نفسه) ، ص ١٩٤.

(١) المرجع نفسه،ص ١٧٨.

(٢) الوزان، المصدر السابق، ج ١،ص ٢٣٦.

* زرياب: هو أبوالحسن على بن نافع الملقب بزرياب مولى أمير المؤمنين المهدي العباسي ولقب زرياب تشبيهاً له بطائر أسود من أجل سواد لونه مع فصاحة لسانه وحلاوة شمائله تلقف الغناء من إسحق الموصلي ببغداد وفاق إسحق فيه لجمال صوته وفهمه لصناعة الغناء (المقري، المصدر السابق، ج ٣،ص ١٢٢).

(٣) المصدر نفسه، ج ٣،ص ١٢٧-١٢٨.

رسخت هذه المأكولات على يد زرياب إذ كل ما استحسنه زرياب صار إلى آخر أيام أهل الأندلس وذلك يتجلى في الكلمات العربية الخاصة بأسماء المأكولات التي دخلت اللغة الأسبانية مثل الباذنجان Bererjenas والمجبنات Almojavanas والزعفران Azafran واللوبيا التي هي Alubias. (١)

لم يوضح من كتب هذه الأطعمة أنها كانت خاصة بفئة معينة من المجتمع مما يدل على أنها كانت شائعة ومتاحة للجميع رغم أنها تحتوى على اللحوم والدجاج والأسماك والمكسرات كالجوز واللوز والبندق.

كل هذه الأطعمة التي عُرفت في مختلف أنحاء الدولة العباسية تدل على تغير واضح في نوعية الأكل وتعدد ألوانه عما كان عليه من البساطة في بداية الدولة الإسلامية وحتى إذا ما جاء القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ظهر التفنن في الطعام وطهيه وتصنيفه وترتيب تقديمه على موائدهم فوضعوا المؤلفات التي تصف الطعام وطريقة تقديمه.

وظهر الظُرف في الطعام فكان على الظرفاء أن يتحلوا في الأكل بصفات معينة من ذلك تصغير اللقم والترفع عن الشره وأن يأكلوا من أوساط اللحوم وليس لهم أن يأكلوا غير اللحم من العصب والعظم والأمخاخ وغيره وأن لا يحتسون الرمق ولا الدسم ولا يملأون أيديهم برائحة اللحم ولا يلطخون أصابعهم وأفواهم بالطعام ولا يكثرون من الضحك والكلام عند حضور المائدة. (٢)

وتبع ظرف الطعام الظرف في الشراب فكان على الظرفاء ألا يشربوا إلا أجود الشراب مثل المشمش والزبيب والمعسل وما طبخ من عصير العنب ولا يشربون إلا ما صفا من الشراب ولا يأكلون مع الشراب الأشياء التقليدية كالفول والبلوط والتمر والحنطة والخرنوب الشامي ولهم أن يأكلوا مع شرابهم البندق المملوح والفستق المقشر

(١) السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق،ص ١٨٢.

(٢) الوشاء: (أبوالطيب محمد بن إسحق بن يحيى) الموشي أو الظرف والظرفاء، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٦٥م،ص ١٩١-١٩٢.

والطين الخراساني والملح الصنعاني والسفرجل البلخي والتفاح الشامي وأن توضع كل هذه الأشياء على أجود الآنية المصنوعة من الزجاج النقي. [١]

(١) المصدر نفسه، ص ١٩٦-١٩٧.

ثالثاً: **الملابس**:

لم يتأنق المسلمون الأولون في ملابسهم فقد عرفوا ببساطة اللباس وقد لبس الرسول ﷺ البرود والبياض والحبرة* ولبس ابوبكر الشملة والعباءة وعُرف عن عمر بن الخطاب لبسه خشن الملابس وكثيراً ما رقع ثوبه. قال علي رضي الله عنه رأيت لعمر بن الخطاب إزاراً فيه إحدى وعشرون رقعة من جلد. وخطب مرة في الناس وعليه إزاراً فيه اثنا عشر رقعة ويرتدى في رجله نعل من ليف وحمائل سيفه من ليف وفي يده درة يستوفى بها الحد. (١)

وكذلك شأن عمالهم في الأمصار فقد كان سلمان الفارسي عامل عمر على المدائن يلبس الصوف ويركب الحمار ببردعته بغير إكاف وكان أبوعبيدة بن الجراح يظهر وعليه الصوف الحافي فلاموه على ذلك وقالوا له: إنك بالشام وحولنا الأعداء فعدل من زيك وأصلح من شارتك فقال: ما كنت أترك بالذي كنت عليه في عهد رسول الله ﷺ.(٢)

تخلى بعد ذلك العرب عن ثيابهم البدوية الخشنة والصوفية المرقعة بالأديم وأقبلوا على التأنق في اللباس متأثرين في ذلك بما شاهدوه من حضارة. فاقبل الأمويون على الوشي الذي كان يجلب من الكوفة واليمن(٣) واتخذوا منه جلابيباً وأردية وسراويلاً وعمائم وزاد الأمر في أيام الدولة العباسية حيث رغب أهل التجارة في حمل أصناف المنسوجات الحريرية والصوفية بين موشي ومطرز ومحوك بالذهب أو الفضة ومرصع بالحجارة الكريمة على اختلاف البلاد التي يصنع فيها. (٤)

---

* البرود والبياض والحيرة : جمع بردة وهي شملة من الصوف الغليظ يلتف بها ويُلتحف في الليل ولونها يكون بني أو رمادي والبيضاء كساء أبيض من الكتان أو القطن والحَبِرة: بفتح الحاء بردة حمراء (زيدان،المرجع السابق، ج٥،ص ١٢٣).

(١) المسعودي: المصدر السابق، ج ٢،ص ١١٣.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢،ص ٣١٣.

(٣) ابن الفقيه: المصدر السابق، ص ٢٥٢.

(٤) السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٧٣، زيدان، المرجع السابق، ج ٥، ص ١٢٣.

وهذا التغيير في الملابس الناتج عن الانفتاح والترف عبر عنه ابن خلدون[١] قائلاً: "إذا اتسعت أحوال المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفاه دعاهم ذلك إلى السكون والدعه وتعاونوا في الزائد على الضروري واستكثروا من... والملابس والتأنق فيها وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغيرهم".

والواقع أن العامل الأساسي في تأنق الملابس هو ازدهار صناعة النسيج في البلاد الإسلامية فقد قامت دور الطراز * في مناطق عديدة أهمها مصر التي اشتهرت معظم مدنها بصناعته خاصة تنيس التي ينسب إلى أحد مدنها "دبيق" النسيج المعروف بالدبيقي والقصب الذي هو ثياباً رفيعة. وكذلك وجد الكتان في دمياط[٢] وكذلك وُجدت المنسوجات والصوف والقطن بالصعيد المصري[٣] وفي العصر الفاطمي كانت القاهرة أهم مركز النسيج وقد بلغ الطراز مبلغاً عظيماً من الرقى واشتهرت بأنواع خاصة من الثياب الحريرية والقطنية والصوفية ومن ذلك القلموني ذي الألوان البراقة التي تتلألأ إذا انكسرت عليه أشعة الشمس والقرقبي الذي اشتهر بألوانه اللامعة التي تتغير إذا انعكس عليها أشعة الشمس والنصفية التي تصنع من الحرير والقطن. [٤]

وفي العراق شاعت صناعة نوع من النسيج الحريري بمحلة العتابية ويسمى العتابي وترجع صناعة النسيج في بغداد إلى جالية من النساجين قدمت واستقرت هناك منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) [٥] وقامت ببلاد فارس مصانع

---

(١) المقدمة، ص١٨٩.

* الطراز: كلمة فارسية معربة معناها في الأصل التطريز ومن ثم دلت على الرداء المحلي بأشغال التطريز المتشابكة ودخلت أخيراً على المصنع الذي تصنع فيه (دائرة المعارف الإسلامية، ج ١٥،ص ١٢١).

(٢) اليعقوبي: البلدان، ص ٣٣٥.

(٣) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ١٤٤.

(٤) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٣،ص ٤٥٤.

(٥) المقدسي: المصدر السابق، ص ٢٨، فيليب حتى، المرجع السابق، ص ١٣٩.

تعمل لغزل الكتان والملابس والمنسوجات الحريرية والديباج والابرسيم والمخمل والعمائم وأقمشة الخز. [1]

قامت في الأندلس معامل النسيج المختلفة والمنسوجات المطرزة[2] وفي دمشق قامت مصانع الحرير والديباج الدمشقي والموشى بالذهب. [3]

مع وفرة هذه المنسوجات وتنوعها كان الصناع يتبارون في إتقان هذه الصناعات ويغالون في ثمنها لما يلاقونه من الرغبة في إقتنائها زيادة على توفر الثروة بين أيدي الناس وقد كانوا يتهافتون على هذه الألبسة لا يبالون كم يكون ثمنها حتى بلغت قيمة العمامة من الدبيقي خمسمائة ديناراً. وربما لبس الواحد تسعة أقبية كل قباء بلون خاص للمفاخرة وقد تزيد على أضعاف حاجتهم إليهم فيجتمع عند أحدهم عشرات أو أكثر وخاصة الخلفاء. [4]

لبس الخلفاء العباسيون الملابس المحلاة بالذهب والملابس الحريرية العراقية وتجلى ذلك التأنق في النوع الذي أدخله المتوكل وهو المبطن الذي فضله على سائر الثياب واتبعه من في داره على لبسه وشمل الناس لبسه وبالغوا في ثمنه وسمُى هذا النوع من الثياب بالمتوكلية وهو غاية في الحسن والصبغ وجودة الصنع وكذلك لبست نساء هذه الطبقة من الملابس المرصعة بالجواهر والمحلاة بالسلاسل الذهبية والمطعمة بالأحجار الكريمة وحتى نساء الطبقة الوسطى كن يلبسن الثياب المزركشة وأغطية الرأس المذهبة والمحلاة باللؤلؤ والزمرد. [5]

ومن غريب الأمر أن يصنع من المنسوجات ثياباً سُميت بثوب "النعال" كالتي كانت لأم المقتدر حيث يُشترى لها ثياباً دبيقية ثم تقطع على مقدار النعال وتُطلى

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، ج ١٥،ص ١٣٨.

(٢) ابن حوقل: المصدر السابق،ص ١٠٥.

(٣) المقدسي: المصدر السابق، ص ١٨١.

(٤) زيدان: المرجع السابق، ج ٥،ص ١٢٤.

(٥) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج ٣،ص ٤٥١، شوقي أبوخليل، المرجع السابق، ص ٣٨٨.

بالمسك والعنبر المذاب ثم تُجمد ويُجعل بين كل طبقتين من الثياب ذلك المطيب فتلبس عشرة أيام ثم تتفتق وتُرمي. (١)

أما في مصر كانت دار الكسوة التي أنشأها المعز لدين الله الفاطمي فخير دليل على ما وصل إليه التأنق في اللبس فقد كانت الكسوة في هذه الدار من جميع الأنواع صيفاً وشتاءاً من العمامة حتى السراوئل وما دون ذلك من الملابس وكلها من فاخر الثياب ونفيسها وكان من هذه الدار يخلع الأمراء الثياب الدبيقي والعمائم بالطراز المذهب والتي كان ثمنها خمسمائة دينار ويخلع منها على أكابر الأمراء الأطواق والأسورة والسيوف المحلاة. (٢)

والناس في المغرب خاصة الملوك استهوتهم الحياة بما فيها من مظاهر التجديد الذي صاحب الترف والبذخ فانعكس ذلك على زيهم الرسمي فقد لبسوا اللثام* الذي كان مستخدم منذ القدم عند أهل الصحراء حيث لم يرى لأحد من قبائل الصحراء غير عيونهم(٣) فهو لم يكن جديداً عليهم ولا على ملوكهم ولكن التغير الذي حدث له وفقاً لمظاهر الحضارة هو تعدد أشكاله وألوانه فقد تغير لونه من الأزرق إلى اللون الأسود الذي يرمز إلى الارتباط بالخلافة العباسية وتغير شكله فأًصبحوا يستعملون ثوباً ليناً رقيقاً يُدعى الريط ونوعاً آخر يُسمى السابرية وهو ثوب رقيق ينسب إلى سابور واختصت هذه الألوان بالفئة الحاكمة وأصحاب النفوذ والجاه وميسورى الحال. (٤)

---

(١) أحمد أمين : مرجع سابق، ج ٢،ص ١٠٤.

(٢) المقريزي: المصدر السابق، ج ٢،ص ٢٩٢.

* سبب لبس اللثام عند قبائل الصحراء والصنهاجة أن قوماً من أعدائهم كانوا يقصدون ديارهم إذا غابوا وأخذوا المال والحريم فأشار عليهم بعض مشايخهم أن يبعثوا النساء في زى الرجال إلى ناحية القوم ويقعدوا هم في البيوت متلثمين في زى النساء فلما أتوهم الأعداء ظنوهم نساء فخرجوا إليهم وقتلوهم بالسيوف فلزموا اللثام تبركاً به (الناصري، أبوالعباس أحمد بن خالد) كتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصر ومحمد الناصر، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء ، ١٩٥٤) ص ٤.

(٣)البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، المصدر السابق، ص ١٤٤.

(٤) جمال أحمد طه: المرجع السابق، ص ٢٢٤.

وطرأ التغيير أيضاً على العمامة فقد صارت عمائمهم مذهبة ومن أغلى أنواع المنسوجات وكانوا يغالون في أثمانها فقد تساوى العمامة الخمسمائة دينار وستمائة دينار أو أزيد وكانوا يعميمونها بأتقن صنعة فتأتي وكأنها تيجان. ولديهم صناع لذلك حيث يأخذ الصانع على تعميم عمامة منها دينارين أو أكثر وكانت لهم قوالب من عود في حوانيتهم يسمونها الرووس يعميمونها عليها. (١)

كما تنوعت ألبسة الطبقة العامة في المغرب بتنوع الأماكن ففي بعضها لبس الناس الخرائم المطرزة ولبس بعضهم أكسية تسمى العبيدي وتهادى الناس بقماش من الحرير والكتان يسمى النصافي وعرفوا عدة أنواع من القماش الأشقر وكان الممتاز منه يساوى في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) أربعة دنانير ولديهم أصناف أخرى أقل ثمناً. (٢)

أخذت بلاد الأندلس نصيباً وافراً من التأنق في اللبس بحكم ما لها من إنتاج واسع من الديباج والموشي والمذهب والحلل النفيسة وبحكم التأثر بحضارة البلاد المفتوحة فاتخذوا كل ما استحسنه زرياب من اللبس. فتعلموا منه لبس هذه الأصناف في الزمن الملائم لها. ورأى زرياب أن يكون ابتدأ الناس للباس البياض وخلعهم للملون من يوم مهرجان أهل البلد المسمى عندهم "العنصرة" ويكون في أول يونيو ويلبسونه إلى أول شهر أكتوبر ويلبسون بقية السنة الثياب الملونة. ورأي أن يلبسوا في فصل الربيع جباب الخز والملحم والمحرر والملابس التي لا بطائن لها ورأي أن يلبسوا في أول الخريف المحاشي المروية وما شاكلها من خفائف الثياب الملونة. (٣)

ظهر الظرف في الملابس وذكروا أن من زيهم أن يلبسوا الأردية الطبرية والرشيدية والقصب الملون والحرير المعين وأن يكون غطاء رأس المرأة من نيسابور والسراويل البيض المذيلة ولا يُلبس شيء من المرشوش بالألوان ولا يلبس من الثياب البيض المصنوعة من الكتاب ولا يلبس من الثياب الأسود والأخضر والمورد والأحمر

---

(١) مجهول: المصدر السابق، ص ١٢٨.

(٢) جمال أحمد طه: المرجع السابق، ص ٢٦٠-٢٦١.

(٣) المقريزي: المصدر السابق، ج ٢،ص ١٢٨.

للرجال. إلا ما كان جنسه الصفرة والخضرة والتوريد والحمرة مثل الحرير الأحمر الصيني والقز والديباج والوشي. [١]

(١) الوشاء: المصدر السابق، ص ١٨٤-١٨٥.

رابعاً: الرقيق:

كثر الرقيق في العصر العباسي كثرة بالغة وامتلآت به القصور ومنازل الأثرياء على اختلاف أنواعهم فتغلغلوا في الحياة الاجتماعية وأثروا فيها.

كان الرقيق المجلوب إلى الدولة الإسلامية صنفين متميزين. صنف أبيض من الترك والصقالبة وهم الجنس الذي لا ينضب معينه والأرمن واليابان وأكبر أسواق هذا الرقيق سمرقند ويأتي إليها رقيق تركستان وما وراء النهر والبلغار وشرق أوربا حيث يخترق ألمانيا إلى الأندلس وإلى موانئ إيطاليا وفرنسا إلى الشرق. وهناك طريق آخر يسير من بلاد الرقيق في الغرب نحو الشرق راساً ماراً بروسيا. ومعظم تجار الرقيق في أوربا من اليهود. (١)

والصنف الثاني من الرقيق هو الرقيق الأسود فمصدره السودان الغربي والحبشة وأهم أسواق الرقيق الأسود هي مصر وشمالي أفريقيا وشمالي جزيرة العرب وقد جُلب إلى العراق كثير من الزنجيات اللاتي عرفن بكثرة النسل. (٢)

لعب الرقيق على اختلاف أنواعه ومصادره دوراً بارزاً في الحياة بما كانوا يقومون به من أعمال كلٍ حسب نوعه سواء من الرقيق الإناث متمثلاً في الجواري أو الذكور متمثلاً في الخدم والغلمان.

كثر استخدام الرقيق من الجواري في الدولة وقد كان منهن المغنيات فقد كثر تعليم الجواري الغناء واتخذ أصحابهن لهن بيوت معدة للسماع في الأحياء المختلفة خاصة بغداد ويقال أنه في سنة ستين وثلاثمائة هجرية أحصيت الجواري المغنيات فبلغ عددهن في جانبي بغداد أربعمائة وستين جارية(٣) وقد ارتفع ثمن الجواري

---

(١) المقدسي: المصدر السابق،ص ٢٤٢، ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٩٥، آدم متز، المرجع السابق، ج ٢،ص ٢٦٦-٢٦٧.

(٢) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج ٣،ص ٤٣٢.

(٣) أبوحيان: الإمتاع والمؤانسة،ج٢، تحقيق أحمد أمين، أحمد الزين، مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ، ص١٨٣.

المغنيات حيث اشترى ابن رائق الحمداني جارية مولدة سمراء موصوفة بحسن الغناء بأربعة آلاف دينار. (١)

واشتهر من هذا النوع من الجواري "حبابة" جارية أبي تمام وأختها "صبابة" التي كانت تفوقها حسناً وجمالاً وزلزلت بغداد في وقتها ولم يكن للناس غير حديثها وحاضر جوابها وحدةٍ مزاجها وسرعة حركتها بغير طيش ولا إفراط وهذه شمائل اتفقت في الجواري الصانعات. (٢)

ومن تلك الجواري التي امتلأت بها القصور "أمهات الأولاد" فقد أولع الخلفاء وكبار رجال الدولة بتسرى* الإماء من غير العرب حتى أنهم كانوا يفضلونهم أحياناً على العربيات الحرائر. يذكر أن جارية اسمها دنانير كانت أروى الناس للغناء أعجب الرشيد بصوتها وصار يمضى وقته معها ولما علمت زوجته بذلك شغلته عنها بعشر من الجواري منهم ماريا أم المعتصم ومراجل أم المأمون. (٣)**

ومن هؤلاء الجواري من يقمن بالخدمة داخل القصور والمنازل ومعظم هؤلاء من السود لقدرتهن على الخدمة وخاصة ما يتصل بخدمة المنزل والأسرة وفضلهم الناس في الخدمة لما عرف عنهم من تحمل المشاق والصبر على العمل ولما أفضت أحوال المسلمين إلى الترف جعلوا يتهادون الجواري كما يتهادون الحلي

---

(١) حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج ٣، ص ٤٣٣.

(٢) أبوحيان التوحيدي: المصدر السابق، ج ٢،ص ١٨١-١٨٢.

* تسرى الخليل عليه السلام هاجر فولدت له إسماعيل عليه السلام وتسرى النبيﷺ ماريا فولدت له إبراهيم ويقال أن زيد بن على دخل على هشام بن عبدالملك فقال له هشام: بلغنى إنك تحدث نفسك بالخلافة ولا تصلح لها لأنك ابن أمة فقال له زيد: أما قولك إني أحدث نفسي بالخلافة فلا يعلم الغيب إلا الله. وأما قولك إني ابن أمة فإسماعيل ابن أمة أخرج الله من صلبه خير البشر محمداً. وإسحق بن حرة أخرج الله من صلبه القردة وكان أكثر أهل المدينة يكرهون الإماء حتى نشأ منهم على بن الحسين والقاسم بن محمد بن أبي بكر وسالم بن عبدالله بن عمر وفاقوا أهل المدينة فقهاً وورعاً فرغب الناس في التسري(ابن عبدربه، المصدر السابق، ج ٧،ص ١٢٤-١٢٥٩).

(٣) جرجي زيدان: المرجع السابق، ج ٥،ص ٣٥.

** وكان هناك من الأمراء أيضاً من أمهاتهم "أمهات أولاد" مثل على بن يوسف بن تاشفين بالمغرب كانت أمه أم ولد يقال لها قمر وهي رومية (ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ١٥٧).

والجواهر فمن أحب التقرب من كبير أهدى إليه جارية أتقنت صناعة يعلم أنه راغب فيها ومن هذا النوع هدية فيها مائتا وصيفة ووصيف وفيهن جارية يقال لها محبوبة كانت لرجل من أهل الطائف قد أدبها وثقفها وعلمها من صنوف العلم وكانت تقول الشعر وتلحنه وتغنى به على العود وكانت تحسن كل ما يحسنه علماء الناس فحسن موقعها من المتوكل وحلت من قلبه محلاً جليلاً لم يكن لأحد يعدلها عنده. (١)

أما الخدم من الرقيق فقد استخدموا في خدمة قصور الخلفاء والأمراء وهناك من يقوم بالأعمال الصناعية والتجارية لسادتهم. وقد امتلأت بهم القصور فقد كان للخليفة المقتدر أحد عشر ألف خادم من صقالبة وروم وسود أربعة ألف منهم من البيض وثلاثة ألف سود وأربعة ألف من الغلمان. (٢)

(١) المسعودي: المصدر السابق، ج ٤،ص ١٢٥، عمر رضا كحالة، المرجع السابق،ص ٢٥، ابن خلكان، المصدر السابق، ج ١،ص ٣٣١.

(٢) أحمد أمين، المرجع السابق، ج ١،ص ١٣٠.

المبحث الثالث

أثر التجارة في أدب الرحلة والجغرافيا

أولاً : أثر التجارة في أدب الرحلة :

تعتبر الرحلة* عنصراً قوياً في حياة المجتمع الإسلامي في عصوره المختلفة فقد تعددت دواعي الرحلة وأسبابها ورغم أنهم كانوا يواجهون متاعب كثيرة ولكن كانوا يتحملونها بكل سرور ورضيً.

أهم هذه الرحلات الرحلة للحج قال تعالى:﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴾[1] وقال تعالى:﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗا ﴾[2] وقد قرن الله سبحانه وتعالى الحج بالتجارة في قوله تعالى:﴿ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾[3].

وبهذه الآيات الكريمات أصبح الحج يستثير هِمم المسلمين من شتى أقطار الدولة الإسلامية إلى مكة المكرمة لأداء الفريضة فضلاً عن اكتساب العلوم الدينية من منبعهما الرئيسين مكة والمدينة. فتهيأت للناس الفرصة بزيارة بلدان عديدة من ديار الإسلام عبر الطريق فدونوا مشاهداتهم وقد ركزوا على ذكر المشاهد الدينية والمزارات والمساجد كما اهتموا اهتماماً خاصاً بلقيا علماء الدين والزهاد والمتصوفين وكتبوا معلومات ذات قيمة عن السكان والاقتصاد وجوانب أخرى كثيرة. [4]

---

* الرحلة معناها الارتحال، ارتحل القوم: صاروا ومضوا عن المكان كما جاءت الرحلة بمعنى السفرة الواحدة (الفيروز آبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط راجعه أنس محمد الشامي وزكريا جابر، القاهرة ،، دار الحديث ٢٠٠٨م،ص ٦٢٦).

(١) سورة الحج الآية ٢٧.

(٢) سورة آل عمران الآية ٩٧.

(٣) سورة البقرة الآية ١٩٨.

(٤) شاكر خصباك:موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، ١٩٨٧م،ص ١٤.

والرحلة من أجل العلم* وواحدة من أنواع الرحلات. وقد وردت في القرآن الكريم في آيات كثيرة لهذا النوع من الرحلة من حيث بيان أهمية العلم ومكانة العلم ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾[1] فقد بدأ الله سبحانه وتعالى بجلاله سبحانه وتعالى وثني بملائكته وثلث بأهل العلم وقال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾[2] وقال: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3].

يكفى بالعلم وأهليه الشرف الأصيل والمجد الأثيل أمثال هذه الآيات الواردة في التنزيل.

كما كانت أحاديث الرسول عن العلم والحث عليه مؤكدة لما جاء في القرآن الكريم فعن أنس بن مالك قال:قال رسول اللهﷺ "نضر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها ثم بلغها عني فرب حامل فقه ليس بفقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه".[4]

وعن أبي ذر الغفاري قال: قال رسول اللهﷺ: "يا أباذر لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة ولأن تغدو فتعلم باباً من العلم عمل به أو لم يعمل خير من أن تصلى ألف ركعة"[5] وقد جعل الرسول ﷺ تبليغ العلم من أفضل الصدقات فعن أبي هريرة أن النبيﷺ قال: "أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علماً ثم يعلمه أخاه المسلم".[6]

---

* أروع ما قال الحكماء في العلم: القلب ميت وحياته بالعلم والعلم ميت وحياته الطلب والطلب ضعيف وقوته بالمدارسة ومحتجب بعد المدارسة وإظهاره بالمناظرة وإذا ظهر بالمناظرة فهو عقيم ونتاجه العمل فإذا زوج العلم بالعمل توالد وتناسل ملكاً أبدياً لا آخر له (طائش كبرى زاده – أحمد بن مصطفى أبوالنور مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٨م، ج١، ص ٧–٨).

(١) سورة آل عمران الآية ١٨.

(٢) سورة المجادلة الآية ١١.

(٣) سورة الزمر الآية ٩.

(٤) ابن ماجة : (الحافظ أبوعبدالله محمد بن يزيد القزويني)، السنن ج ١،حققه محمد فؤاد عبدالباقي،ص ٨٦.

(٥) ابن ماجة : المصدر السابق ، ج١، ص ٧٩.

(٦) المصدر نفسه والجزء، ص ٨٩.

وبمفهوم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة للعلم كثرت الرحلات في سبيل طلب العلم لا سيما العلوم الدينية فقد كانت الحركة العلمية الدينية هي الغالبة في المملكة الإسلامية وكان رجالها أنشط العلماء وأميلهم للرحلة للافادة والاستفادة. وذلك يعود للوازع الديني القوى عندهم فكان يرد على مصر والشام كثير من العلماء الدينيين من العراق وفارس والحجاز والمغرب فينشرون علمهم ويأخذون ما ليس عندهم. كما كان أهل مصر والشام يرحلون إلى الأقطار الأخرى لأخذ العلم من علمائها*. (١)

وهناك نوع آخر من الرحلات وهو الرحلة للتجارة التي مهر فيها العرب قبل الإسلام وإن كان ذلك في نطاق محدود فهم يرحلون رحلتين في الصيف والشتاء إلى الشام واليمن** وقد عبر القرآن عن هذه الرحلة بل أفرد لها سورة كاملة وهي سورة قريش قال تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾(٢) وقد انطلقت التجارة في مكة واتجهت أنظارهم إليها ربما يعود ذلك إلى موقع مكة الخالي من الزروع كما قال تعالى على لسان إبراهيم الخليل: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ

---

* خير دليل على تنقل العلماء بين الدول الإسلامية ما قاله الإمام البخاري عن نفسه معبراً عن رحلاته الكثيرة قائلاً: "دخلت إلى الشام ومصر والجزيرة مرتين وإلى البصرة أربع مرات وأقمت بالحجاز ستة أعوام ولا أحصى كم دخلت الكوفة وبغداد مع المحدثين، (ابن حجر شهاب الدين أبوالفضل أحمد بن على بن محمد بن على العسقلاني)، هدى الساري مقدمة شرح البخاري، أخرجه وصححه محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت ، بدون ت ص ٤٧٨).

(١) أحمد أمين: المرجع السابق،ص ١٦١.

** كان أهل اليمن من المهارة والذكاء لدرجة أنهم حافظوا على أسرار تجارتهم فلم يعرف أهل الشمال مصادر كثير من البضائع التي كانت ترد إلى اليمن من الهند وإندونيسيا والصين وغيرها حتى ظن بعض مؤرخي اليونان والرومان أن جميع هذه البضائع كانت من إنتاج اليمن (أحمد شلبي، المرجع السابق، ج ٦،ص ٢٠٣).

(٢) سورة قريش الآيات ١-٤.

ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾[1].

وبعد الإسلام توسع نطاق تجارة العرب تبعاً لاتساع دولتهم فاجتازوا حدود البلاد الإسلامية إلى ما تاخمها من الممالك الأجنبية يطلبون ما فيها من عروض التجارة وابتغاء الرزق بالضرب في الأرض فجابوا أقطار الأرض شمالاً إلى بلاد الفراء وطلبوا المعادن في الجنوب حتى مقاطعة النوبة وفي الغرب وصلوا إلى جبل طارق وفي الشرق إلى بلاد الحرير والعاج والأفاوية. [2]

يقول غوستاف[3] "العرب من السياح القدامى في كل وقت لا يخشون المسافات والمراحل واليوم نراهم يأتون مكة من أقصى البقاع ويجوبون بقوافلهم داخل أفريقيا كأمرٍ بسيط فيصادفهم فيها الأوربيون الذين لا يبلغونها إلا بشق الأنفس. وكان للعرب منذ قيام دولتهم علاقات تجارية ببلدان كان الأوربيون يشكون في وجودها كالصين والروس ومجاهل أفريقيا".

توسع العرب في رحلاتهم بقصد التجارة وبقصد السياحة وغيرها وجابوا معظم أنحاء العالم مستخدمين طريقي البر والبحر وكان لتعبيد الطرق وجعلها آمنة أثر كبير في تسهيل الأسفار وتمهيد السبيل أمام الكاشفين والرحالين. فظهر منهم من قام برحلات مهمة وصفوا البلاد التي شاهدوها وصفاً دقيقاً مبنياً على المشاهدة فأثار هذا الوصف من قبل التجار رغبة شديدة في معرفة هذه الأقطار وشعوبها.[4]

فقامت رحلات عديدة أسهم فيها المغامرون الواجدون في سبيلها لذة خاصة والساعون في سبيل الرزق وجوابي الآفاق ورحلات الرسل المترددين بين الملوك والأمراء كل هذه نماذج من الرحلة التي عرفها العرب والمسلمون وكانت التجارة سبباً في ظهورها ومن أشهر الرحلات في تلك الفترة.

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٧.

(٢) هاشم زكريا: فضل الحضارة الإسلامية والعربية على العالم ، دار النهضة، مصر ،١٩٧٠م، ص ٣٢٧.

(٣) الحضارة الإسلامية، المرجع السابق ، ص ٣٦٥.

(٤) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ،ج ٣،ص ٤١١.

رحلة سليمان التاجر:

إن من بين الوثائق الأولى في الرحلات رحلة قام بها تاجر يُدعى سليمان التاجر عدة مرات من الخليج العربي إلى الهند والصين في الفترة التي بلغ فيها النشاط التجاري بين الدولة الإسلامية والصين قمته وذلك في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي). (١)

والمصادر لم تذكر شيئاً عن شخصية سليمان ولا سبب رحلته إلا أن هناك من يذكر أن الفضول وحب الاستطلاع دفعاه إلى أن يستسلم للرياح الموسمية التي اندفع معها من شاطئ عمان إلى شاطئ الهند ثم الصين واستطاع أن يدرس عن كثب حياة الصينيين في جميع مظاهرها الخاصة والعامة والمدنية والدينية والسياسية. (٢)

كان لكشفه هو وابن وهب عنبر المسك وحقيقة مصدره أكبر أثر في الوسط التجاري فهما يذكران أنهما شاهدا رجلاً قادماً إلى خانفو مشياً على الأقدام من سمرقند يحمل مسكاً استخرجه من الظباء من غابات سمرقند بيد أن أحسن أنواعه ما يجلب من بلاد "التبت*" وذلك لأن المراعى التي ترعاها الظباء المسكية هناك أطيب أعشاباً من أعشاب المراعى الصينية وكثيراً ما يخلط الصينيون المسك الذي يعرض للبيع في أسواق خانفو. (٣)

كتب سليمان عقب عودته إلى البصرة أخبار رحلته في كتاب تحت عنوان "قصص سائح" وحمل هذا الكتاب في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) إلى أبي زيد السيرافي* ليحقق في وقائعه وليزكيه ويقدم له وصادف وجود ابن وهب في

---

(١) ابن سعيد: المصدر السابق، ص ٣٣.

(٢) سونبا ي هاو ، المرجع السابق ، ص ٥٠.

* يؤكد المسعودي أن مسكهم أجود أنواع المسك لأنه لا يخلط بالدم كما يفعل بمسك الصين (المصدر السابق ج ١،ص ١٥٩).

(٣) سونيا: المرجع السابق،ص ٥٠.

* أبوزيد السيرافي الحسن بن يزيد السيرافي ابن عم مزيد بن محمد بن أبرد صاحب سيراف كان بالبصرة وانتقل إلى سيراف في سنة ٣٠٣هـ وهو من أهل التحصيل والتمييز (المسعودي، المصدر السابق، ج ١،ص ١٤٥).

ذلك الحين بمدينة سيراف فأفضى إليه عن طيب خاطر بمعلوماته الخاصة وبما شاهده بالهند والصين فنتج عن هذا التعاون كتاب عنوانه "سائحان" أودعا قصص أسفارهما وكانت لتلك القصص حظاً عظيماً من الانتشار وإقبال الناس عليها حتى أنها كانت المصدر الوحيد للمعلومات عن الصين وأهلها طيلة أربعة قرون وانتفع بها الجغرافيون. (١)

وبذلك أصبحت رحلة سليمان التاجر المعنونة "سلسلة التواريخ" تتألف من قسمين أحدهما كتب حوالي سنة ٢٣٧م وقام بتحرير القسم الثاني أبوزيد السيرافي حيث تراءى له أنه يتمم رحلة سليمان(٢) وهذا الجزء المتمم للرحلة ما سماه المحدثون "الذيل" وكلاً من الوصف الذي وصفه سليمان والذيل الذي أضافه أبوزيد يمتازان بقلة الخرافات والأساطير التي تكثر في أحاديث التجارة. (٣)

إن ما كتب في هذه الرحلة يعتبر من الآثار العربية المهمة في تاريخ الرحلات البحرية في المحيط الهندي وبحر الصين(٤) وربما كانت الأثر العربي الوحيد الذي يتحدث عن سواحل البحر الشرقي الكبير والطريق الملاحي إليها على أساس الخبرة الشخصية مع التزام الموضوع وعدم الخروج عنه إلى أحاديث تاريخية وغيرها. (٥)

وفي حديثه عن البحار يشير إلى بحر فارس ويراد به منطقة الخليج العربي وعمان والجزء الشرقي من بحر العرب. وبحر لارقي أو لاربي وهو الجانب الغربي من بحر العرب بما في ذلك مدخل البحر الأحمر وساحل أفريقية الشرقية. وتكلم عن بقية البحار المحيطة بجزائر الهند الشرقية وخاصة شبه جزيرة ملقا وهو بحر سلاهط وهناك بحر "كتدنج" ويراد به بحار شرقي شبه الملايو وخليج سيام. وتكلم أيضاً عن

---

(١) سونيا: المرجع السابق، ص ٥١.

(٢) ابن سعيد" المصدر السابق،ص ٣٣.

(٣) زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطي، بدون د . القاهرة، ١٩٤٥م،ص ٢٤.

(٤) غوستاف: المرجع السابق،ص ٤٦٦.

(٥) السيرافي عن حسين فوزي حديث السندباد القديم، بدون د ، القاهرة، بدون تاريخ،ص ٢٢.

بحر الصنف وبلاد الصنف هي الجزء الشرقي من شبه جزيرة الهند الصينية وبحر صنجي ويُراد به بحر الصين الجنوبي. (١)

يشير سليمان التاجر إلى وجود جزر كثيرة وفسيحة على المحيط الهندي لا يعرف امتدادها على وجه الدقة. ووصف من هذه الجزائر جزيرة لنجبالوس التي ذكر عنه أن الناس فيها عُراة فإذا رأوا المراكب قادمة جاءوا إليها وباعوا لأهلها العنبر والنارجيل وابتاعوا منهم الحرير وبعد هذه الجزائر جزيرتان بينهما بحر كبير. (٢)

وتكلم عن الجزائر المعروفة اليوم باسم إندونيسيا وكلامه يدل على معرفة صحيحة فهو يقول أن بها بعض مناجم الذهب وتنمو فيها أشجار يستخرج منها الكافور وتكثر الأفيال فيها والتوابل والعطور. كما يصف سواحل الهند الشرقية "كروماندل" وهو يسميه كمرون أو كمروب وربما كانت هذه تحريفات لكلمة كروماندل. (٣)

قدم لنا مقارنة بين الصين والهند وشعبهما ويبدو أنه كان شديد الإعجاب بالصين وأهلها فقد قال مثلاً في الصين: "كلها عمارة وأهلها أجمل من أهل الهند وأشبه بالعرب في اللبس والدواب وهم في هيئتهم وفي مواكبهم شبيهون بالعرب يلبسون الأقبية والمناطق" وذكر في موضع آخر "بلاد الصين أنزه وأحسن وأصح وأقل أمراضاً وأطيب هواءاً لا يكاد يرى فيها أعمى ولا أعور ولا من به عاهة وأهل الصين في كل موضع لهم مدينة محصنة عظيمة وعطاؤهم كعطاء العرب".(٤)

هذه الرحلة التي تعتبر من الآثار العربية المهمة ترجمت لأهميتها إلى الفرنسية سنة ١٧١٨م وطبعت سنة ١٨١١م وأعيدت ترجمتها وطبعها لاحقاً في الربع الأول من القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) وطبعت في الربع الأول من القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) فقد حوت على معلومات غزيرة

---

(١) حسين مؤنس: دراسات في الحضارة الإسلامية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م،ص ١٤٥.

(٢) السيرافي عن فوزي المرجع السابق،ص ٢٢.

(٣) حسن مؤنس: المرجع السابق، ص ١٤٥.

(٤) السيرافي: عن زيدان، المرجع السابق، ج ٥،ص ١٧٣.

فيما يتعلق بالبلاد والبحار التي سافر إليها الرحالة العرب ويوجد في كتاب الجغرافية لابن سعيد وفي كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للإدريسي فقرات يمكن إرجاعها بسهولة إلى هذا المصدر وإن كان هؤلاء المؤلفون لا يذكرون سليمان فالأرجح أنهم لم يقتبسوا من "سلسلة التواريخ" مباشرة بل مما نقله عنه المسعودي. (١)

رحلة ابن وهب:

ابن وهب القرشي من أصحاب اليسار والأحوال الحسنة والثروة فقد كان ذا بصيرة وهو من ولد هبار بن الأسود* خرج أيام ظهور صاحب الزنج بالبصرة.(٢)

زار ابن وهب الصين في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) حيث أبحر من سيراف على بعض مراكب هندية وساح في الهند من بلد إلى بلد إلى أن انتهي إلى خانفو(٣) ووصوله إلى هذه المناطق ليس فيه غرابة لأن كثيراً من تجار العرب وفدوا إلى هذا الميناء "خانفو" لابتياع المنتجات الصينية خاصة المسك والكافور ولكنه فعل أكثر من ذلك فقد تجول في ربوع الصين لا لشيء سوى الاستمتاع بمشاهدة بلاد لم يرها من قبل. (٤)

واضح أن الرغبة في الرحلة لحد ذاتها هي التي حملت ابن وهب للاتجاه إلى تلك المناطق كما كان الحال عند سليمان التاجر.

لم يكن شائعاً في ذلك الوقت تدوين تلك الرحلات في المناطق النائية في كتب معروفة بل عُرفت عن طريق أصدقاء الرحالة من معاصريه أو من خلال الأجيال

---

(١) ابن سعيد: المصدر السابق،ص ٣٣.

* هبار بن الأسود: ابن عبدالمطلب بن أسد بن عبدالعزي بن قصي القرشي أسلم بعد الفتح وحسن إسلامه وكانت من حوادثه قبل الإسلام أنه تعرض لزينب بنت رسول اللهﷺ حين أرسلها زوجها أبوالعاص إلى المدينة وضرب هودجها حتى أسقطت وكانت حاملاً (ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، مج ٥، تحقيق محمود إبراهيم البنا، محمد أحمد عاشور، دار الشعب، القاهرة، بدون تاريخ،ص ٣٨٤).

(٢) المسعودي: المصدر السابق، ج ١،ص ١٤٢.

(٣) المصدر نفسه والجزء، ص ١٤١.

(٤) سونيا ي هاو: المرجع السابق ص ٥٠.

التي تناقلتها بعد ذلك فابن وهب لم يدون رحلته وإنما حفظت لنا برواية أبي زيد التي رواها عنه المسعودي.

يذكر المسعودي(١) أن ابن وهب وصل الصين وأقام بباب الملك مدة طويلة يرفع الرقاع ويذكر له أنه من أهل بيت نبوة العرب ولما تأكد لملك الصين صحة نسبه من التجار أذن له في الوصول إليه في مدينته* ووصله بمالٍ وخلع شريفة وأمر بحمله إلى البريد إلى مدينة خانفو وكتب إلى ملكها بإكرامه وتقديمه على سائر من معه من الخواص ففعل ذلك إلى أن خرج من بلاد الصين.

وفي فترة إقامة ابن وهب مع ملك الصين أطلعه الملك على صور للأنبياء وتعرف عليهم ابن وهب بصفاتهم التي وردت في القرآن فأستدل على صورة نوح عليه السلام بالسفينة وهو ينجو بمن معه لما أمر الله عز وجل الماء فعمّ الماء الأرض كلها بمن فيها وسلمه ومن معه واستدل على صورة عيسى بن مريم عليه السلام على حماره والحواريين معه ويقول ابن وهب: رأيت صورة نبينا محمدﷺ على جمل وأصحابه محدقون به في أرجلهم نعال عربية من جلود الإبل وفي أوساطهم الحبال قد علقوا فيها المساويك. (٢)

قد لا يكون هذا الأمر مقبولاً عند من يقرأه أو يسمعه وربما كان من قبيل روايات الرحالة الأوائل التي تُقرن بالأساطير والخيالات التي لا ترقى إلى درجة اليقين خاصة وأن صاحب الرحلة لم يدون رحلته وربما تكون قد زيدت الرواية والمسعودي(٣) يقول: ويزعم هذا القرشي وهو المعروف بابن هبار- أنه رأى فوق كل صورة كتابة طويلة قد دوِّن فيها ذكر أسمائهم...".

(١) مروج الذهب، المصدر السابق، ج ١،ص ١٤٣-١٤٥.

* مدينة الملك هي مدينة "حمدان" وقد سأل أبوزيد السيرافي ابن هبار عن هذه المدينة التي بها الملك فذكر له ابن هبار سعتها وكثرة أهلها وهي مقسومة على قسمين يفصل بينهما شارع عظيم طويل فالملك ووزيره وقاضي القضاة وجنوده وجميع احتياجاته في الشق الأيمن مما يلي المشرق ولا يخالطهم أحدٌ من العامة (المسعودي، المصدر السابق، ج ١،ص ١٤٥).

(٢) المصدر نفسه ، ج ١،ص ١٤٤.

(٣)المسعودي ، المصدر السابق ، ج ١،ص ١٤٤.

ورغم ذلك فإن هذه الرحلة شكلت مادة علمية غزيرة عن تلك البلدان وأوضحت سعة علم ملك الصين ومعرفته بأحوال الممالك ويدل على ذلك الحوار الذي دار بينه وبين ابن وهب. وقد نالت رحلته أهمية كبرى جنباً إلى جنب مع رحلة السيرافي وإذا رأينا فيما بعد أن ابن خرداذبة وابن الفقيه والأصطخرى وابن حوقل والمسعودي يتكلمون على أساس من المعرفة الشخصية لبعض المواضع التي يذكرونها فإنهم ينقلون الكثير عن ذلك الأثر العربي الأول بلفظه وبمعناه في بعض الأحيان. (١)

رحلة ابن فضلان:

أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد مولى أمير المؤمنين الخليفة المقتدر صنف رسالة عن الوفد الذي أرسله الخليفة المقتدر إلى ملك الصقالبة* بالبلغار.

كان ملك الصقالبة قد اعتنق الإسلام قبيل زمن الرحلة بقليل وطلب من الخليفة العباسي المقتدر أن يبعث إليه من يعلمهم الإسلام ويعرفهم شرائعه ويعينهم في توضيح أحكامه إلى جانب العناية بتشييد مسجد وتشييد حصن يعينهم في الرد على أعدائهم ومخالفيهم من ملوك الخزر**. (٢)

لبي الخليفة دعوته وبعث إليه بذلك الوفد الذي كان من ضمنه ابن فضلان الذي اشترك في هذا الوفد كفقيه وحجة في شئون الدين والسفير الحقيقي الذي ندبه الخليفة هو "سوسن الرسي".(٣)

كان خروج هذه الرحلة في يونيو سنة -٣٠٩هـ -٩٢١م وقضت في الطريق ما يقرب من إحدى عشر شهراً ووصلت إلى بلاد البلغار في سنة ٣١٠هـ- ٩٢٢م. (١)

---

(١) حسن فوزي: المرجع السابق، ص ٢٢.

* الصقالبة: جيل حمُر الألوان صُهب الشعور يقال أنهم من أبناء يأفث بن نوح عليه السلام وبلادهم متاخمة لبلاد الخزر من أعالي جبل الروم وهي بين البلغار والقسطنطينية وهم أجناس مختلفة وأديان مختلفة منهم النصارى ومنهم من لا كتاب له ومن ملوكهم ملك الفرنج وملك الترك وكانوا ينقادون جميعاً لملك واحد ولكن اختلفوا وصار كل ملك يعمل برأيه (ياقوت، المصدر السابق، ج ٣،ص ٤١٦).

** الخزر: اسم إقليم من قصبة تسمى إتل وإتل اسم لنهر يجرى إلى الخزر من بلغار واتل مدينة والخزر اسم المملكة لاسم المدينة (المصدر نفسه، ج ٢،ص ٣٦٧).

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، ج ٢،ص ٢٥٠-٢٥٢.

(٣) ياقوت، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢٢.

في الطريق إلى بلاد الصقالبة وصف ابن فضلان كل ما شاهده وعند وصوله إلى خوارزم* كان الوقت شتاء فوصف تجمد نهر جيجون** وذكر أن الشوارع في هذه الفترة والأسواق تخلو من الناس لشدة البرد ومن شدة البرد كانت لحيته قد صارت كخلية واحدة ورغم أنه كان يبيت في جوف بيت فيه قبة لبود تركية وهو متغطي بالأكسية إلا أن خده كان يلتصق بالمخدة من البرد.

كما تحدث عن الباشغرد وهم من الترك وقال إنهم شر الأتراك وأقذرهم وأشدهم إقداماً على القتل يلقي الواحد منهم الرجل فيضرب هامته ويأخذها ويترك الباقي ويحلقون لحاهم ويأكلون القمل ولهم ديانات مختلفة فمنهم من ينحت خشبة ويسجد لها ومنهم من يزعم أن له ثلاثة عشر رباً وطائفة منهم تعبد الحيات وطائفة تعبد السمك. (٢)

وبعد وصول الوفد إلى ملك الصقالبة استقبله الملك والملوك الأربعة الذين تحت يده فلما رآهم الملك خرّ ساجداً شكراً لله ونثر الدراهم عليهم وقدم لهم المائدة وكان من عاداتهم ألا يمد أحداً يده إلى الطعام حتى يناوله الملك لقمة فكان أول من بدأ بإعطائه لقمة هو "سوسن" رسول المقتدر ثم ابن فضلان ثم ناول بعد ذلك من

---

(١) أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بدون تاريخ،ص ٤٥.

* خوارزم: اسم للناحية بجملتها وأما القصبة فهي الجرجانية وصف ابن فضلان أهل خوارزم "بأنهم يتعاملون بدراهم مزيفة ورصاصاً وزيوفاً صفراً ويسمون الدراهم طازجة وأنهم أوحش الناس كلاماً وطبعاً وكلامهم أشبه بنقيق الضفادع وذكر أنهم يتبرأون من أمير المؤمنين على بن أبي طالب" ويصفهم ياقوت الذي زار البلاد في القرن السابع الهجري(الثالث عشر الميلادي) "بأن أهلها علماء وفقهاء وأذكياء والمعيشة بينهم موجودة وأسباب الرزق عندهم غير مفقودة ولا يظن أن بالدنيا نظيرة لخوارزم في كثرة الخير وكبر المدينة وسعة الأهل والقرب من الخير وملازمة أسباب الشرائع والدين حتى خربها التتر وقتلوا أهلها" (ياقوت: المصدر السابق، ج ٢،ص ٣٩٧).

** نهر جيحون: يصب في بحيرة خوارزم وهو في موضع أعرض من نهر دجلة يجمد هذا النهر في شكل قطع أولاً ثم تلتصق القطع حتى كلما زاد البرد حتى يصير كله قطعة واحدة وتحته يكون ماء جارٍ ويحفر أهل خوارزم فيه آباراً حتى يخرقوه ويصلوا إلى الماء الجاري ليشربوا منه وإذا استحكم جموده عبرت عليه القوافل والعجل والبقر (المصدر نفسه، ج ٢،ص ١٩٧).

(٢) ابن فضلان، عن ياقوت، المصدر السابق ، ج ١،ص ٣٢٢.

الحاضـرين الملـك الأول والثـاني وأخيـراً أولاده وبعـد أن يأكـل كـل واحـد اللقمـة تأتيـه مائدته لا يشركه فيها أحد. (١)

نجح ابن فضلان في المهمة الموكلة له فقام بتعليم البلغار شرائع الإسلام ويدل على ذلك أنه استطاع أن يفصل الرجال عن النساء في السباحة. (٢)

كما تعرض للخطبة عندهم ونهى عن إقامة الدعوة على المنابر بقولهم "اللهم أصلح الملك بلطوار ملك البلغار" فوضح لهم أن الملك هو الله ولا يجوز الدعوة به لأحد على المنابر وضرب لهم المثل بالمقتدر الذي وصى لنفسه أن يقال على منابره في الشرق "اللهم أصلح عبدك وخليفتك جعفراً الإمام المقتدر بالله أمير المؤمنين" فانصاع حاكم البلغار لذلك وأطلق على نفسه جعفراً تيمناً باسم الخليفة العباسي المقتدر. (٣)

واضح من الحوارات التي دارت بين ملك الصقالبة وابن فضلان أنه يكن حباً شديداً للإسلام والمسلمين فعندما سأله ابن فضلان عن سبب طلبه بناء حصن من الخليفة المقتدر مع ما عليه مملكته من الاتساع وكثرة الأموال فرد عليه قائلاً: "رأيت دولة الإسلام مقبلة وأموالهم يؤخذ من حلها فالتمست ذلك لهذه العلة ولو أني نويت أن أبني حصناً من فضة أو ذهب لما تعذر عليّ ذلك وإنما تبركت بمال أمير المؤمنين فسألته ذلك".(٤)

لم يكتف ابن فضلان بوصف الطريق إلى تلك البلاد بل وصف بلاد الصقالبة وصفاً كثيراً ودون الظواهر الطبيعية الغريبة هناك فذكر أن النهار يطول عندهم مرة من السنة ويقصر الليل ثم العكس ورأى الشفق الأحمر الذي قبل الغروب لا يغيب بتة والليل قليل الظلمة بحيث يعرف الرجل الرجل من مسافة بعيدة وعند طلوع الشمس يحمر كل من أرض وجبال وغيرها وكل شيء ينظر الإنسان إليه حين تطلع

---

(١) ابن فضلان عن نقولا زيادة، المرجع السابق، ص ١٩٨.

(٢) دائرة المعارف، الإسلامية ، ج ٤،ص ٩٢.

(٣) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(٤) ابن فضلان عن ياقوت، المصدر السابق، ص ٤٨٧-٤٨٨.

الشمس وكأنها غمامة كبرى ولا تزال الحُمرة كذلك حتى تتكبد السماء ومن عجائبهم التي سمعها ابن فضلان أنهم يتبركون بعواء الكلب ويقولون تأتي عليهم سنة خصب وبركة وسلامة. والحيات عندهم كثيرة حتى يلتف على الغصن أكثر من عشر ولا يقتلونها ولا تؤذيهم ولهم تفاح أخضر شديد الحموضة تأكله الجواري فيسمَّن(١).

وعن أحوالهم الاقتصادية يقول أن اعتمادهم على السمور * في تجارتهم وليس لهم زيت ولا سمسم ولا دهن وإنما يقومون مقام هذه الأدهان السمك وكل شيء يستعملونه فيه يكون زفراً ويعملون من الشعير حساء يحتسيه الغلمان والجواري وربما طبخوا الشعير باللحم. وعن أحوالهم الدينية يقول صاحب الرحلة: إنهم يحرمون الزنا ومن زنا منهم كائناً من كان ضربوه وشدوا يديه ورجليه وقطعوا بالفأس من رقبته إلى فخذه ويعلق كل قطعة منه على الشجر ويقتل السارق كما يقتل الزاني. (٢)

إن كل ما كتبه ابن فضلان يعتبر عُمدة المؤلفين والجغرافيين من العرب مثل الاصطخري والمسعودي وياقوت. وكثيراً ما ذكر ياقوت صراحة رحلة ابن فضلان ونقل عنها بعض الفقرات ولم يعرف الكتاب المتأخرون هذه الرسالة إلا عن طريق ما ذكره ياقوت الذي ذكر إنه كان يوجد من هذه الرسالة في عصره عدة نسخ. (٣)

وبما أن رحلته وصفت كل ما يتعلق ببلاد البلغار الذين يسكنون شمالي مقدونية ويمتدون إلى شمال البحر الأسود فقد أهتم الأوربيون والروس خاصة بها ودرسوها دراسة متقنة وترجموها إلى لغاتهم على اعتبار أنها من الوثائق النادرة التي تعرف الروس ببلادهم قبل قيام دولتهم. (٤)

رحلة ابن جبير (٥٣٩-٦١٤هـ) (١١٤٤-١٢١٧م):

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٤٨٨.

* السمور: حيوان يعيش في النهر يكثر في بلاد الروس وراء الترك تصنع من جلودها فراء غالية الثمن (ابن منظور، المصدر السابق، ج٤، ص ٣٨٠).

(٢) ابن فضلان عن ياقوت، المصدر السابق ، ج ١،ص ٤٨٨.

(٣) دائرة المعارف، ج ١،ص ٢٥٥.

(٤) حسين مؤنس، المرجع السابق،ص ٢٥.

أعطتنا المصادر معلومات جيدة عن نشأة ابن جبير – والعكس مع الرحالة السابقين– فهو أبوالحسن محمد بن أحمد بن جبير بن محمد بن جبير بن سعيد[١] وقيل إنه ولد في ٥٤٠هـ– ١١٤٥م ببلنسية* أو شاطبة** وسواء أكان في هذه أو تلك فهو أندلسي نشأ في كنف والده الذي أعده لتقلد المناصب فتلقي العلم عن أبيه وعلماء عصره بشاطبة وعنى بالأدب فبرع فيه وبرز في صناعة الكتابة وكان أديباً بارعاً وشاعراً مجيداً نزيه الهمة سرى النفس كريم الأخلاق أنيق الخط ذا نظم ونثر بديع سهل. [٢]

لابن جبير ثلاث رحلات إلى المشرق الرحلة الأولى لأداء فريضة الحج في سنة (٥٧٨–٥٨١هـ) (١١٨٢–١١٨٥م) والرحلة الثانية كانت في يوم الخميس التاسع من ربيع الأول سنة (٥٨٥–٥٨٧هـ) (١١٨٩–١١٩١م) والرحلة الثالثة هي التي تمكن من خلالها أداء فريضة الحج بعد وفاة زوجته في شعبان سنة ٦٠٠هـ–١٢٠٤م وجاور طويلاً ثم رحل إلى بيت المقدس ثم مصر واستقر بالإسكندرية للتدريس إلى أن توفى بها ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من شعبان سنة ٦١٤هـ–١٢١٧م. [٣]

لم يدون ابن جبير سوى رحلته الأولى التي خرج فيها لأداء فريضة الحج وسبب خروجه كما يقول المقري[٤] إنه كاتب صاحب غرناطة الذي استدعاه ذات مرة ليدون له كتاباً فلما ذهب ابن جبير إليه وجده على مائدة الشراب فطلب من ابن جبير مشاركته فامتنع في البداية فألح عليه صاحب غرناطة فشرب ابن جبير سبعة أقداح.

---

(١) خيرالدين الزركلي: الأعلام، ج ٥،ط ١٠، دار المعلم للملايين، ١٩٩٢م،ص ٣٢٠.

* بلنسية: من مدن الأندلس المشهورة أهلها يعرفون بعرب الأندلس ينسب إليها عدد كبير من العلماء (ياقوت، المصدر السابق، ج ١،ص ٤٩٠).

** شاطبة: مدينة شرقي الأندلس(المصدر نفسه، ج ٣،ص ٣٠٩).

(٢) الزركلي، المرجع السابق، ج ٥،ص ٣٢٠.

(٣) المقري، المصدر السابق، ج ٢،ص ٣٨٢، انفرد المقري بهذه المعلومة ولم يذكرها ابن جبير ولا أحد من الكتاب الآخرين.

(٤) المصدر نفسه، ج ٢،ص ٣٨٥.

ولما فعل ابن جبير ملأها سبع مرات بالدنانير وأفرغها في حجر ابن جبير الذي نذر أن يجعلها كفارة لما فعل وعزم على الخروج لأداء فريضة الحج.

ونحن لا ندرى مدى صحة هذه الرواية التي انفرد بها المقري فالمهم والثابت أن سبب هذه الرحلة خروجه للحج.

خرج* ابن جبير من غرناطة ووصل إلى الإسكندرية بعد ثلاثين يوماً قضاها على ظهر البحر وكان سفره البحري في مركب للجنويين وقد كان الطريق الطبيعي لابن جبير إلى الحجاز هو السفر من الإسكندرية إلى أحد موانئ الشام ليرافق الحاج الشامي لكن بسبب وجود الصليبيين هناك اضطر إلى السير بالطريق المصري فاتخذ طريقه إلى القاهرة ثم مر بقوص وعيذاب وجده في طريقه إلى مكة والمدينة. (١)

عاد بعد رحلته بعد أن اجتاز الطريق البحري إلى الكوفة وزار بغداد والموصل وركب إلى المغرب مع الافرنج في مركبهم في خليج صقلية وعاد إلى غرناطة في الثامن من محرم ٥٨١هـ-١١٨٢م. (٢)

المطلع على رحلة ابن جبير يجد أنها تميزت بميزات عديدة وفي عدة جوانب من ذلك:

العاطفة الدينية حيث يختم كل كلامه بالدعاء والتوكل على الله وهذه العاطفة دفعته إلى إرسال الأدعية للمدن التي مرّ بها فمنها ما يدعو له بحرسها الله مثل "غرناطة حرسها الله" "والكوفة حرسها الله" وبغداد حرسها الله" "وتكريت حرسها الله" ومنها ما يدعو بقدسها الله مثل "الحرم الشريف قدسه الله" و"مكة قدسها الله" ومنها ما يدعو له بإعادها الله إذا كانت مما خرج من يد المسلمين إلى الفرنجة ومنها ما يدعو عليه بدمرها الله إذا كانت تحت سلطان الفرنجة مثل "عكا دمرها الله وأعادها" وتبدو

---

* خرج مع ابن جبير في هذه الرحلة وكان مرافقاً له شخصاً يُدعى أبوجعفر أحمد بن الحسين بن أحمد القضاعي له معرفة في الطب والآداب توفى ولم يبلغ الخمسين سنة(المقري المصدر السابق، ج ٢،ص ٣٨٣).

(١) نقولا زيادة، المرجع السابق، ص ١٦٨.

(٢) المقري: المصدر السابق،ج ٢،ص ٤٨٨.

هذه الروح الدينية في وصفه الدقيق والتفصيلي للمساجد* خاصة المسجد الحرام والحرم النبوي وصفه المفصل كذلك لمناسك الحج[١] فقد كان وصفه يصعب اقتباسه أو اختصاره لترابط المعلومات مع بعضها البعض.

وصف ابن جبير كثير من المشاهد الدينية بمدينة القاهرة مثل الجبانة التي بها مشاهد الأنبياء صالح عليه السلام ومشهد آسية زوجة فرعون ومشهد أم كلثوم ابنة القاسم بن جعفر ومشهد السيدة زينب والمشهد الذي به رأس الحسين بن على ابن أبي طالب رضي الله عنه وهو في تابوت فضة مدفون تحت الأرض قد بني عليه بنيان حفيل يقصر الوصف عنه مجلل بأنواع الديباج محفوف بأمثال العمد الكبار من الشمع الفضي والذهبي وعُلقت عليه قناديل وقبة من الرخام الغريب الصنعة البديع الترصيع والمدخل إلى هذا المشهد مسجد غاية في الجمال حيطانه من الرخام معلق عليه أستار من الديباج. [٢]

عناية ابن جبير بالمزارات والمشاهد دلالة على أن الناس في تلك الفترة كانت تغالي في التعظيم والتبرك بالآثار.

لقد عنى ابن جبير في رحلته عناية كبيرة بالنواحي الاقتصادية فيقول في أسواق مدن مصر "منفلوط من مدن الصعيد فيها الأسواق وسائر ما يحتاج إليه من المرافق وهي نهاية في الطيب وقمحها يجلب إلى مصر لطيبه ورزانة حبته والتجار يصعدون في المركب لاستجلابه" رأي ببلاد الصعيد المعترضة في الطريق للحجاج والمسافرين كاخميم وقوص ومنية وعاب عليهم التعرض لمراكب المسافرين وتكشفها والبحث فيها وإدخال الأيدي إلى أوساط التجار فحصاً عما تأبطوه أو احتضنوه من دراهم ودنانير. ومن أشنع ما شاهده ابن جبير خروج شرذمة من أعوان الزكاة وفي أيديهم المسال

---

* يقول في مسجد "دمشق أنه من أشهر جوامع الإسلام حسناً وإتقان بناء وغرابة صنعة واحتفال وتنميق وتزيين وشهرته المتعارفة في ذلك تغنى عن استغراق الوصف فيه ومن عجيب شأنه إنه لا تنسج به العنكبوت ولا تدخله" (المقري، المصدر السابق، ج ٢،ص ٣٨٧).

(١) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٦٧ وما بعدها.

(٢) ابن جبير، المصدر السابق ، ص ١٩-٢٢.

الطوال ذوات المقابض فيصعدون إلى المراكب استكشافاً لما فيها فلا يتركون شيئاً داخل الأمتعة إلا ويتخللونه بتلك المسال مخافة أن يكون في تلك الأمتعة بضاعة أو مال. [١]

تعرض ابن جبير للأسواق بالمدن الكبيرة كالإسكندرية ودمشق وحلب وحماة وغيرها من المدن التي تم توضيحها في الفصل الخاص بالأسواق.

نلاحظ أن رحلته تميزت بمدح ما يستحق المدح وذم من يستحق الذم بدون تجاوز أو تطاول فنجده يمدح صلاح الدين الأيوبي* ويوصفه بالعدل لإزالته المكس المضروب وظيفة على الحجاج في زمن الفاطميين وهي سبعة دنانير ونصف من الدنانير المصرية التي هي خمسة عشر ديناراً مؤمنية على كل رأس. كما أنه أمن السبل للناس في بلادهم فيتصرفون في الليل كتصرفهم بالنهار دون خوف من سواد الليل[٢]. وقد مدحه في ذلك التصرف في المكس قائلاً في قصيدة كبيرة مشهورة:

وما نال الحجاز بكم صلاحً * وقد نالته مصر والشام

ومدحه في قصيدة أخرى مطلعها:

أطلت على أفقك الزاهر * سعود من الفلك الدائر[٣]

وواضح أن إعجابه بهذه الشخصية كان شديداً فيقول فيه في موضع آخر صلاح الدين اسم وافق مسماه ولفظ طابق معناه وما سوى ذلك في سواه فزعازع ريح وشهادات يردها التجريح ودعوى نسبة للدين برحت أي تبريح".[٤]

---

(١) المصدر نفسه ،ص ٣٥-٣٩.

* صلاح الدين الأيوبي يوسف بن أيوب بن شادي ولد في تكريت الواقعة على نهر دجلة بين بغداد والموصل وهي أقرب إلى بغداد وهو عبقري فذ وبطل الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين كان وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد وعندما كسب ود الشعب المصري وصار موقفه قوياً ألغي الخلافة العبيدية في أول محرم سنة سبع وستين وخمسمائة هجرية (عبدالرحمن حسب الله الحاج أحمد، الحروب الصليبية، المطبعة العسكرية، أم درمان ٢٠٠٢م،ص ٥٥).

(٢) ابن جبير: المصدر السابق،ص ٣٠-٣١.

(٣) المقري: المصدر السابق، ج ٢،ص ٣٨٣-٣٨٤.

(٤) ابن جبير، المصدر السابق،ص ٢١٦.

ذمّ أهل بغداد عند زيارته لهم ووصفهم بأنهم أهل عجب وكبرياء ويحتقرون الأغراب ومن عيوبهم يسحبون أذيالهم أشراً وبطراً ويتبايعون بالذهب قرضاً ويخسرون الكيل والميزان كأنهم من بقايا قوم النبي شعيب عليه السلام. (١)

في الوقت نفسه امتدح أهل حران بأنهم أهل خير وهينون ومعتدلون ومحبون للغرباء ومؤثرون للفقراء لا يحتاج الفقير عندهم لزاد ولهم في الكرم مقاصد مأثورة. (٢)

حفلت رحلة ابن جبير بالكثير من المحسنات البديعية مثل الاستعارة والسجع والبديع دون تكلف يؤخذ عليه أو يصعب فهم المعنى المقصود. فنجده يقول في وصف سوق المسجد الحرام أن به سوقاً عظيمة يُباع فيه "من الدقيق إلى العقيق ومن البر إلى الدر" ويقول في وصف المشهد الحافل لاستقبال الخاتون "مشهد أبهت الأبصار وأحدث الاعتبار وكل ملك يفنى إلا ملك الواحد القهار" وفي ذم أهل بغداد "الغريب فيهم معدم الإرفاق متضاعف الإنفاق لا يجد من أهلها إلا من يعامله بنفاق أو يهش عليه هشاشة انتفاع واسترقاق كأنهم من التزام هذه الخِلة القبيحة على شرط اصطلاح بينهم واتفاق".(٣)

لم يهمل ابن جبير النواحي السياسية في رحلته فقد ذكر الحروب الصليبية التي كانت دائرة في الشرق بين الصليبيين والمسلمين وما كان عليه الأهالي مسلمين ومسيحيين من علاقاتٍ حسنة خلال تلك الحروب وصف تلك الأوضاع وصفاً مسهباً دل على دقة ملاحظته وسعة علمه.

أبدى حزنه وفجيعته على ما يعانيه أسرى المسلمين في عكا مكبلون بالقيود ويصرفون في الخدمة الشاقة وكذلك الأسيرات المسلمات في سوقهن خلاخيل الحديد. فتتقطر لهم الأفئدة ولا يغنى الإشفاق عليهم شيئاً. ويقول: "إن من جميل صنع الله لأسرى المغاربة هذه البلاد الشامية الافرنجية أن كل من يخرج من ما له وصية

---

(١) المصدر نفسه ،ص ١٩٤.

(٢) المصدر نفسه،ص ٢٢٠.

(٣)ابن جبير، المصدر السابق ، ص ١٦٠، ص ٢١٣،ص ١٩٤.

للمسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها إنما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم وأنهم لا مخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل".(١)

هذه الرحلة كتاب نفيس لا غنى عنه لكل من أراد الإطلاع على أحوال تلك الفترة لما فيها من عناية فائقة بتسجيل النواحي الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية بأسلوب سهل وواضح أعطى للرحلة قيمة علمية كبيرة.

وأصبحت هذه الرحلة من كلاسيكيات أوصاف الرحلات في الأدب العالمي. لأنه دون ملاحظاته بدقة وهي صورة صادقة لما رأى حافلة بالمعلومات الصادقة والملاحظات القيمة وصل بها إلى قمة أدب الرحلة في تاريخ العلم العربي.أهتم برحلة ابن جبير المستشرقون فترجم القسم المختص بصقلية إلى الفرنسية وطبع سنة ١٨٤٦م وطبع لأول مرة في ليدن سنة ١٨٥٢م مع مقدمة للمستشرق راين وأعيد طبعه سنة ١٩٠٧م وفي صدره ترجمة للمؤلف. (٢)

مما سبق يتضح أن التجارة وما صحبها من فتح الطرق وتأمينها- مهدت السبيل أمام الرحالة بمختلف أنواع رحلاتهم فجابوا البلاد سالكين الطرق التي سلكها التجار إلى مختلف البلاد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً.

ولعل أهم ما خلفته هذه الرحلات كتباً ذات مكانة هامة في ثبت المصادر تضمن الكثير من المعلومات عن البلدان والأقاليم والشعوب وهي ترقى لأن تكون من المصادر الأصلية في تبيان الأحداث الرئيسية والجانبية الغامضة وتنقلها من هامش الفكرة إلى بؤرة الواقع ثم أنها لا تخلو من مادة لا تتوفر في سواها بسبب تغلغلها بين طبقات الشعب.

---

(١) المصدر نفسه ،ص ٢٨٠.

(٢) ابن جبير ، المصدر السابق ،ص ٦. مقدمة الرحلة.

ثانياً : **أثر التجارة في الجغرافية**

إن بداية ما عرفه العرب عن الجغرافية يرجع إلى ما قبل الإسلام وخاصة عن الأنواء وهذه المعرفة سببها الأصلي الاهتمام بالتجارة البحرية والبرية التي كان العرب يمارسونها بكثرة ومع أن الذي وصل من هذه المعلومات قليل من حيث نوعه فمما لا شك فيه أن كمية أكبر من تجارب العرب واختباراتهم البحرية والبرية فيما يتعلق بالرياح والأمطار أصبح جزءاً من التراث الجغرافي العلمي لمن اتصل بهم. [١]

وبعد توسع العالم الإسلامي تطلب الأمر معرفة الطرق الكبرى التي تربط أقاليم الدولة الإسلامية والدول الأخرى فكان لابد من الاستفادة من إمكانات السفر الجديدة والتي سادت رقعة واسعة وتلك الإمكانات التي تتمثل في اتساع شبكة المواصلات وتوفر درجة معقولة من الأمن فيها فأخذوا يشقون الرحال ويطوفون البلدان شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً. وأمكن لهؤلاء أن يجمعوا معلومات جديدة عن ممالك الإسلام عن طرق المشاهدة الشخصية أو السؤال أو الاستقصاء الأمر الذي لم يكن متوفر للجغرافيين السابقين ولم يكن هؤلاء الكتاب على أنفسهم فحسب في جمع المعلومات بل ساهم التجار في إغناء معلوماتهم مساهمة عظيمة. [٢]

لعبت التجارة دوراً أساسياً ومزدوجاً في إثراء المعرفة الجغرافية فمن جهة تطلب الأمر اكتساب المعلومات عن الطرق والمسالك المؤدية إلى الدول المختلفة وهو أمر لا غنى غنه للتجار ومعرفة المدن التجارية الرئيسية ما تشتهر به كل منها من سلع ومن جهة أخرى تولي التجار ومستخدموهم مهمة جمع المعلومات البشرية والاقتصادية فضلاً عن الطبوغرافية في البلدان المختلفة بل وأصبح التجار أنفسهم في بعض الحالات من الجغرافيين البارزين. [٣]

---

(١) نقولا زيادة: المرجع السابق، ص ١١.

(٢) شارك خصباك: المرجع السابق،ص ١١١-١١٢.

(٣) المرجع نفسه،ص ٨.

وهذا ما يؤكده غوستاف[١] "أن التجارة والرحلات التجارية قد خدمت الجغرافية وذلك لأن طليعة رواد العرب مؤلفة من تجار يسيحون للتجارة وعلى ما يعوذ هؤلاء من الاستعداد الضروري للتأمل لم تخل رحلاتهم التجارية من طرائف مفيدة".

واضح مما سبق أن ازدهار التجارة سبباً في إثراء علم الجغرافية وانعكس ذلك الثراء في ظهور مجموعة كبيرة من الجغرافيين في ذلك العصر. وقد أمدنا هؤلاء الجغرافيون بكتب قيمة أفادت ذلك العلم ومن أبرز هؤلاء:

ابن خرداذبة (٢٠٧-٣٠٠هـ) (٨٢٢-٩١٣م):

فارسى الأصل من أهل بغداد كان جده خرداذبة مجوسياً أسلم على يد البرامكة وبذلك يكون جده أول من اعتنق الإسلام من أفراد أسرته وشغل أبوه منصباً كبيراً واتصل ابن خرداذبة واسمه –أبوالقاسم عبيدالله بن أحمد بن خرداذبة بالخليفة العباسي المعتمد فولاه البريد والخبر في إحدى نواحي الدولة وجعله من ندمائه. [٢]

له مقاله ألقاها بحضرة الخليفة عن الآلات الموسيقية والغناء والرقص وله مصنفات عديدة بعضها يتصل بالعلم خاصة ما كتبه عن أنساب الفرس وبعضها يتصل بالأدب وبعضها عن الملاهي والموسيقي والشراب وصناعة الطعام والندماء والجلساء. [٣]

الوقت الذي شغل فيه ابن خرداذبة منصب عامل البريد شهد تدفقاً للقوافل التجارية بحمولاتها النفيسة من التوابل وغيرها من التجارات فكان من الطبيعي أن يهتم الخليفة في بغداد بطرق المواصلات في مملكته. لذلك أصدر الخليفة أمراً إلى عامل البريد ابن خرداذبة بوضع مؤلفاً يحشد فيه جميع المعلومات بشأن هذه الطرق. فجاء هذا المؤلف بعنوان "المسالك والممالك" جمع فيه المعلومات الجيدة عن البلدان

(١) الحضارة الإسلامية ، المرجع السابق،ص ٤٦٥.

(٢) الزركلي: المرجع السابق، ج ٤، ص ١٩٠.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، ج ١،ص ١٤٩.

النائية مستفيداً من وظيفته الإدارية في ذلك فجاء الكتاب موافياً للغرض الذي ألف له. (١)

ترجع شهرة ابن خرداذبة إلى ذلك الكتاب القيم. الذي بدأه صاحبه بدعاء للخليفة العباسي قائلاً: "أطال الله تعالى بقاءك يا ابن السادة الأخيار والأئمة والأبرار منار الدين وخيرة الله من الخلق أجمعين وأدام لك السعادة وأكثر لك الزيادة من جميع الخيرات ووفقك لسبيل الصالحات وجعلك ممن ارتضى أفعاله وزين أحواله".(٢)

ونجده بعد ذلك يعرف بكتابه ويوضح فيه رسم مسالك الأرض ومعالمها وصفة الأرض وقربها وبعدها والعامر والغامر منها وذكر الطريق من موضع كذا إلى موضع كذا مقدار من المسافة كذا ، معتمداً على ما أبانه بطليموس من الحدود بلغة عربية لا بالعجمية التي كتب بها بطليموس. (٣)

وبعد ذلك انتقل إلى الغرض الأساسي من كتابه وبدأ بذكر السواد أي "قلب العراق،موضحاً أن السواد اثنا عشرة كورة في بلاد العراق وهذه الكور وكل كورة أستان* وبالسواد ستين طسوجاً** ورساتيق*** وعن تقدير السواد يذكر ان مبلغ جبايته في عهد قباذ كانت مائة ألف ألف وثمانية وعشرين ألف ألف درهم وفي عهد عمر بن عبدالعزيز مائة ألف ألف وأربعة وعشرين ألف ألف درهم وفي عهد الحجاج بن يوسف جُبي ثمانية عشر ألف ألف درهم. (٤)

---

(١) سونيا . ي . هو: المرجع السابق،ص ٤٨.

(٢) ابن خرداذبة: المصدر السابق،ص ٣.

(٣) حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، دار الفكر، بيروت، ٢٠١٠م، ص ١٤٥.

* الكورة: كل صنيع يشمل على عدة قرى ولابد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمعها وذلك اسم الكورة، الأستان: والكورة واحد ياقوت، معجم البلدان، مج ١،ص ٣٦-٣٧.

** الطسوج، أخص واقل من الكورة وكأنه جزء من أجزاء الكورة كما أن الطسوج جزء من أربعة وعشرين جزءاً من الدينار لأن الكورة قد تشتمل على عدة طساسيج وهي لفظة فارسية (المصدر نفسه والجزء،ص ٣٨).

*** الرستاق هو كل موضع فيه مزارع وقرى ولا يقال كلمة رستاق للمدن الكبيرة كالبصرة وبغداد وهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد وهو أخص من الكورة والأستان (المصدر نفسه، والجزء والصفحة).

(٤) ابن خرداذبة:المصدر السابق،ص ٧-١٤.

وبما أن الكتاب موضوع بغرض الخراج والتجارة فقد وضح المسافات بدقةٍ. فهو مثلاً يوضح المسافة إلى المشرق من البصرة في البحر قائلاً: (من البصرة إلى عبادان اثنا عشر فرسخاً. ثم إلى الخشبات فرسخان ثم تصير إلى البحر فشطه الأيمن للعرب وشطه الأيسر لفارس وعرضه سبعون فرسخاً ومنها إلى الدرر مائة وخمسون فرسخاً ثم إلى عمان خمسون فرسخاً ثم إلى الشحر مائتا فرسخاً ومن الشحر إلى عدن مائة فرسخ. [١]

وهو في ذكر هذه المسافات بين المناطق نجده يذكر ما تميزت به كل منطقة من زرع وضرع ومنتجات بحرية والأمتعة المتوفرة في تلك المناطق فمن ذلك مثلاً ما يقوله في منطقة الشحر "أنها من المرافئ العظام ولا زرع لها ولا ضرع وبها العنبر والعود والمسك ومتاع السند والهند والصين والزنج والحبشة وفارس والبصرة وجدة والقلزم...". [٢]

اعتبر هذا الكتاب مؤجز في مادته بل يوصف بأنه مسرف في الإيجاز ولكن مع ذلك يشتمل على معلومات غزيرة عن الأقاليم خاصة الطرق التجارية[٣] فهو أول من أخبرنا عن مسلك التجار اليهود الذين كانوا يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والأندلسية والصقلية وكذلك مسلك تجار الروس الصقالبة. [٤]

احتوى الكتاب على معلومات اقتصادية كثيرة وربما يعود ذلك إلى أن الغرض من تأليفه هو تقدير الخراج بالدولة وقد استوفى غرضه.

وعلى الرغم من أنه أُخذ على هذا الكتاب شدة الإيجاز ودخول المؤلف في بعض الأحيان في تفاصيل ثانوية تختلط فيها الأساطير بالحقائق[٥] إلا أن هناك من يعتبره "أحسن كتاب في موضوعه".[١]

---

(١) المصدر نفسه،ص ٦٠-٦١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦١.

(٣) ابن سعيد: المصدر السابق، ٣٤.

(٤) ابن خرداذبة: المصدر السابق،ص ١٥٣. لمعرفة هذه المسالك تفضيلاً انظر: الفصل الخاص بطرق التجارة من هذا البحث .

(٥) ابن سعيد: المصدر السابق،ص ٣٤.

المسعودي ت(٣٤٦هـ-٩٥٧م):

أبوالحسن على بن الحسين بن على يتصل نسبه بعبدالله بن مسعود ومن هنا جاءت نسبته وأما مكان نشأته فإن الثقات من المؤرخين يرون أنه نشأ في بغداد على أن ابن النديم يروى أنه من أهل المغرب فلعله شخص آخر أو لعل أجداده نزحوا إلى المغرب والمسعودي نفسه يذكر في موضعين من مؤلفاته أن العراق موطنه وقد أكثر من الحنين إليه وأغدق في الثناء. (٢)

رغب المسعودي في التجول فخرج من بغداد وزار بلاد فارس متنقلاً بين ربوعها والهند ومكث عدة سنوات فيها وأقام في مدينة سيلان والصين ووصل إلى عمان وذهب إلى مدغشقر وديار الشام ومصر واستقر بالفسطاط سنة خمس وأربعين وثلاثمائة هجرية حيث توفى في سنة ست وأربعين وثلاثمائة هجرية. (٣)

كتب المسعودي كتباً يصعب حصرها في هذه الدراسة وأهم هذه الكتب كتاب: أخبار الزمان وهو كتاب كبير قدم القول فيه بهيئة الأرض ومدنها وجبالها وأنهارها ومعادنها وأخبار الأبنية العظيمة وشأن البدء والأصل وانقسام الأقاليم وتباين الناس ثم اتبع بأخبار الملوك الغابرة والأمم الدائرة والقرون الخالية وأخبار الأنبياء ثم بعد ذلك ذكر الحوادث سنة سنة إلى وقت تأليف مروج الذهب سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة هجرية. (٤)

وبعد تصنيفه لهذا الكتاب الكبير يعود الكاتب فيختصره ويسميه الكتاب الأوسط ثم يجمل ما بسطه ويختصر ما وسطه في كتاب مروج الذهب. (٥)

يقول صاحب الكتاب: "سميت كتابي هذا بمروج الذهب لنفاسة ما حواه وجعلته تحفة الأشراف لما قد ضمنته من جمل ما تدعو الحاجة إليه وتنازع النفوس إلى

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ، المصدر السابق، ج ٢،ص ٧٠.

(٢) المسعودي: التنبيه والإشراف تحقيق عبدالله إسماعيل الصاوي، المكتبة التاريخية، ١٩٣٨ المقدمة.

(٣) ابن سعيد: المصدر السابق، ص ٣٦، المسعودي، المصدر السابق، المقدمة (ط) نقولا، المرجع السابق، ص ١٥٣.

(٤) حاجي خليفة: المصدر السابق،ج ١،ص ٨٦.

(٥) حاجي خليفة: المصدر السابق، ج٢،ص ٥٤٠.

علمه ولم نترك نوعاً من العلوم ولا فناء من الأخبار إلا أوردناه فيه مفصلاً أو مجملاً فمن حرف شيئاً من معناه أو أزال ركناً من مبناه أو طمس واضحة من معالمه أو طمس شيئاً من تراجمه أو غيره أو بدله أو انتخبه أو اختصره أو نسبه إلى غيرنا أو أضافه إلى سواه فوافاه غضب من الله ووقوع نقمه وقواد بلاياه ما يعجز عن صبره ويخاذله فكره وجعله مثله للعالمين وعبرة للمعتبرين...". [1]

والمسعودي له الحق في الاعتزاز بكتابه والتحذير من تغيير فيه بأي حالٍ من الأحوال فهذا الكتاب كما يقال خلاصة اختباراته وتجاربه في الأسفار والرحلات جمع بين دفتيه خلاصة وافية للمعرفة العلمية في عصره[2].

وهذا ما نبه إليه صاحب الكتاب فهو يذكر أنه أخذ علمه الذي أودعه كتاب مروج الذهب من مصدرين أحدهما كتب العلماء الذين سبقوه في التدوين وقد أشار إلى أكثر هذه الكتب في مطلع كتابه وبين مقدار أهميتها في نظره والمصدر الثاني وهو الأكثر أحاديث الناس التي يتناقلونها كابر عن كابر ومثال ذلك يقول: رأيت صاحب ذلك الرجل المقيم بالواحات بباب الأخشيد وسألته عن كثير من أخبار بلاده وما احتجت أن أجمعه من خواص أرضهم وأخبرني هذا الرجل عما بأرضهم من الشب وألوان الزاج وما يُحمل من بلادهم من أشياء وهكذا فعله مع غيره في كل الأوقات في المناطق التي لم يصل إليها. [3]

وربما أن المصدر الثاني من مصادر كتابه هو الذي كيلّ له اللوم بالرغم من أن مصادره وفيرة وزاخرة بالمعلومات فإنه لا يتسم بما ينبغي من روح النقد والتمحيص بل وأُخُذ عليه نزعته إلى رفع شأن كل ما هو عجيب غريب. فهذه النزعة تجعل من الصعب على الباحث أن يفصل بين العناصر الأسطورية والحقائق

(١) المسعودي: مروج الذهب،ج١ ، ص ١، حاجي خليفة، المصدر السابق، ج ٢،ص ٥٤٠.

(٢) نقولا زيادة ،ص ١٥٦.

(٣) المسعودي: مروج الذهب ، ج١،ص ١٤.

التاريخية في مؤلفاته ولذلك كانت ملاحظاته التي سجلها أثناء رحلاته هي التي تضيف معلومات عن علم الجغرافية وليست آراؤه ونظرياته. [1]

وعلى الرغم من ذلك فإن كتاب مروج الذهب كتاباً متكاملاً من معرفة جغرافية وسياحة وعمران وأخبار وأساطير فإن صاحبه قصد به أن يبقي "ذكراً محموداً وعلماً منظوماً". [2]

تحدث المؤلف عن المؤرخين وأثني على بعضهم وعن تاريخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري يقول أنه قد جمع أنواع الأخبار وحوي الفنون والآثار واشتمل على صنوف العلم وهو كتاب تكثر فائدته ولأن مؤلفه فقيه عصره وناسك دهره إليه انتهت علوم فقهاء الأمصار وكذلك امتدح الصولي في كتابه "الأوراق" فإنه ذكر غرائب لم تقع لغيره وأشياء تفرد لها لأنه شاهدها بنفسه وكان محظوظاً من العلم ممدوداً في المعرفة مرزوقاً بالتصنيف وحسن التأليف. [3]

وكما امتدح بعضهم فإنه انتقد البعض مثل الجرجاني ويرى أنه "خرج إلى أخبار زعم أنها صحت عنده ولم يشاهدها ثم ترقى إلى خليقة في التصنيف مضادة لرسم الأخبار والتواريخ وخروجاً عن جملة أهل التأليف وهو وإن حسن فيه ولم يخرجه عن معانيه فإنه عيب لأنه خرج عن صناعته وتكلف ما ليس من مهنته". [4]

وضع هذا الكتاب في قسمين أولهما وصف فيه المسعودي الخليقة وروى قصص الأنبياء باختصار ثم انتقل إلى وصف الأرض والبحار والعجائب والغرائب وتاريخ الأمم القديمة وما كان لها من الأديان والعادات والمذاهب وعرض للأيام والشهور والتقاويم وكل ما يتعلق بذلك من جزئيات وكليات وخص القسم الثاني بتاريخ

---

(١) ابن سعيد: المصدر السابق،ص ١٢.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ، ج١ ، ص ١٢.

(٣) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ١٥.

(٤) المصدر نفسه ج١ ، ص ١٩.

الإسلام من أواخر عهد الخلفاء الراشدين إلى أوائل خلافة المطيع لله العباسي(١) فكان بذلك كتاباً كثير الفوائد.

لذلك اهتم به المستشرقون فقد نقله المستشرق باربيه دي مينار إلى الفرنسية وطبع في باريس في تسعة مجلدات سنة ١٨٧٢م ونقله إلى الإنجليزية سبرنغر وطبع من هذه الترجمة جزء واحد فقط. (٢)

وللمسعودي كتاب آخر حري بالتقدير هو "التنبيه والإشراف" وهو يحوي "لمعاً من ذكر الإفلاك وهيئاتها والنجوم وتأثيراتها والعناصر وتراكيبها وأقسام الأزمنة وفصول السنة ومنازلها والرياح ومهامها والأرض وشكلها ومساحتها والنواحي والآفاق وتأثيرها على السكان وحدود الأقاليم السبعة والعروض والأطوال ومصاب الأنهار وذكر الأمم السبع القديمة ولغاتها ومساكنها ثم ملوك الفرس على طاقتهم والروم وأخبارهم وجوامع تاريخ العالم والأنبياء ومعرفة السنين القمرية والشمسية وسيرة الرسولﷺ وغزواته وسني هجرته وسير الخلفاء الراشدين والخلفاء من بعدهم... وتكلم على الخلفاء جميعاً إلى سنة ٣٤٥هـ وهي السنة التي مات فيها".(٣)

لم تعق أسفار المسعودي وتنقلاته المستمرة من نشاطه الأدبي هذا النشاط الذي شمل كثيراً من فروع المعرفة في عصره فقد استفاد بما أضافه الكاتب من التجارة والمشاهدات الشخصية وشملت مؤلفاته التي لم يصل معظمها علم الكلام والفلسفة والتاريخ والجغرافية والتي عنى فيها بالأسلوب والصنعة اللفظية والسجع والمحسنات. (٤)

---

(١) المسعودي: مروج الذهب، المصدر السابق ، ج ١ ،ص ٧.

(٢) نقولا زيادة: المرجع السابق، ص ١٥٤.

(٣) المسعودي: التنبيه والإشراف، مقدمة الكتاب (ط).

(٤) ابن سعيد: المصدر السابق،ص ٣٦.

من هذه الكتب التي ضاع معظمها كتاب المبادئ ، الرؤوس السبعة، الصفوة في الأمامة، الاستنصار، الزاهي، الاسترجاع، مزاهر الأخبار، وظرائف الآثار والرؤيا والكمال، رطب النفوس وحدائق الأذهان في أخبار آل محمد عليه السلام.(١)

المقدسي:

شمس الدين أبوعبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي المعروف بالبشاري. ولد في القدس وتعاطي التجارة فتجشم أسفاراً هيأت له المعرفة بغوامض أحوال البلاد فطاف أكثر بلاد الإسلام. (٢)

يعتبر كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" نموذجاً للكتاب العلمي المرتب المقسم المبوب اهتم فيه المؤلف بمملكة الإسلام ولم يتكلف بممالك الكفر لأنه يرى أنه لا فائدة من ذكرها إلا مناطق المسلمين فيها. وقسم مملكة الإسلام إلى أربعة عشر إقليماً* ثم أخذ يفصل كل إقليم من هذه الأقاليم وكذلك الأمصار والقصبات ويرتب المدن والأجناد وخططها وحدودها وطرقها المعروفة وبحارها وأنهارها وجبالها ويوضح أن الأقاليم العربية هي جزيرة العرب والعراق، أقور، الشام، مصر والمغرب وأقاليم العجم هي المشرق والديلم، الرحاب، الجبال، خوزستان، فارس، كرمان والسند. (٣)

يبدأ كتابه "بالحمد لله الذي خلق وصور فأتقن صنع البرية بلا مشير يناصر.." ثم يذكر أن ما دعاه إلى تأليف ذلك الكتاب إن هذا العلم قد أغفله العلماء وهو ذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها من المفاوز والبحار والأنهار والأمصار والمدن والطرق

---

(١) المسعودي: مروج الذهب، ج ١،ص ٤-٥.

(٢) الزركلي: المرجع السابق، ج ٥،ص ٣١٢، حاجي خليفة، المصدر السابق، ج ١،ص ١٧٨.

* الإقليم: الأرض مستديرة الشكل المسكون منها دون الربع وهذا الربع قسمين براً وبحراً وينقسم هذا الربع إلى سبعة أقسام يسمى كل قسم بلغة الفرس كشخر استعارت العرب من السرياينيين اسماً وهو الإقليم (ياقوت ، المصدر السابق، ج ١،ص ٢٦).

(٣) حاجي خليفة: المصدر السابق، ج ١،ص ١٧٨، ابن سعيد، المصدر السابق،ص ٤٠.

والتجارات واختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم وألوانهم ومذاهبهم وما إلى ذلك. (١)

ثم يعرض المؤلف القواعد التي أسس عليها كتابه ويقول: أنها قواعد محكمة ومسندة بدعائم قوية وتحري للصواب استعان فيه بفهم أولى الألباب. فمن قواعده وأركانه سؤال ذوي العقول من الناس عن الكور والأعمال في الأطراف التي بُعد عنها ولم يقدر على الوصول إليها فما وقع عليه اتفاقهم أثبته وما اختلفوا فيه تركه.(٢)

حوي كتابه نقداً علمياً صريحاً لشيوخه في هذا الموضوع ومن هؤلاء الجيهاني* الذي كان صاحب فلسفة وهيئة ونجوم فاهتم بالنواحي الفلكية ولم يفصل الكور ولم يرتب الأجناد ولم يصف المدن بل ذكر الطرق شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً مع شرح ما فيها من السهول والجبال والأدوية والتلال وبذلك طال كتابه وغفل عن طرق الأجناد ووصف المدائن. (٣)

أما البلخي فقد كال له اللوم لأنه قصد صورة الأرض بعدما قسمت إلى عشرين جزءاً واختصر في ذلك الأمر فلم يذكر المفيد والنافع بالتفصيل والترتيب وترك كثيراً من أمهات المدن ولم يذكرها. وكذلك وجه نقداً لابن الفقيه بأنه لم يذكر إلا المدائن العظمى ولم يرتب الكور والأجناد وأدخل في كتابه ما لا يليق به من العلوم مرة يزهد في الدنيا ومرة يرغب فيها وأما الجاحظ وابن خرداذبة فكتابهما مختصران ولا يحصل منهما على فائدة كثيرة. (٤)

---

(١) المقدسي: المصدر السابق، ص ١-٢، حاجي خليفة، ج ١،ص ١٧٨.

(٢) ابن سعيد: المصدر السابق، ص ٤٠، حاجي خليفة، المصدر السابق، ج ١،ص ١٧٨.

* الجيهاني : أبوعبدالله محمد بن أحمد وزير السامانيين الذي ألف كتاباً في صفة العالم وأخباره والمدن والأمصار والأمم ومساكنهم وغير ذلك من الأخبار والقصص الطريفة ويقال إن ابن الفقيه الهمداني قد نسخ هذا الكتاب بما فيه، (شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون ، ط ١، دار العلم للملايين، بيروت ، ١٩٧٩م. ص ٧١).

(٣) المقدسي: المصدر السابق، ص ٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤-٥، ابن سعيد، المصدر السابق، ص ٤٠، نقولا زيادة، المرجع السابق،ص ٥٠.

تكلم المؤلف تفصيلياً عن البحار والأنهار موضحاً بأنه "لم ير في الإسلام إلا بحرين فقط أحدهما يخرج من المشارق بين الصين والسودان فإذا بلغ مملكة الإسلام دار على جزيرة العرب وله خلجان كثيرة وشعب عدة والبحر الآخر يخرج من أقصى المغرب بين السوس الأقصى والأندلس يخرج من المحيط عريضاً ثم ينخرط ثم يعود فيعظم إلى تخوم الشام...". (١)

ولعله في ذلك يحاول أن يثبت من القرآن أن في العالم بحرين فقط هما بحر الروم والبحر الصيني استناداً على قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾(٢).

تعرض الكاتب بعد حديثه عن البحار إلى ذكر الأسامي واختلافها فيوضح أن هناك بلداناً تتشابه في الأسماء وتختلف في المواضع ويشكل أمرها على الناس من أمثلة ذلك مدينة طرابلس التي توجد أحداهما على ساحل دمشق وأخرى على ساحل دجلة ومدينة بيروت أحدهما بدمشق وأخرى بخوزستان وعسقلان مدينة على ساحل فلسطين وأخرى ببلخ وحلوان كورة بالعراق ومدينة بمصر وقرية بنيسابور وكرخ مدينة بخوزستان ومحلة ببغداد ومنبر بالرحاب. (٣)

ما تميز به صاحب المؤلف في كتابه عن كتابة الآخرين ذكره لخصائص كل إقليم ومن ذلك وصفه لإقليم العراق بأن "أظرف الأقاليم العراق وهو أخصَّ وأحدّ للذهن وبه تكون النفس أطيب والخاطر أدق وأجلها وأوسعها فواكه وأكثرها علماً...". (٤)

ينتقل الكاتب بعد ذلك إلى النواحي الدينية ويذهب في القول إلى أن المذاهب المستعملة في الإسلام "ثمانية وعشرون مذهباً أربعة في الفقه وأربعة في الكلام

(١) المقدسي: المصدر السابق،ص ١٠-١٣.

(٢) سورة الرحمن الآيات ١٩-٢٠.

(٣) المقدسي: المصدر السابق،ص ٢٤-٢٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٢-٣٣.

وأربعة في الحكم وأربعة مندرسة وأربعة في الحديث وأربعة غلب عليها أربعة وأربعة رستاقية... ثم يفصل كل هذه المذاهب تفصيلاً دقيقاً. [١]

نجد أن بعض العلماء من معاصري المقدسي المحافظين قد رموه بمخالفة الأصول المعروفة عن الفرق والمذاهب بالعدول عن التقسيم السباعي المعروف إلى التقسيم الرباعي[٢] ولكننا نجده يرد على نقدهم بحجج مثل حججهم بأنه يتأسى بأهل الرأي من صدور الأئمة "فلا عجب أن نرى نحن أيضاً في هذا العلم آراء ويكون لنا فيه قياس واختبار".[٣]

يظهر إبداع المؤلف ورقته في أنه يشفق على الفقهاء وكل من ليس لديه فراغاً لقراءة الكتاب كاملاً فيقدم لهم مختصراً لأمصار المسلمين وكور الأقاليم والقصبات والمدن متبعاً في أسلوبه ترك الإطناب واختصار الألفاظ.

يأخذ المؤلف بعد ذلك في تفصيل كل هذه الأقاليم ابتداء من جزيرة العرب وبعد أن ينتهي من ما يخص كل إقليم يعود فيجمل شئون ذلك الإقليم من مذاهب ولغة أهل الإقليم وخصائصهم ومكاييلهم وأوزانهم وأرطالهم ونقودهم ورسومهم ومعادنهم ومشاهدهم وأخلاقهم والضرائب والمكوس والمسافة والمساحات والخراج ويفرد المجال واسعاً في هذا الجزء للكلام عن تجاراتهم ومثال لذلك يقول في تجارة العراق "ولا بأس بالتجارات فيه ألم تسمع بخز البصرة وبزها وطرائفها وبارزها هي معدن اللآلي والجواهر وفرضه البحر ومطرح البر ومنها تحمل التمور إلى الأطراف والحناء ولهم خز وبنفسج وماء ورد. وبالأبلة تعمل ثياب الكتان الرفيعة على عمل القصب وبالكوفة عمائم الخزّ والبنفسج في غاية الجودة وبمدينة السلام الطرائف والألوان من ثياب القز وغير ذلك وبه عباداني حسن وساماني رفيع".[٤]

---

(١)المقدسي: المصدر السابق ،ص ٣٧.

(٢) آدم متز: المرجع السابق،ج ٢،ص ٢٦.

(٣) المقدسي: المصدر السابق،ص ٣٧.

(٤) المصدر نفسه،ص ١٢٨.

ويقول في جمل شئون إقليم الجزيرة "... وأما مكاييلهم فلهم المد والمكوك والقفيز والكارة فالمكوك خمسة عشر رطلاً والمد ربعه والكارة مائتان وأربعون رطلاً والقفيز ربعها والمكوك ربع القفيز وأرطالهم بغدادية وفرقهم ستة وثلاثون رطلاً...". [١]

يجمل شئون الشام فيقول "والتجارات به مفيدة يرتفع من فلسطين الزيت والقطيف والزبيب والخرنوب والملاحم والصابون والفوط ومن بيت المقدس الجبن والقطن وزبيب العينوني والدوري والتفاح وقضم قريش الذي لا نظير له والمرايا وقدور القناديل". [٢]

لا شك أن هذه الدقة في كتاب أحسن التقاسيم تدل على أنه طاف أكثر بلاد الإسلام وإنه كان حريصاً على التعرف على البلاد والسكان. وهذا ما شهد له المستشرقون به حيث يقول المستشرق سبرنغر "لم يتجول سائح في البلاد كما تجول المقدسي ولم ينتبه أحد بحسن ما علم به مثله، وكذلك يقول المستشرق غلدمستر : "امتاز المقدسي عن سائر علماء البلدان بكثرة ملاحظاته وسعة نظره". [٣]

وكتاب المقدسي فضلاً عن أنه فريد في الرحلات والجغرافية فهو يعتبر من كتب الأدب الجميلة لما احتوى عليه من رصين الأسلوب ورقيق العبارة ودقيق الصنعة فقد عنى فيه صاحبه بالأسلوب والصنعة اللفظية عناية نادرة عند غيره من الجغرافيين العرب ويبدو أن المقدسي تناسي نظريات الإغريق والعرب في الأبحاث الفلكية وكتب هذا الكتاب لطبقة الأدباء والكتاب. [٤]

عبر العالم الألماني سبرنغط في مقال له عن افتراضه أن المقدسي كان من بين العلماء الذين كتبوا رسائل أخوان الصفاء ولكن ما يُبعد ذلك الأمر أن روح الكاتب لا تمت بصلة إلى الروح التي تسود رسائل أخوان الصفا فإن طريقة المقدسي

---

(١)المقدسي: المصدر السابق ،ص ١٤٦.

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٠.

(٣) الزركلي: المصدر السابق، ج ٥،ص ٣١٢، شوقي أبوخليل، المرجع السابق، ص ٤٩٣.

(٤) ابن سعيد: المصدر السابق، ص ٣٩.

في عرض الحقائق وأسلوبه ومزاجه كلها أمور تجعله بين الأدباء أكثر مما تجمله واحداً من هواة الفلسفة واعتزاز المقدسي بشخصيته وعمله لا يسمح بالافتراض أنه سيقبل الاشتراك في عمل مهم مجهول الاسم. (١)

لم نجد في هذه الدراسة من يتعرض لذكر عيب ولو واحدٍ في هذا المؤلف مما يدل دلالة قاطعة على أنه عمله خلاصة تنقل في الأقطار وسؤال لأهل الثقة والأخيار وبعد ذلك كله اهتمام واضح بالتنظيم والتقسيم للبحوث والفصول.

ابن حوقل:

أبوالقاسم محمد بن على بن حوقل البغدادي الموصلي عاش في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) رحالة من علماء البلدان وتاجراً رحل من بغداد سنة ٣٣١هـ-٩٤٢م وعاد إليها بعد ثلث قرن زار خلالها ديار الإسلام من الهند إلى أسبانيا وتغلغل في مناطق أخرى كثيرة حتى وصل بلاد البلغار ودخل المغرب وصقلية وجاب بلاد الأندلس وغيرها. (٢)

كان يسعى ابن حوقل وراء أسفاره تحقيق غرض مزدوج وهو دراسة البلاد والشعوب وبقصد الكسب عن طريق التجارة لاسترجاع الثروة التي فقدها ويقال أنه كان عيناً للفاطميين. (٣)

قابل ابن حوقل في رحلته هذه وتجواله الاصطخري صاحب كتاب "مسالك الممالك" الذي عرض عليه كتابه وكلفه بتنقيحه فلم يتردد ابن حوقل في قبول هذه المهمة فقد كان ابن حوقل قد جمع أثناء تنقلاته معلومات أدق وأحدث مما كان يشتمل عليه كتاب الاصطخري فأدخل عليه تحسينات مهمة خصوصاً الفصول التي تصف مصر والمغرب والأندلس وصقلية وبلاد ما وراء النهرين والعراق أما الفصل

---

(١) ابن سعيد: المصدر السابق،ص ٤١.

(٢) الزركلي: المرجع السابق، ج ٦، ص ١١.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، ج ١،ص ١٤٥، الزركلي، ، المرجع السابق، ج ٦،ص ١١.

الذي يصف بلاد الفرس فإن النص الأصلي في الكتاب أفضل من المنقح وقد أتم ابن حوقل تنقيح الكتاب الذي أسماه "المسالك والممالك" سنة ٣٦٧هـ- ٩٧٧م. (١)

استفاد الجغرافيون والمؤرخون كثيراً من كتاب الاصطخري الذي حسنه ابن حوقل خاصة ياقوت الحموي في معجم البلدان وطبع الكتاب مرتين في ليدن الطبعة الأولى باسم "المسالك والممالك والمفاوز والمهالك ثم حسنت هذه الطبعة ونشرت بعنوان "صورة الأرض".(٢)

افتتح كتابه بقوله: "هذا كتاب المسالك والممالك والمفاوز والمهالك وذكر الأقاليم والبلدان على مر الدهور والأزمان... وطابع أهلها وخواص البلاد في نفسها وذكر جباياتها وخراجاتها ومستغلالتها وذكر الأنهار الكبار واتصالها بشطوط البحار وما على سواحل البحار من المدن والأمصار ومسافة ما بين البلدان للسفارة والتجارة مع ما ينضاف إلى ذلك من الحكايات والأخبار والنوادر والاثار...". (٣)

وفي ذكر الأقاليم يبدأ الكاتب بديار العرب لأن بها القبلة ومكة فيها وهي أم القرى وبلد العرب وأوطانهم التي لم يشركهم في سكناها غيرهم ثم ينتقل بعد ذلك إلى بحر فارس لأنه يشمل على أكثر حدود بلاد العرب مبتدئاً بالقلزم وساحله مما يلي المشرق ويطوف بحدود ديار العرب ويقطع عرض دجلة إلى جنابه بفارس ثم إلى سيراف ثم إلى سواحل هرمز من وراء كرمان إلى الديبل وسواحل الملتان وساحل السند ثم إلى الهند والصين وعلى الجانب الغربي من حدود مصر. ثم تمتد في مفاوز للبجة في مدينة عيذاب ثم إلى سواكن ومنها إلى دهلك ومصوع وزيلع ثم يمتد البحر على بحر الحبشة ويتصل بنهر بلد النوبة حتى ينتهي إلى بلدان الزنج".(٤)

اهتم ابن حوقل اهتماماً خاصاً بالنواحي الاقتصادية من محصولات وجباية وما يرتفع من الضرائب فيقول في بلاد الأندلس: "أنها من نفائس جزائر البحر ويغلب

---

(١) ابن سعيد: المصدر السابق،ص ٣٦.

(٢) ابن حوقل: المصدر السابق ، ،ص ٦.

(٣) المصدر نفسه،ص ٥.

(٤) المصدر نفسه،ص ٤٨-٤٩.

عليها المياه الجارية والشجر والتمر والأنهار العذبة والرخص السعة في جميع الأحوال والتنعيم والتملك ظاهراً في الخاصة والعامة وذلك لأن الملك في يسار من صدقات البلاد وجباياته وخراجاته وأعشاره وضماناته ومراصده وما يفيض من الأموال الوافرة على المراكب الواردة والصادرة عنهم والرسوم عن بيوع الأسواق".(١)

تميز ابن حوقل في كتابه بفصل سماه المشهورات ويقول في فصل "الهند بحرها در وجبلها ياقوت وشجرها عود وورقها عطر وكرمان ماؤها وشل وتمرها دقل وعودها بهل. وخراسان، ماؤها جامد وعودها جاهد وعمان حرها شديد وصيدها عنيد والبحرين كناسة بين المصرين... والكوفة ارتفعت عن حر البحرين وسلمت عن برد الشام وواسط جنة ... والشام عروس بين نساء جلوس ومصر هواؤها راكد وحرها متزايد..." (٢).

الإدريسي (٤٩٣-٥٦٠هـ) (١١٠٠-١١٦٥م):

أبوعبدالله محمد بن عبدالله بن إدريس الحسني الطالبي الملقب بالشريف الإدريسي لانتسابه إلى سلالة النبيﷺ ينحدر من عائلة كانت تحكم المغرب الأقصى مدة من الزمن ولد في سبتة ونشأ وتعلم بقرطبة. (٣)

قام الإدريسي بعدد من الرحلات تمكن خلالها من التوغل في أصقاع ظلت حتى ذلك الحين مقفلة في وجه العلماء والتجار المسلمين وقد تجول في الأندلس وعلى شواطئ بريطانيا وفي بلاد المغرب كما قام برحلة إلى آسيا الصغرى في سنة ٥١٠هـ-١١١٦م انتهت به رحلته إلى صقلية فنزل على صاحبها روجار الثاني Roger.

كانت مملكة صقلية التي امتزجت فيها الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية مزدهرة العمران وكانت بلرم في هذا الوقت مركزاً تجارياً مهماً وكان ميناؤها مقصداً للسفن المثقلة بالبضائع من سوريا وشواطئ شمال أفريقيا فوجد الإدريسي نفسه أمام

---

(١) ابن حوقل المصدر السابق، ص ١٠٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٠٧-٢١٤.

(٣) الزركلي: المرجع السابق، مج ٧،ص ٢٤.

أمواج متدافقة من المسافرين من مختلف البلاد فاستطاع بذلك إتمام الملاحظات التي جمعها أثناء رحلاته الخاصة وقد دفع به حرص روجر على تشجيع العلم إلى جمع مواد كتاب أسماه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق".(١)

صُنف هذا الكتاب لروجار صاحب صقلية مرتب على الأقاليم السبعة وأورد فيه أوصاف البلاد والممالك مستوفياً المسافات بالميل والفرسخ ولكنه لم يذكر الأطوال والعروض. (٢)

ابتدأ الإدريسي كتابه بعد حمد الله تعالى بمدح ملك الروم روجار فيقول "هو خير من ملك الروم بسطاً وقبضاً وصرف الأمور على إرادته إبراماً ونقضاً ودان في ملته بدين العدل.. وافتتح البلاد شرقاً وغرباً وأذل رقاب الجبابرة من أهل ملته بعداً وقرباً...". (٣)

ومن دواعي تأليف هذا الكتاب أن روجر لما اتسعت أعمال مملكته وتزايدت فأحب أن يعرف حدود بلاده ومسالكها براً وبحراً وما يخصها مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار في الأقاليم السبعة المتفق عليها ورجع إلى الكتب المؤلفة في ذلك فم يجد شيئاً مشتركاً ومفصلاً فأحضر العارفين والمتجولين في سائر البلاد وجمع منهم ما اتفقوا عليه وأمر أن تصنع له دائرة من الفضة الخالصة عظيمة الجسم فيها صورة الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها وبحارها وأنهارها غامرة وعامرة مع المسافات وأن يؤلفوا كتاباً مطابقاً لما في أشكالها ويزيد عليها بوصف أحوال البلاد والأرضين من خلفها ويسمى الكتاب "نزهة المشتاق" فكان ذلك. (٤)

نشر ملخص لهذا الكتاب في روما في أواخر القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) واعتنى ناشر الكتاب خصوصاً بالمراحل والمسافات التي تفصل بين المدن والمواقع التي ورد ذكرها في الكتاب مما يوحي بأن الكتاب قد نشر ليتخذ منه

---

(١) ابن سعيد: المصدر السابق، ص ٤٥.

(٢) حاجي خليفة: المصدر السابق، ج ٥،ص ٧٥.

(٣) الإدريسي: المصدر السابق ،ص ٤-٥.

(٤) المصدر نفسه،ص ٥-٧.

دليلاً للمسافرين في أسفارهم كما قام المستشرق ADejauber بترجمة الكتاب إلى الفرنسية ترجمة مشوبة بكثير من الأغلاط. (١)

ياقوت الحموي (٥٧٥-٦٢٦هـ) (١١٧٩-١٢٢٨م):

الشيخ الإمام شهاب الدين أبوعبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي ولد من أب يوناني في أراضي بيزنطة سنة ٥٧٥هـ-١١٧٩م. (٢)

اختطف في أحد الغزوات وهو صبي واشتراه تاجر يُدعى عسكر بن إبراهيم الحموي وكان هذا التاجر جاهلاً بالخط فوضع ياقوت في الكتاب ليتعلم فينتفع به في ضبط أعماله التجارية فقرأ ياقوت النحو واللغة ثم احتاج إليه مولاه فأخذ يشغله بالأسفار في متاجره ولم يمض زمن حتى اعتقه وأقصاه عنه وأخذ ياقوت يكسب رزقه بنسخ الكتب فاستفاد بالمطالعة علماً. (٣)

في هذا الأثناء اتصل ياقوت بالعكبري* وأفاد منه في أخبار الأدب والأدباء والرواة ثم أن مولاه بعد مدة عطف عليه وأعطاه تجارته مرة أخرى وسافر بها إلى الخليج العربي وإلى عمان والشام فأغرم بالرحلة وتعرف على تلك البلاد التي زارها ولما عاد وجد أن مولاه قد مات فتعاطي التجارة لحسابه الخاص وربما أن الرجل قد أوصى له ببعض تجارته وجعل تجارته هذه المرة كتباً. (٤)

وبينما كان يقوم بأعماله التجارية سافر إلى مصر ودمشق وحلب ومرو التي ظل فيها سنتين يلتهم مما في خزائنها من الكتب الكثيرة فقد وجد في هذه المدينة عشر مكتبات عامة وتحتوى إحداها على ألفي مجلد ومن مرو رحل إلى خوارزم

---

(١) ابن سعيد: المصدر السابق، ص ٤٦.

(٢) حاجي خليفة: المصدر السابق، ج ٢،ص ٥٩٥، ابن خلكان، المصدر السابق ٥،ص ١٠٣٦.

(٣) ياقوت: معجم البلدان، ج ١،ص ٦.

* العكبري: أبوالبقاء عبدالله بن أبي عبدالله الحسن بن أبي البقاء والعكبري نسبة إلى عُكبرا وهي بلدة على دجلة فوق بغداد بعشرة فراسخ خرج منها جماعة من العلماء لم يكن في آخر عمره من مثله في الفنون والغالب عليه النحو ومن مؤلفاته. "المقامات الحريرية، وصنف في النحو الحساب وانتفع الناس به كثيراً ، (ابن خلكان، المصدر السابق ، ج ٣،ص ٨٣).

(٤) ياقوت: المصدر السابق، ج ١،ص ٦.

ومكث في خوارزم حتى قام جنكيز خان بغزو هذه المدينة في سنة سبع عشرة وستمائة هجرية فرّ ياقوت تاركاً وراءه كل ما يملك وذهب إلى حلب وعاد بعد سنتين إلى الموصل حيث أنصرف إلى إتمام معجمه الذي فرغ منه في صفر سنة واحد وعشرين وستمائة هجرية ثم زار مصر وعاد إلى حلب فعمل في تنقيح المعجم وتوفى بحلب في سنة ٦٢٦هـ-١٢٢٨م. (١)

كانت الأسفار التي قام بها ياقوت قد يسرت له معرفة المسالك التجارية المطروقة في عهده والمدن والأنهار والمنتجات الزراعية والصناعية للبلاد التي أقام بها وكانت نتيجتها أن خرج للعالم بكتابه القيم "معجم البلدان".

افتتح كتابه بعد حمد الله بقوله "أما بعد فهذا كتاب في أسماء البلدان والجبال والأودية والقيعان والقرى والمحال والأوطان لم أقصد بتأليفه وأصمد نفسي لتصنيعه لهواً ولا لعباً ولا رغبة حدثني إليه ولا رهباً ولا حنيناً استفزني إلى وطن ولكن رأيت التصدي له واجباً والانتداب له مع القدرة عليه فرضاً لازباً وفقني عليه الكتاب العزيز الكريم وهداني إليه النبأ العظيم وهو قوله:﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾(٢).

كان من أول البواعث لجمع هذا الكتاب كما يقول: "أنني سئلت بمرو الشاهجان في سنة خمس عشر وستمائة هجرية في مجلس عن حُباشة اسم موضع جاء في الحديث النبوي وهو سوق من أسواق العرب في الجاهلية فقلت: أرى أنه حُباشة بضم الحاء قياساً على أصل هذه اللفظة في اللغة لأن الحُباشة الجماعة من الناس فانبرى لي رجل من المحدثين وقال: إنما هو حباشة بالفتح. وصمم على ذلك وكابر وجاهر بالعند من غير حجة وناظر" وأخذ ياقوت بعد هذا المجلس يبحث عن الكلمة حتى

(١) ابن خلكان: المصدر السابق، مج ٥،ص ١٠٥.

(٢) سورة الحج الآية ٤٦.

جاء معناها موافقاً لما قاله ياقوت فجاء في باله إنه لابد للعالم من كتاب في هذا الشأن مضبوطاً بألفاظ صحيحة. [١]

قدم المؤلف أمام الغرض من هذا الكتاب خمسة أبواب ليتم فضل الكتاب:

الباب الأول: جعله في ذكر صورة الأرض وحكاية ما قاله المتقدمون في هيئتها والمتأخرون.

الباب الثاني: في وصف اختلافهم في الاصطلاح على معنى الإقليم وكيفيته واشتقاقه.

الباب الثالث: في ذكر ألفاظ يكثر تكرارها ويحتاج إلى معرفتها كالبريد والفرسخ والميل والكورة وغيرها.

الباب الرابع: في حكم الأرضين والبلاد المفتتحة في الإسلام وحكم قسمة الفئ والخراج.

الباب الخامس: في جمل من أخبار البلدان ثم يعود بعد هذه الأبواب إلى الغرض من الكتاب فيقسمه إلى ثمانية وعشرين كتاباً على عدد حروف المعجم. [٢]

كان ياقوت أميناً في نقله فهو ينسب كل شيء أخذه عن الآخرين إلى أصحابه يضاف إلى ذلك أنه يتكلم في المقدمة عن مصادره المكتوبة ويذكر الفضل إلى القدامى مثل بطليموس وغيره كتبوا عن الأرض والأماكن ولكن هذه الأماكن التي كتبوا عنها تغيرت أسماؤها بحيث لم يتمكن هو من التعرف عليها. [٣]

يعتبر كتابه هذا مثال للعمل المنظم وللنتاج الذي يستطيعه رجل صنع نفسه بنفسه وهو إلى ذلك يعطى صورة للعالم الإسلامي قبل أن يهدمه التتار ويعملوا على تحطيم بعد أجزائه بما اشتمل عليه من معلومات دقيقة وقيمة وبما اشتمل عليه من تراجم للمشاهير من الكتاب والعلماء ورجال السياسية والحرب. [٤]

---

(١) ياقوت ، المصدر السابق ج ١، ص ١٠.

(٢) المصدر نفسه ج١ ، ص ٧.

(٣) المصدر نفسه ، ج ١،ص ١١.

(٤) نقولا زيادة: المرجع السابق،ص ٦٥.

يظهر صاحب الكتاب ثقته وافتخاره به فيقول "وعلى ذلك فإنني أقول ولا احتشم وأدعوا إلى النزال كل علم في العلم ولا أنهزم إن كتابي هذا أوحد بابه مؤمر على إضرابه لا يقوم بإبراز مثله إلا من أيد بالتوفيق وركب في طلب فوائده كل طريق فغار تارة وأنجد...وساعده العمر بامتداده وكفايته فظهرت منه أمارات الحرص وحركته".(١)

لياقوت مصنفات أخرى منها كتاباً سماه " إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب" جمع فيه من أخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين والإخباريين والمؤرخين والوراقين المعروفين وله كتاب باسم "المشترك وضعاً والمختلف صقعاً" وله كتاب "المبدأ والمآل في التاريخ"(٢) ولا شك أن الأسفار التي قام بها أكسبته همة عالية في تحصيل المعارف فصنف هذه الكتب وكتب أخرى كثيرة.

---

(١) ياقوت: المصدر السابق، ج ١،ص ١٣.

(٢) ابن خلكان: المصدر السابق، ح ٥،ص ١٠٥.

المبحث الرابع

أثر التجارة في الجانب الثقافي

زخر العصر العباسي الأول والعصر الثاني بالتحديد بالأدباء والعلماء والفلاسفة والكتاب حتى أن أحدهم يتعجب من هذه الكثرة فيقول: "ما رأيت عصراً حفل بالأدباء والعلماء والشعراء كهذا العصر أليس هو عصر المتنبي وابن العميد وابن عباد والخوارزمي وبديع الزمان والتوحيدي والصابي وابن فارس وابن دريد والشريف الرضي وابن حجاج والثعالبي وأبي فراس وكشاجم والفارابي والأصفهاني والجوهري والزوزني والأشعري والعكبري والتهامي وابن يوسف وابن سينا والمعري والغالي والجرجاني والطبري والمسعودي والرازي وابن النديم وابن عبد ربه وابن هاني والببغاء وابن خالويه وابن جني وأبي على الفارسي. (١)

تأثرت العلوم بدرجة كبيرة بالحياة في الدولة العباسية وانعكس ذلك التأثر بصورة واضحة وملموسة على الأدب ففي هذا العصر انتهج الأدباء مناهج جديدة في المعاني والموضوعات والأساليب وذلك لاختلاف صورة الحياة وقيم الأشياء بسبب تطور الحياة المادية وتعدد أعمال الناس وزيادة تجاربهم في العصر العباسي الثاني. (٢)

كان النتاج الأدبي في هذا العصر من نظم ونثر صورة صحيحة للحياة الاجتماعية فإذا أخذنا النظم مثلاً فنجده قد تأثر تأثراً واضحاً بالحياة الاجتماعية التي كان للرقيق أثراً واضحاً فيها فقد ملئ أدب ذلك العصر بوصف الجواري والقيان والغلمان حتى لا نكاد نجد شاعراً إلا وله شعر في هذا الباب فقيل الكثير في وصف

---

(١) ماربون عبود: بديع الزمان الهمداني، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م،ص ١٤.

(٢) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي ...،ج ٤،ص ٥٩٠.

الجواري والمغنيات وسموا النساء البيض "الحسان" وزعيم الشعراء في ذلك النوع من وصف الجواري هو ابن الرومي* الذي يقول في وصف إحداهن وكانت مغنية:

ظبيـــة تســكن القلــوب وترعاهــا * وقمريــــــــة لهــــــا تغريـــــــد

حســنها فــي العيــون حســن جديــد * فلهــا فــي القلــوب حــب جديــد

تتغنـــــى كأنهــــا لا تغنـــــى مــــن * ســـكون الأوصـــال وهـــي تجيـــد

ويقول في وصف أخرى من الأتراك:

فتـــاة مـــن الأتـــراك ترمـــى بأســـهمُ * يصبن الحشا في السلم لا في المعارك

ظللنـــا لهـــا نصـــباً تشــك قلوبنـــا * بـــذاك الشـــجا الفتـــان لا بالنيـــازك

تطـــامن عـــن قـــد الطـــوال قوامهـــا * وأربـــي علـــى قـــد القصـــار الحواتـــك(1)

ويقول فيهن البحتري**:

أمازحهـــا فتغضــــب ثـــم ترضــــي * وفعـــل جمالهـــا حســـن جميـــل

فــــإن تغضـــب فأحســــن ذات دل * وإن ترضـــي فلـــيس لهـــا عـــديل(2)

ويقول في وصف أخرى:

وتمـــيس بـــين مزعفـــر ومعصـــفر * ومعنبـــــر وممســــــك ومصـــــندل

وإذا ســـألت الوصـــل قـــال جمالهـــا * جـــودي وقـــال دلالهـــا لا تفعلـــي(3)

---

* ابن الرومي: هو أبوالحسن على بن العباس بن جريج صاحب النظم العجيب يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها وينزلها في أحسن مرتب لـه القصـائد المطولـة والمقاطيع البديعـة ولـه في الهجاء والمديح (ابن خلكان، المصدر السابق،ج ٣،ص ١١٠).

(١) أحمد أمين: المرجع السابق، ج ١،ص ١٣٨.

** البحتري: هو الوليد بن عبدالله بن شملال الشاعر المشهور كان فاضلاً أديباً مجيداً للشعر وكان أهل عصره يقدمونه على أبي تمام بادي الأمر ويختمون به الشعراء ولد بمنبج من أعمال حلب وبها نشأ وقال الشعر وله تصرف حسن في ضروب الشعر وأجود شعر ما كان في الأوصاف (ياقوت الحموي: معجم الأدباء أو إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب، ج ٢،ص ٢٧٩٦).

(٢) ابن عبد ربه: المصدر السابق،ج ٧،ص ٦١.

(٣) أحمد أمين: المرجع السابق، ج ١،ص ١٥٤.

ولعل جلب التجارة واضح في شعرهم ومصرح به فالزعفران والعنبر والمسك والصندل ما هي الإنتاج حركة تجارية من أقصى الشرق بالتحديد لم يغفلوا من هذه الأشياء الحرير الذي كثرت حمولته على سفن المسلمين التجارية فشاع وصف نعومة النساء به وفي ذلك يقول ابن الرومي:

أبشـــــارهن ومـــــا أدرعـــــن * مـــن الحريـــر معـــاً حريـــراً

وجمـــــالهن ومـــــا لبســـــن * مـــن الحبيـــر* معـــاً حبيـــرا[1]

ولم يكتفوا بوصف الجواري بل تعداه الأمر إلى حب الغلمان ووصفهم ورغم أنها ظاهرة سيئة على المجتمع والشعر إلا أن هذا النوع منه ظهر عند معظم شعراء هذا العصر يكتبونه في تحفظ حيناً وفي استهتار حيناً آخر ومن ذلك ما كتبه الوزير المهلبي** في مملوك تركي جميل قاد جيشاً محارباً بني حمدان:

ظبـــي يـــرق المـــاء فـــي وجناتـــه * ويـــــــروق عـــــــوده

ويكـــاد مـــن شـــبه العـــذاري فيـــه * أن تبـــــــدو نهـــــــوده

نـــــاطوا بمقعـــــد خصـــــره * ســـــيفاً ومنطقـــــة تـــــؤدده

جعلـــــوه قائـــــد عســـــكر * ضـــاع الرعيـــل ومـــن يقـــوده[2]

ويظهر التغير في منهج الشعر والذي ظهر نتيجة لاختلاف صورة الحياة كما ذكرنا أن الشعراء بعد أن كان شعرهم واضحاً في البكاء على الأطلال والإكثار من ذلك أصبح الشعر منصرفاً إلى وصف القصور وأصحابها وما حوت هذه القصور

---

* الحبير: الثوب الموشي المزخرف، (ابن الرومي (على بن العباس) ديوان ابن الرومي، شرح قدري مايو، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٨م) ،ص ٦.

(١) المصدر نفسه،ص ٦.

** الوزير المهلبي: هو أبومحمد الحسن بن محمد بن هارون بن إبراهيم بن عبدالله بن حاتم بن قبيصة المهلبي كان وزيراً لمعز الدولة أبي الحسين أحمد بن بويه والمهلبي غاية في الأدب والمحبة لأهله وقد تميز بارتفاع القدر واتساع الصدر وعلو الهمة وفيض الكف على ما هو مشهور به (ابن خلكان، المصدر السابق، ج ٢،ص ١٠٧).

(٢) المصدر نفسه ، ج ٢،ص ١٠٧.

ومن ذلك وصف الشاعر أمية بن عبدالعزيز الأندلسي* في وصف قصر بمصر يسمى قصر العز:

منـــزل العـــز كاســـمه معنـــاه * لا عـــدا العـــز مـــن بـــه ســـماه

منـــزل ودت المنـــازل فـــي * أعلـــى ذراه لـــو صـــيرت إيـــاه

وكـأن الكـافور والمسـك فـي الطيـب * وفـــي اللـــون صـــبحه ومســـاه

منظـر يبعـث السـرور ومـرأي يـذكر * المـــرء طيـــب عصـــر صـــباه(١)

ويقول ابن الرومي في وصف الأبنية:

جمـــــع الشـــــباب ولهونــــــا * فيــــه الخورنــــق والســــديرا**

مبـــرى المنـــاذرة الـــذي فيـــه * الفواكــــــــه لا البــــــــديرا(٢)

كما وصف أحد شعراء ذلك العصر في ديوانه ابنية للخليفة المعتضد العباسي قائلاً:

حللـــتُ "الثريـــا" جنـــد دار ومنـــزل * فـلا زال معمـور وبـورك مـن قصـر

فلـيس لـه فيمـا بنـي النـاس مشـية * ولا ما بناه الجن في سالف الدهر(٣)

ولم يكتف هؤلاء الشعراء بوصف القصور ومدحها بل مدحوا أصحابها وهم الخلفاء وهذا النوع من المدح كثر في الدولة العباسية وطالت القصائد فيه وربما يكون ذلك راجعاً إلى أن الشعراء وجدوا فيهم سوقاً نافقة لبضاعتهم من الشعر. ومن هذا النوع مدح البحتري للخليفة المتوكل:

عـــــن أي ثغـــــر تبتســـــم؟ * وبـــــأي طـــــرف تحـــــتكم؟

---

* أمية بن عبدالعزيز الأندلسي: مولود بدانية بالأندلس ورحل الإسكندرية أيام الخليفة الفاطمي المستنصر بالله وسجن بمصر مدة ثم عاد إلى المغرب وتوفى سنة تسع ومائتين وخمسمائة هجرية وكان شاعراً وطبيباً (المقري: المصدر السابق، ج ١،ص ٤٩٦-٤٩٧).

(١) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٩٦- ٤٩٧.

** الخورنق: هو قصر النعمان بالحيرة بناه سنمار وقتل والسدير قصر بجانبه والقصران مضرب المثل في الفخامة وترف العيش (ابن الرومي، المصدر السابق ، ص ٨).

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٣) أحمد أمين: المرجع السابق، ج ١،ص ٩٨.

حســــن يضـــى بحســـنه * والحســـن أشـــبه بـــالكرم

قـــل للخليفـــة جعفـــر * المتوكـــل بـــن المعتصـــم

المرتضـــى بـــن المجتبـــي * والمـــنعم ابـــن المنـــتقم

أمـــا الرعيـــة فهـــي مـــن * أمنـــات عـــدلكم فـــي حـــرم(١)

كما مدح المتنبي* كافور الاحشيدي قائلاً:

قواصــد كـــافور تـــوارك غيـــره * ومــن ورد البحــر اســتقل الســواقيا

فجــادت بنــا إنســان عــين زمانــه * وحلــت بياضــاً خلعهــا ومآقيــا(٢)

ووصفوا كل ما هو أنيق وطيب من المأكولات التي شاعت في الدولة في ذلك العصر وجاءت من مختلف البلدان كما سبق الإشارة إليها فمن وصفهم في ما يؤكل من النقل** يقول الصابي***:

النقـــل مـــن فســـتق حـــديث * رطـــب بنـــدي بـــه الجفـــاف

لـــي فيـــه تشـــبيه فيلســـوف * ألفاظـــه عذبـــة طِـــرافُ

زمـــــرد صـــــانه حريـــــر * فـــي حـــق عـــاج لـــه عـــلاق(٣)

وصف ابن الرومي خبيصة قائلاً:

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ، ج ٤،ص ٩١.

* المتنبي: هو أبوالطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبدالصمد الكندي الكوفي هو من أهل الكوفة وقدم إلى الشام في صباه وجال في أقطاره واشتغل بفنون الأدب ومهر فيها وشعره في القمة ولا حاجة إلى توضيحه اعتنى العلماء بديوان المتنبي وشرحوه حتى بلغ أكثر من أربعين شرحاً ما بين مطولات ومختصرات كان المتنبي رجلاً مسعوداً ورزق من شعره السعادة التامة حيث مدح الأمراء مثل سيف الدولة الحمداني، ومدح كافور الاخشيدي وأنوجور ابن الأخشيد (ابن خلكان، المصدر السابق، ج ١،ص ١٣٦-١٣٧).

(٢) ابن تغرى بردى، المصدر السابق، ج ٤،ص ٧.

** النقل: الطين الذي يؤكل بعد الأكل كما سبق التوضيح ولكن تطلق أحياناً على كل ما يؤكل بعده.

*** الصابي: هو هلال بن الحسن بن إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون بن حبون الصابي الحراني، ولد في أسرة نبغت في العلم والأدب والتاريخ والطب وكانت لهم قدم عند الحاكمين أسلم بعد أن تجاوز الأربعين من عمره ناب عن جده في تولى ديوان الإنشاء كما تولى الكتابة لفخر الملك (الصابي: المصدر السابق، مقدمة الكتاب).

(٣) الثعالبي: لباب الأدب، تحقيق أحمد حسن ليج، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٩٧م،ص ٢٠٤.

وخبيصة صفراء دينارية * ثمناً ولوناً زفها لك حذور

عظمت فكادت أن تكون أوزة * وقوت فكاد إهابها يتفطر

ووصف اللوزينج بقوله:

مستكثف الحشو ولكنه * أرق جلداً من نسيم الصبا

كأنما قد حلابيبه * من أعين القطر الذي قببا[1]

وتفنن شعراء ذلك العصر تفنن أصحاب الظرف فيما يصنعون من حلى وأدوات زينة فجاءت كتابتهم مزركشة تومي إلى الحياة المترفة التي كانوا يعيشونها لا سيما الذين كانوا يعملون في الوظائف العليا في الدولة كابن العميد* والصاحب ابن عباد** الذي يقول في الأنس ووصف مجالسه قصائد طوال ومن قوله في إحد هذه القصائد:

رق الزجاج ورقت الخمر * وتشابها فتشاكل الأمر

فكأنما خمر ولا قدح * وكأنما قدح ولا خمر[2]

ظهر التأنق كذلك في النثر وكتبوا ما يسمى بالنثر المسجوع وكان لهذا السجع نغم عذب يحرك النفس ويثير الشوق إلى سماعه وقد ظهر هذا النوع من الأدب في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) في خطب الخلفاء وعمال الأقاليم وتطور بعد ذلك على أيدي كتاب البلاط. [3]

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ، ج ٤،ص ٢٨٨.

* ابن العميد: وهو أبوالفضل محمد بن العميد أبي عبدالله الحسين بن محمد المعروف بلقب ابن العميد والعميد لقب والده لقبه به أهل خراسان للتعظيم وكان ذو فضل وأدب وولده أبوالفضل هذا كان وزيراً لركن الدولة يقول فيه الثعالبي بُدئت الكتابة بعبدالحميدو خُتمت بابن العميد فقد كان موسوعة في الفلسفة والنجوم أما الأدب فلم يقاربه أحد في زمانه وكان يسمى الجاحظ الثاني (ابن خلكان، المصدر السابق، ج ٤،ص ٣٤٦، الثعالبي، المصدر السابق، ص ٢٠٣).

** ابن عباد: هو أبوالقاسم إسماعيل بن أبي عباد بن العباس بن عباد بن أحمد بن إدريس نادرة الدهر وأعجوبة العصر في فضائله ومكارمه وهو أول من لقب بالصاحب من الوزراء لأنه كان يصطحب أباالفضل ابن العميد فقيل له: صاحب ابن العميد (ابن خلكان، المصدر السابق، ج ١،ص ٢٣٠).

(٢) المصدر نفسه، والجزء، ص ٢٣٢.

(٣) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ج ٤،ص ٤٩٥.

وممن برع في هذا المجال الثعالبي* الذي ذخرت مؤلفاته في التأليف والإنشاء ومن ذلك نجده يقول في وصف الشراب:

"مدامة** تورد ريح الورد وتحكى نار إبراهيم في اللون والبدر أرحيق أم حريق أم شقيق أم عقيق... كأس كأنها نور ضميره نار راحُ كالنور والنار أصفي من البلور ومن دمع المهجور أرق من نسيم الصبا وأطيب من عهد الصبا..." وفي وصف العنب يقول: "عنب كأنه مخازن بلور وظروف النور وأوعية السرور أمهات الرحيق في مخازن العقيق..." وفي وصف الموائد" مائدة مثل عروس مائلة لطيفة محفوفة بكل طريقة مائدة كالعروس مجلوة ومن الطيبات مملوءة...". (١)

كان من أثر الطابع لهذا العصر أن التأليف انصرف إلى متطلبات ذلك العصر فقد كان من نتيجة امتلاء الدولة بالرقيق من الجواري والخدم والغلمان أن تعرض العلم لهؤلاء الجواري يؤلف فيهن الكتب فذكروا أجناس العالم وأوصاف الرقيق من كل حسن وما يمتزن به وما يُعاب عليهن وأوصاف الحسن وأوصاف العيوب ودلالة الفراسة على حال الغلام أو الجارية وحيل النخاسين في ستر العيوب وكان من أشهر من كتب في هذا المجال ابن بطلان***. (٢)

ومن أجمل الأوصاف في كتب الأدب للجواري قولهم: "روضة الحسن وصورة الشمس وبدر الأرض كأنها فلقة قمر على برج فضة قد أثمر خدها التفاح وصدرها الرمان لها عنق كإبريق لجين وسره كمدهن العاج هي من وجهها في نهار شامس

---

* الثعالبي: أبومنصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري، جامع لاشتات النثر والنظم وهو رأس المؤلفين في زمانه عرفت دواوينه في المشرق والمغرب وله من التواليف "يتمة الدهر في مجالس أهل العصر" وهي أكبر كتبه وأحسنها وأجملها وله كتاب "فقه اللغة" "ومؤنس الوحيد" وشيء كثير جمع فيها أشعار الناس ورسائلهم وأخبارهم وأحوالهم وفيها دلالة على كثرة إطلاعه (ابن خلكان، المصدر السابق، ج ٣،ص ١٥١-١٥٣).

** المدامة: الخمر (الثعالبي، المصدر السابق، ص ٩٢).

(١) المصدر نفسه، ص ٩٢-٩٤.

*** ابن بطلان: هو أبوالحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان نصراني من أهل بغداد وكان قد اشتغل على أبي الفرج عبدالله بن الطيب وتتلمذ له وأتقن عليه قراءة كثير من كتب الحكمة ولابن بطلان كتب كثيرة منها "شراء العبيد والجواري" "تقويم الصحة" "مقالة في شرب الدواء المسهل" "مقالة في كيفية دخول الغذاء في البدن" (ابن أبي أصيبعة المصدر السابق، ص ٣٢٥-٣٢٨).

(٢) أحمد أمين: المرجع السابق، ج ٢،ص ١٣٦.

ومن شعرها في ليل دامس مطلع الشمس من وجهها ومنبت الدر في ثغرها وملقط الورد في خدها. [1]

(١) الثعالبي: المصدر السابق، ص ٩٠.

الخاتمة والنتائج والتوصيات

الخاتمة

الطرق التجارية هي الشريان الحيوي للتجارة العالمية التي ربطت بين الشرق والغرب وقد تعددت هذه الطرق ما بين برية وبحرية ورئيسة وفرعية ، وقد كان من أقدم هذه الطرق الطريق الذي عرف (بطريق الحرير) البري والذي يعتبر بداية الاتصال بين الصين والهند ومختلف البلدان الآسيوية والأوربية وقد شهد تدفقاً للسلع المتبادلة بين تلك البلاد واستمر يؤدي نشاطاً كبيراً دون منافسة بينه وبين الطرق البحرية والبرية إلا في الحالات التي تشهد فيها بلاد الشرق الأقصى أو الأدنى تطورات سياسية ، كما كان هناك طريق بري آخر ذو أهمية كبرى وهو الطريق الذي يربط الأندلس بحاضرة الخلافة العباسية وبالصين.

قامت الطرق البحرية بدور كبير في التجارة خاصة وأنها كانت تقلل النفقات في الطريق فكان من أهمها طريق الصين الهند الخليج العربي والطريق البحري من الشرق الأقصى إلى البحر الأحمر والذي كان ذو أهمية كبرى بالرغم من الصعوبات الطبيعية التي تعترضه مثل الشعب المرجانية والرياح المعاكسة.

إن كلاً من الطرق البرية والبحرية تأثرت بدرجة كبيرة بالأحداث السياسية في الدولة الإسلامية فمثلاً طريق الحرير البري توقفت حركة التجارة في مدنه بسبب اشتداد الصراع بين العثمانيين والتركمان على البحر الأسود ثم الصفويين والمماليك كما تعرض طريق الأندلس البري لتقلبات السياسة في شمال أفريقيا وفقد طريق الصين – الهند – الخليج العربي أهميته بسبب الحروب بين الصفويين والعثمانيين في العراق في الوقت الذي شهد فيه طريق الصين – الهند – البحر الأحمر ازدهاراً كبيراً بسبب اشتداد هجمة المغول على الشرق الأوسط في القرن السابع الهجري مما تسبب في قطع طريق الحرير البري بطريق الصين الهند – الخليج العربي .

لاشك أن هذه الطرق ربطت بين القارات آسيا وأوربا وأفريقيا مما مكن لقيام روابط وعلاقات تجارية بين الدول المختلفة ، ومن ذلك العلاقات التي ربطت الدولة العباسية بالعالم الخارجي متمثلاً في مناطق متعددة .

فإذا تناولنا جزيرة العرب ، نجد أن تجارة الدولة العباسية معها كانت بصورة واضحة مع اليمن التي كانت مركز التجارة الهندية ، التي كثر الإقبال عليها في تلك

الفترة بسبب الترف الذي عم الدولة العباسية مما زاد الصلات بينها وبين العراق ومصر والشام وبالإضافة لليمن كان التبادل التجاري كبيراً مع منطقة الحجاز بحكم الموقع الجغرافي والحج.

والصلات التجارية مع شرق إفريقيا قديمة ومتسعة فقد كان تجار العراق يذهبون إلى سواحل شرق إفريقيا حتى سوفالا يبحثون عن الذهب والعاج وكذلك مصر فقد اتصلت بسواحل شرق إفريقيا حتى الشاطئ الصومالي طلباً لنفس التجارات وكان لطريق البحر الأحمر دور كبير في مثل هذه القارة حيث كانت تصل مراكب الأحباش إلى عيذاب محملة بالبضائع من الحبشة وزنجبار. أما عن غرب إفريقيا فقد كانت تجارتها مع المغرب على وجه الخصوص حيث كانت القوافل تتحرك من المراكز التجارية في المغرب بالبضائع المغربية مثل الملح والنحاس والبضائع القادمة إلى المغرب من أوروبا والبلاد العربية سالكة عدة طرق عبر الصحراء لجلب سلع هامة توفرت بكميات كبيرة في السودان الغربي مثل الذهب والرقيق الذي يباع في الهند والجزيرة العربية والعراق.

نشطت التجارة بصورة واسعة مع أوروبا متمثلاً ذلك في عدة مناطق في أوروبا فالتجارة مع شمال شرق أوروبا لعب فيها التجار الروس دوراً كبيراً فقد كانوا يحملون التجارة من بلاد الروس إلى الدول الإسلامية ودول الشرق الأقصى وكان من أهم سلعها الرقيق الأبيض وجلود الخز والثعالب والسيوف والفراء والسمور. كما لعب تجار اليهود دوراً كبيراً في هذا النوع من التجارة، أما التجارة مع المدن الإيطالية مثل أمالفي وجنوة وبيزة والبندقية فقد نشطت بعد الحروب الصليبية التي كان لها أثر كبير في تحريك القوى البحرية التجارية الإيطالية لتقديم المساعدات للصليبيين مقابل ما حصلت عليه من امتيازات واسعة في موانئ مدن الشام ومصر فأصبح تجار تلك المدن يأتون بالسلع النادرة والغالية مثل المنسوجات الحريرية والأخشاب يبادلونها بسلع الهند الواردة إلى مصر وقد استمرت هذه العلاقة حتى نهاية عصر المماليك. كما كان للمدن الإيطالية روابط تجارية واسعة مع المغرب وشمال أفريقيا لعب فيها تجار المغرب دور الوسيط لتجارة الذهب مع أوروبا.

امتد نشاط الدولة العباسية إلى الشرق الأقصى حيث سلكت قوافلها الطرق البرية والبحرية حتى الصين لجلب منتجاتها الغالية والثمينة مثل المسك والدارصيني والأحجار الكريمة. وقد كانت التجارة مع الصين ناجحة ومتميزة ولم تنقطع الصلات مع الصين حتى بعد التغيرات السياسية والاقتصادية التي أعقبت التغيير في المشرق الإسلامي وزاد من قوة التجارة مع الصين المعاملة الطيبة التي يجدها التجار من ملوك الصين زيادة على أن الصين كانت آمنة. كما نشطت التجارة مع الهند بطريق الخليج العربي مع العراق وبطريق البحر الأحمر مع مصر.

شجع خلفاء العصر العباسي الأول التجارة وذلك بإنشاء المدن كمدينة بغداد التي بناها أبوجعفر المنصور وحرص على أن يكون موقعها متميزاً بين نهري دجلة والفرات بحيث يسهل معه الحصول على التجارات من كافة البلاد مما جعلها المركز التجاري العظيم للدولة العباسية. كما عملوا على حفر الأنهار خاصة في عهد أبي جعفر والمهدي وهارون الرشيد وبقية الخلفاء وأقيمت الجسور بين الأنهار المحفورة من نهري دجلة والفرات مما كان له دوراً عظيماً فيما وصلت إليه المدينة.

وتظهر عناية خلفاء العصر العباسي بالتجارة وحرصهم على تبادل السلع في اهتمامهم بإقامة الأسواق وعدم مطالبتهم للتجار بدفع المكوس داخل المملكة فلا عجب أن نعمت التجارة وبغداد في عهد خلفاء بني العباس بالأمن والطمأنينة فكان نتيجة ذلك ازدياد حجم النشاط التجاري في حاضرة الخلافة فانعكس ذلك على أهل بغداد الذين امتلكوا الأموال الطائلة وعلى العمارة التي وصلت إليها القصور التي بنيت على هندسة الفرس والروم والحمامات التي أبدع الرحالون في وصفها والمساجد والمدارس والبيمارستانات لم يكتف الخلفاء العباسيون بالعناية بالمدن التي أنشأوها بل أولوا عناية بالمدن القائمة كالبصرة التي كانت مخرج تجارة العراق فحفروا الأنهار التي تضاعف عددها في العصر العباسي الثاني وذلك بغرض استصلاح الأراضي الزراعية ووفرة المحاصيل التي جعلتها مركزاً تجارياً عظيماً لتجارة المواد الغذائية وبفضل التطور الذي بلغته البصرة في العصر العباسي الثاني امتدت المدينة امتداداً واسعاً وعامراً بالمباني الفخمة.

لم يكن ظهور المدن التجارية التي ازدهرت حتى أصبحت مرا كزا مهمة خاصة بإقليم العراق بل قامت مراكز تجارية أخرى في إقاليم الدولة المختلفة ففي مصر برزت الفسطاط كأهم مراكز مصر ومستودعاً للتجارة الداخلية ومركزاً للتجارة الخارجية وذلك لموقعها على النيل الذي يربطها بالبحر الأبيض المتوسط ولطرقها البرية المتعددة التي تربطها بموانئ البحر الأحمر فكانت بذلك ثغراً تجارياً عظيم الأهمية.

وهناك مدينة دمشق الواقعة على طريق القوافل التجارية الآتية من آسيا الصغرى ومن أقاليم الفرات فضلاً عن موقعها على طريق الحجاج. زيادة على توفر الأنهار كل ذلك جعل من المدينة أهمية تجارية خاصة للتجارة بين الشرق والغرب فكثرت أموالها وتكاملت عمارتها.

حُظي غرب المملكة الإسلامية بنشاط تجاري واسع فإنعكس ذلك على المدن التي أصبحت مراكز تجارية عظمى مثل مدينة القيروان التي تميزت عن بقية المدن في تلك المناطق لموقعها الجغرافي المتوسط ولكثرة مراسيها وموانيها المنتشرة على شاطئ البحر مثل سوسة وبجاية مما ساعد. أمراء البلاد على أن يحتكروا الوساطة التجارية بالنسبة للتجارة العالمية بين الشرق والغرب وأن يقيموا علاقات تجارية مع بلاد السودان الغربي، فجنوا أموالاً طائلة من هذه التجارة انعكس على عمارتها الدينية والتجارية والاجتماعية والمدنية المتمثلة في بناء المدن كمدينة العباسية ورقادة والمنصورية.

ازدهرت التجارة في الموانئ المطلة، على البحر الأحمر ولعبت تلك الموانئ دوراً فعالاً في تاريخ التجارة العالمية في تلك الفترة ولكن أهمية تلك الموانئ تزداد وتقل لتحول النشاط التجاري عبر البحار نتيجة للظروف السياسية فالقلزم ميناء مصر الرئيسي على البحر الأحمر والذي يقوم بعملية الوصل بين مصر والشام من جهة والحجاز من جهة أخرى قلت أهميته عندما تحول النشاط التجاري عبر البحر الأحمر إلى الخليج العربي بسبب انتهاء عهد الأمويين وقيام الخلافة العباسية وظلت القلزم على ذلك الحال حتى حلت السويس محلها. كما شهد ميناء عيذاب– الذي يعتبر قاعدة بحرية تجارية هامة لتجارة المرور من الشرق الأقصى إلى أوروبا على

ساحل البحر الأحمر غرباً – ازدهاراً كبيراً بسبب الأحداث السياسية في الدولة الإسلامية فقد قامت ثورتي الزنج والقرامطة في جنوب العراق والبحرين وقد أثرتا على حركة التجارة في الخليج العربي مما جعل سفن الهند والصين تترك الخليج وتعود للرسو في ميناء عدن ومن ثم تنقل السلع إلى جدة وعيذاب واستمر ازدهار الميناء بسبب حوادث الحروب الصليبية. كما أن ميناء عدن عند مدخل البحر الجنوبي حيث كانت مراكب الهند والحجاز ومصر والحبشة تمر به للحط والإقلاع نجده في نهاية القرن التاسع الهجري قد استهدف من قبل الدولة المملوكية التي عملت على تحويل المركز التجاري منه إلى جدة.

كما كان للبحر الأبيض المتوسط دوراً عظيماً ومتميزاً في التجارة العالمية لقد زاد من أهمية الدور الذي قام به سكان شمال أفريقيا كوسطاء في نقل التجارة بين الشرق والغرب وقد قامت موانيه المتعددة بدور هام في نقل هذه البضائع فميناء الإسكندرية مثلاً يعتبر أهم مركز لتجارة البهار بالنسبة لدول أوروبا وميناء الفرما يعتبر أهم محطات تجار اليهود الذين سيطروا على التجارة في ذلك الوقت والمهدية التي كانت مرسى لسفن الإسكندرية والشام وصلقية والأندلس وطرابلس التي كانت محط السفن من بلاد الروم والمغرب. وقد انعكس الازدهار التجاري في جميع موانئ البحر الأبيض على حال أهلها ويسارهم.

قام الخليج العربي بدور كبير في تجارة الدولة العباسية التي اتجهت نحو الشرق وبعدت عن مركز الثقل التجاري الذي كان موجوداً في عهد الأمويين في البحر الأحمر وأصبحت سفن التجارة القادمة من الشرق الأقصى ترسو في موانيه التي قامت بدورها بتوزيع البضائع إلى المدن الداخلية حتى شرق القارة الأفريقية وعليه قامت الأبلة بدور كبير في نقل البضائع حتى نهاية القرن التاسع الهجري حيث تحولت بعد ذلك التجارة إلى موانئ البحر الأحمر مرة أخرى وكذلك عمان وسيراف التي اشتهر أهلها بالغنى والثروة.

لقد كان رواج التجارة العالمية وإقبالها على أسواق الدولة العباسية وكثرة البضائع على المراكز التجارية في الدولة معناه ارتفاع حصيلة الجباية والمكوس حيث كانت الضرائب تجبى على البضائع المنقولة من منطقة إلى أخرى براً وبحراً

وأنشئت دوراً خاصة للمكوس في أماكن مختلفة على ضفاف الأنهار وكانت هذه المكوس ثقيلة في بعض أقاليم الدولة العباسية مثل مصر والعراق وخفيفة في بقية أقاليمها مثل الشام والمغرب والأندلس.

كان ازدهار المراكز التجارية في الدولة الإسلامية من شأنه أن يؤدي إلى ازدهار الأسواق باعتبارها آخر مكان تستقر فيه البضائع الآتية من تلك المراكز عبر الطرق المختلفة وهي مركز التجارة الداخلية وعليه فقد قامت في أقاليم الدولة العباسية العديد من أسواق المدن الداخلية، ففي إقليم العراق نجد أسواق بغداد التي كانت جامعة لأصناف التجارات ولأخلاط التجار وكذلك أسواق مدينة البصرة والتي من أهمها سوق المربد العتيق وأسواق الصرافين وأسواق الموصل التي كانت حافلة بالبضائع المتنوعة كما عرفت الكوفة الأسواق.

والمدن المصرية كانت غنية بأسواقها كأسواق الفسطاط التي تتميز بكثرة بضائعها ورخص أسعارها وكذلك أسواق القاهرة والتي كانت أعظمها سوق القصبة كما اشتملت بلاد الشام على أسواق دمشق وحلب وحماة وحمص وبالمغرب نجد أسواق مدينة فأس وتونس وبرقة وذات الحمام وأجدابيا ومن أسواق الأندلس أسواق قرطبة وطليلطة وجميع هذه الأسواق في مدن الدولة العباسية كانت موضع أعجاب الرحالة الذين زاروها في تلك الفترة فوصوفها وصفاً رائعاً .

إن تنوع الأسواق في المدن يعكس حجم التبادل التجاري في تلك الفترة فقد كثرت السلع كثرة يصعب حصرها في هذا المكان ولكن أهم ما يميز تلك السلع أن المواد الكمالية والغالية الثمن وردت من الشرق الأقصى مثل التوابل بأنواعها والمسك والعود الهندي والأبنوس والأحجار الكريمة كما ورد الرقيق والعاج والذهب إلى أسواق الدولة العباسية من شرق وغرب أفريقيا والمنسوجات من أوروبا. أما السلع التي تبادلتها أقاليم الدولة العباسية مع بعضها البعض فهي من نوع السلع الضرورية في معظمها كالمواد الغذائية من زيوت وسكر وحبوب وغلات وفواكه كما تبادلت الأقمشة الكتانية والصوفية والقطنية والمنسوجات المزركشة مع بعضها كل بلد حسب حاجته إلى السلع المعينة.

لاشك أن النشاط التجاري الذي عم الأسواق التجارية في الدولة العباسية يقتضى وجود أساليب حديثة في مسألة التعامل المالي في تلك الأسواق فان من أهم الوسائل في ذلك الوقت النقود من دراهم فضية ودنانير ذهبية وقد استعملت الدراهم الفضية في البلاد الشرقية وبلاد فارس والعراق وشاع استعمال الدنانير الذهبية في الشام ومصر واستعملت الأثنان معاً في المغرب والأندلس كما كان من وسائل التعامل المالي الصكوك التي استعملت كوسيلة لدفع المال وسنداً للدين واستعملت السفاتج لكثرة الأعمال التجارية مما نتج عنه خطورة في نقل الأموال الكثيرة من مكان لآخر.

ولأهمية الدور الذي يؤديه السوق في حياة الناس الاقتصادية والمادية اقتضت الضرورة أن تكون هنالك مراقبة للأسواق فأوكل للمحتسب مهمة مراقبة الأسواق ضمن أعماله ليراقب الأسعار والموازين والمكاييل والنقود.

أسهمت التجارة بدور كبير في نشر الإسلام في مناطق عديدة من العالم مثل أفريقيا التي كانت ترتبط مع الدولة العباسية بعلاقات تجارية واسعة منذ القدم شملت هذه العلاقات الجزء الشرقي والغربي منها وكذلك مناطق الشرق الأقصى فقد أدت تلك الصلات إلى أن يستقر جزء كبير من التجار المسلمين في تلك المناطق مما نتج عنه نشر الإسلام وقد كان للصفات الجميلة التي تميز بها المسلمون من صدق في التعامل التجاري وبما تمتعوا به من صحة جيدة ونظافة وملابس فخمة أثر بعيد في جذب هذه الشعوب إلى الدين الإسلامي زيادة على ما تميزوا به من دبلوماسية وحنكة في استقلال نقاط ضعف السكان الذين كانوا بمناطق الشرق الأقصى دون إذلال لكرامتهم. وقد كان الإسلام الذي أسهم فيه التجار بنصيب وافر أثر كبير في نشر اللغة العربية التي أصبحت لغة العبادة والتجارة والحضارة.

إن الحالة الاقتصادية التي كانت عليها الأمة إبان العصر العباسي الثاني ذات أثر واضح انعكس على مظاهر الحياة الاجتماعية وقد ظهر ذلك بصورة واضحة في قصور الخلفاء والأمراء وبيوت الأغنياء. فقد لعب التجار دوراً هاماً في الذي وصل إليه البناء من الروعة وذلك بما شاهدوه خلال رحلاتهم فكانت قصور الخلفاء أشبه

بمدن كبيرة لاتساعها تشتمل على بساتين جلبت إليها الأشجار من مختلف أنحاء العالم حتى الهند البعيدة وجعل مع هذه الأشجار الطيور المجلوبة أيضاً.

كما زود التجار تلك القصور بالسلع الثمينة والمجوهرات والرياش الفاخر فالتجار إن وقع في أيديهم شيء ثمين لا يجدوا له نفاقاً إلا في هذه القصور. ولذلك حفلت القصور بالسجاد الفاخر الثمين والناعم والستائر الحريرية المزركشة والأثاثات المطعمة بالصدف والعاج المستورد من غرب إفريقيا والشرق الأقصى.

ولم يكن بناء القصور وتزويدها بأفخم الفرش والأثاث خاصاً بحاضرة الخلافة بل شمل جميع أقاليم الدولة ففي الشام بنى الحمدانيون القصور ذات القباب والأعمدة وزودوها بمستلزمات الحضارة وفي مصر تقلبت الحياة بين ألوان من البذخ وخزائن الفاطميين خير دليل على ذلك. وحتى بلاد المغرب والأندلس التي كانت بمنأى عن حاضرة الخلافة لم تخل من القصور التي امتلأت بمجلوبات التجارة الثمينة والباهظة.

ظهر التغيير واضحاً في الطعام أيضاً فبعد أن كان طعام العرب قاصراً على الألبان والتمر واللحوم تغير ذلك بسبب اختلاطهم بالفرس والشعوب الأخرى عن طريق الأسواق التجارية التي كانت مراكز البيع والشراء فشهدت منطقة العراق ألواناً من الأطعمة المتباينة التي كانت تعج بها موائد الخلفاء والوزراء والأثرياء. وكذلك عرفت مصر التفنن في الطعام فكانت مطابخ الطولونيون والاخشديين والفاطميين مليئة بالأطعمة المشهية وقد اعتادوا إقامة المآدب في شهر رمضان في عصر الفاطميين. وذلك الحال بالنسبة لبلاد المغرب حيث ظهر التأثير الفارسي في أطعمتهم وتنوعت في الأندلس.

كان من الطبيعي أن تنتقل عدوى الترف والبذخ من المطعم إلى الملبس فتخلى الناس عن الثياب الصوفية والأقبية والعمائم التقليدية وأقبلوا على التأنق في اللبس وقد كان العامل الأساسي لذلك ازدهار صناعة النسيج في البلاد الإسلامية حيث قامت دور الطراز في كلاً من مدن مصر وفي بغداد والأندلس وبلاد الشام. هذا غير الملابس التي كانت تجلب من أوروبا والهند ويتوفر هذه المنسوجات وتنوعها أخذ التجار ينقلونها من مكان لآخر. وقد لعب اليهود دوراً كبيراً في تجارة الحرير والخز.

وبذلك أخذ الناس في انتقاء الملابس الفاخرة بكل أنواعها من ديباج وحرير وموشي ومذهب ومزركش.

استكملت مقومات الحياة الاجتماعية المترفة في تلك الفترة بما جلبته التجارة من الرقيق بأنواعه الأبيض منه والأسود الإناث منه والذكور. قد كثر الرقيق في الدولة الإسلامية بصورة تدعو للعجب قد امتلأت به قصور الخلفاء والأمراء ومنازل الأثرياء واستخدموا في شتى المجالات فقد كان من نوع الإناث الجواري المغنيات ومنهن من يقمن بالخدمة في القصور والمنازل. أما الذكور منهم فقد استخدموا في الأعمال الصناعية والتجارية وفي خدمة الخلفاء والأمراء.

كان لتعبيد الطرق وتأمينها من اللصوص وقطاع الطرق أثر كبير في تسهيل الأسفار فشجعت بذلك الرحالة والجغرافيين على رحلات طويلة ومهمة فوصفوا البلاد التي شاهدوها وصفاً دقيقاً مبنياً على المشاهدة وتقصي الحقائق فكان حصيلة ذلك كتباً ذات قيمة تتضمن الكثير من المعلومات عن البلدان والأقاليم والشعوب. ومما زاد الأمر أهمية أن مجموعة كبيرة من التجار ومستخدميهم تولى مهمة جمع المعلومات مثل المقدسي وابن حوقل وياقوت فأصبحوا من الجغرافيين البارزين.

معلوم أن العصر العباسي عصر ازدهرت فيه الثقافة نتيجة لانتشار مراكزها ومعاهدها في جميع أقاليم الدولة. فذخر بلاط العصر العباسي بمجموعة من العلماء والأدباء وتأثرت العلوم بالحياة في الدولة العباسية وانعكس ذلك على الأدب الذي انتهج فيه الأدباء مناهج جديدة في المعاني والموضوعات والأساليب وذلك لاختلاف صورة الحياة بسبب التطور المادي فكثر وصف الجواري والقصور والمأكولات في نثرهم وشعرهم.

النتائج

١- كانت الطرق التجارية هي الشريان الحيوي للعلاقات التجارية بين الأمم منذ أقدم العصور فقد أوجدت اتصالاً بين الشرق والغرب بصورة مستمرة فالطرق التي سلكتها القوافل التجارية محملة بالبضائع من مختلف الجهات لم تلبث أن صارت أهم وسائل الاتصال بين القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوروبا فهناك طرق لم تنقطع القوافل عن سلوكها منذ آلاف السنين بينما فتحت طرق جديدة منها.

٢- اعتمدت الدولة العباسية في تجارتها مع دول العالم الخارجي على السلع النادرة والثمينة والباهظة التكاليف لبعد المسافات وتعرض التجارة لمخاطر الطريق فاستوردت من الصين والهند التوابل والعطور والأحجار الكريمة والحديد والفيلة وغيرها من السلع التي لا تتوفر في أقاليم الدولة كما ورد إلى الدولة العباسية من شرق وغرب إفريقيا الذهب والعاج والرقيق وهي سلع لا يمكن الحصول عليها من أقاليمها.

٣- شجع خلفاء العصر العباسي التجارة بصورة مباشرة وذلك بتأمين الطرق من اللصوص وحرصهم على تسيير القوافل وبإنشاء المدن التي أصبحت مراكز تجارية كبرى وبحفر الأنهار والقنوات التي تسهل التجارة وبإقامة الأسواق، كما شجعوا التجارة بطريقة غير مباشرة بزيادة الطلب على البضائع الأجنبية فالترف الذي ساد الحياة في الدولة العباسية جعلها في حاجة إلى أدواته من فرش وبسط وستائر وحرير وأواني زجاجية وذهبية وفضية.

٤- عادت تجارة الدولة العباسية مع الساحل الشرقي لأفريقيا لسكان الساحل الشرقي بالخير الكثير فعاشوا عيشة بذخ وترف في مدن تجارية عظيمة الثراء مثل مدينة مقديشو على ساحل بحر الهند وكلوة وممباسا التي كانت ترسو بها السفن الكبيرة.

٥- لم تتوقف التجارة بين المسلمين والمسيحيين في أوروبا رغم العداء والصراع الذي استمر أكثر من قرنين من الزمان فقد ظلت التجارة قائمة بين الجانبين وليس أدل على ذلك من النشاط التجاري الذي كان بين المدن الإيطالية مثل بيزا وجنوة والبندقية وبين الدولة الفاطمية في مصر والشام.

٦- ازدهرت التجارة في موانئ البحر الأحمر والبحر الأبيض والخليج العربي وقامت تلك الموانئ بدور كبير في تاريخ التجارة العالمية ولكن أهمية تلك الموانئ كانت تزداد وتقل تبعاً لتحول النشاط التجاري عبر البحار نتيجة الظروف السياسية.

٧- قامت التجارة بدور كبير في نشر الإسلام في مناطق العالم في شرق وغرب أفريقيا وفي مناطق الشرق الأقصى وفي منطقة التركستان الصينية حيث استقر جماعة من التجار في تلك المناطق وتزاوجوا مع السكان الأصليين مما نتج عنه دخول مجموعات كبيرة في الإسلام حباً في الدين الإسلامي الذي ظهر واضحاً في سلوك هؤلاء التجار.

التوصيات

١- إن حضارتنا الإسلامية هي أزهي الحضارات وسيدة كل الحضارات السابقة منها والحديثة، خلفت لنا آثاراً عظيمة ومنشآت دينية واجتماعية واقتصادية ومدنية. فينبغي على المسلمين الحفاظ على تاريخ هذه المنشات وتاريخ الحضارة الإسلامية عامة من خطر المستشرقين ومستهدفي التاريخ الإسلامي والدفاع عنها إذا لزم الأمر.

٢- على التجار أن يلتزموا في معاملاتهم التجارية ضوابط التجارة التي نصت عليها آيات القرآن الكريم وأكدتها أحاديث السنة النبوية من صدق وأمانة وضبط للموازين وتجنب الممارسات المحرمة في التجارة مثل الربا واستغلال حاجة المتبادلين والمشترين. والإضرار بكل من المنتج والمستهلك بإتباع أساليب الخداع والترويج.

٣- للأمن دور كبير في النشاط التجاري فواجب حكام المسلمين في جميع البلاد الإسلامية العمل على توفيره والضرب على أيدي اللصوص وقطاع الطرق ومدبري الفتن والحروب حتى تنعم البلاد بالاستقرار والرخاء الاقتصادي.

٤- لا زالت التجارة تقوم بدورها الطليعي في نشر الإسلام ، فعلى المسلمين تطوير وسائلها ووسائطها وربطها بالدعوة الإسلامية باستغلال التقدم التكنولوجي والعلمي الحديث.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

١- القرآن الكريم.

- ابن ماجة (الحافظ أبوعبدالله ، محمد بن يزيد القزويني) ت ٢٧٥هـ- ٨٨٨هـ .

٢- السنن، ج ١، حققه محمد فؤاد عبدالباقي (بدون) .

- مسلم (ابن الحجاج بن مسلم ، ت ٦١هـ)

٣- صحيح مسلم بشرح النووي ج ٧ ، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٧م.

ثانياً : المصادر العربية :

- الأبشهي (شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور) ت ٥٨٠هـ- ١٤٤٦م.

١- المستطرف في كل فن مستظرف، ج ٢، القاهرة، ١٢٧٩هـ.

- ابن الاثير (عزالدين أبوالحسن علي بن محمد الجزري) ت ٦٣٠هـ- ١٢٣٢م.

٢- أسد الغابة في معرفة الصحابة، مج ٥، تحقيق محمود إبراهيم البنا، محمد أحمد عاشور، دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٠م.

٣- الكامل في التاريخ، مج ٧، مج ٨، مج ٩، مج ١٠، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥م.

- الإدريسي (أبوعبدالله محمد بن عبدالله بن إدريس الحمودي الحسيني) ت ٦٤٩هـ- ١٢٥١م.

٤- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج ١، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٤م.

- ابن الإخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشي) ت ٧٢٩هـ-١٣٢٨م.

٥- معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق محمد محمود شعبان، صديق أحمد عيسى، الهيئة العامة للكتاب، مصر، ١٩٧٦م.

- الاصطخري (إبراهيم بن محمد الفارسي) ت ٣٤٦هـ- ٩٥٧م.

٦- المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبدالعال، محمد شفيق، دار العلم، الجمهورية العربية المتحدة، ١٩٦١م.

- ابن بطوطة (شمس الدين محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي) ت ٧٧٩هـ - ١٣٧٧م- ١٣٧٨م.

٧- تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، مج ١، مج ٢، مج ٣، مج ٤، حققه عبدالهادي التازي، أكاديمية المغرب، ردمك، ١٩٧٢م.

- البغدادي (الحافظ بن بكر بن أحمد بن على الخطيب) ت ٤٦٣هـ- ١٠٧٠م.

٨٠- تاريخ بغداد ، ج ١، تحقيق مصطفى عبدالقادر ، (بدون د) بيروت،١٩٩٧م .

- البكري (أبوعبيدالله الأندلسي) ت ٤٨٧هـ - ١٠٩٧م .

٩- المسالك والممالك، حققه أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، ١٩٩١م.

١٠- المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، مكتبة المثني، بغداد، ١٨٥٧م.

- البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) ت ٢٧٩هـ- ٨٩٢م.

١١- فتوح البلدان، حققه عبدالله أنيس وعمر أنيس الطباع، دار النشر، بيروت، ١٩٥٧م.

- ابن تغري بردي (جمال الدين يوسف) ت ٨٧٤هـ- ١٤٦٩م.

١٢- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢، ج ٣، ج ٤، ج ٥، دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٩٣٢م.

- التنوخي (أبوعلى المحسن بن على بن محمد بن أبي الفهم) ت منتصف القرن ٤هـ- ١٠م.

١٣- الفرج بعد الشدة: وضع حواشيه خليل عمران، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.

- التوحيدي (أبوحيان) ت ٣٨٧هـ- ٩٩٧م.

١٤- الأمتاع والمؤانسة ، ج ٢، تحقيق أحمد أمين، أحمد الزين، مكتبة الحياة، بيروت، بدون ت.

- ابن تيمية (شيخ الإسلام تقي الدين أحمد) ت ٧٢٨هـ- ١٣٢٧م.

١٥-الحسبة في الإسلام نشرها قصى محب الدين الخطيب، دار المكتبة السلفية، ١٤٠٠هـ.

- الثعالبي (ابومنصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل) ت ٤٢٩هـ- ١٠٣٧م.
١٦- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، ١٩٦٥م.
١٧- لباب الأدب، تحقيق أحمد حسن ليج، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.
- الجاحظ (أبوعثمان عمرو بن بحر) ت ٢٥٥هـ- ٨٦٨م.
١٨- البخلاء، دمشق، ١٩٣٨م.
١٩- التاج في أخلاق الملوك ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٥٥م .
- ابن جبير (محمد بن أحمد) ت ٦١٤هـ- ١٢١٧م.
٢٠- رحلة ابن جبير، دار الأنصار، بيروت، ١٩٦٤م.
- الجهشياري (محمد بن عبدوس) ت ٣٣١هـ- ٩٤٢م.
٢١- الوزراء والكتاب، حققه مصطفى السقا وآخرون، مطبعة البابي، القاهرة، ١٩٣٨م.
- ابن الجوزي (حمال الدين ابوالفرج عبدالرحمن) ت ٥٩٧هـ- ١٢٠٠م.
٢٢- مناقب بغداد، تقديم وتحقيق محمد زينهم، محمد عزب، دار غريب، القاهرة، ١٩٩٧م.
٢٣- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم دراسة وتحقيق محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٩٥.
- الجوهري (إسماعيل بن حماد) ت ٣٩٣هـ- ١٠٠٢م
٢٤- مختار الصحاح، ج٣، تحقق أميل بديع يعقوب، محمد نبيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.
- حاجي خليفة (مصطفى كاتب حلبي) ت ١٠٦٧هـ- ١٦٥٧م.
٢٥- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، ج ٢، ج ٥، دار الفكر، بيروت، ٢٠١٠م.
- ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أبوالفضل أحمد بن على بن محمد) ت ٨٥٢هـ- ١٤٤٨م.

٢٦- هدى الساري مقدمة شرح البخاري أخرجه وصححه محب الدين الخطيب، دار المعرفة ، بيروت، (بدون ت).

- الحميري (محمد عبدالمنعم) ت ٩٠٠هت- ١٤٩٤م.

٢٧-الروض المعطار في خبر الأقطار، حققه إحسان عباس، بيروت، ١٩٨٤م.

- ابن حوقل (أبوالقاسم النصيبي) ت ٣٦٧هـ- ٩٧٨م.

٢٨- صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت (بدون ت).

- ابن حيان (أبومروان خلف بن حسين القرطبي) ت ٤٦٩هـ.

٢٩-المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق محمد على مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣م.

- ابن خرداذبة (عبيدالله بن عبدالله) ت ٣٠٠هـ- ٩١٢م.

٣٠- المسالك والممالك، مكتبة المثني بغداد ١٨٨٩م.

- ابن خلدون(عبدالرحمن بن محمد) ت ٨٠٨هـ- ١٤٠٥م.

٣١- المقدمة، مكتبة سوسة ، تونس (بدون ت) .

- ابن خلكان (أحمد بن محمد بن إبراهيم) ت ٦٨١هـ- ١٢٨١م.

٣٢- وفيات الأعيان وأنباء الزمان، حققه يوسف على طويل، مريم قاسم طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.

- ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي) ت ٨٠٩هـ- ١٤٠٦م.

٣٣- الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج ١، منشورات المكتبة التجارية، بيروت، ١٨٩٣م.

- الدمشقي (جعفر بن على) ت ٣٤١هـ.

٣٤- الإشارة إلى ذكر محاسن التجارة، تحقيق البشري الشوربجي، مكتبة الكتاب، القاهرة، ١٩٧٧م.

ابن أبي دينار (محمد بن أبي القاسم) ت ١١١٠هـ - ١٦٩٨م .

٣٥- المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، تحقيق محمد شكام ، تونس ١٩٦٧م.

- الرازي (أحمد بن عبدالله بن محمد) ت بعد سنة ٥٠٠هـ- ١١٠٦م.
٣٦- تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق حسين عبدالله العمري، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٩م.
- ابن رسته (أحمد بن عمر) ت ٢٩٠هـ-٩٠٣م.
٣٧- الأعلاق النفسية مج ٧، ليدن، ١٨٩١.
-ابن الرومي (أبوالحسن على بن العباس) ت ٢٨٣هـ- ٨٩٦م .
٣٨- ديوان ابن الرومي شرح قدري مايو، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٨م.
- الزبيدي(السيد محمد مرتضي) ت ١٢٠٥هـ.
٣٩- تاج العروس، ج ٣، ج ٩، دار صادر، بيروت، ١٣٠٦هـ.
- ابن أبي زرع (أبوالحسن علي القاسم) ت ٧٤١هـ - ١٣٤٠م .
٤٠- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور، الرياض، ١٩٧٢م.
- السبتي (أبوالعباس أحمد العزمي)، عاش في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي.
٤١- إثبات ما ليس منه بُد لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد، تخريج محمد الشريف، المجمع الثقافي، ابوظبي، ١٩٩٩م.
- السرخسي (شمس الدين) ت ٤٨٣هـ.
٤٢- المبسوط، ج ١٩، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٦م.
- ابن سعيد (أبوالحسن على بن موسى بن سعيد المغربي) ت ٦٨٥هـ- ١٢٧٥م.
٤٣- كتاب الجغرافية، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٧٠م.
- السيوطي (جلال الدين عبدالرحمن) ت ٩١١هـ- ١٥٠٥م.
٤٤- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٧م.
- الشيرزي (عبدالرحمن بن نصر) ت ٥٨٩هـ- ١١٩٣م.
٤٥- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، نشره السيد الباز العريني، القاهرة، ١٩٤٦م.

- الصابي (أبوالحسن الهلال بن المحسن بن إبراهيم) ت ٤٤٨هـ- ١٠٥٦م.
٤٣- تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، دار إحياء الكتب العربية(بدون ت).
- طاش كبرى زادة (أحمد بن مصطفى) ت ٩٦٨هـ- ١٥٦٠م.
٤٧- مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ج ١، تحقيق كامل بكري، عبدالوهاب أبوالنور، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٨٠م.
- ابن طباطبا (محمد بن على المعروف بابن الطقطقا) ت ٧٠٩هـ- ١٣٠٩م.
٤٨- الفخري في الآداب السلطانية، دار صادر، بيروت، ١٣٨٦هـ.
- الطبري (محمد بن جرير) ت ٣١٠هـ- ٩٢٢م.
٤٩- تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، ١٩٦٧م.
- ابن عبدالحكم (أبوالقاسم عبدالرحمن بن عبدالله) ت ٢٧٦هـ- ٨٨٩م.
٥٠- فتوح مصر وأخبارها، مكتبة المثني، بغداد، ١٩٢٠م.
-ابن عبد ربه (أحمد بن عبد ربه الأندلسي) ت ٣٤٩هـ- ٩٤٠م.
٥١- العقد الفريد، ج ٨، تحقيق محمد عبدالقادر شاهين، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٩م.
- أبوعبيد (القاسم بن سلام) ت ٤٢٤هـ .
٥٢- الأموال، بيروت، ١٩٨١م.
ابن العراق (نعمان بن محمد) عاش في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي.
٥٣- معدن الجواهر بتاريخ البصرة والجزائر، تحقيق محمد حميدالله، معهد البحوث إسلام آباد، ١٩٧٣م.
- العمري (أحمد بن يحيى بن فضل الله) ت ٧٤٩هـ- ١٣٤٩م.
٥٤- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار تحقيق محمد سالم بن شديد العوني، مطبعة المدني، ١٩٩٠م.
- أبوالفداء (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر) ت ٧٣٢هـ- ١٣٣م .
٥٥- تقويم البلدان ، دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠م.

- ابن الفقيه (ابوبكر أحمد بن محمد الحمداني) ٢٩٠هـ - ٩٠٢م.
٥٦- مختصر كتاب البلدان، ليدن، ١٣٠٢هـ.
- الفيروز آبادي (مجدالدين محمد يعقوب) ت ٨١٧هـ- ١٤١٤م.
٥٧- القاموس المحيط، نسخة منقحة بتعليقات الشيخ أبوالوفاء نصر الشافعي، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٧م.
- قدامة بن جعفر (أبوالفرج الكاتب) ت ٣٣٧هـ- ١٢٤٨م.
٥٨- نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، مكتبة المثني بغداد، ١٨٩١م.
- القلقشندي (أبوالعباس أحمد بن على) ت ٨٢١هـ- ١٤١٨م.
٥٩- صبح الأعشا في صناعة الإنشاء ، ج ٣، ج ٤، ج ٥، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، القاهرة ٢٠٠٨م.
-الماوردي (أبوالحسن على بن محمد بن حبيب البصري) ت ٤٥٠هـ- ١٠٥٨م.
٦٠- الأحكام السلطانية، تحقيق أحمد حاد، دار الحديث القاهرة، ٢٠٠٦م.
- مجهول عاش في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي.
٦١- الاستبصار في عجائب الأمصار، تعليق سعد زغلول، الإسكندرية، ١٩٥٨م.
- المدور : (جميل نخلة) عاش في القرن الثاني الهجري .
٦٢- حضارة الإسلام في دار الإسلام ، دار العالم العربي ، القاهرة، ٢٠٠٨م.
- المسعودي (على بن الحسين بن على) ت ٣٤٦هـ- ٩٥٧م.
٦٣- مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ١، ج ٢، ج ٣، ج ٤، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٦٤م.
٦٤- التنبيه والإشراق، تحقيق عبدالله إسماعيل الصاوي، المكتبة التاريخية، ١٩٣٨م.
- مسكويه (على بن أحمد) ت ٤٢١هـ- ١٠٣٩م.
٦٥- تجارب الأمم، ج ١، ج ٢، مطبعة التمدن، مصر، ١٩١٤م.
- المقدسي (شمس الدين أبوعبدالله المعروف بالبشاري) ت ٣٨٧هـ- ٩٩٧م.
٦٦- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٠٦م.

- المقري (أحمد بن محمد التلمساني) ت ١٠٤١هـ- ١٦٣٣م.
٦٧- نفح الطيب من غصبن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، ج١، ج٢، ج٣ ،تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨م.
- المقريزي (تقي الدين أحمد بن على عبدالقادر) ت ٨٤٥هـ-١٤٤١م.
٦٨- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ١، ج ٢، ج ٣، بيروت، ١٩٩٨م.
٦٩- شذور العقود في ذكر النقود، تحقيق محمد السيد بحر العلوم، النجف، ١٩٦٧م.
- ابن مماتي (الأسعد الوزير الأيوبي) ت ٦٠٦هـ- ١٢٠٩م.
٧٠- قوانين الدواوين حققه عزيز سوريال، مطبعة مصر، ١٩٤٣م.
- ابن منظور (أبوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم) ت ٧١١هـ- ١٣١١م.
٧١- لسان العرب، مج ٢، مج٥ ، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٠م.
-الناصري (أبوالعباس أحمد بن خالد) ت ١٣١٥هـ- ١٨٩٧م.
٧٢- الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصر، محمد الناصر، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤م.
- النرشخي (أبوبكر محمد بن جعفر) ت ٣٤٨هـ- ٩٥٩م.
٧٣- تاريخ بخاري، عربه عن الفارسية أمين عبدالمجيد بدوى ونصرالله الطرازي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٥م.
- الوزان (الحسن بن محمد الفاسي المعروف بليون الأفريقي) عاش في نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر الهجري.
٧٤- وصف أفريقيا، ج ١، ج ٢، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣م.
- الوشاء (أبوالطيب محمد بن إسحق بن يحيى) ت ٣٢٥هـ.
٧٥- الموشى أو الظرف والظرفاء، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٦٥م.
- ياقوت(شهاب الين الرومي الحموي) ت ٦٢٦هـ- ١٢٢٩م.
٧٦- معجم البلدان، ج ١، ج ٢، ج ٣، ج ٤، ج ٥، دار صادر بيروت، ٢٠٠٧م.
٧٧- معجم الأدباء ج ١، ج ٢، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م.

- اليعقوبي(أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب) ت ٢٨٤هـ- ٨٩٧م.
٧٨- البلدان، ليدن، ١٨٩٢م.
٧٩- تاريخ اليعقوبي مج ١، مج ٢، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م.
- أبويوسف (يعقوب بن إبراهيم) ت ١٨٢هـ- ٧٩٨م.
٨٠- الخراج، مطبعة التقدم اعتماداً على نسخة الخزانة التيمورية رقم ٦٧٤، ١٣٠٢هـ.

المراجع العربية

١. إبراهيم العدوي، التاريخ الإسلامي في آفاقه السياسة وأبعاده الحضارية، مكتبة الانجلو، القاهرة، ١٩٧٦م

٢. إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، ج ١، (بدون د) القاهرة، ١٩٧٢م

٣. إبراهيم على طرخان، دولة مالي الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م

٤. أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج ١، مطبعة دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٩م، ج ٢،مطبعة النهضة، ١٩٦٢م

٥. أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي للطباعة والنشر (بدون م ، ت)

٦. أحمد سويلم العمري، الأفريقيون والعرب، الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٧م

٧. أحمد شلبي،موسوعة التاريخ الإسلامي، ج ٦، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، ١٩٧٩م

٨. أحمد عبدالحميد الشامي والعلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى، مطابع رمسيس، الإسكندرية (بدون ت)

٩. إسحق محمد رباح، تطور النقود حتى نهاية عهد الخلافة الإسلامية، دار كنوز ، عمان، ٢٠٠٨م

١٠. بشير رمضان التليسي، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، دار المداد الإسلامي، بنغازي ، ٢٠٠٢م

١١. بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت ، ١٩٧٢م

١٢. جرجي زيدان، تاريخ التمدن، ج ١، ج٣، ج ٥ راجعه حسين مؤنس، القاهرة ، ١٩٨٠ ، دار الهلال .

١٣. جعفر عباس حميدي، تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، دار الفكر، عمان، ٢٠٠٢م

١٤. جلال الحفناوي، طريق الحرير الجديد، مركز الدراسات الآسيوية، جامعة القاهرة،

٢٠٠١م
١٥. جلال يحيى، تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي، الإسكندرية ١٩٨٣م
١٦. جمال أحمد طه، تاريخ مدينة فأس في عصر المرابطين والموحدين، دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠٠٢م
١٧. جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، دار المعارف، مصر، ١٩٦٧م
١٨. حمدان عبدالمجيد الكبيسي، أسواق بغداد حتى بداية العصر البويهي (١٤٥-٣٣٤هـ)(٧٦٣-٩٤٥م) دار الحرية، بغداد، ١٩٧٩م
١٩. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج ٢، مكتبة النهضة، القاهرة ، ١٩٦٤م، ج ٣، ج ٤، ١٩٩١م
٢٠. .... تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب، مكتبة النهضة القاهرة، ١٩٦٤م
٢١. حسن أحمد محمود، الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى، دار الفكر، القاهرة، ٢٠٠٦م
٢٢. حسني أحمد السعيد، الحضارة الإسلامية، نشأتها، وتطورها وآثارها، مؤسسة التأليف والنشر، مصر، ١٩٦٧م
٢٣. .... مصر في عصر الطولنيون، الأنجلو ، القاهرة، ١٩٦٠م.
٢٤. حسين مؤنس، دراسات في الحضارة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٨٥م
٢٥. حسين يوسف وعبدالفتاح الصعيدي، الإفصاح في فقه اللغة، ج ١، ج ٢، دار الفكر العربي، القاهرة ، ١٩٢٩م
٢٦. خالد عبدالكريم حمود البكر، النشاط الاقتصادي في الأندلس مكتبة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤١٤هـ
٢٧. خيرالدين الزركلي، الأعلام، مج ٤، مج ٥، مج ٦، مج ٧، دار العلم للملايين، بيروت ، ١٩٩٢م

٢٨. درويش النخيلي، السفن الإسلامية على حروف المعجم، دار المعارف، مصر،

١٩٧٩م
٢٩. زاهر رياض، شمال أفريقية في العصر الحديث، مكتبة الانجلو، القاهرة، ١٩٦٧م
٣٠. زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطي، القاهرة (بدون د)، ١٩٤٥م
٣١. سامي الكيال، سيف الدولة وعصر الحمدانيين، دار المعارف، مصر ، ١٩٥٩م
٣٢. سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، (بدون د) دمشق، ١٩٦٠م
٣٣. سعيد عاشور، الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطي، ج ٢، مكتبة الانجلو، القاهرة، ١٩٧٦م
٣٤. السيد عبدالعزيز سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٥م
٣٥. ....، المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٦٢م
٣٦. ....، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، دار المعارف، مصر، ١٩٦١م
٣٧. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عهد الاخشيدين، (بدون د) القاهرة، ١٩٧٠م
٣٨. شوقي أبوخليل، الحضارة العربية الإسلامية، وموجز عن الحضارات السابقة، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٤م
٣٩. الشيخ محمد الخضري بك، الدولة العباسية، اعتني به درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٠م
٤٠. صابر محمد، سياسة الدولة الإسلامية في حوض البحر المتوسط، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٣م
٤١. صبحي الصالح، تطور النقود الإسلامية حتى نهاية الخلافة العباسية، دار كنوز، عمان، ٢٠٠٨م
٤٢. عبدالرحمن الرافعي، سعيد عبدالفتاح عاشور، مصرفي العصور الوسطي، دار النهضة، القاهرة، ١٩٧٠م
٤٣. عبدالسلام رستم، أبوجعفر المنصور الخليفة العباسي، دار المعارف، مصر،

١٩٦٥م
٤٤. عبدالعزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٩م
٤٥. عبدالله أبوعزة، الخليج العربي في العصر الإسلامي دراسة تاريخية وحضارية، مكتبة الفلاح، الكويت، ٢٠٠١م
٤٦. عبدالمنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٨م
٤٧. ....، العصر العباسي الأول التاريخ السياسي، مكتبة الانجلو، القاهرة،١٩٧٣م
٤٨. عبدالمنعم محمد حسنين، دولة السلاجقة ، الأنجلو المصرية ، القاهرة (بدون ت).
٤٩. عبدالوهاب خلاف، قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي، الحياة الاقتصادية والاجتماعية، الدار التونسية، تونس ، ١٩٨٤م
٥٠. عزالدين أحمد موسى ، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٨٣م.
٥١. علا عبدالعزيز أبوزيد، الدولة العباسية من التخلي عن سياسات الفتح إلى السقوط المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٦م
٥٢. على حسني الخربوطلي، الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٥م.
٥٣. على محمد الجمعة، معجم المصطلحات الاقتصادية والإسلامية، مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠٠م
٥٤. على محمد عوده الغامدي، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي (٥٨٩-٦٥٧هـ) (١١٩٣-١٢٥٩) مكتبة الطالب الجامعي، مكة، ١٩٨٨م
٥٥. عمر رضا كحالة، إعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مج ٤، مج ٥، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ١٩٩١م.
٥٦. عمر سليمان الأشقر وآخرون، أبحاث فقهية في قضايا الزكاة المعاصرة، ج ٢،

ج٣، (بدون د) الأردن، ٢٠٠٨م
٥٧. فيصل محمد موسى، موجز تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، منشورات الجامعة المفتوحة، بنغازي، ١٩٩٧م
٥٨. فيلب حتى، تاريخ العرب، دار العلم، بيروت، ١٩٦٥م
٥٩. ماربون عبود، بديع الزمان الهمداني، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م
٦٠. محمد احمد الرويثي، المرافئ الطبيعية على الساحل السعودي العربي، دار الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٩٨٢م
٦١. محمد زينهم محمد عزب، تاريخ أفريقية والمغرب للرقيق القيرواني، دار الفرجاني للنشر، القاهرة ، ١٩٩٤م.
٦٢. محمد جمال الدين سرور، تاريخ الحضارة في الشرق منذ عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري، (بدون د) القاهرة، ١٩٦٥م
٦٣. ....، سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر العربي، ١٩٦٧م
٦٤. محمد ضياء الدين الريس، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، دار الأنصاري، القاهرة، ١٩٧٧م
٦٥. محمد عبدالفتاح إبراهيم، أفريقية من السنغال إلى نهر النيجر، الانجلو المصرية، القاهرة، (بدون ت)
٦٦. محمد كرد على، خطط الشام، ج ٢،ج ٤، مكتبة النوري، دمشق، ١٩٨٥م
٦٧. محمد كريم الشمري، زهور السوسن في تاريخ عدن اليمن، إصدارات جامعة عدن، ٢٠٠٤م
٦٨. محمد محمد على زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، دار المنار، القاهرة، ١٩٨٨م
٦٩. مصطفى الشكعة، سيف الدولة الحمداني، دار العلم، بيروت ، ١٩٥٩م
٧٠. مني حسن محمود، المسلمون في الأندلس وعلاقتهم بالفرنجة (٩٢-٢٠٦هـ) (٧١٤-٨١٥م) دار الفكر العربي القاهرة، ١٩٨٦م
٧١. ناصر سعد الرويشد، سوق عكاظ في الجاهلية والإسلام تاريخه ونشاطاته وموقعه،

دار الأنصار، القاهرة، ١٩٧٧م
٧٢. نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب في أواخر العصور الوسطي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، ١٩٧٣م
٧٣. نقولا زيادة، الحسبة والمحتسب في الإسلام، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٢م
٧٤. ....، الجغرافية والرحلات عند العرب، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٢
٧٥. هاشم زكريا، فضل الحضارة العربية الإسلامية على العالم، دار النهضة مصر، ١٩٧٠م
٧٦. هاشم عبدالراضي الملاح، قضايا ومواقف من التاريخ العباسي (بدون د، م)، ٢٠٠٠م
٧٧. هويدا عبدالعظيم، المجتمع في مصر الإسلامية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م
٧٨. يسرى الجوهري، أفريقيا الإسلامية، دار المعارف، مصر، ١٩٨٠م

المراجع الأجنبية المعربة :

١ آدم ميتز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع للهجرة،ج ١، ج ٢ نقله إلى العربية محمد عبدالهادي أبوريدة مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٥٧م
٢ إذل دافدسن: أفريقية تحت أضواء جديدة، ترجمة جمال محمد أحمد، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٦١م
٣ بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، دار المعارف، مصر ١٩٦٦م
٤ توماس آرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن، حسن عبدالمجيد، إسماعيل النمراوي، مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٧٠م
٥ دنيس بولم، الحضارة الأفريقية، ترجمة على شاهين، مكتبة الحياة، بيروت(بدون ت)
٦ سونيا ي هاو، في طلب التوابل، لندن، ١٩٢٦م (بدون ذكر المترجم)
٧ غوستاف لوبون، حضارة العرب، نقله على العربية، عادل زعيتر، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ١٩٦٤م

٨ قيصر أديب مخول، الإسلام في الشرق الأقصى وصوله، انتشاره ودوافعه، تعريب نبيل صبحي، (بدون د) بيروت، ١٩٦٦م

الرسائل العلمية:

١ حياة سيد أحمد عبدالرحيم : مملكة كلوة الإسلامية ودورها السياسي والاجتماعي في شرق إفريقيا (٣٦٥- ٩٢١هـ) (٩٧٥ – ١٥١٥م) رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية التربية ، جامعة أم درمان الإسلامية، ٢٠١١م.

٢ رمزية محمد الأطرقجي، بناء بغداد في عهد أبي جعفر المنصور رسالة ماجستير منشورة، مطبعة النعمان، النجف، ١٩٧٥م

٣ الشيخ الأمين عوض الله، العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين مالي وسنفي، رسالة ماجستير منشورة ، دار المجمع العلمي، جدة، ١٩٧٩م.

دوائر المعارف والموسوعات

١ دائرة المعارف الإسلامية، مج ٤، مج ٥، مج

٢ موسوعة البصرة الحضارية، جامعة البصرة، المركز الثقافي، ١٩٨٩م.

٣ موسوعة العالم الإسلامي، مركز الأبحاث والدراسات الدولية

٤ موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، ١٩٨٧م.

الندوات العلمية:

٣ ندوة لجنة التراث والقيم الروحية والفكرية، فأس في تاريخ المغرب، القسم الأول أكاديمية المملكة المغربية، فأس، ٢٠٠٨م

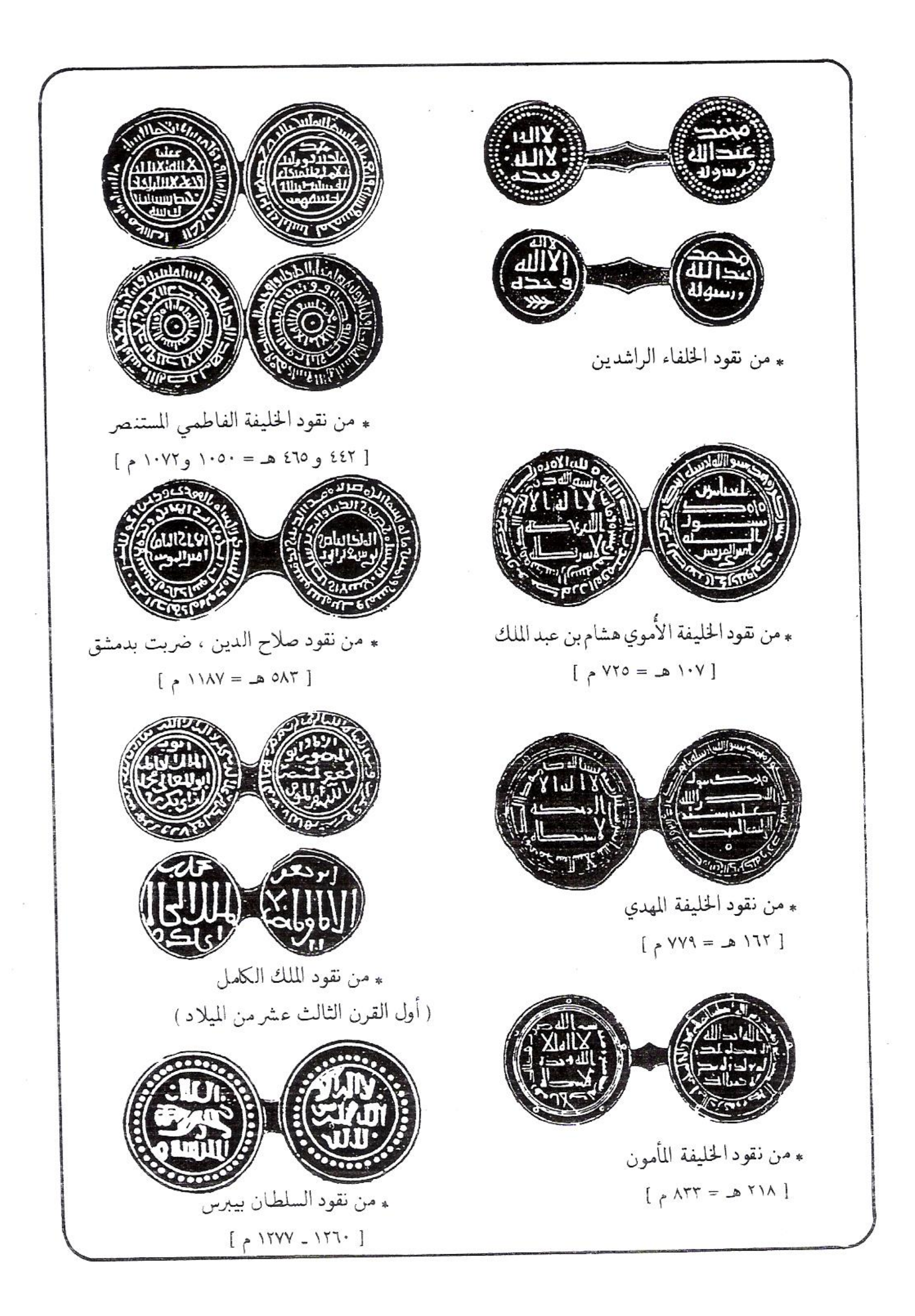
٤ وقائع ندوة النظم الإسلامية، ج ٢، مكتبة التربية العربي لدول الخليج، أبوظبي، ١٩٨٤م

٥ أعمال ندوة طرق الحج، درب الحاج المصري، منشورات ايسيسكو الرباط، ٢٠٠٧م

الملاحــــــــــــــــــــــــــق

ملحق رقم (١)

صورة النقود في الدولة الإسلامية ، شوقي أبوخليل ، الحضارة العربية الإسلامية ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٤م ، ص ٣٤٠



* من نقود الخلفاء الراشدين

* من نقود الخليفة الفاطمي المستنصر
[٤٤٢ و٤٦٥ هـ = ١٠٥٠ و١٠٧٢ م]

* من نقود الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك
[١٠٧ هـ = ٧٢٥ م]

* من نقود صلاح الدين ، ضربت بدمشق
[٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م]

* من نقود الخليفة المهدي
[١٦٢ هـ = ٧٧٩ م]

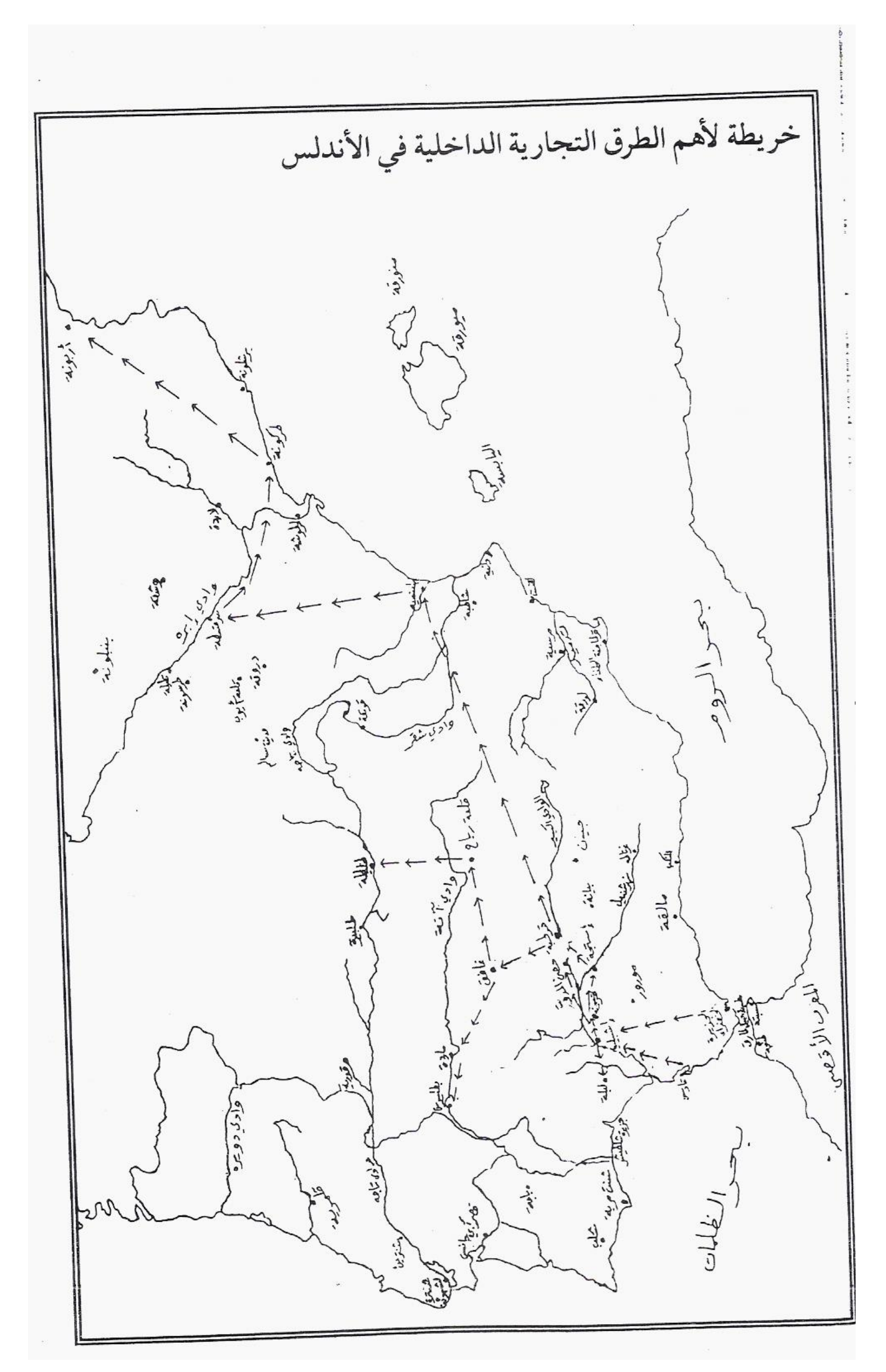
* من نقود الملك الكامل
(أول القرن الثالث عشر من الميلاد)

* من نقود الخليفة المأمون
[٢١٨ هـ = ٨٣٣ م]

* من نقود السلطان بيبرس
[١٢٦٠ - ١٢٧٧ م]

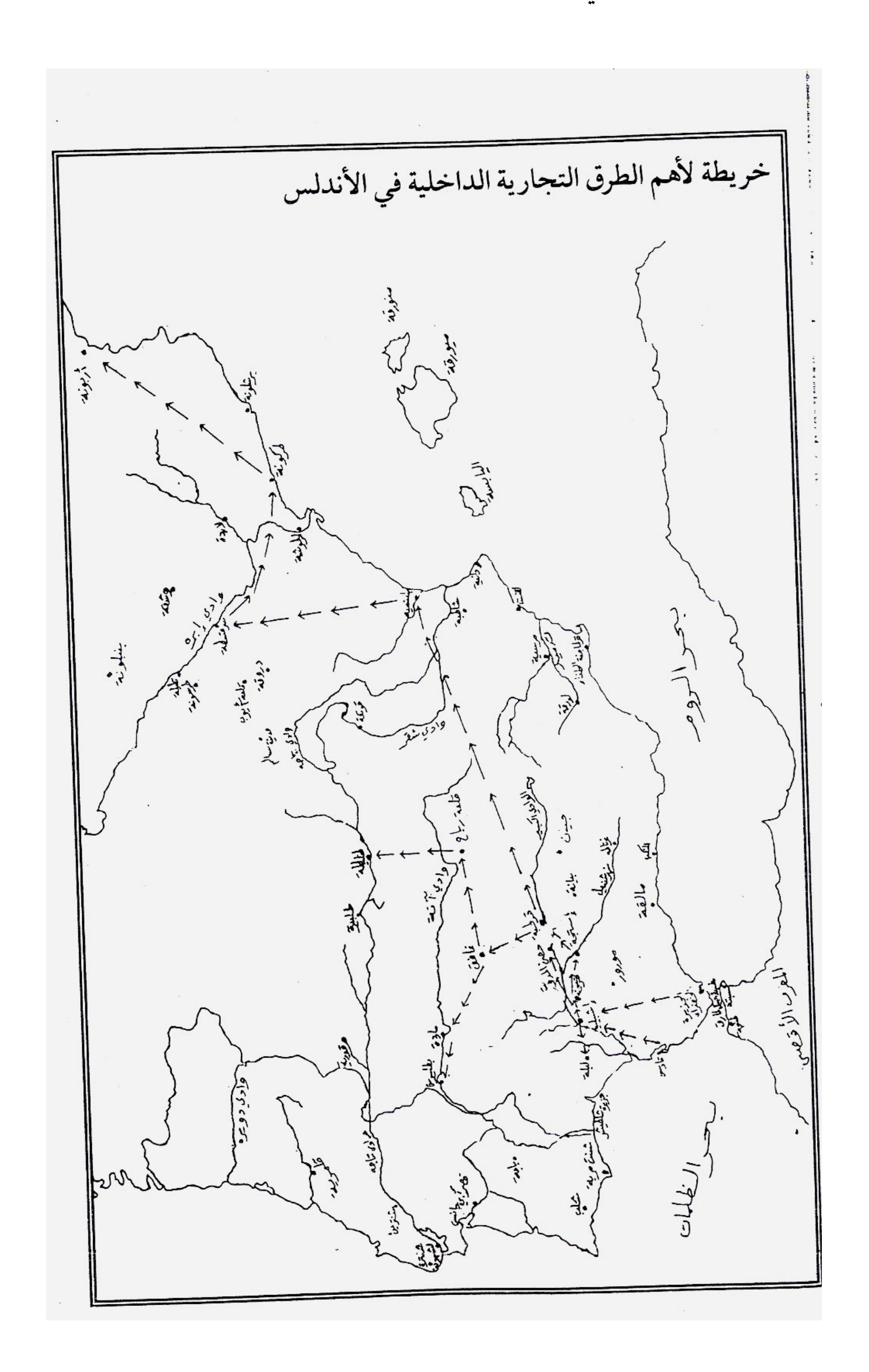
ملحق رقم (●)

توضح أهم الطرق التجارية ، خالد عبدالكريم حمود البكر، النشاط الاقتصادي في الأندلس ، ص ٣١٤



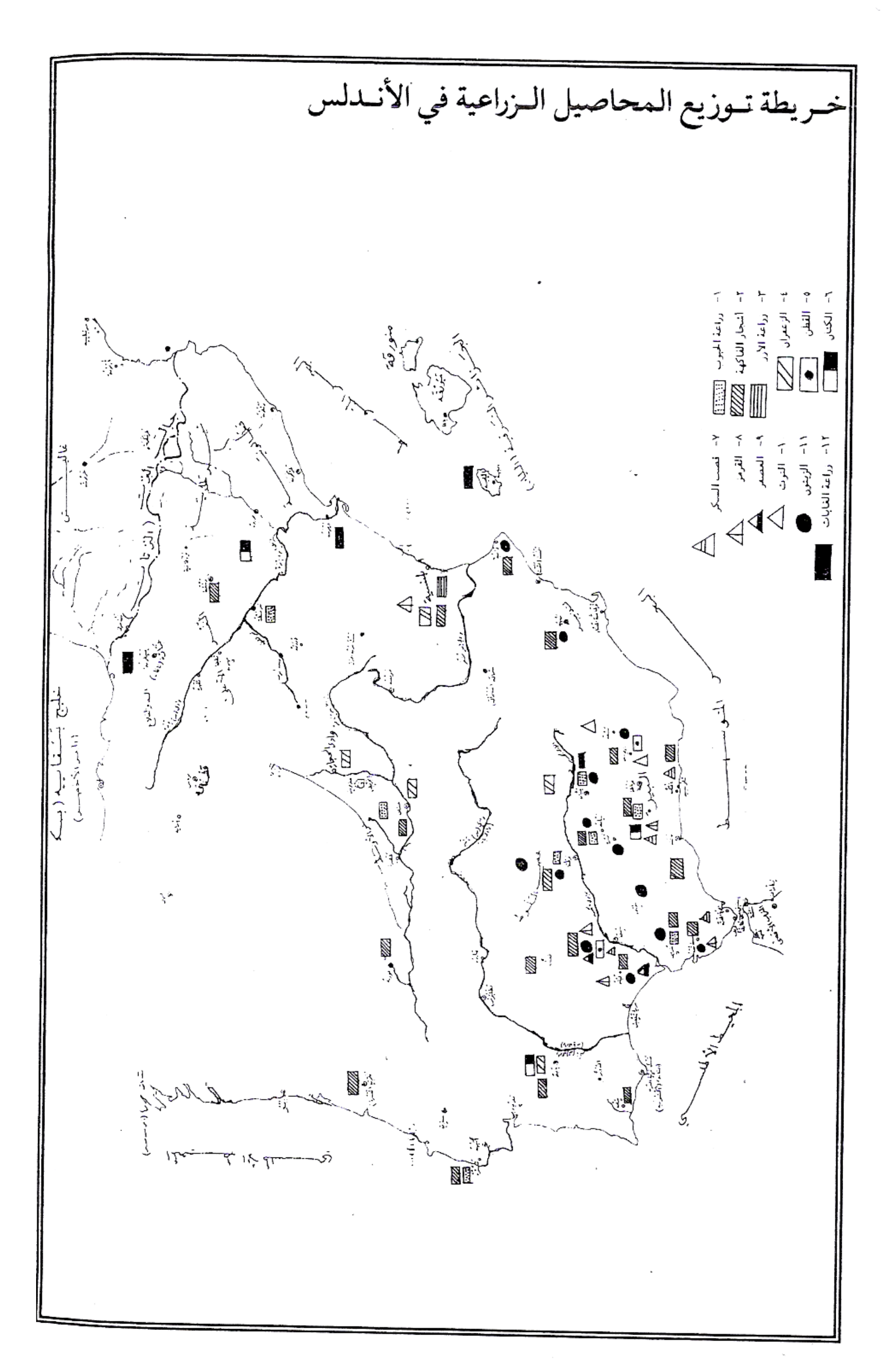
ملحق رقم ([illegible])

توضح أهم التجارة الداخلية في الأندلس ، خالد عبدالكريم حمود البكر، النشاط الاقتصادي في الأندلس ، ص ٣١٣



ملحق رقم (٤)

توضح توزيع المحاصيل الزراعية في الأندلس ، خالد عبدالكريم حمود البكر، النشاط الاقتصادي في الأندلس ، ص ٣١٢



ملحق رقم (٥)

خريطة توضح انتشار الإسلام في العالم ، شوقي أبوخليل ، الحضارة العربية الإسلامية ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٤م ، ص ٢٠٠-٢٠١

